

الحمد والتسبيح في القرآن الكريم

دراسة في مستويات اللغة

رسالة تقدّم بها الطالب

حسن عبيد محيسن المعموري

إلى

مجلس كلية التربية في جامعة بابل

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها

— فرع اللغة —

بإشراف

الأستاذ المساعد الدكتور

رحيم جبر الحسناوي

آذار

صفر

٢٠٠٧م

١٤٢٥هـ

**The utterance of the for mula:
"Al – Hamdu Lillah and Fnnhana Ilah" in
the Holly Qur'an**

A thesis in the Language Levels

A thesis

Submitted to the council of college of Education , Babylon University as
partial fulfillment of the Requirements for the Degree of M.A in Arabic
language and its literature

By

Hassan Obeid Muheisin Al- Mamory

Surprised by :

Dr . Raheem Jaber AL-Hasnawwy



﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا^ص

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

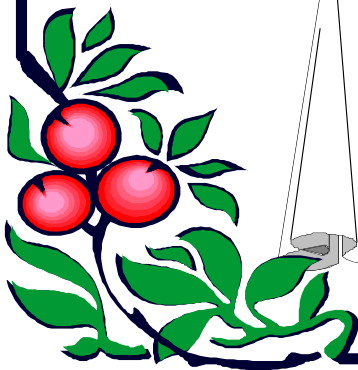
البقرة: ٣٢

صدق الله العلي العظيم

((عن أبي ذرّ - رضي الله عنه - ، قال : قلتُ
يا رسولَ الله بأبي وأمي أيُّ الكلام أحبُّ إلى الله
؟ قال : ما اصطفاه الله لملائكته : سبحان ربي
وبحمده سبحان ربي وبحمده))

صدق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

المستدرك على الصحيحين ، الحاكم النيسابوري : ٥٠١/٢ .



الإهداء

إليك : يا شهيدة الإسلام .. وبنت خير الأنام

سيّدة النساء .. فاطمة الزهراء

أهدي هذا العمل القليل

ابتغاءً للوسيلة إلى الله

عسى أن ينفعني يوم ألقاه

إيكما : يا مَطْلَعَ النيرَيْن .. ودُرَّ اللّجَيْن

والديّ الكريمين

برًا وإحسانًا

إيكم : يا مدادي ودّواتي .. وأنسي في حياتي

إخوتي وأخواتي

حُبًّا وعِرفانًا

حسن



الحمد والتسبيح في القرآن الكريم

دراسة في مستويات اللغة

رسالة تقدّم بها الطالب

حسن عبيد محسن المعموري

إلى

مجلس كلية التربية في جامعة بابل

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها

— فرع اللغة —

بإشراف

الأستاذ المساعد الدكتور

رحيم جبر الحسناوي

آذار

٢٠٠٧م

صفر

١٤٢٨هـ

شكر وامتنان

اللهم ما بنا من نعمة فمنك ، لا إله إلا أنت ، نحمدك على آلائك ونسألك الهداية إلى مرضاتك ، لك الحمد كلّ الحمد ربّي لأن رزقتني أن أبحث في كتابك الكريم أولاً ، ووفقتني لأن أكمل هذا البحث ثانيًا ، فأتّمم اللهم عليّ نعمتك بأن تقبله مني لوجهك خالصًا .

ليس كافيًا أن تنتظم كلمات في سطور لتعبّر عن شكر كاتبها لمن له فضل عليه أيّا كان ، فكلماتي لا تكفي لرد الجميل ولن تكفي .

وإذا كان هذا حال كلماتي فماذا أكتب ؟ وماذا أقول لأشكر أستاذي الفاضل المتفضل المشرف على هذه الرسالة الدكتور رحيم جبر الحسناوي الذي أحاطني بفضله وأكرمني بعلمه ، وحباني بخلقه ؟ إذ لم يدّخر جهدًا إلا بذله من أجل أن يخرج عملي هذا على أحسن حال ، وشفيعي في تقصيري عن شكره أنه لا يحب أن يشكره طلابه على أفضاله ، وإنما يحبّ أن يخلص العمل لله تعالى خدمة لكتابه الكريم ، فله مني كل الإجلال ، وأبقاه الله جل وعلا للمتعلمين منارًا .

وإنها لفرصة طيبة أن أتقدم بالشكر الوفير إلى أساتذة قسم اللغة العربية الأكارم الذين ارتشفت منهم ضرب لغة الضاد في مرحلتي البكالوريوس والماجستير ، ومنهم رئيس القسم الدكتور عامر عمران الخفاجي ، والأستاذ الدكتور صباح عباس السالم ، والأستاذ الدكتور علي ناصر غالب والدكتور صباح عطوي عبود ، والدكتور عبد الوهاب حسن ، والدكتور محسن حسين علي والدكتور حامد عبد المحسن ، والدكتور قيس حمزة الخفاجي ، والدكتور سعدون أحمد علي ، والدكتور عبد الإله العرداوي والدكتورة انتصار الشرع والدكتورة أمل الشرع والدكتورة هناء جواد عبد السادة ، أدامهم الله جميعًا مصابيح تنير القسم بالعلم والخلق النبيل .

ويطيب لي أن أعترف بما غمرني به خالي الدكتور محمد خليل مراد الحربي من أفضاله الكبيرة ؛ إذ غرس في أعماقي منذ صغري حبّ العربية وبصّرني بعظمة القرآن الكريم وعلمني أن ألتزم تلاوته وشجعني على أن أخوض غمار

البحث فيه ، وأشكر له أيضاً حرصه الدائم على أن أتقن عملي وجهده القيم في تقويمه .

والشكر كل الشكر إلى ابن خالي الأستاذ وائل عبد الأمير خليل الحربي إذ ما زالت كلماته الطيبة التي كان يشجّعني بها ، ويهوّن عليّ صعاب البحث تملأ مسمعي ، ناهيك عمّا أتحنّني به من مصادر ومراجع كثيرة ، وما أفادني به من ملاحظات وإرشادات قيّمة فله منّي من التبجيل ما يعجز اللسان والقلم عن بلوغ حده ، ولن يكفي .

ولن يكفي أيضاً أن أصوغ كلمات أعبر بهن عن شكري وامتناني للأستاذ المفضل أمين عبيد جيجان الدليمي ، فلا أظن أن عدد كلماتي هذه يزيد على عدد الكتب التي أعارنيها وليس سهلاً أبداً أن أصف مدى حبّه لمساعدة الآخرين ، ومدى كبر نفسه وعلو أخلاقه ولكن من السهل جداً أن تعرف كلّ ذلك إذا التقيت به ، ولو لحظات لا أكثر .

وأسجل شكري الوافر إلى الأستاذ شعلان عبد علي سلطان على ما جاد به عليّ من مساعدة ، وما بذله من جهد ووقت أثر على نفسه ألا يبخل بهما عليّ وإن كان أحوج مني إليهما ، فأشكره كثيراً وأتمنى له التوفيق .

ويسعدني أن أشكر أخي وزميلي السيد إدريس حمد الموسوي على طيب رفقته وجميل معاشرته معترفاً بما حبّاني به من الأخوة الصادقة وما أشعرني به من أنه يحب لي الخير قبل أن يحبه لنفسه ، فله مني ما يقدمه الأخ الوفي لأخيه .

ولست ناسياً أن أشكر زملائي الأفاضل في مرحلة الماجستير الذين لهم الفضل الكبير في إكمال مسيرتي الدراسية في هذه المرحلة ؛ لما قدّموه لي من عون بالقول والفعل ؛ ولما فاح منهم من شذا الأخلاق وأريج الإخاء وهم الأخ فريد حمد سليمان ، والأخت ذكاء عبد الستار حمزة ، والأخ حيدر عبد الزهرة معيوف ، والأخ نزار عبد اللطيف صبر ، والأخ أحمد كاظم عمّاش .

ومن الواجب أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى العاملين في المكتبات التي راجعتها أيام البحث في الحلة الفيحاء والنجف الأشرف ، لاسيما العاملين في مكتبة قسم

اللغة العربية ومكتبة كلية التربية والمكتبة المركزية ومكتبة كلية الآداب في جامعة بابل على طيب معاملتهم ودوام مساعدتهم .

وأجد لزاماً عليّ أن أشكر أسرتي الكريمة التي وفّرت لي كلّ ما يحتاجه الباحث لإكمال مهمته معتذراً لها من طول اتكالي عليها ومما بدا مني من تقصير .

ولست مستقصياً في هذه العجالة أسماء من كان لهم الفضل عليّ ، فأشكر كلّ من أعارني كتاباً أو دلني على مكان كتاب أو أعانني ولو بكلمة ارتاحت لها نفسي واشتدت بها عزيّمتي ، فالله أسأل أن يشكر للجميع معروفهم ويمنّ عليهم بالخيرات ، إنه شكور عليم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قرار لجنة المناقشة

نشهد نحن أعضاء لجنة المناقشة أننا قد اطلعنا على رسالة الماجستير الموسومة بـ (**الحمد والتسبيح في القرآن الكريم / دراسة في مستويات اللغة**) التي قدمها الطالب (**حسن عبيد محيسن المعموري**) وناقشناه فيها وفي ما له علاقة بها ، ونعتقد أنها جديرة بالقبول لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها (اللغة) بتقدير () .

عضو اللجنة

عضو اللجنة

الاسم :

الاسم :

الدرجة العلمية :

الدرجة العلمية :

الإمضاء :

الإمضاء :

التاريخ : / / ٢٠٠٧ م .

التاريخ : / / ٢٠٠٧ م .

رئيس اللجنة

عضو اللجنة (المشرف)

الاسم :

الاسم :

الدرجة العلمية :

الدرجة العلمية :

الإمضاء :

الإمضاء :

التاريخ : / / ٢٠٠٧ م

التاريخ : / / ٢٠٠٧ م

أُصادق على ما جاء في قرار اللجنة المناقشة

عميد كلية التربية

الاسم : د. لؤي عبد الهاني السويدي

الدرجة العلمية : أستاذ مساعد

الإمضاء :

التاريخ : / / ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إقرار المشرف

أشهد أنّ طالب الماجستير (حسن عبيد محيسن المعموري) قد أعدّ بإشرافي رسالته الموسومة بـ (الحمد والتسبيح في القرآن الكريم / دراسة في مستويات اللغة) أعدّها في قسم اللغة العربية ، كلية التربية ، جامعة بابل . وأنّ الرسالة قد استوفت خطتها استيفاءً تاماً يؤهلها للمناقشة .

إمضاء المشرف :

أ . م . د . رحيم جبر الحسناوي

التاريخ :

بناءً على التوصيات المتوافرة أرشح هذه الرسالة للمناقشة

الإمضاء

أ . م . د . عامر عمران علوان الخفاجي
رئيس قسم اللغة العربية

التاريخ : / / ٢٠٠٧ م .

المحتويات

الموضوع
الصفحة

١. المقدمة : أ. ت.

١٨ - ١. التمهيد :

٢ • مفهوم الحمد والتسبيح
 الباب الأول : المستوى الصوتي والمستوى الصرفي ١٩ - ١٣٣

٧٠ - ٢٠. الفصل الأول : المستوى الصوتي ٧٠ - ٢٠

• دلالة الإيحاء الصوتي في (الحمد لله) و(سبحان)
 ٢١

• دلالة التنغيم ٣١

• دلالة الوقف والابتداء ٤٢

• الدلالة الصوتية في القراءات القرآنية
 ٥٧ ..

١٢٣ - ٧١. الفصل الثاني : المستوى الصرفي ١٢٣ - ٧١

• معاني أبنية الأفعال ودلالاتها ٧٢

• دلالة المبني للمجهول ٩٤

• دلالة المصدر واسم المصدر ٩٧

• دلالة اسم الفاعل ١٠٣

• دلالة صيغ المبالغة ١٠٩

• دلالة الجمع ١١٧

٢٩٩ - ١٢٤. الباب الثاني : المستوى النحوي والمستوى الدلالي ٢٩٩ - ١٢٤

- الفصل الأول : المستوى النحوي ١٢٥ - ٢١٢

- معاني حروف الجر ودلالاتها ١٢٦
- دلالة الفعل الزمنية ١٥٢
- دلالة العطف ١٦٣
- دلالة التوكيد والتعريف ١٧٠
- دلالة التقديم والتأخير ١٨٧
- دلالة إيثار الجملة الاسمية ١٩٤
- دلالة الجملة المعترضة ٢٠٠
- دلالة عود الضمير ٢٠٣
- دلالة وضع الظاهر موضع المضمرة ٢١٠

- الفصل الثاني : المستوى الدلالي ٢١٣ - ٢٩٩

- المناسبة في فواتح السور وخواتمها ٢١٤
- المناسبة في فواتح السور ٢١٦
- الافتتاح بالحمد ٢١٧
- الافتتاح بالتسبيح ٢٢٨
- المناسبة في خواتم السور ٢٣٦
- الاختتام بالحمد ٢٣٧
- الاختتام بالتسبيح ٢٤٠
- الاختتام بالتسبيح والحمد ٢٤٥
- الوجوه والنظائر ٢٤٨
- وجوه الحمد ٢٥١
- وجوه الشكر ٢٥٨
- وجوه التسبيح ٢٦٣

- التقديم والتأخير ٢٧٤
- التقديم والتأخير في سياق الحمد ٢٧٥
- التقديم والتأخير في سياق الشكر ٢٨١
- التقديم والتأخير في سياق التسبيح ٢٨٦

الخاتمة ٣٠٠.٣٠٨

المصادر والمراجع ٣٠٩.٣٥٦

ملخص الرسالة باللغة الإنكليزية A- C

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين محمد المصطفى وآله الطيبين الطاهرين، أما بعدُ :

فإني أحمد الله جل وعلا أن وفقني لأن أحقق ما كانت تصبو إليه نفسي من أمنية وهي أن أكتب في موضوع يبحث في كتابه الكريم وأحمده تعالى أن كان هذا الموضوع مختصاً بحمده وتسبيحه عسى أن يكتبني عنده من الذاكرين .

وأحمده جل وعلا أيضاً أن هيأ لي من يحقق أمنيته وهو أستاذي الفاضل المشرف على الرسالة الدكتور رحيم جبر الحسناوي الذي له الفضل الكبير في إرشاد الدارسين إلى القرآن الكريم لينهلوا من معينه الزلال ، فكنت واحداً من الواردين ذلك المعين الذي لا ينضب ، إذ أشار عليّ أستاذي الفاضل أن أدرس هذا الموضوع الموسوم بـ **(الحمد والتسبيح في القرآن الكريم / دراسة في مستويات اللغة)** وارتأى أن أقسمه على بابين ، أدرس في الباب الأول المستوى الصوتي والمستوى الصرفي ، وفي الباب الثاني المستوى النحوي والمستوى الدلالي.

وقد سبق هذين البابين تمهيد بيّنت فيه مفهوم الحمد والتسبيح موضعاً للفروق اللغوية بين الحمد والمدح والشكر ، والعلاقة بين السبح والتسبيح في اللغة والاصطلاح. وقد عقدت للمستوى الصوتي الفصل الأول من الباب الأول ودرست فيه دلالة الإيحاء الصوتي في (الحمد لله) و(سبحان) ، ودلالة التنغيم في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه ، ودلالة الوقف والابتداء ، والدلالة الصوتية في القراءات القرآنية .

ودرست في الفصل الثاني المستوى الصرفي متعقباً دلالة معاني أبنية الأفعال ، ودلالة المبني للمجهول ، ودلالة المصدر واسم المصدر ودلالة اسم الفاعل ، ودلالة صيغ المبالغة ، ودلالة الجمع في سياق الحمد والتسبيح. وكان الفصل الأول من الباب الثاني خاصاً بدراسة المستوى النحوي إذ بيّنت فيه دلالة التراكيب النحوية في الآيات التي بحثتها ، فدرست فيه معاني حروف الجر ودلالاتها ، ودلالة الفعل الزمنية ، ودلالة العطف ، ودلالة التوكيد والتعريف ودلالة التقديم والتأخير في أركان الجملة

ومتعلقاتها ، ودلالة إثبات الجملة الاسمية ، ودلالة الجملة المعترضة ، ودلالة عود الضمير ، ودلالة وضع الظاهر موضع المضمّر .

أمّا الفصل الثاني فدرست فيه المستوى الدلالي ، إذ انصبّ البحث فيه على بيان دلالة السياق وأثره في التعبير القرآني ، فدرست فيه المناسبة بين فواتح السور وخواتمها ، والوجوه والنظائر للحمد والشكر والتسبيح ، ودلالة التقديم والتأخير بين الألفاظ في سياق الآيات التي تحدثت عن حمد الله تعالى وتسبيحه . ويأتي بعد هذين البابين خاتمة ضمنيتها باختصار أهم ما خرج به البحث من نتائج.

وقد تنوعت المصادر والمراجع التي أفدت منها ؛ إذ شملت كتب اللغة والنحو والصرف والبلاغة والتفسير ، غير أنّ ما جاء في كتب التفسير كان عماد مادة البحث وقوامها . وأودّ الإشارة إلى أمرين مهمين : الأول أنّ هذا البحث لا يقتصر على لفظ الحمد أو لفظ التسبيح ، وإنما يدرس السياق الذي وردت فيه هذه الألفاظ.

والثاني : أنني بحثت في سياق الشكر أيضاً ؛ لأنه داخل ضمن سياق الحمد فقد رجّح هذا البحث في التمهيد أنّ الحمد أعم من الشكر . ولا يخلو البحث من بعض الصعوبات غير أنّ أجّلها في النفس خطراً وأبلغها أثراً الخوف من الزلل في معالجة الآيات القرآنية وإبداء الآراء فالله أسأل أن يعصمني من الزلل في القول والعمل وأسأله ألا يحرمني قبول هذا العمل فلا أظن أنّ رسالة جامعية تكرر فيها اسمه الكريم أكثر من تكراره في هذه الرسالة فاكتب اللهم ذلك لوجهك خالصاً . وأخيراً ، فهذا جهد بذلته خدمة لكتاب الله العظيم ، حملني عليه رجائي أن يكون مما يُنتفع به فيكون لي ذخراً في محياي ومماتي ، فإنّ أصبت فيه فذلك بتوفيق الله تعالى ، وهو غاية القصد ومنتهى الأمل ، وإن تكن الأخرى فذلك من قصور نفسي وتقصيرها ، وحسبي إخلاص النية وأجر الساعين وما توفيقني إلا بالله السميع المجيب عليه توكلت وإليه أنيب . وآخر دعواي أن الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين .

حسن عبيد محيسن المعموري

الحلة الفيحاء

آذار ٢٠٠٧م

وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين .

دلالة الإحياء الصوتي في (الحمد لله) و (سبحان) *

يلحظ في تعريف ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) للغة بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" ^(١) أمران:

الأول : أنه قال أصوات ولم يقل ألفاظ أو جمل مثلاً ، وفي ذلك من الدقة ما فيه؛ لأنه أثر التعبير بأصغر جزء في اللغة وهو الصوت، فمن مجموع هذه الأجزاء (الأصوات) تتكون ألفاظ اللغة .

والأمر الثاني : هو أن فيه إشارة إلى أن طبيعة اللغة تتخذ في المقام الأول صورة صوتية منطوقة ومسموعة ^(٢) ؛ لأن الصوت هو ما يسمع ^(٣) ، وهو " أصغر الأجزاء في التيار المسموع " ^(٤) ، بخلاف الحرف الذي ليس هو إلا رمزا كتابيا منظورا لصوت معين ^(٥) ، لاسيما أن كتابة أصوات اللغة تأتي بعد نطقها وسماعها.

وهذان الأمران مهمان في الإحياء الصوتي الذي نحسّه من خلال ما يتوافر للصوت المفرد من إحياءات ودلالات في ضوء معرفة مخرج هذا الصوت وصفاته ، إذ إننا نحس بإحياء الصوت عند النطق به وعند سماعه .

ولسنا بصدد البحث عن دلالة الصوت على المعنى ، أو ما يسمّى بمحاكاة الأصوات لمعانيها ، وهي قضية أثارت جدلاً كبيراً في الدرس اللغوي قديماً وحديثاً ، إذ تمتد جذورها إلى فلاسفة اليونان مثل سقراط ، وإفلاطون ، وأرسطو فقد آمن بها الأوّلان ورفضها الأخير ^(٦) ، مروراً بعلماء العربية كالخليل بن أحمد الفراهيدي الذي يرى أن العلاقة التي تربط

* (الحمد لله) كلمة استعملها القرآن الكريم لإنشاء الحمد ، أما (سبحان) فقد وردت مع لفظ الجلالة (سبحان الله) ومع لفظة ربّ (سبحان ربنا) ومع كاف الخطاب (سبحانك) ومع هاء الغيبة (سبحانه) لذا أثّرنا أن نقصر على سبحان فقط .

(١) الخصائص ، أبو الفتح ابن جني : ٣٤/١ .

(٢) ينظر : اللسانيات من خلال النصوص ، د. عبد السلام المسدي : ٤٣ ، لغة الشعر عند الصعاليك قبل الإسلام (رسالة) ، وائل عبد الأمير الحربي : ٢٧ .

(٣) ينظر : المعجم الوسيط ، إعداد : د. إبراهيم مصطفى وآخرين : ٥٢٧/١ ، الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث (أطروحة) ، تحسين عبد الرضا الوزان : ٣٨ .

(٤) في علم اللغة العام ، د. عبد الصبور شاهين : ١٣٨ .

(٥) ينظر : أصوات اللغة العربية ، د. عبد الغفار حامد هلال : ٦٠-٦٣ .

(٦) ينظر : دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس : ٦٢-٦٣ ، من أسرار اللغة ، د. إبراهيم أنيس : ١٢٠ .

أصوات الألفاظ بدلالاتها علاقة وثيقة^(٧) ووافق على ذلك تلميذه سيبويه (ت: ١٨٠ هـ) ، وظهر ذلك في مباحث متفرقة من كتابه^(٨) ، أما ابن جني فقد بسط القول فيها وعقد - في كتابه الخصائص - أبواباً أربعة تظهر الصلة الوثيقة بين أصوات اللفظ ودلالاته ، وهذه الأبواب هي: باب في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني ، وباب في الاشتقاق الأكبر وباب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني ، وباب في امساس الألفاظ أشباه المعاني^(٩) .

وعلى أساس من ذلك قال ابن جني في إحدى النظريات التي تفسر أصل اللغة وهي نظرية المحاكاة الصوتية بعد أن عرض لها : " وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل " ^(١٠) .

وقد اختلفت كلمة المحدثين حول هذه القضية فهناك من انتصر للصلة بين الصوت والمعنى^(١١) ، وآخر يرى أنّ العلاقة بينهما اعتباطية^(١٢) ، وثالث يذهب إلى أنّ هذه العلاقة لا تطرد في كلّ اللغة وإن وجدت في بعض ألفاظها^(١٣) .

ولست أدعي هنا أنّ أصوات لفظة (الحمد) تقودنا إلى دلالة الثناء على الجميل والشكر على النعم أو أنّ أصوات لفظة (سبحان) تعطينا معنى تنزيه الله وتبرئته من كل سوء ، لكنني أبحث فيما يتوافر لهذه الأصوات من إحياءات ودلالات لها أثرها في نفس من يحمد الله تعالى ويسبحه بعدها أصواتاً يكثر نطقها وتكرر مراراً عند حمد الله جلّ وعلا وتسبيحه، وذلك في ضوء معرفة مخارج هذه الأصوات وصفاتها^(١٤) ، لاسيما أنّ اللفظ قد يكون ذا وقع صوتي

(١) ينظر : كتاب العين : ٥٦ / ١ ، ٨٢-٨١/٧ ، الدراسات اللغوية عن العرب إلى نهاية القرن الثالث ، د. محمد حسين آل ياسين : ٤٤٨ ، ٤٩٠ ، الصوت والمعنى عند الخليل بن أحمد ، د. ليث أسعد الراوي ، بحث منشور في مجلة كلية المأمون الجامعة ، العدد (٥) لسنة ٢٠٠١ : ١٨٥-١٩٨ .

(٢) ينظر : كتاب سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه : ٢/ ٢٢٠ ، ٤/ ١٣ ، ١٤ ، ٢١ .

(٣) ينظر : الخصائص : ١١٥-١٣٥ ، ٢/ ١٤٧ ، ٢/ ١٥٣ ، ٢/ ١٥٣-١٧٠ ، كتاب الاقتراح في علم أصول النحو ، جلال الدين السيوطي : ٢٦-٢٨ .

(٤) الخصائص : ٤٨/١ ، وينظر : جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ، د. ماهر مهدي هلال : ١٩٠-١٩٣ .

(٥) ومن هؤلاء (همبلت) ، ينظر : دلالة الألفاظ : ٦٨ .

(٦) وهو دي سوسور ، ينظر : علم اللغة العام ، فردينان دي سوسور : ٨٦ ، ٨٧ . اللغة والإبداع (مبادئ علم الأسلوب العربي) د. شكري محمد عياد : ٤٢ .

(٧) ومن هؤلاء (جيسرسن) ، ينظر : دلالة الألفاظ : ٦٨ ، وهذا ما ذهب إليه د. رمضان عبد التواب ، ينظر : بحوث ومقالات في اللغة : ٢٠ ، ٢١ .

(١) للإطلاع على نماذج من هذه الدراسة ينظر : الصورة السمعية ودلالاتها البلاغية في القرآن الكريم (أطروحة) ، عباس حميد السامرائي : ٣٧-٦٧ ، الدلالة الصوتية في القرآن الكريم (رسالة) ، كريم مزعل اللامي : ١٥-٤٥ ، لغة القرآن في جزء الذاريات (رسالة) ، جمانة خالد المشهداني : ٥١-٧٧ ، دراسة لغوية في كتاب نهج البلاغة (أطروحة) ، سمير داود سلمان : ١٤-٥١ .

له إحياءاته ودلالاته بما يناسب المعنى العام^(١٥) ، وخصوصاً في القرآن الكريم الذي يستعمل هذه الوسيلة البلاغية بأسلوب بديع وتعبير معجز ، فالصوت المفرد يختار بعناية وتصاحبه أصوات أخر قد تكون متقاربة المخارج إن احتاج الموقف ذلك وقد تكون متباعدة المخارج إن كان التباعد أدل على المعنى وأكثر تصويراً له^(١٦) لاسيما أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب الذين " تفننوا في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم موسيقي وحتى يسترعي الأذن بألفاظه كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه " ^(١٧) . وهذا ما يسمى برمزية الأصوات^(١٨) ؛ لأنّ فيها نوعاً من الدلالة ؛ أي " لكل صوت منها وقع موسيقي يختلف من واحد لآخر وعند نظم الأصوات في السياق تنشأ عنها القيمة التعبيرية للغرض بأكمله " ^(١٩) وزيادة على ذلك فإنّ للصوت أثراً كبيراً في الدلالة الوجدانية^(٢٠) ، لاسيما أنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي^(٢١) . ومن هنا يتجلى جمال لغة القرآن بما تتميز به من تناسق أصواته ، فهذا ينقر وذاك يصفر ، وهذا يخفى وذاك يظهر وصوت يهمس وآخر يجهر ، فيخرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة الجامعة بين الشدة والرخاوة ، والخشونة والرقّة ، والجهر والخفة على وجه دقيق محكم^(٢٢) .

والآن نبدأ بعرض المخارج والصفات لأصوات (الحمد لله) و(سبحان) ثم نتبيّن بعد هذا العرض إحياءاتها ودلالاتها في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه، لاسيما أنّ المعنى العام هو ذكر الله جلّ وعلا وما يثير ذلك من اطمئنان وارتياح وسكينة في نفس الحامد لله والمسبح له ، قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد من الآية : ٢٨) .

تبدأ كلمة (الحمد) بهمزة الوصل التي تتحول إلى همزة قطع عند النطق بهذه الكلمة ابتداءً، ومخرج همزة القطع هو أقصى الحلق^(٢٣) من فتحة المزمّار^(٢٤) والهمزة صوت

(٢) ينظر : التصوير الفني في القرآن ، سيّد قطب : ١٠١ ، ١٠٢ ، بنية اللغة الشعرية ، جان كوهين : ٧٥ قضايا الشعرية ، ياكسون : ٥٤ ، البناء الصوتي في البناء القرآني ، د. محمد حسن شرشر : ٥١ .

(٣) ينظر : دراسات قرآنية في جزء عمّ ، د. محمود أحمد نحلة : ٩٩ .

(٤) جمال العربية ، فاروق شوشة : ٢٠٩ ، نقلاً عن : التصوير الجمالي في القرآن الكريم ، د. عبيد سعد يونس : ٢٠٤-٢٤١ .

(٥) ينظر : دور الكلمة في اللغة ، استيفان اولمان : ٣٧ .

(٦) علم الدلالة دراسة وتطبيقاً ، د. نور الهدى لوشن : ٨٢ ، وينظر : جرس الألفاظ : ١٣٥ ، مباحث في فقه اللغة العربية ، د. أسعد محمد علي النجار : ٥٠ .

(٧) ينظر : اللغة والإبداع : ٤٤ ، ٤٥ ، لغة القرآن في جزء الذاريات (رسالة) : ٤٩ .

(٨) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي : ١٧٧ ، البناء الصوتي في البيان القرآني : ٤٩ .

(٩) ينظر : التعبير الفني في القرآن الكريم ، د. بكري شيخ أمين : ١٩٠ ، ١٩١ ، جماليات المفردة القرآنية د. أحمد ياسوف : ١٧٦-١٧٨ .

(١) ينظر : كتاب سيبويه : ٤/٤٣٣ ، مقتضب ، أبو العباس المبرّد : ٣٢٨ ، شرح المفصل ، ابن يعيش : ١٠/٤٩٢ ، ارتشاف الضرب من لسان العرب ، أبو حيان الأندلسي : ٦/١ .

(٢) ينظر : دراسة الصوت اللغوي ، د. أحمد مختار عمر : ٢٧٣ ، علم الأصوات ، د. كمال بشر : ٤٤ .

صامت حنجري شديد ليس مهموسا ولا مجهوراً^(٢٥) . أمّا مخرج اللام فمن ذلق اللسان^(٢٦) ، قال سيبويه : " ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فوق الضاحك والناب والرابعة والثنية مخرج اللام " ^(٢٧) . واللام من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة^(٢٨) ، وهي " صوت أسناني لثوي جانبي مجهور " ^(٢٩) .

ويجوز في هذا الصوت التفتخيم والترقيق ، والأصل فيه الترقيق ، ولا يجوز العدول عن ذلك إلا بشرطين :

الأوّل : أن يسبق اللام أحد حروف الاستعلاء ، ولاسيما الصاد والطاء والظاء ساكنا أو مفتوحا .

والثاني : أن تكون اللام نفسها مفتوحة^(٣٠) ، وتكون اللام في لفظ الجلالة مفخمة إذا سبقت بفتحة أو ضمة نحو : سبحان الله ، رسل الله ، أما إذا سبقت بكسرة فإنها ترقق نحو : الحمد لله ، أمّا بالله^(٣١) .

وبعد اللام صوت الحاء ، وهو من الأصوات الحلقية؛ لأنّ مخرجه من وسط الحلق^(٣٢) ، وهو صوت رخو مهموس مرقق^(٣٣) ، وفيه بحّة جعلها الخليل فرقاً بينه وبين صوت العين، فقال: " ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين " ^(٣٤) .

أمّا الميم فهو من الأصوات الشفوية^(٣٥) ؛ لأنّ مخرجه مما بين الشفتين^(٣٦) وهو يرجع إلى الخياشيم بما فيه من الغنة^(٣٧) وهو صوت مجهور لا هو بالشديد ولا بالرخو ، بل هو مما يسمّى بالأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة^(٣٨) .

(٣) ينظر : علم اللغة العام - الأصوات ، د. كمال بشر : ١١٢ ، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) د.محمود السعران : ١٥٧ ، القراءات القرآنية بين الدرس الصوتي القديم والحديث ، د. مي الجبوري : ٢١ .

(٤) ينظر : كتاب العين : ٥٨/١

(٥) كتاب سيبويه ، طبعة بولاق : ٤٠٥/٢ وقد سقط مخرج اللام من طبعة عبد السلام هارون ، ينظر : ٤٣٣/٤ ، ومن طبعة د. أميل بديع يعقوب أيضا ينظر : ٥٧٣ /٤ ، علماً أنّ الطبعة المعتمدة في هذه الرسالة هي طبعة عبد السلام هارون .

(٦) ينظر : الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس : ٦٤ ، علم الأصوات ، د. حسام البهناوي : ٥٥ .

(٧) علم الأصوات ، بترييل مالمبرج ، تعريب : د. عبد الصبور شاهين : ٩٤ ، علم اللغة العام - الأصوات : ١٢٩ .

(١) ينظر : التمهيد في علم التجويد ، ابن الجزري : ١٥٤ ، الأصوات اللغوية : ٦٨ ، القول في القرآن الكريم ، أحمد إبراهيم : ١٥ .

(٢) ينظر : غصن البان في معرفة تجويد القرآن وفوائد أخرى ، الشيخ محمد الطرفي : ١٠٨ ، في صوتيات العربية ، د. محيي الدين رمضان : ٧١ .

(٣) ينظر : كتاب العين : ٥٨/١ ، كتاب سيبويه : ٤٣٣/٤ ، المفصل في صناعة الإعراب ، الزمخشري : ٥٢٠ .

(٤) ينظر : علم الأصوات اللغوية ، د. مناف الموسوي : ٨٥ .

(٥) كتاب العين : ٥٧ /١ ، وينظر : شرح المفصل : ٤٩٣/١٠ .

(٦) ينظر : كتاب العين : ٥٨ /١ ، وينظر : علم الأصوات ، مالمبرج : ١١١ .

(٧) ينظر : سر صناعة الإعراب : ٦١/١ ، أسباب حدوث الحروف ، ابن سينا : ٢١ ، ارتشاف الضرب : ١٠ /١ .

وتنتهي كلمة (الحمد) بصوت الدال ومخرجه " مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا " (٣٩) ، وهو صوت أسناني لثوي شديد مجهور مرقق (٤٠) .

أما أصوات لفظ الجلالة (الله) فقد تقدم الكلام على صوت اللام ، وبقي مخرج صوت الألف وصوت الهاء ، فالألف لم ينسبها الخليل إلى مخرج وجعلها ضمن الأصوات الهوائية ؛ لأنها هوائية في الهواء لا يتعلق بها شيء (٤١) . أما عند سيبويه وابن جني فمخرجها من أقصى الحلق ، قال سيبويه : " فللحلق منها ثلاثة فأقصاها مخرجاً الهمزة والهاء والألف " (٤٢) .

وقد سمّياه بالهاوي؛ لأنه " حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو " (٤٣) وفيه أعلى مراتب الانطلاق في أصوات اللين (٤٤) ومخرج الألف عند المحدثين من الغار والطبق اللين مع وسط اللسان ، وذلك " عن طريق إراحة اللسان في قاع الفم مع ارتفاع طفيف جداً لوسطه في اتجاه منطقتي الغار والطبق اللين " (٤٥) . والألف صوت مجهور ، ويسمى عند المحدثين بالفتحة الطويلة ، وهو أحد الصوائت الطويلة (٤٦) .

أما الهاء فهو من الأصوات الحلقية (٤٧) ، ومخرجه من أقصى الحلق (٤٨) وهو صوت حنجري رخو مهموس (٤٩) .

وبعد أن انتهينا من عرض مخارج أصوات (الحمد لله) وصفاتها نعرض أصوات (سبحان) وقد تقدم الكلام على صوت الحاء والألف ، وبقي صوت السين والباء والنون ، فالسين من الأصوات الأسلية ؛ " لأنّ مبدأها من أسلة اللسان " (٥٠) أو " مما بين الثنايا وطرف اللسان " (٥١) ، وهو صوت أسناني لثوي رخو مهموس مرقق (٥٢) .

-
- (٨) ينظر : المقتضب : ٣٣٠ / ١ .
 (٩) ينظر : الأصوات اللغوية : ٤٥ ، علم الأصوات اللغوية : ٥٣ ، فقه اللغة ، د. عبد الحسين مبارك : ٨٤ .
 (١٠) سر صناعة الإعراب : ٦٠ / ١ ، وينظر : شرح المفصل : ٤٩٣ / ١٠ .
 (١١) ينظر : علم الأصوات ، البهناوي : ٦٧ .
 (١٢) ينظر : كتاب العين : ٥٨ / ١ ، شرح المفصل : ٤٩٣ / ١٠ .
 (١٣) كتاب سيبويه : ٤٣٣ / ٤ ، وينظر : سر صناعة الإعراب : ٦٠ / ١ .
 (١) كتاب سيبويه : ٤٣٥ / ٤ ، ٤٣٦ ، وينظر : سر صناعة الإعراب : ٧٦ / ١ .
 (٢) ينظر : في البحث الصوتي عند العرب ، د. خليل إبراهيم العطية : ٦١ ، فقه اللغة ، د. عبد الحسين المبارك : ٨٨ .
 (٣) دراسة الصوت اللغوي : ٢٧١ .
 (٤) ينظر : علم اللغة العام (مقدمة للقارئ العربي) : ١٤٨ ، ١٤٩ ، أبحاث في أصوات العربية ، د. حسام سعيد النعيمي : ٧ ، أصوات اللغة العربية ، د. عبد الغفار حامد هلال : ٩٢ ، الدرس الصوتي عند الجاربردي في شرحه على شافية ابن الحاجب (رسالة) ، مصطفى عبد كاظم الحناوي : ٣٥ .
 (٥) ينظر : كتاب العين : ٥٧ / ١ .
 (٦) ينظر : كتاب سيبويه : ٤٣٠ / ٤ ، سر صناعة الإعراب : ٦٠ / ١ .
 (٧) ينظر : علم اللغة العام ، الأصوات : ١٢٢ .
 (٨) كتاب العين : ٥٨ / ١ .
 (٩) سر صناعة الإعراب : ٦٠ / ١ ، المفصل في صناعة الإعراب : ٥٢١ .
 (١٠) ينظر : علم الأصوات ، البهناوي : ٧٠ ، علم الأصوات اللغوية : ٦٧ .

ومخرج الباء " مما بين الشفتين " (٥٣) ، وهو صوت شفوي شديد مجهور (٥٤) .

أما النون فهو صوت يخرج من الخياشيم (٥٥) ، وهو أسناني لثوي أنفي مجهور (٥٦) ليس شديدا ولا رخوا ، وإنما هو من الأصوات المتوسطة (٥٧) .

وبعد هذا العرض الموجز نذكر ما تبين من خلاله مقسماً على جانبين :

الجانب الأول : عام ينظر إلى أصوات (الحمد لله) و(سبحان) مجموعة .

والجانب الثاني : خاص ينظر إلى الصوت الواحد منفرداً .

أما الجانب الأول فيتضح فيه أنّ الأصوات المجهورة أكثر من الأصوات المهموسة ، فالمجهورة ستة هي : (اللام والميم والdal والألف والباء والنون) والمهموسة ثلاثة هي : (الحاء والهاء والسين) ، وكثرة الأصوات المجهورة هذه تجعل الكلام المسوق لحمد الله تعالى وتسبيحه أكثر موسيقية وأجمل إيقاعاً ، وهذا ما يتفق مع كثرتها في كل كلام ؛ لأنّ " الكثرة الغالبة من الأصوات اللغوية في كل كلام مجهورة ، ومن الطبيعي أن تكون كذلك وإلا فقدت اللغة عنصرها الموسيقي ورنينها الخاص الذي يميز به الكلام من الصمت " (٥٨) .

ويتضح أيضاً أن نسبة الأصوات الشديدة (الانفجارية) قليلة مقارنة بالأصوات الرخوة (الاحتكاكية) والمتوسطة (المائعة) ، فالشديدة هي : (الdal والباء والهمزة في حال الابتداء بكلمة الحمد) ، والرخوة هي : (الحاء والهاء والسين) ، والمتوسطة هي : (الميم واللام والنون) وهذا ما يجعل الكلام بالحمد والتسبيح سهلاً انسيابياً لا يعترض النفس معه عوائق كثيرة ، وإنما يجد له مسرباً يتسرب منه إلى الخارج سواء أحدث معه نوعاً من الحفيف أو الصفير ، كما في نطق الأصوات الرخوة أم لم يحدث كما في نطق الأصوات المتوسطة (٥٩) ، فالمهم أنه أكثر انسيابية لقلة العوائق التي تحدث عند نطق الأصوات الشديدة (٦٠) . ولهذه الانسيابية أثرها في النفس ، إذ تبعث فيها الارتياح وتغرس في أعماقها حبّ هذه الأذكار والمواظبة على ترديدها. ومن حيث الوضوح السمعي نجد أن معظم هذه الأصوات هي مما يميّز

(١١) سر صناعة الإعراب : ٦١/١ ، وينظر : المفصل في صناعة الإعراب : ٥٢١ ، ارتشاف الضرب : ١٠/١ ، ١١ .

(١٢) ينظر : الأصوات اللغوية : ٤٥ ، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) : ١٥٤ .

(١) ينظر : المقتضب : ٣٣٠/١ ، سر صناعة الإعراب : ٦١/١ ، أسباب حدوث الحروف : ٢١ .

(٢) ينظر : علم الأصوات ، المبرج : ٩٢ ، علم اللغة العام - الأصوات : ١٣٠ .

(٣) ينظر : الأصوات اللغوية : ٦٦ .

(٤) المصدر نفسه : ٢١ .

(٥) ينظر : المصدر نفسه : ٢٢ - ٢٦ .

(٦) ينظر : علم اللغة العام - الأصوات : ١٠٠ .

بوضوحه السمعي ، فالأصوات المجهورة - وهي الأكثر من بين هذه الأصوات - تتميز بقوة وضوحها في السمع وذلك راجع إلى النغمة الحنجرية المتولدة من اهتزاز الوترين الصوتيين^(٦١) ، ولاسيما أنّ من بين هذه الأصوات المجهورة صوت الألف وهو أحد أصوات اللين التي تتميز بوضوحها السمعي إلى درجة أنّ " أصوات اللين تسمع من مسافة عندها تختفي الأصوات الساكنة أو يخطأ في تمييزها " ^(٦٢) وهي تزود اللغة بنغمات مناسبة وتعبير جلي ولها أثرها في الإيحاء بالمعنى^(٦٣). زيادة على ذلك فإنّ الألف هو أوضح أصوات اللين في السمع^(٦٤).

ومن الأصوات التي تتميز بوضوحها السمعي زيادة على كونها مجهورة صوت (اللام والميم والنون) ، فهي من أكثر الأصوات الصامتة وضوحاً وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين ؛ ولذلك سميت بـ (أشباه أصوات اللين)^(٦٥).

ومما يميّز بوضوحه السمعي أيضاً صوت السين ، فهو - وإن كان مهموساً - واضح في السمع ؛ لأنه من أصوات الصفيّر^(٦٦) . ويبدو أنّ وضوحه راجع إلى قوة الاحتكاك معه ؛ لأنّ ممر الهواء عند نطقه يكون ضيقاً جداً ممّا يجعله يبلغ حدّ الصفيّر^(٦٧).

ولما كانت الأصوات المجهورة والأصوات الصائتة تدلّ على الوضوح الصوتي^(٦٨) فإنه يتضح أنّ غلبة الأصوات التي تتميز بهذه المزية في ما يقال عند حمد الله تعالى وتسبيحه يجعل هذه الأذكار نافذة إلى ذهن السامع ، مؤثرة فيه أكثر من غيرها.

وأما الجانب الثاني من النظر في أصوات (الحمد لله) و (سبحان) والذي سميناه (خاصاً) فنحاول من خلاله أن نتعرّف إيحاء بعض الأصوات عندما نحمد الله عز وجل أو نسبّحه ، لا سيما أنّ الأذن قد تحس موقع الدلالة الصوتية في الكلام عندما يحاكي هذا الصوت معنى نفسياً^(٦٩).

(١) ينظر : المدخل إلى علم أصوات العربية ، د. غانم قدوري الحمد : ١٠٨ .

(٢) الأصوات اللغوية : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) ينظر : الدلالة الصوتية في القرآن الكريم (رسالة) : ٥٦ .

(٤) ينظر : الأصوات اللغوية : ٢٧ ، فقه اللغة العربية ، د. كاسد ياسر الزبيدي : ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

(٥) ينظر : الأصوات اللغوية : ٢٧ .

(٦) ينظر : المصدر نفسه : ٧٥ ، ٧٦ .

(٧) ينظر : الدرس الصوتي عند الجاربردي في شرحه على شافية ابن الحاجب (رسالة) : ٧٩ .

(٨) ينظر : ألفاظ السلوك الخلقي في القرآن الكريم ، دراسة لغوية (أطروحة) ، عبد الكريم مصلح أحمد البجلة : ٥٣ .

(٩) ينظر : الصورة السمعية ودلالاتها البلاغية في القرآن الكريم (أطروحة) : ٤٠ .

ومن هذه الأصوات صوت الحاء الذي ورد في كلمة (الحمد) وكلمة (سبحان) ويبدو أنه لرخاوته وهمسه ، صار من الأصوات التي تصور معنى السعة بلفظها ووقعها في السمع^(٧٠) ، ولبحة هذا الصوت أثر في تصوير معنى الرقة والارتياح^(٧١).

وقد ذكر عباس محمود العقاد أنه قد يأتي بعد الحاء حرف يناقض معنى السعة في مثل : الحبس والحجر ، فالباء والجيم الساكنان ينفيان السعة التي أفادها الحاء فتعطي هذه الكلمات معنى التقييد بعد السعة^(٧٢) . ويبدو أن ما أوحى بمعنى التقييد في الباء والجيم زيادة على سكونهما كونهما صوتين شديدين لا يجري النفس عند النطق بهما دونما عائق يعترضه ، بل ينحبس لحظة من الزمن مما لا يترك مجالاً للشعور بمعنى السعة الذي توحى به الحاء ، غير أن الأمر في (الحمد لله) و(سبحان) يختلف ، فالميم التي تعقب الحاء في (الحمد لله) من الأصوات التي يجري معها النفس عند النطق بها ، فينفذ بطريق الأنف فيسمع منه صوت الغنة^(٧٣) الذي يمكن من التطريب ويوحى بالسعة والارتياح .

والألف التي تعقب الحاء في (سبحان) هي الصائت الطويل الذي يتميز باتساع مخرجه واستطالة الصوت معه^(٧٤) ، فبحة الحاء لا تنتهي إلى عائق يقطع النفس وإنما يجري النفس بعدها عند نطق الميم في (الحمد) والألف في (سبحان) مما لا ينافي معنى السعة الذي يوحى به نطق الحاء عند حمد الله تعالى وتسبيحه وللسين الذي تبدأ به كلمة (سبحان) إichaؤه الصوتي ودلالته في معنى تنزيه الله جلّ وعلا ، فهو من أصوات الصغير التي " تؤدي مهمة الإعلان الصريح عن المراد في تأكيد الحقيقة " ^(٧٥).

ولعلّ في هذا ما يشير إلى أنّ ابتداء كلمة التسبيح بهذا الصوت يوحى بالإعلان عن تنزيه الله تعالى ، ويبدو أنّ مهمة الإعلان هذه تبلغ ذروتها عند صوت الباء الشديد المجهور الذي يتميز بوضوحه في السمع وقلقلته ؛ لسكونه ، ثم يبدأ المقطع الثاني من هذه الكلمة بصوت الحاء المتلو بالألف بما يوحى به من معنى السعة والارتياح كما تقدم انتهاء بصوت النون الذي يثير بغنّته جوا من الهدوء^(٧٦) . وكأنّ كلمة التسبيح (سبحان) قد جمعت بين القوة في إعلان تنزيه الله عزّ وجلّ عمّا لا يليق به ، وذلك في مقطعها الأول وبين الرقة والسعة والارتياح عند ذكر الله تعالى بتسبيحه ، وذلك في مقطعها الثاني .

(٢) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٣) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن ، د. محمد حسين الصغير : ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٤) ينظر : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، عباس محمود العقاد : ٤٥ .

(٥) ينظر : في صوتيات العربية : ١٦٩ .

(٦) ينظر : التشكيل الصوتي في اللغة العربية (فونولوجيا العربية) ، د. سلمان حسن العاني : ١١٥ ، الدرس الصوتي عند الجاربردي في شرحه على شافية ابن الحاجب (رسالة) : ٣٦ .

(٧) الصوت اللغوي في القرآن : ١٧٩ .

(٨) اشترط بعض علماء العربية لوجود الغنة في النون أن تكون ساكنة غير أنّ الصحيح هو أنّ الغنة لا تنفك عنها سواء كانت ساكنة أم متحركة . ينظر : المدخل إلى علم أصوات العربية : ١٢٩ ، الدلالة الصوتية في القرآن الكريم (رسالة) : ٤٣ .

ومن دلالة الإيحاء الصوتي ما يوحيه صوت اللام من لفظ الجلالة عند ترقيقه في (الحمد لله) ؛ لسبقه بالكسرة وتفخيمه في (سبحان الله) ؛ لسبقه بالفتحة^(٧٧) فيبدو أنّ ترقيق اللام من لفظ الجلالة عند حمد الله تعالى يجعل الكلام ذا وقع صوتي هادئ يزيد النفس ارتياحا واطمئنانا بذكر الله تبارك وتعالى، وهو ما يتلاءم مع اعتقاد العبد بثبوت الحمد له تعالى في السراء والضراء فضلاً عن أنّ المقام يستدعي التضرع والخشوع والتذلل لله عزّ وجلّ فناسب رقة اللام .

أمّا في (سبحان الله) وهي كلمة كثيراً ما استعملها القرآن الكريم لتنزيه الله تعالى عن الشريك فإنّ تفخيم اللام في لفظ الجلالة يوحى بمعنى التعظيم ، مما يتناسب مع موضع نفي الشريك عنه جلّ وعلا ، والرد على المشركين وهذا نظير ما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ﴾. (الفتح ، من الآية : ١٠) من أنّ (عليه) جاءت بضم الهاء في هذا الموضع فقط من القرآن الكريم ليفخّم لفظ الجلالة في موضع العهد فهو تناسب بين تفخيم الصوت وتفخيم العهد^(٧٨).

دلالة التنغيم

التنغيم في اللغة: قال الخليل: " النغمة: جرس الكلام ، وحسن الصوت من القراءة ونحوها"^(٧٩).

والنغم : " الكلام الخفي نقول منه: نغم ينغم وينغم نغماً، وسكت فلان فما نغم بحرف وما تنغم مثله"^(٨٠).

ويقال: فلان حسن النغمة؛ إذا كان حسن الصوت في القراءة^(٨١).

أما في الاصطلاح: فقد عني المحدثون بدراسة التنغيم عناية كبيرة ، وكان أول من نبّه عليه منهم الدكتور إبراهيم أنيس عندما أشار في كتابه (الأصوات اللغوية) إلى أنّ البحث عن

(٢) يفخّم صوت اللام في لفظ الجلالة إذا سبق بفتح أو ضم ويرقق إذا سبق بكسر ، ينظر : البرهان في تجويد القرآن ، محمد الصادق قمحاوي : ٥٧ ، الأصول في تجويد القرآن الكريم ، القارئ علاء الدين القيسي : ٥٨ .

(٣) ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د. فاضل صالح السامرائي : ٩٣ .

(١) كتاب العين : ٤٢٦/٤ ، وينظر : لسان العرب : ٥٩٠/١٢ .

(٢) الصحاح : ٢٠٤٥/٥ ، وينظر : معجم متن اللغة : ٥٠٦/٥ .

(٣) ينظر : لسان العرب : ٥٩٠/١٢ .

نظام درجات الصوت وتسلسله في الكلام العربي يحتاج إلى عون الموسيقيين وأثر ترك الحديث عن ذلك إلى البحوث المستقبلية^(٨٢).

وقد تكفل الدارسون من بعده بدراسة التنغيم ، فعرفوه وذكروا أنواع النغمات ومستويات التنغيم ووظائفه.

يقول د. تمام حسان : " يمكن تعريف التنغيم بأنه: ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام " ^(٨٣).

والتنغيم - عند ماريوباي - : " عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين " ^(٨٤).

ويرى الدكتور أحمد مختار عمر أنّ التنغيمات أو التنوعات التنغيمية هي "تتابعات مطردة من مختلف أنواع الدرجات الصوتية على جملة كاملة ، أو أجزاء متتابعة ، وهو وصف للجمل وأجزاء الجمل وليس للكلمات المختلفة المنعزلة " ^(٨٥).

ويفهم من هذا الكلام أنّ للتنغيم أثرا كبيرا في معرفة نوع الجملة ، إن كانت استفهامية أو تقريرية أو للتعجب أو للازدراء والسخرية^(٨٦) ، إذ يمكننا أن نغيّر الجملة من خبر إلى استفهام إلى تأكيد إلى انفعال إلى تعجب من دون تغيير في شكل الكلمات المكوّنة لها ، وإنّما بتغيير نوع التنغيم فحسب^(٨٧) ، فحينما نكرر مثلاً جملة : (ذهب محمد إلى الجامعة اليوم) ونغيّر نغمة الصوت في كل مرة ، نفهم من كلّ أداء معنى معيناً بحسب علو الصوت وانخفاضه ، وباختلاف الترتيب العام لنغمات المقاطع وتأثير قوة اللفظ^(٨٨).

وفائدة التنغيم هذه هي جزء من أهم وظائفه في الكلام ، وهي الوظيفة النحوية التي يتحدد من خلالها نوع الجملة^(٨٩) ، وهذا يعني أنّ التنغيم الذي يدلنا على أنّ جملة المثال السابق

-
- (٤) ينظر : الأصوات اللغوية: ١٧٥-١٧٨، التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير إبراهيم العزاوي : ٢٦ .
 (٥) مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان : ١٦٤ ، وينظر : علم الأصوات ، البهنساوي : ١٦ ، ودراسات في اللسانيات العربية ، د. عبد الحميد السيد : ٥١ .
 (٦) أسس علم اللغة ، ماريوباي : ٩٣ ، وينظر : علم الأصوات اللغوية : ١٣٤ ، والمصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر ، د. عبد القادر مرعي الخليل : ١٩٧ .
 (٧) دراسة الصوت اللغوي : ١٩٤ ، وينظر : الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث (أطروحة) : ٢٤٠ .
 (١) ينظر : علم الأصوات : ١٩٢ ، علم الدلالة ، د. أحمد مختار عمر : ١٣ ، أصوات اللغة العربية : ٢٢٩ .
 (٢) ينظر : دراسة الصوت اللغوي : ١٩٥ ، تأصيل المصطلح الصوتي ، د. محمد حسين الصغير ، بحث منشور في مجلة كلية الفقه ، عدد ٣ لسنة ١٩٨٩ : ١٩ ، الدلالة الصوتية في القرآن الكريم (رسالة) : ١٨٠ ، الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث (أطروحة) : ٢٤٢، ٢٤١ .
 (٣) ينظر : علم الأصوات اللغوية : ١٤٣ ، ١٤٤ .
 (٤) ينظر : مناهج البحث في اللغة : ١٦٤ . وقد جعل د. كمال بشر للتنغيم أربع وظائف :
 الأولى : الوظيفة النحوية وهي الوظيفة الأساسية ، والثانية : الوظيفة الدلالية السياقية إذ ينبئ اختلاف النغمات عن حالات أو وجهات نظر شخصيّة في عملية الاتصال بين الأفراد ، والثالثة : الوظيفة التي يشير إليها علماء اللغة الاجتماعيون وهي أنّ للتنغيم دوراً في تعرّف الطبقات الاجتماعية والثقافية المختلفة في المجتمع المعين ، والرابعة : وظيفة ذات إطار

مثلاً جملة استفهامية ينوب مناب الهمزة في قولنا : (أذهب محمد إلى الجامعة اليوم؟) . ولا شك في أنّ وظيفة الهمزة هنا وظيفة نحوية .

ويجدر بالذكر أنّ علماء العربية القدماء عرفوا التنغيم ومارسوه في أدائهم الفعلي للكلام^(٩٠) . وقد حرص كثير من المحدثين على إبراز آثار القدماء من آراء وأقوال تدل على هذه الحقيقة ولا سيما أنّ هناك من يقول : " ولم يعالج أحد من القدماء شيئاً من التنغيم ولم يعرفوا كنهه " ^(٩١) . ولا مجال هنا لذكر أقوال القدماء التي تكشف لنا عن معرفتهم للتنغيم ، فقد تكفّلت ببيان ذلك مجموعة من كتب الأصوات الحديثة^(٩٢) . وقد عرض د. غانم قدوري الحمد جانباً كبيراً من آثار علماء التجويد التي تدلّ بشكل واضح على معرفتهم بالتنغيم وإدراكهم أثره في هذا العلم^(٩٣) .

وتكفّل صاحب كتاب (التنغيم اللغوي في القرآن الكريم) بتتبع آثار القدماء والمحدثين أيضاً في دراسة التنغيم ، فعقد فصلاً بعنوان (التنغيم في آثار الدارسين) جعله على مبحثين تناول في الأول مباحث تنغيمية في آثار اثني عشر عالماً من علماء العربية القدماء نحويين ولغويين وعلماء تجويد . وخصص المبحث الثاني للتنغيم عند المحدثين^(٩٤) .

أما مستويات النغمات ومديات التنغيم فقد اختلف الصوتيون المحدثون في تقسيماتها ، فبالنظر إلى نهاية النغمة يرى د. كمال بشر أنه يمكن حصر النغمات الرئيسة في نغمتين فقط : الهابطة ؛ لا تصافها بالهبوط على الرغم مما تنتظمه من تلوينات جزئية داخلية ، والصاعدة ؛ لصعودها في نهايتها^(٩٥) .

أما بالنظر إلى المدى بين أعلى نغمة وأخفضها سعة وضيقاً فيقسّمه د. تمام حسّان على ثلاثة مديات : الإيجابي ، والنسبي ، والسلبي . وكل مدى يقسمه على هابط وصاعد ، " فمجموع التقسيمات إذا يقع في ستة نماذج تنغيمية مختلفة هي كل ما في اللغة العربية من نماذج التنغيم " ^(٩٦) .

خاص وهي أنّ للتنغيم دوراً أساسياً في التفريق بين معاني الكلمة المفردة وذلك في بعض اللغات كالصينية ، ينظر : علم الأصوات ، د. كمال بشر : ٥٤٤-٥٣٩ .

(٥) ينظر : علم الأصوات ، د. كمال بشر : ٥٤٧ ، تأصيل المصطلح الصوتي (بحث) : ٢٠-٢٣ .

(٦) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، د. رمضان عبد التواب : ١٠٦ .

(١) ينظر : في البحث الصوتي عند العرب : ٦٦ ، ٦٧ ، علم الأصوات ، البهناوي : ٥٤٥-٥٤٩ ، المدخل إلى علم أصوات العربية : ٢٥٩-٢٦٢ ، أصوات اللغة العربية : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، المصطلح الصوتي : ١٩٧-١٩٩ ، دراسات في اللسانيات العربية : ٥٦ ، ٥٧ وغيرها .

(٢) ينظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، د. غانم قدوري الحمد : ٥٦٧-٥٦٩ .

(٣) ينظر : التنغيم اللغوي في القرآن الكريم : ٢٩-٨٠ .

(٤) ينظر : علم الأصوات ، د. كمال بشر : ٥٣٤-٥٣٦ .

(٥) مناهج البحث اللغوي : ١٦٥ ، وقد سمّاها في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) : الواسع والمتوسط والضيق . ينظر : ٢٢٩ ، ويرى أنّ المدى الإيجابي تصحبه عاطفة مثيرة ، والنسبي يستعمل في الكلام غير العاطفي ، أما السلبي

وتقسيم النغمات المشهور - كما يصفه د. غانم قدوري الحمد - هو:

١. النغمة الصاعدة: وتعني وجود درجة منخفضة في مقطع أو أكثر تليها درجة أكثر علوا منها.
 ٢. النغمة الهابطة: وتعني وجود درجة عالية في مقطع أو أكثر تليها درجة أكثر انخفاضا منها.
 ٣. النغمة المستوية: وتعني وجود عدد من المقاطع تساوت درجاتها سواء أكانت هذه الدرجات قليلة أم متوسطة أم كثيرة^(٩٧).
- ولما كانت معرفة الأنواع التنغيمية لأي كلام تحتاج إلى تحليل الارتكاز والشدة باستعمال أجهزة التحليل الصوتي الحديثة^(٩٨) ، فإننا سنحاول أن نقصر البحث على التنغيم في الأساليب اللغوية^(٩٩) ؛ للوقوف على أثر النغمة في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه ، ولاسيما أن القرآن سرا إعجازيا يكمن في نغمة في كل مقطع منه^(١٠٠) فمن أسلوب الخبر جملة الحمد المساقاة لحمد الله تعالى التي لم ترد في القرآن الكريم إلا خبرية^(١٠١) . وتكون نغمة الجملة خبرية مستوية^(١٠٢) وعندما نعلم أن النغمة المستوية تبعث على تعزيز المعنى وإثباته^(١٠٣) فإنه سيتضح لنا أن إثارة استعمال جملة الحمد خبرية يحمل دلالة صوتية تنغيمية فضلاً عن دلالة الجملة الاسمية على الثبوت ، وذلك في قوله تعالى في فاتحة الكتاب : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة : ٢) . فمعنى الخبرية هو " إثبات أن الثناء الجميل في أي أنواعه تحقق فهو ثابت له تعالى راجع إليه ؛ لأنه متصف بكل ما يحمد عليه الحامدون ، فصفاته أجل

فيستعمل في الكلام الذي تصحبه عاطفة تهبط بالنشاط الجسمي كالحزن مثلاً ، ينظر : مناهج البحث في اللغة : ١٦٦ ، ١٦٧ .

(١) ينظر : المدخل إلى علم أصوات العربية : ٢٥٨ . وهناك من زاد تقسيمات أخرى يبدو أنها كالفروع للتقسيم الأول مثل النغمة الصاعدة الهابطة ، والهابطة الصاعدة ، والمستوية الصاعدة ، والمستوية الهابطة ، والهابطة المستوية ، ينظر : أصوات اللغة ، د. عبد الرحمن أيوب : ١٥٤ ، ١٥٥ ، التنغيم اللغوي في القرآن الكريم : ١٥٧ .

(٢) ينظر : التنغيم اللغوي في القرآن الكريم : ٥٨ .

(٣) حاول الدكتور سلمان حسن العاني تحليل التنغيم في (الجملة الخبرية والأمر والاستفهام والنداء والتعجب) مستعيناً بجهاز الاسبكتروجراف وكشف عن أربعة مستويات لدرجة الصوت في النظام النغمي (درجة منخفضة ، درجة متوسطة ، درجة عالية ، درجة عالية جداً) غير أنه يقول : " ومن المؤكد أن هذه المستويات الأربعة ليست مطلقة بل نسبية " وقد جعل لكل أسلوب نمطاً تنغيمياً غالباً فيه يتكون كل نمط من ثلاث درجات فنمط الاستفهام مثلاً (١-٢-٣) ونمط التعجب (١-٣-٢) . ينظر : التشكيل الصوتي في اللغة العربية (فونولوجيا العربية) : ١٤١-١٤٧ .

(٤) ينظر : التصوير الفني في القرآن : ٨٧ ، البناء الصوتي في البيان القرآني : ٣١ ، دور الصوت في إعجاز القرآن ، د. حازم سليمان الحلبي ، بحث ضمن كتاب (الإعجاز القرآني) وهو مجموعة بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني في بغداد : ١٤٣ ، قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن ، د. نعيم اليافي ، بحث منشور في مجلة التراث العربي ، العددان (١٥-١٦) : ٣ .

(٥) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٢١٧ .

(٦) ينظر : دراسات في اللسانيات العربية : ٥٣ .

(٧) ينظر : التنغيم اللغوي في القرآن الكريم : ١٥٧ .

الصفات وإحسانه عمّ جميع الكائنات ؛ ولأنّ جميع ما يصح أن يتوجه إليه الحمد مما سواه فهو منه جلّ ثناءه " (١٠٤) .

فالنغمة المستوية (الثابتة) - كما يسمّيها بعض الدارسين^(١٠٥) - للجملة الخبرية التي سيقت لإثبات الحمد لله تعالى تشعر بثبات المعنى المؤدّي بهذه الجملة ، وكأنّ استواء النغمة (أي ثباتها) في جملة الحمد ينبئ عن ثبات الحمد له جلّ وعلا ويغرس في النفس يقينا ثابتا لا ريب فيه بأن جميع المحامد لله تعالى على وجه الدوام والثبات دون الحدوث والتجدد^(١٠٦) . ويبدو أنّ صلاحية النغمة المستوية لتقرير المعنى وإثباته تكمن في أنّ درجات المقاطع في الكلام تكون متحدة^(١٠٧) وثابتة ، مما يجعل الأداء الصوتي لذلك الكلام على وتيرة واحدة ، فيكون أكثر رسوخا في الذهن فتشعر أنّه من الثوابت المسلّم بها ، ومن ذلك أيضاً افتتاح سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

(الأنعام : من الآية ١) . فغرض هذه السورة هو توحيد الله تعالى بمعناه الأعمّ فمن الله يبدأ كلّ شيء وإليه ينتهي ويعود كلّ شيء ولذلك نزلت معظم آياتها في صورة الحجاج على المشركين في التوحيد والمعاد والنبوة ، وقد افتتحت بالثناء على الله تعالى ، وهو كالمقدمة لما يراد بيانه من معنى التوحيد وذلك بتضمين الثناء ما هو محصل غرض السورة^(١٠٨) ، فهذه الجملة الخبرية التي تضمّنت معنى التوحيد ؛ لتكون مقدمة لمجادلة منكريه ومحاججتهم تؤدّي بالنغمة المستوية التي تزيد معنى التوحيد إثباتا وتقريراً ، وتشعر بأنّ توحيد الله تعالى أمر ثابت لا جدال فيه مما يزعزع هؤلاء المنكرين ويوهنهم في دعواهم ، ويثبت المؤمنين على توحيدهم حينما يسمع الفريقان تلك الجملة الخبرية بنغمة مستوية (ثابتة) تكشف عن ثبوت معناها وتقريره .

وشبيه بذلك أننا لو تخيلنا أنّ رجلين يتجادلان، أحدهما يبدأ كلامه بجملة ذوات نغمات صاعدة كالجملة الاستفهامية كأنّ يقول مثلاً: أليس الحقّ معي ؟ والآخر يبدأ كلامه بالجملة الخبرية ذات النغمة المستوية فيقول: الحقّ معي. فإننا نشعر بأنّ الثاني أكثر تمكّناً في المجادلة وأبلغ تأثيراً في إثبات ما يقول ، ليس لأنّ الجملة الخبرية الاسمية تدلّ على الثبوت فحسب بل لنغمة هذه الجملة التي تشعر بأنّه يتكلم بثبات مطمئناً لما يقول مسلماً به.

(١) تفسير المنار : ٤٥/١ .

(٢) ينظر : مناهج البحث في اللغة : ١٦٧ ، دراسات في اللسانيات العربية : ٥٢ .

(٣) ينظر : فتح القدير : ٢١/١ .

(٤) ينظر : أصوات اللغة : ١٥٣ .

(٥) ينظر : الميزان : ٢/٧ ، ٣ ، إيجاز البيان في سور القرآن، محمد علي الصابوني : ٢١، ٢٢ .

وما قيل في حمد الله عز وجل يقال في تسبيحه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ١)، (الصف: ١)

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾
(الجمعة : ١) .

فالآية الأولى أخبرت عن تسبيح ما في السموات وما في الأرض لله تعالى في الماضي ، والآية الثانية أخبرت عن هذا التسبيح في الحال والاستقبال بنغمة مستوية (ثابتة) ، مما يشعر بثبوت التسبيح له تعالى في جميع الأوقات ، إذ لاشك في " أن كون هذه الأشياء مسبحة غير مختص بوقت دون وقت بل هي كانت مسبحة أبدا في الماضي وتكون مسبحة أبدا في المستقبل ؛ وذلك لأن كونها مسبحة صفة لازمة لماهياتها " (١٠٩) .

ويبرز أثر النغمة المستوية للجملة الخبرية واضحا حينما تأتي هذه النغمة بعد نغمة أخرى ليست مستوية صاعدة كانت أم هابطة ، فيكون ثبات نغمة الجملة الخبرية بعد النغمة الصاعدة أو الهابطة مدعاة للانتباه إلى المعنى الذي تحمله هذه الجملة الخبرية ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٩) . وهو مثل ضربه الله تعالى لبيان حال من يشرك به وحال من يوحد ، فشبه الأول بمملوك بين جماعة من الشركاء يتنازعون فيه وهو في أسوأ حال وشبه الثاني بمملوك لرجل واحد (١١٠) ، ثم قال تعالى : (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) ،

وهذه جملة استفهامية مبدوءة بحرف الاستفهام (هل) وهي تفيد إنكار الاستواء بين المثلين ، فتنتهي هذه الجملة بنغمة هابطة (١١١) ، فبعد أن ينخفض الصوت بنغمة هذه الجملة مصورا إنكار الاستواء بين حال من يوحد الله تعالى وحال من يشرك به ومشعرا بتوبيخ من جعل لله شركاء تأتي الجملة الخبرية (الحمد لله) بنغمتها المستوية ؛ لتصوّر باستوائها (ثباتها) ثبوت

(١) التفسير الكبير : ٤٤١/٢٩ .

(١) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل ، ابن جُزَي الغرناطي : ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٢) ينظر : التنعيم اللغوي في القرآن الكريم : ١٥٢ .

أنَّه تعالى " الواحد الذي لا شريك له دون كل معبود سواه أي يجب أن يكون الحمد متوجها إليه وحده والعبادة ، فقد ثبت أنَّه لا إله إلا هو " (١١٢).

وهكذا نلاحظ أنه قد اجتمع في المثال السابق أسلوبان: الاستفهام بنغمة هابطة لإفادة معنى الإنكار والتوبيخ ، والخبر بنغمته المستوية لإفادة إثبات توحيد الله تعالى وحمده.

وقد ورد الاستفهام الذي ينتهي بنغمة هابطة بمعنى توبيخ من لا يشكر الله تعالى بعد تعدد نعمه (١١٣) في قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿ (يس: ٧٢، ٧٣) .

فبعد أن ذكر تعالى نعمة خلق الأنعام وتذليلها، وذكر منافعها للعباد جاء السؤال بنغمة هابطة (أَفَلَا يَشْكُرُونَ) وفيه توبيخ واستقبح لعدم شكرهم (١١٤)، وكأنَّ هذه النغمة الهابطة تصور وهن من لا يشكر الله بعد هذه النعم ، وضحالة عقله وانحطاط معتقده وضعفه.

وقد يخرج الاستفهام بـ(هل) إلى معنى الأمر أو طلب حصول الفعل (١١٥)، نحو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لْتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٨٠)، فقوله (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) لفظه " لفظ استفهام ومعناه استدعاء للشكر " (١١٦) ومما يُعين في إفادة استدعاء الشكر في هذا الكلام نغمته الصاعدة (١١٧)، إذ تكون أكثر دلالة على الأمر بالشكر ، فعلاً النغمة وصعودها يذكرنا بالمرتبة العالية التي يتطلبها الأمر؛ لأنه لا يكون أمراً إلا إذا صدر عن رتبة أعلى من رتبة المأمور ، وإلا كان التماساً أو دعاءً (١١٨) .

ويكون لنغمة الأمر الصاعدة هذه الأثر نفسه حينما يُعبّر عن الأمر بالشكر أو التسبيح بفعل الأمر ، ومن ذلك قوله تعالى في سياق الشكر: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا

(٣) الكشف : ٩٤٠ .

(٤) تكون نغمة الاستفهام الذي يخرج إلى معنى التوبيخ هابطة ، ينظر : التنعيم اللغوي في القرآن الكريم : ١٥٢ .

(٥) ينظر : الميزان : ٩٠/٧ .

(١) ينظر : علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني ، د. بسبوني عبد الفتاح فيود : ٣١٣ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل : ٢٧ / ٢

(٣) تكون نغمة الاستفهام الذي يخرج إلى معنى الأمر صاعدة ، ينظر : التنعيم اللغوي في القرآن الكريم : ١٥١ .

(٤) ينظر : كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى اليماني العلوي : ٥٣٠ .

عَلَى وَهْنٍ وَفَصْلُهُ فِي عَامِينَ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (لقمان: ١٤) ، وقوله تعالى في سياق التسبيح: ﴿وَمَنْ أَلِيلٍ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ (الطور: ٤٩) ، فنغمة الأمر بالشكر أو التسبيح تشعر النفس بأهمية المأمور به وتحملها على المواظبة على الإتيان به ، ولا سيما أنه أمر صادر من الله تعالى إلى عباده يأمرهم بشكره وتسبيحه .

وتكون النغمة صاعدة أيضا في أسلوب التعجب^(١١٩) . وقد يؤدي التسبيح معنى التعجب ، إذ سمع عن العرب أنهم إذا تعجبوا من شيء قالوا: (سبحان الله) وهذا ما جعله النحاة ضمن أمثلة التعجب السماعي^(١٢٠) ، وقد جعلت كتب الوجوه والنظائر التعجب أحد وجوه التسبيح في القرآن الكريم^(١٢١) ، وإنما استعمل التسبيح بمعنى التعجب لأن الإنسان " يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه " ^(١٢٢) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٦) .

فر(سبحانك) في هذه الآية أفادت معنى التعجب من سماعهم ما لم يتكلموا به^(١٢٣) . والذي يبين كون (سبحانك) هنا للتعجب هو نغمتها الصاعدة التي تكون أكثر صعودا عند نطق الألف ، فتصور هذه النغمة بصعودها حالة الدهشة والاستغراب عند سماع ما يتعجب منه أو رؤيته .

وتجتمع النغمتان الصاعدة والهابطة في أسلوب الشرط " فتنتهي جملة الشرط بنغمة صاعدة دليلاً على عدم تمام الكلام ، فتمامه يحصل بجواب الشرط الذي ينتهي بنغمة هابطة دليلاً على الاكتمال في المبنى والمعنى معا " ^(١٢٤) .

ولا شك في أن صعود النغمة ثم هبوطها يترك أثرا في النفس ، حيث تكون بعد صعود النغمة بجملة الشرط أكثر تشوقا ولهفة إلى انتهاء هذا الصعود بهبوط النغمة في جواب الشرط لتتعرف جواب ذلك الشرط فيكتمل المعنى الذي تبحث عنه .

(٥) ينظر : التشكيل الصوتي في اللغة العربية : ١٤٤ .
(٦) ينظر : شرح قطر الندى وبل الصدى ، ابن هشام الأنصاري : ٣٤٧ ، موسوعة النحو والصرف والإعراب ، إعداد د. أميل بديع يعقوب : ٢٥٧ .
(٧) ينظر : وجوه القرآن ، أبو عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد الحيري النيسابوري : ٢٢٩ ، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ، أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني : ٤٤٦/١ ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ٣/ ١٧٧ .
(١) الكشف : ٧٢٢ ، وينظر : التفسير الكبير : ٣٤٣/٢٣ .
(٢) ينظر : أنوار التنزيل : ١٩٠/٣ .
(٣) علم الأصوات ، د. كمال بشر : ٥٤١، ٥٤٢ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ

حَمِيدٌ ﴾ (إبراهيم : ٨)

فصعود النعمة بجملة الشرط التي تفترض كفر بني إسرائيل ومن في الأرض جميعا يدفع بالنفس إلى التلهف والانتباه إلى ما وراء هذا الفرض الكبير الذي يفترض أن جميع من في الأرض كفروا بالله فما وراء ذلك ؟ يأتي جواب الشرط مخبرا عن نتيجة هذا الفرض ، فيكتمل المعنى الذي تشوّقت له النفس وتهيّأت لمعرفة وهو أن هذا الكفر لا يضر الله شيئا ؛ لأنه غني عن شكرهم مستوجب للحمد بكثرة أياديهِ وأنعامه وإن لم يحمده الحامدون (١٢٥) والذي أحسن النفس بانتهاء المعنى وتمامه هو نعمة جواب الشرط الهابطة .

أما في سياق الشكر ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ

فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ . (لقمان : من الآية ١٢) . فبعد صعود النعمة

بالشرط يأتي جواب هذا الشرط لينتهي المعنى بنعمة هابطة فتتضح النتيجة المترتبة على شكر الإنسان ، وهي أن "من يشكر الله على نعمه عنده فإنما يشكر لنفسه ؛ لأن الله يجزل له على شكره إياه الثواب وينقذه من الهلكة " (١٢٦) .

ومثال أسلوب الشرط في سياق التسبيح قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ

يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ (فصلت : ٣٨) .

إذ اشترطت الآية أن المشركين إن استكبروا ولم يمتثلوا لما أمروا به من توحيد الله تعالى وعبادته (١٢٧) فإن " عبادته تعالى لا ترتفع من الوجود فهناك من يسبحه تسبيحا دائما لا ينقطع من غير سامة وهم الذين عند ربك " (١٢٨) .

فقد أعقبت نعمة الشرط الصاعدة نعمة الجواب الهابطة التي انتهى بها الرد على المستكبرين عن عبادة الله تعالى وتسبيحه بأن عبادته وتسبيحه جلّ وعلا دائم لا ينقطعان.

(١) ينظر : الكشف : ٥٤٦ .

(٢) جامع البيان : ٨٠/٢١ ، وينظر : الميزان : ٢٢٦/١٦ .

(٣) ينظر : الكشف : ٩٧٠ .

(٤) الميزان : ٤١٩ / ١٧ .

وبعد أن وقفنا على أثر التنغيم في بعض أساليب التعبير اللغوية ، وعرفنا نوع النغمة في ما عرضناه منها في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه نختم موضوع التنغيم بالحديث على نوعين من أنواع المدّ لهما صلة بالتنغيم ، هما مدّ الفرق ومدّ التعظيم^(١٢٩) . أمّا مدّ الفرق فينشأ من دخول همزة الاستفهام على اسم معرفّ بـ "أل" فتمدّ الألف^(١٣٠) ، وسمّي بمدّ الفرق ؛ " لأنه يفرّق بين الاستفهام والخبر ولولا مدّه لتوهم أنه خبر لا استفهام " ^(١٣١) ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل : ٥٩)

فبعد أن أمر الله تعالى رسوله - ﷺ - بالحمد والسلام على من اصطفى من عباده قال (ءالله خيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) على وجه الرد على المشركين^(١٣٢) ، فالأثر التنغيبي لهذا المدّ هو أنّ هذه الجملة لا تتحول من الخبرية إلى الاستفهامية إلا به فهي استفهام غرضه تبكيت المشركين والتهكم بحالهم ؛ لأنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله جل وعلا^(١٣٣) .

وأما مدّ التعظيم فيكون في (لا) النافية للجنس من كلمة التوحيد، ويؤدّي بإطالة زمان المدّ ، وهو يرجع بالأصل إلى المدّ المنفصل الذي تأتي فيه الهمزة بعد أحد أحرف المدّ في كلمتين^(١٣٤) ويسمّى أيضا مدّ المبالغة ؛ " لأنه طلب للمبالغة في نفي إلهية سوى الله سبحانه " ^(١٣٥) ، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي

الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الانبياء : ٨٧) . فطول المدّ له أثر تنغيبي دلالي إذ يصوّر لنا في هذه الآية استغاثة النبي يونس عليه السلام بالله مطيلاً صوته بتوحيده ، مسبّحاً له ، هارباً إليه من الظلمات ، أمّا أثر هذا المدّ في كلمة التوحيد بشكل عام فيكمن في أنّ إطالة الصوت بـ(لا) في نفي الشريك عن الله تعالى يشعر بالمبالغة في هذا النفي وتعظيم توحيد الله سبحانه وتعالى عمّا يشركون علواً كبيراً .

(٥) ينظر : التنغيم اللغوي في القرآن الكريم : ١١٢ .

(١) ينظر : التبسيط لأحكام التجويد ، ملحق مطبوع مع المصحف الشريف (مصحف التفخيم) : ٦٣٤ التجويد ، إعداد لجنة في كلية أصول الدين : ٤٣ ، والمراد بـ(مصحف التفخيم) هو المصحف الشريف الذي رسم فيه لفظ الجلالة الذي يقرأ بتفخيم اللام باللون الأحمر تمييزاً له عن الذي يقرأ بترقيق اللام .

(٢) غصن البان : ١٢١ .

(٣) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ١٠٥ / ٢٢ .

(٤) ينظر : الكشف : ٧٨٧ .

(٥) ينظر : التمهيد في علم التجويد : ١٧٥ ، غصن البان : ١٢٤ ، البرهان في تجويد القرآن : ٧١ .

(٦) النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري : ١ / ٢٦٩ ، وينظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ٥٣٣ .

دلالة الوقف والابتداء

الوقف والابتداء في اللغة :

الوقف : " مصدر قولك : وقفت الدابة ووقفت الكلمة وقفا وهذا مجاوز فإذا كان لازما قلت : وقفت وقوفا " (١٣٦). ويقال : وقفت الشيء أقفه وقفا (١٣٧) .

والابتداء من : بدأت الشيء أي : فعلته ابتداء . والبداء : فعل الشيء أول ، وبدأ به وبدأه يبدؤه بدءًا وأبداه وابتدأه ، وبادئ الرأي أوله وابتدأه (١٣٨) .

وفي الاصطلاح :

الوقف هو " قطع النطق عند إخراج آخر اللفظة " (١٣٩) ، ويعرفه المحدثون بأنه " قطع الصوت عن القراءة زمنا يسيرا بتنفس مع نيّة استئناف القراءة " (١٤٠) . وللوقف أنواع ذكرتها كتب الوقف والابتداء وكتب التجويد (١٤١) .

والابتداء هو " الشروع في القراءة بعد قطع أو وقف " (١٤٢) .

ويتضح من تعريف الوقف والابتداء أنّ العلاقة بينهما تتلخص في أنّ كل وقف يعقبه ابتداء ، أمّا الابتداء فقد يكون بعد وقف وهو ما نقصده في هذه الدراسة ، وقد يكون بعد قطع

(١) كتاب العين : ٢٢٣/٥ ، و(مجاز) أي متعّد ، سمّي مجاوزا لمجاوزته الفاعل إلى المفعول ، ينظر : موسوعة النحو والصرف والإعراب : ٤٩٨ .

(٢) ينظر : لسان العرب : ٣٦٠/٩ .

(٣) ينظر : لسان العرب : ٢٦/١ ، ٢٧ ، معجم متن اللغة : ٢٥٠/١ .

(٤) ارتشاف الضرب : ٧٩٨ / ٢ ، وينظر : جهود الكوفيين في علم الأصوات ، د. خليل إبراهيم العطية ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة ، العدد (٢٢) لسنة ١٩٩١م : ٥٩ .

(٥) الكشف عن أحكام الوقف والوصل في العربية ، د. محمد سالم محيسن : ١٦ .

(٦) يقسم الوقف بالنظر إلى اللفظ والمعنى على أربعة أنواع :

١- التام : وهو الوقف الذي يتم به الكلام لفظا ومعنى .

٢- الحسن : وهو الوقف الذي يبقى فيه الكلام متعلقا بما بعده لفظا فقط وهذا ما يحسن الوقف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده .

٣- الكافي : وهو الوقف الذي يتعلق فيه الكلام بما بعده في المعنى ولا يتعلق به في اللفظ وهذا ما يجمل الوقف عليه والابتداء بما بعده .

٤- القبيح : وهو الوقف الذي يتعلق بما بعده لفظا ومعنى .

ينظر : المكتفى في الوقف والابتداء ، أبو عمرو الداني : ١٠٦-١٤٤ ، التمهيد في علم التجويد : ١٧٩-١٨٩ ، غصن البان : ١٢٧-١٣١ ، البرهان في تجويد القرآن : ٨٧-٩١ ، الكشف عن أحكام الوقف والوصل في العربية : ٤٥-٥٢ .

(٧) الوقف والابتداء ، السيد إسماعيل علي سليمان ، بحث منشور في الموسوعة القرآنية المتخصصة إشراف وتقديم : د. محمود حمدي زقزوق : ٤٠٣ .

وهو أنك تبدأ بالقراءة بعد أن قطعتها ، وانتقلت منها إلى حالة أخرى غيرها أي إنك قطعت القراءة من غير نية استئنافها .

وبعد الوقف والابتداء من أهم أبواب علم التجويد ، وهو فن جليل تعرف به كيفية أداء القرآن وتبيين معاني الآيات ويحترز بمراعاته عن الوقوع في المشكلات^(١٤٣) ؛ لأن " في معرفة الوقف والابتداء الذي دونه العلماء تبيين معاني القرآن العظيم وتعريف مقاصده وإظهار فوائده وبه يتهيأ الغوص على درره وفرائده " ^(١٤٤).

ومما يكشف عن أهمية باب الوقف والابتداء وخطره ما روي عن النبي - ﷺ -

أنه سمع خطيبا يقول : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما ، ثم توقف عن

الكلام فقال له النبي - ﷺ - : " قم واذهب بنس الخطيب أنت " ^(١٤٥) . وإنما

أنكر عليه النبي - ﷺ - ذلك لأنه " كان ينبغي أن يصل كلامه فيقول : ومن يعصهما فقد غوى أو يقف على (رسوله فقد رشد) فإذا كان مثل هذا مكروها في الخطب ففي كلام الله أشد " ^(١٤٦).

ويظهر من ذلك أثر الوقف والابتداء في تغيير المعنى في النص الواحد إذا ما تغير موضع الوقف والابتداء في كل مرة .

وحسب هذا الفن أهمية أن جعل الإمام علي - عليه السلام - معرفته مع تجويد الحروف تعريفا لمصطلح الترتيل في قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل: من الآية ٤) إذ قال : الترتيل : معرفة الوقوف وتجويد الحروف^(١٤٧) .

وللوقف والابتداء علاقة بالنحو وثيقة^(١٤٨) ؛ لأن الوقف يرتبط بأمرين هما : القواعد النحوية ، والمعنى أو الدلالة ، وهما أمران ضروريان متكاملان لا يمكن الاعتماد على

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي : ٣٤٢/١ .

(٢) التمهيد في علم التجويد : ١٧٨ .

(٣) ينظر : كتاب القطع والانتفاف ، أبو جعفر النحاس : ٩٢ ، المكتفى في الوقف والابتداء : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٣٤٣ .

(٥) ينظر : النشر في القراءات العشر : ١٧٧/١ ، الإتيان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي : ٢٨٢/١ ، الوقف والابتداء (بحث) : ٤٠٠ .

(٦) ينظر : المكتفى في الوقف والابتداء (مقدمة المحقق) : ١١ ، القراءات القرآنية في تفسير فتح القدير الشوكاني (رسالة) ، عبد الله أحمد النهاري : ٥٦ .

أحدهما من دون الآخر^(١٤٩) ، إذ لا شك في أنّ اختلاف الوجوه النحوية يؤدي إلى اختلاف الدلالة. ومواقع الوقف والابتداء التي جاءت في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه وجدتها - عند النظر في التراكيب التي حوت ذلك - تنقسم على قسمين:

الأول : يؤدي فيه موضع الوقف والابتداء إلى تغيير الوظيفة النحوية لبعض التراكيب في الآية فينتج عن ذلك دالتان مختلفتان - بشكل أو بآخر - في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه ، وقد تتعارض إحدى الدالتين مع توحيد الله جلّ وعلا فضلا عن حمده وتسبيحه ، فيلزم في ذلك الوقف على ما يعطي الدلالة الأخرى التي يقصدها القرآن الكريم .

والثاني : لا يؤدي فيه موضع الوقف والابتداء إلى تغيير الوظيفة النحوية في الآية وإنما يكون له أثر خاص في سياق الحمد والتسبيح ، ومن ذلك مثلاً : الوقف المراد به التنزيه كما سيتضح .

ونبدأ بالآيات التي يدخل الوقف والابتداء فيها ضمن القسم الأول ، ومن ذلك قوله تعالى في سياق الحمد : ﴿الرَّكْبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (إبراهيم : ١ ، ٢) .

قال أبو عمرو الداني(ت: ٤٤٤هـ): " من قرأ (الله الذي) بالرفع على الابتداء وجعل الخبر فيما بعده وقف على (الحميد) ، ومن قرأ بالخفض على البذل لم يقف على (الحميد) ، ووقف على (ما في الأرض) ، وهو تام على القراءتين " ^(١٥٠) أي إنّ في النصّ خيارين :

الأول : الوقف على (الحميد) ، ويكون المعنى أنّ الناس يخرجون من الظلمات إلى النور الذي هو صراط ربهم العزيز بقوته المحمود بآلائه^(١٥١)، ثم الابتداء بـ (الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض) بالرفع، وهي قراءة نافع وابن عامر^(١٥٢) على أنه مبتدأ ، خبره قوله تعالى : (الذي له ما في السماوات وما في الأرض) كما هو واضح من كلام الداني السابق ، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هو الله المتصف بملك ما في السماوات وما في الأرض^(١٥٣) ، فالجمله - على قراءة الرفع - خبرية مستأنفة لا علاقة لها بما قبلها ، جاءت لإثبات ملك الله تعالى لما في السماوات والأرض . غير أنّ لأبي السعود رأياً في هذا

(٧) ينظر : علم الأصوات ، البهناوي : ١٧٠ ، التذكير والتعريف في سياق النظم القرآني (رسالة) ، شعلان عبدعلي سلطان : ٣٢ .

(١) المكتفى في الوقف والابتداء : ٢٢٤ .

(٢) ينظر : جامع البيان : ٢١٣ / ١٣ .

(٣) ينظر : التذكرة في القراءات ، أبو الحسن بن غلبون : ٣٢ ، التيسير في القراءات السبع ، أبو عمرو الداني : ١٣٤ ، النشر في القراءات العشر : ٢٢٤ / ٢ .

(١) ينظر : الكشف : ٥٤٤ ، فتح القدير : ١٤٤ / ٣ .

الاستئناف فهو يرى أنّ التقدير: " هو الله أي العزيز الحميد الذي أضيف إليه صراط الله " (١٥٤) وعنده أنّ قراءة الرفع على هذا التقدير وقراءة الجر يحملان نكتة في الآية ، وهي أنّ فيها بيانا لكمال فخامة الصراط وإظهارا لتحتم سلوكه على الناس قاطبة (١٥٥) .

ويفهم من التقدير الذي ذكره والنكتة التي أشار إليها أنّ جملة (الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض) على قراءة الرفع وثيقة الصلة بما قبلها في المعنى وإن كانت مستأنفة من حيث الابتداء بها وكأنه لا يرى أنها مستأنفة لإثبات ملك الله تعالى لما في السماوات وما في الأرض ، وإنما هي مرتبطة بما قبلها ؛ ولذلك نجده لا يحبب كون لفظ الجلالة مبتدأ وما بعده خبرا له ، فيقول : " وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبناه الغفول عن هذه النكتة " (١٥٦) .

وأما الخيار الثاني فهو وصل الكلام والوقف على (وما في الأرض) ، وعلى هذا فإنّ لفظ الجلالة لا يكون إلا مجرورا ، وهي قراءة الجمهور (١٥٧) . وعليها رسم المصحف ، ويكون لفظ الجلالة " عطف بيان للعزيز الحميد ؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام ؛ لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحقق له العبادة كما غلب النجم في الثريا " (١٥٨) . وقيل : يجوز أن يوصف به من حيث المعنى ، وقيل : إنّ قراءة الجر محمولة على التقديم والتأخير ، والتقدير : إلى صراط الله العزيز الحميد (١٥٩) ، وعلى هذا الوقف يكون المعنى متصلا أي إنّ صراط العزيز الحميد هو صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض أيضا ، لا أنّ هذه الجملة الأخيرة جاءت لإثبات ملك الله تعالى لما في السماوات وما في الأرض فهي منقطعة في المعنى عما قبلها ، وبهذا تكون النكتة التي ذكرها أبو السعود متحققة هنا كما ألمحنا من قبل .

ومن مواضع الوقف والابتداء في سياق الشكر قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ

نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٥﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس : ٣٤ ، ٣٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم : ٢٣٠/٤ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٥) ينظر : التذكرة في القراءات : ٣٢٠ ، غيث النفع في القراءات السبع ، الشيخ علي النوري السفاقي : ٣٤٠ .

(٦) الكشف : ٥٤٤ ، وينظر : إرشاد العقل السليم : ٢٣٠/٤ .

(٧) ينظر : فتح القدير : ١١٤/٣ .

فإما أن نقف على (وما عملته أيديهم) ، وهو وقف كاف ، أو نقف على (ليأكلوا من ثمره) وهو وقف كاف أيضا ^(١٦٠) ونبتدئ بـ (وما عملته أيديهم) ، فهل لتغيّر موضع الوقف والابتداء أثر على الوظيفة النحوية التي تؤدي إلى اختلاف الدلالة ؟

ذكر المفسرون أنّ (ما) على الوقف الأوّل اسم معطوف على قوله (ثمره) ^(١٦١) وهي موصولة بمعنى الذي ، كأنه قال : والذي عملته أيديهم من الغراس بعد تفجير العيون يأكلون منه أيضا ، ويأكلون من ثمر الله الذي أخرجه من غير سعي من الناس ، وهو يحتمل أن يكون ما عمله أيدي الناس هو عملهم بالتجارة فكأنه ذكر نوعي ما يأكل الإنسان بهما وهما الزراعة والتجارة ، وذكر أنّ من النبات ما يؤكل من غير عمل الأيدي كالعنب والتمر ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة كالأشياء التي لا تؤكل إلا مطبوخة ، وكالزيتون الذي لا يؤكل إلا بعد إصلاح ^(١٦٢) ، ويؤكد هذا المعنى قراءة (وما عملت أيديهم) بلا هاء ^(١٦٣) ؛ لأنّ حذف العائد من الصلة أحسن من حذفه من غيرها ^(١٦٤) ، وعلى هذا الوقف يكون المعنى أنّ على الناس أن يشكروا الله الذي أنعم عليهم بجعل مأكّلهم من ثمر النخيل والأعناب الذي لا عمل لأيديهم فيه ومما لا يؤكل من الثمار إلا أن تعمل فيه أيديهم شيئا من طبخ وغيره وكل من عند الله فهي نعمة على نعمة .

أمّا على الوقف الثاني فإنّ (ما) في الآية تكون نافية والمعنى : وما عملت تفجير العيون أيديهم ^(١٦٥) ، أو ليأكلوا من ثمر النبات الذي لم تعمله أيديهم وإنما أنبتته الله تعالى ^(١٦٦) ، ويكون المعنى على هذا الوقف أنّ على الناس أن يشكروا هذه النعمة التي لم يكن لأيديهم فيها أي عمل بأيّ شكل من الأشكال ، وهذا ما أفادته الجملة المنفية ليكون تذكيرا لهم بأنّ كلّ ما عندهم من نعم هو من فضل الله عليهم وتحضيضًا على شكره تعالى .

ومما جاء في سياق التسييح قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣١) .

-
- (١) ينظر : كتاب القطع والانتناف : ٥٩٨ .
 - (٢) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، الكشف : ٨٩٤ ، مجمع البيان : ٥٤٦/٨ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ١٨٢ / ٢ .
 - (٣) ينظر : التفسير الكبير : ٢٧٤ / ٢٦ .
 - (٤) ينظر : كتاب السبعة في القراءات ، ابن مجاهد : ٥٤ ، المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة ، د. محمد سالم محيسن : ١٧٦ .
 - (٥) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٤٩٥ / ٥ .
 - (١) ينظر : النكت والعيون ، أبو الحسن الماوردي : ١٦ / ٥ ، التفسير الكبير : ٢٧٤ / ٢٦ .
 - (٢) ينظر : النكت والعيون : ١٦ / ٥ ، إرشاد العقل السليم : ٤٩٥ / ٥ .

إذ يجوز الوقف على (إلها واحدا) وهو وقف كاف^(١٦٧) يصلح الابتداء بما بعده ويجوز أن يكون الوقف على (لا إله إلا هو) وتكون هذه الجملة صفة ثانية لـ (إلها)^(١٦٨)، تأكيداً لمعنى وحدانية الله تعالى وتنزيهاً له عن الشريك في سياق الإخبار عن قوم اتخذوا رؤساءهم ونبههم أرباباً من دون الله .

وقد اختار صاحب تفسير المنار الوقف الأول والابتداء بـ (لا إله إلا هو) لنكتة إذ يقول : " وهذه الجملة استئناف بياني لا صفة ثانية لـ (إله) فهي تعليل للأمر بعبادة إله واحد بأنه لا وجود لغيره في حكم الشرع ولا في نظر العقل وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بمحض الهوى والجهل " ^(١٦٩) . ويلاحظ أنه لا يمكن الحصول على هذه النكتة اللطيفة ما لم نبتدئ بقوله تعالى : (لا إله إلا هو) كي تكون استئنافاً مبيناً لعله الأمر بالعبادة لا وصفاً لما قبلها .

ومما ورد من اختلاف موضع الوقف والابتداء في سياق التسبيح أيضاً قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص : ٦٨) .

ففي هذه الآية من حيث الوقف والابتداء وجهان:

الوجه الأول: أنه يتم الكلام بالوقف على (يختار) ثم يبدأ بـ (ما كان لهم الخيرة).

والوجه الثاني: أنه يتم الكلام بالوقف على (الخيرة)^(١٧٠) .

ولا شك في أنّ هذا التغير في موضع الوقف والابتداء يؤدي إلى اختلاف في دلالة الآية كما سيتضح إن شاء الله تعالى .

إنّ (ما) على الوجه الأول تكون نافية ، والمعنى: لم تكن لهم الخيرة. أما على الوجه الثاني فهي موصولة ، والمعنى أنّ الله تعالى يختار الذي كان لهم الخيرة من خلقه أي يختار لهم الأخير منهم^(١٧١) .

قال الزجاج : " أجود الوقوف على (ويختار) وتكون (ما) نفيّاً ، والمعنى : ربك يخلق ما يشاء وربك يختار ، ليس لهم الخيرة وما كانت لهم الخيرة ، أي ليس لهم أن يختاروا على الله

(٣) ينظر : المكتفى في الوقف والابتداء : ١٩٦ .

(٤) ينظر : فتح البيان في مقاصد القرآن ، أبو الطيّب القنوجي البخاري : ٢٨٧/٥ ، تفسير روح البيان ، الشيخ إسماعيل البروسوي : ٥٢٩/٣ .

(٥) تفسير المنار : ٣٤٠/١٠ .

(١) ينظر : كتاب القطع والانتناف : ٥٤٨ ، المكتفى في الوقف والابتداء : ٢٨١ .

(٢) ينظر : جامع البيان : ١١٦/٢٠ ، كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل ، أبو بكر محمد ابن القاسم بن بشار الأنباري : ٨٢٤/٢ ، كتاب القطع والانتناف : ٥٤٨ ، تفسير التبيان : ١٧٠/٨ .

، هذا وجه ، ويجوز أن تكون (ما) في معنى (الذي) فيكون المعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة ويكون معنى الاختيار ههنا ما يتعبد بهم به أي : ويختار لهم فيما يدعوهم إليه من عبادته ما لهم فيه الخيرة والقول الأول أجود أي أن تكون (ما) نفيًا " (١٧٢) .

وقد ذكر الوجهين الزمخشري ، وقال في الوجه الأول : " (ما كان لهم الخيرة) بيان لقوله (ويختار) ؛ لأنّ معناه ويختار ما يشاء ولهذا لم يدخل العاطف والمعنى أنّ الخيرة لله في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه " (١٧٣) .

ويفهم من هذا أنّ عدم دخول العاطف أبلغ من دخوله ، فلو قيل في غير كتاب الله تعالى : وربك يخلق ما يشاء ويختار وما كان لهم الخيرة ، لما اتضح أنّ (ما كان لهم الخيرة) بيان لما قبلها ، فكون الله تعالى يخلق ما يشاء ويختار يعني أنّ لا اختيار لغيره في شيء من ذلك ولمّا كان لا اختيار لغير الله في شيء فهذا يعني أنّ الاختيار لله وحده ، وكأنّ بين الجملتين كمال الاتصال في المعنى مما يمنع الوصل (العطف بالواو) بينهما (١٧٤) ، ولو عطف بين الجملتين لفاتت نكتة عدم دخول العاطف التي ذكرها الزمخشري ، وفي ذلك ما يرجح الوقف على (يختار) والابتداء بـ(ما كان لهم الخيرة) .

وقد فسّر الآية على الوجه الأول دونما إشارة إلى الوجه الثاني الواحدي النيسابوري (ت: ٤٦٨ هـ) والنسفي (ت: ٧١٠ هـ) ، والشيخان الجلالان ، والسيد عبد الله شبر (ت: ١٢٤٢ هـ) ، والسيد الطباطبائي (١٧٥) .

ومن المفسرين من ذكر الوجهين دونما اختيار لأحدهما ومن هؤلاء الشيخ الطوسي ، والماوردي (ت: ٤٥٠ هـ) (١٧٦) .

وقد اختار آخرون الوجه الأوّل بعد أن عرض الوجهين ، فيرى الرازي أنّ الوجه الأوّل هو الأحسن في الآية ، بمعنى ليس لهم الخيرة إذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل (١٧٧) ، وذكر الشوكاني أنّ الصحيح هو الوجه الأوّل لإجماعهم على الوقف عليه ، وأنّ دلالة الآية

(٣) معاني القرآن وإعرابه ، أبو إسحاق الزجاج : ١١٤ / ٤ .

(١) الكشف : ٨٠٨ ، وينظر : تفسير جوامع الجامع ، الشيخ الطبرسي : ٧٥٢ / ٢ .

(٢) ينظر : المطوّل ، شرح تلخيص مفتاح العلوم ، سعد الدين التفتازاني : ٤٤١ ، ٤٤٢ ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدع ، أحمد الهاشمي : ١٧٨ ، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني : ٣٥٩ البلاغة العربية . قراءة أخرى ، د. محمد عبد المطلب : ٣١٠ .

(٣) ينظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، أبو الحسن الواحدي النيسابوري : ٤٠٦ / ١ ، مدارك التنزيل : ١٢٧٥ / ٢ ، تفسير الجلالين ، الشيخ جلال الدين المحلي والشيخ جلال الدين السيوطي : ١٣١ / ٢ ، تفسير القرآن الكريم ، السيد عبد الله شبر : ٣٩٣ ، الميزان : ٦٩ / ١٦ .

(٤) ينظر : تفسير التبيان : ١٧٠ / ٨ ، النكت والعيون : ٢٦٣ / ٤ .

(٥) ينظر : التفسير الكبير : ١١ / ٢٥ .

على هذا الوجه نظير دلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: من الآية ٣٦) ^(١٧٨).

وقد نبّه الشيخ الطبرسي - بعد أن عرض الوجهين - إلى أن لا فرق في المعنى بينهما؛ "لأن حقيقة المعنى فيهما أنه سبحانه يختار وإليه الاختيار ليس دونه الاختيار؛ لأن الاختيار يجب أن يكون على العلم بأحوال المختار ولا يعلم غيره سبحانه جميع أحوال المختار؛ ولأن الاختيار هو أخذ الخير وكيف يأخذ الخير من الأشياء من لا يعلم الخير فيها" ^(١٧٩).

وحقيقة عدم الفرق بينهما أن نفي الاختيار عن غير الله جل وعلا وهو ما يفيد الوجه الأول، وإثبات اختيار الأصلح من قبله تعالى وهو ما يفيد الوجه الثاني بمعنى واحد.

ويبدو أن المناط في اختيار أحد الوجهين في الآية هو أيهما أوفق لسياقها؟ هل هو نفينا عن غيره تعالى الاختيار أو إثباتنا له جلّ شأنه اختيار الأصلح؟ وعلى هذا الأساس يمكننا أن نحكم إلى السياق لبيان أيّ الوجهين أكثر ملاءمة له؟.

ولم أجد - في حدود ما اطلعت عليه من أقوال المفسرين في الآية - من ردّ الوجه الأول واختار الوجه الثاني وهو كون (ما) موصولة لا نافية إلا الطبري الذي وصف القول بأنها نافية بأنه "قول لا يخفى فساد على ذي حجا" ^(١٨٠).

وقد ذكر الطبري لإثبات ما ذهب إليه حججاً لا أحسبها كافية لقصر معنى الآية على الوجه الثاني فقط، ومن ذلك أنه افترض أن أحدا يسأل عن خبر (كان) في حال جعلت (ما) مفعولاً لـ (يختار) وقد وردت (الخيرة) بالرفع فأين خبر (كان) التي اسمها الضمير المستتر فيها العائد على (ما)؟ وأجاب عن ذلك بأن العرب تجعل لحروف الصفات - أي حروف الجر - إذا جاءت الأخبار بعدها أحيانا أخبارا كفعلها بالأسماء إذا جاءت بعدها أخبارها، أي إن (الخيرة) خبر (كان) غير أنه مرفوع بـ (لهم)، واستشهد لذلك بقول عنترة:

أمن سميّة دمع العين تذريف لو كان ذا منك قبل اليوم معروف ^(١٨١)

فـ(معروف) مرفوع بـ (منك) وهو خبر كان.

(١) ينظر: فتح القدير: ٢٢٧/٤.

(٢) مجمع البيان: ٣٣٩/٧.

(٣) جامع البيان: ١١٨/٢٠.

(١) رواية الديوان هكذا:

أمن سميّة دمع العين تذريف لو أن ذا منك قبل اليوم معروف

ينظر: ديوان عنترة بن شداد: ١٨١.

وقول عمر بن أبي ربيعة :

قلت أجيبني عاشقا بحبكم مكلّف

فيها ثلاث كالدّمى وكاعب ومسلف^(١٨٢)

فـ(مكلّف) نعت لـ (عاشقا) وقد رفعه بحرف الصفة وهو الباء^(١٨٣)

وفيما ذكره الطبري نظر من وجهين :

الأوّل : أنّ بعض المفسرين اعتمد على رفع (الخيرة) في تضعيف كون(ما) موصولة ، وترجيح كونها نافية و(الخيرة) اسمها المؤخّر^(١٨٤) ؛ لأنّ (ما) إنّ كانت موصولة لزم نصب (الخيرة) خبرا لـ(كان) .

والثاني : أن جعل (ما) نافية و(الخيرة) بالرفع اسم (كان) أقرب بكثير من جعلها موصولة كما يرى الطبري ؛ وذلك أننا نحتاج - فضلا عن تأويل مجيء خبر(كان) مرفوعا- إلى تقدير العائد (الراجع) من الصلة إلى الموصول ؛ لأنّ الأصل (ويختار ما كان لهم الخيرة فيه) فحذف العائد فيه^(١٨٥) ، وزيادة على ذلك فإنّ محل الشاهد في كلا القولين اللذين استشهد بهما الطبري هو كلمة القافية مما يحتمل أن يكون رفع خبر(كان) ضرورة اقتضتها قافية القصيدة المرفوعة ، وهو أمر شائع عند الشعراء الذين يجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم كما يقال^(١٨٦) .

ومما ذكره الطبري مفعّدا كون الوقف على (يختار) وكون (ما) نافية هو أنّ (ما) لو كانت نافية " كان إنما جحد تعالى ذكره أن تكون الخيرة فيما مضى قبل نزول هذه الآية فأما فيما يستقبلونه فلم الخيرة (....) وذلك من الكلام لاشك خلف لأنّ ما لم يكن للخلق من ذلك قديما فليس ذلك لهم أبدا . وبعد ، لو أريد ذلك المعنى لكان الكلام بـ(ليس) وقيل : وربّك يخلق ما يشاء ويختار ليس لهم الخيرة ليكون نفيا عن أن يكون ذلك لهم فيما قبل وفيما بعد "

(٢) وقد ذكر البيتان في الديوان متفرقين وفيهما اختلاف عن رواية الطبري إذ تقدّم ذكر البيت الثاني برواية: إذا ثلاث كالدمى وكاعب ومسلف

ثم جاء بعده ستة أبيات ثم جاء قوله : قلت فأبني هائم صب بكم مكلف وعلى رواية الديوان يسقط الاستشهاد بالبيت لأنّ (مكلّف) بالرفع على رواية الديوان تعرب صفة مرفوعة ثانية لـ(هائم) أو صفة أولى لـ(صب) أو خبرا ثالثا على معنى تعدد الأخبار أو مبتدأ مؤخرًا وجوبا خبره شبه الجملة من الجار والمجرور (بكم) .

والدمى : مفردا الدمية ، الصورة المنقشة الجميلة ، الكاعب : المرأة التي نهّد ثديها ، المسلف : المرأة التي بلغت خمسة وأربعين عاما . ينظر : ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٢١٥ وها مشها .

(٣) ينظر : جامع البيان : ١١٧/٢٠ .

(٤) ينظر : كتاب القطع والانتاف : ٥٤٨ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ١١٨/٢ .

(٥) ينظر : الكشف : ٨٠٨ .

(١) ويمكن أن يعرب (معروف) في قول عنتره و(مكلّف) في قول عمر بن أبي ربيعة مبتدأين مؤخرين وجوبا والخبر هو ما تقدمهما من شبه الجملة وعلى هذا الإعراب يسقط - أيضا - وجه الاستشهاد بهما .

(١٨٧) ، وليس في ذلك دليل على ما ذهب إليه ؛ لأنّ (كان) قد تأتي ولا يراد منها الإخبار عن الزمن الماضي بل يراد منها الاستمرار والدوام في إخبارها عن الماضي والحاضر والمستقبل (١٨٨)، وقد وردت في القرآن الكريم آيات يؤدي قصر دلالة (كان) فيها على الماضي إلى الكفر بالله تعالى ،ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم : من الآية ٦٤) . فالآية لا تنفي النسيان عنه تعالى في الماضي فقط بل في جميع الأوقات ، وعلى هذا فإنه لا ضير في أن تكون (كان) في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ تفيد الدوام والاستمرار في نفي الخيرة عن الناس في جميع الأوقات لا في الماضي فقط .

وإذا احتكنا إلى سبب نزول الآية والسياق الذي وردت فيه لعلنا نجد ما يرجح كون(ما) نافية ، وأن الوقف على (يختار) فقد روي أن الآية نزلت ردا على قول الوليد بن المغيرة (١٨٩) الذي حكاه القرآن عنه بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١). فمعنى النفي في الآية - أي جعل(ما) نافية في (ما كان لهم الخيرة) - أكثر ملاءمة للردّ على الوليد بن المغيرة الذي يريد أن يختار هو النبوة له أو لرجل عظيم في ظنه ، فجاء القرآن بنفي هذا الاختيار وبيان أنه لا يشاركه تعالى أحد في اختياره ؛ولذلك نزه نفسه عز وجل عن الشريك بقوله : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

ويقودنا إلى هذا المعنى أيضا السياق الذي وردت فيه الآية ، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكْنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ

(٢) جامع البيان : ١١٨/٢٠ .

(٣) ينظر : شرح جمل الزجاجي (الشرح الكبير)، ابن عصفور الأشبيلي : ٤١٢/١، ٤١٣ ، كتاب الكناش في فني النحو والصرف ، عماد الدين الأيوبي الشهير بصاحب حماة : ٣٩/٢ .

(٤) ينظر : أسباب النزول ، الواحدي النيسابوري : ٢٤٩ ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد : ٤٠٦/٣ أسباب النزول القرآني ، د. غازي عناية : ٣٠١ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص: ٦٨ - ٧٢) .

فهذه الآيات قائمة على إثبات الشيء لله تعالى وسلبه عما سواه ، فهو الذي يخلق ما يشاء ، ولا يخلق غيره ، ويعلم ما يخفون وما يعلنون ، ولا يعلم غيره وهو الله لا إله إلا هو ولا إله غيره ، وله الحمد في الدنيا والآخرة ، ولا حمد لغيره ، وله الحكم على كل شيء ، ولا حكم لغيره ، وله التصرف في الليل والنهار ولا تصرف لأحد فيهما غيره، وفي ذلك إشارة إلى أن المراد من الآية أن الله يختار ما يشاء ، ولا اختيار لغيره.

ويتضح من كل ما سبق أن الوجه الثاني وهو الوقف على (يختار) بجعل (ما) نافية هو الأرجح في سياق التسبيح .

ومما يؤدي فيه تغيير موضع الوقف والابتداء إلى تغيير الوظيفة النحوية مما يعطي دلالتين في الآية ، آية وردت في سياق التسبيح يلزم فيها الوقف على موضع معين والابتداء بما بعده ، وإلا أعطت دلالة تتعارض مع توحيد الله تبارك وتعالى فضلا عن تسبيحه، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُتْقِنَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: ١٧١) . إذ يلزم - في هذه الآية - الوقف على (سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ) والابتداء بـ (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) ؛ لئلا يتوهم أن الهاء في (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) عائدة على (وَلَدٌ) وأن هذه الجملة صفة لـ (وَلَدٌ) فيكون المعنى أن الله تعالى منزّه عن أن يكون له ولد يملك ما في السموات وما في الأرض ، وهذا مناف للتوحيد بل هو الله الذي لم يتخذ ولداً أي ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

(١) ينظر : المكتفى في الوقف والابتداء : ١٦٢ .

أما بالوقف على (وَدَ) والابتداء بـ (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) فإنه يتضح أَنَّ الهاء عائدة على لفظ الجلالة ، وأنَّ هذه الجملة مستأنفة لإثبات ملك ما في السماوات وما في الأرض لله تعالى وحده دونما سواه ، ويسمى هذا الوقف عند علماء التجويد باللائم^(١٩١) ويرمز له في رسم المصحف بالرمز (م)^(١٩٢).

أما القسم الثاني وهو ما يكون فيه للوقف على موضع معين والابتداء بما بعده أثر خاص في سياق الآية من غير تغيير في الوظيفة النحوية ، فمنه قوله تعالى في سياق الشكر : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ: ١٥) . فالوقف على (وَاشْكُرُوا لَهُ) تام^(١٩٣) ، وقوله (بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) " استئناف للدلالة على موجب الشكر أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور فرطات من يشكره " ^(١٩٤) والابتداء بـ (بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) بعد الوقف على (وَاشْكُرُوا لَهُ) دلَّ على أنه تعالى طلب منهم أن يشكروه ؛ لأنه ربهم الغفور الذي أسكنهم هذه البلدة الطيبة .

ومما ورد في سياق التسبيح قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ بَنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَْلَمُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة: ١١٦) .

يقول صاحب تفسير المنار في الوقف على (مِنْ دُونِ اللَّهِ) عند انتهاء سؤال الله لعيسى -عليه السلام- والابتداء بـ (قال سبحانه) حكاية عنه -عليه السلام- جواباً لسؤال الله تعالى : " مَنْ يسمع أو يقرأ سؤال الله تعالى لعيسى عن عبادة الله ، له ولأمه تتوق نفسه إلى معرفة جوابه -عليه السلام-

(٢) ينظر : غصن البان : ١٣٣ .

(٣) ينظر : مصطلحات الضبط (علامات الوقف) ملحق مطبوع مع المصحف الشريف .

(٤) ينظر : المكتفى في الوقف والابتداء : ٢٩٦ .

(١) أنوار التنزيل : ٤٠٣/٣ .

وتتوجه إلى السؤال والاستفهام ولذلك جاء كأمثاله بأسلوب الاستئناف (قَالَ سُبْحَانُكَ) بدأ -عليه السلام- جوابه بتنزيه إلهه وربّه عز وجل " (١٩٥) فالوقف على نهاية السؤال يثير في النفس التوق إلى معرفة الجواب ، وما تزال كذلك حتى يشفي توقها الابتداء بتنزيه الله تعالى جوابا عن سؤاله جل وعلا .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل: ٨) . فإن وقفنا على (وَمَنْ حَوْلَهَا) وابتدأنا بـ (وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) كان التسبيح خارجا عن النداء الذي نودي به نبي الله موسى -عليه السلام- ، ويكون الوقف على هذا وقفا كافيا (١٩٦) .

أما إذا لم نقف وأتممنا الكلام فإن التسبيح يكون مما قيل في النداء لموسى -عليه السلام- (١٩٧) .
ومن أنواع الوقف ما سمّاه الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ) الوقف مراعاة للتنزيه (١٩٨) وجعل من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قِنْتُونَ ﴾ (البقرة: ١١٦) . قال الزركشي: " وكذلك الوقف على (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) والابتداء بقوله (سُبْحَانَهُ) (...) وذلك أن الله أخبر عنهم بقوله: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ثم ردّ قولهم ونزّه نفسه بقوله (سُبْحَانَهُ) فينبغي أن يفصل بين القولين " (١٩٩) .

ويتّضح جليّا من كل ما سبق ما للوقف والابتداء من أثر في الدلالة في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه .

(٢) تفسير المنار : ٢١٨/٧ .
(٣) ينظر : المكتفى في الوقف والابتداء : ٢٧٣ .
(١) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ٩٩/٢ .
(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٤٨/١ .
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

الدلالة الصوتية في القراءات القرآنية

أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نبيه المصطفى - ﷺ - كتاب هداية لبني البشر حيث قال جلّ وعلا : ﴿الرَّكْبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم : ١) .

فالقرآن الكريم هو الكتاب " المنزل على الرسول المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلا متواترا بلا شبهة " (٢٠٠) .

أمّا القراءات القرآنية فقد تعددت الآراء في تحديد مفهومها (٢٠١) ، فبعضهم يرى أنّها المقصودة بالحديث المروي عن النبي - ﷺ - الذي مفاده أنّ القرآن نزل على سبعة أحرف (٢٠٢) ، ويرى آخرون أنّها اختلاف ألفاظ الوحي في الحروف من تخفيف أو تشديد أو غير ذلك (٢٠٣) ، وهناك من يذهب إلى أنّها جاءت مراعاة اللهجات القبائل العربية وطريقة نطقها (٢٠٤) ، وآخر يحتمل أنّ تكون القراءات اجتهادات من القراء (٢٠٥) .

ولسنا بصدد البحث في هذه التعريفات وبيان الصحيح منها بقدر ما نحن بصدد البحث في القراءات القرآنية من الوجهة اللغوية بعدّها تراثا لغويا كبيرا يشارك إلى حدّ بعيد في إغناء البحث القرآني .

وقد تكون القراءة القرآنية ناتجة عن زيادة كلمة أو حذفها أو تغييرها بكلمة أخرى ، أو تقديمها أو تأخيرها ، وقد يكون الاختلاف منحصرا في كلمة واحدة بحذف بعض حروفها أو زيادتها ، أو تغييرها ، أو التقديم والتأخير فيما بينها أو إمالة بعضها ، أو ترقيقه ، أو تفخيمه أو إدغام بعضها ببعض ، وهذا ما يحدث في كلمتين أيضا ، وقد تكون القراءة ناتجة عن

(١) كتاب التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني : ١٤٢ .

(٢) للتفصيل في هذا الموضوع ، ينظر : القراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني والأحكام الشرعية، د. محمد الحبش : ٢٣-٤٠ .

(٣) ينظر : صحيح مسلم بشرح النووي ، العلامة النووي : ٨٢/٦ ، وينظر في حقيقة ذلك الأمر ، أصول الكافي ، الشيخ الكليني : ٥٩٤/٢ ، البرهان في علوم القرآن : ٢١٤/١ ، البيان في تفسير القرآن : ١٥٩ ، موجز علوم القرآن ، د. داود العطار : ٢٤ .

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٣١٨/١ ، الإتقان في علوم القرآن : ٧٨/١ .

(٥) ينظر : مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح : ١١٣ .

(٦) ينظر : البيان في تفسير القرآن ، أبو القاسم الخوئي : ١٢٣ ، ١٦٣ .

اختلاف حركات حروف الكلمة سواء كانت حركة الحرف الأخير - وهي علامة الإعراب رفعا ونصبًا وجرا - أم حركة ما سواه من حروفها وهو ما يدخل ضمن البنية الصرفية للكلمة^(٢٠٦).

ولما كانت غاييتي من هذا المبحث هي الكشف عن أثر اختلاف الأصوات في القراءات القرآنية في الدلالة وما تشيعه من معانٍ يحتملها السياق ، فإنني سأقصر البحث على القراءات الناتجة عن اختلاف أصوات الكلمة الواحدة زيادة وحذفًا وتقديما وتأخيرًا وتغييرًا ، سواء كانت هذه الأصوات صامتة أم صائتة ، والصائتة طويلة أم قصيرة^(٢٠٧) ، ومما لا شك فيه أنّ الاختلاف في الصوائت والصوامت يؤدي إلى اختلاف الدلالة^(٢٠٨).

ونبدأ بالقراءات الناتجة عن الاختلاف بالأصوات الصائتة ونفتتحها بقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ مِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٢، ٣، ٤) حيث قرئت لفظة (مالك) بتقصير الصائت الطويل (الألف) ليعود إلى أصله صائتًا قصيرًا (الفتحة) في (ملك) ، وهذا ما يقول به الصوتيون المحدثون الذين لم يرتضوا ما ذهب إليه القدماء من أنّ الألف في هذا المثال أو ما شابهه قد حذفت ، وقالوا بأنّ الألف - الصائت الطويل كما يسمونه - قد قصر إلى صائت قصير ، وهو الفتحة التي تلي الميم في النطق^(٢٠٩) ويعبّر عن ذلك بالكتابة الصوتية هكذا: / م - ل - ك / ، صارت: / م - ل - ك /.

ولم يكن القدماء بمنأى عن هذه الحقيقة فقديمًا قال ابن جني: " اعلم أنّ الحركات أبعاض حروف المدّ واللين (...) فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمّون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة " ^(٢١٠).

وزاد ذلك وضوحًا بقوله: " ويدلك على أنّ الحركات أبعاض الحروف أنّك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه " ^(٢١١).

-
- (١) للإطلاع على أنواع اختلاف القراءات عن رسم المصحف وأمثلتها ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٢١٣/١ وما بعدها ، القراءات القرآنية تاريخ وتطور ، د. عبد الهادي الفضلي : ١٠١ ، ١٠٣ ، الاختلاف بين القراءات ، أحمد البيلي : ١١٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٩ ، ٤٠٥ ، الكوفيون والقراءات ، د. حازم سليمان الحلي : ٢١ ، ٢٢ .
- (٢) الأصوات الصامتة : هي جميع حروف العربية ما عدا الألف المفتوح ما قبلها ، والواو المضموم ما قبلها والياء المكسور ما قبلها فهذه تسمى بالصائتة الطويلة وهي ناتجة عن إطالة الصوت بالصائتة القصيرة التي هي الفتحة والضمة والكسرة ، وقد تسمى الصامتة بالساكنة أو الجامدة ، والصائتة بأصوات اللين أو الذوائب ينظر : الأصوات اللغوية : ٢٦ ، في صوتيات العربية : ٦٥ ، المدخل إلى علم أصوات العربية : ٧٤ .
- (٣) ينظر : علم اللغة العام (مقدمة للقارئ العربي) : ١٩٦ ، ١٩٧ .
- (٤) ينظر : دراسات في علم أصوات العربية ، د. داود عبده : ٤٣ وما بعدها ، أصوات اللغة العربية : ١٠٠ .
- (١) سر صناعة الإعراب : ٣٣/١ .
- (٢) المصدر نفسه : ٣٤/١ ، وينظر : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، د. حسام سعيد النعيمي : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

فإذا استطال الصوت بالفتحة صارت ألفا ، وإذا استطال بالكسرة صارت ياء وبالضمة صارت واوا ، وإذا قصر الصوت عادت الألف فتحة ، والياء كسرة والواو ضمة .

وهذا ما يدلنا على أنّ القدماء كانوا على دراية واضحة بهذه الحقيقة^(٢١٢) ولنتبين الآن ما أثره تقصير الصائت الطويل في قراءة (ملك) من أقوال وآراء ذكرها المفسرون ليوازنوا بين القراءتين ويرجحوا أيهما أبلغ في حمد الله جلّ وعلا .

ذكرت كتب القراءات وكتب التفسير هذه القراءة^(٢١٣) ، وقد أطل بعض العلماء الحديث في الفرق بين (مالك) و(ملك) ، وأسهب في ما قيل فيها ترجيحاً أو تفنيذاً منهم أبو علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ) في كتابه (الحجة في علل القراءات السبع)^(٢١٤) ، والطبري في تفسيره^(٢١٥) ، والقرطبي في تفسيره^(٢١٦) .

قال الطبري : " ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب أن الملك من (المُلْك) مشتق ، وأنّ المالك من (المِلْك) مأخوذ " ^(٢١٧) . وأوضح الراغب الأصفهاني المراد من المُلْك والمِلْك فقال في الأول : " والمُلْك الحق الدائم لله لذلك قال ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ " ^(٢١٨) ، وقال في الثاني : " والمِلْك ضربان : مِلْك هو التملك والتولي ، ومِلْك هو القوة على ذلك تولّى أم لم يتولّ " ^(٢١٩) .

ثم قال : " فالمِلْك ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم والمِلْك كالجنس للمُلْك . فكل مِلْكٍ مِلْكٌ وليس كلُّ مِلْكٍ مِلْكًا " ^(٢٢٠) .

وعلى هذا الأساس من العموم والخصوص شاع في كلام المفسرين قولهم : كلٌّ مِلْكٍ مالكٌ وليس كلٌّ مَالِكٍ مِلْكًا ^(٢٢١) . ف(مِلْك) أعمّ من (مَالِك) ولذلك اختارها أكثر المفسرين إذ

-
- (٣) ينظر : تأصيل المصطلح الصوتي (بحث) : ١٧ .
 (٤) ينظر : الحجة في القراءات السبع ، ابن خالويه : ٢٠ ، إبراز المعاني من حرز الأمان في القراءات ، عبد الرحمن المعروف بابي شامة الدمشقي : ٧٠ ، كتاب معاني القراءات ، الأزهرى : ٢٦ ، التيسير في القراءات السبع : ١٨ ، كتاب العنوان في القراءات السبع ، أبو طاهر المقرئ الأنصاري : ٦٧ ، تقريب النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري : ٣٧ ، غيث النفع في القراءات السبع : ٤٠ .
 (٥) ينظر : الحجة في علل القراءات السبع ، أبو علي الفارسي : ١٥٠/١ .
 (٦) ينظر : جامع البيان : ٧٨٧٥/١ .
 (٧) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ٩٨/١-١٠٠ ، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن الشيخ محمد الأمين الهرري الشافعي : ٦٣/١ .
 (٨) جامع البيان : ٧٦/١ ، وينظر : معاني القرآن ، النحاس : ٢٤ / ١ ، تفسير المنار : ٤٩/١ .
 (١) مفردات ألفاظ القرآن : ٧٧٥ ، والنص القرآني من (التغابن : من الآية : ١) .
 (٢) المصدر نفسه : ٧٧٤ .
 (٣) المصدر نفسه : ٧٧٥ .
 (٤) ينظر : الحجة في القراءات السبع : ٤٠ ، الحجة في علل القراءات السبع : ٥ ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد : ٦٧ / ١ ، معالم التنزيل : ١٤ / ١ ، الكشف : ٣٨ .

إنَّ " في الإقرار له بالإنفراد بالملك إيجاباً لانفراده بالملك " (٢٢٢) وقال القرطبي بعد ذكره وجوه القراءتين " وقد ثبتت القراءة بـ (ملك) وفيه من المعنى ما ليس في (مالك) " (٢٢٣) وهي المختارة عند البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ) ؛ لما فيها من التعظيم (٢٢٤) .

ومن المفسرين من يشير إلى أنَّ معنى القراءتين ثابت في حق الله تعالى ثم يرجح أو يختار قراءة (ملك) لأسباب اختلفت من واحد لآخر ، فصاحب تفسير المنار محمد رشيد رضا لم يوافق أستاذه الشيخ محمد عبده الذي رجَّح قراءة (مالك) ورجَّح هو قراءة (ملك) ؛ " لأنَّ معناها المتصرّف في أمور العقلاء المختارين بالأمر والنهي والجزاء ولهذا يقال : ملك الناس ولا يقال : ملك الأشياء (...) وإنما كان هذا أبلغ ؛ لأنَّ السياق يدلنا على أنَّ المراد بالآية تذكير المكلفين بما ينتظرهم من الجزاء على أعمالهم رجاء أن تستقيم أحوالهم (...) والقراءة في الصلاة بـ (ملك) تثير من الخشوع ما لا تثيره القراءة الأخرى " (٢٢٥) .

ويلوح السيد الطباطبائي بترجيحه قراءة (ملك) من دون أن يصرّح فيقول : " والذي تعرفه اللغة والعرف أنَّ الملك هو المنسوب إلى الزمان يقال : ملك العصر الفلاني ولا يقال : مالك العصر الفلاني إلا بعناية بعيدة وقد قال تعالى (ملك يوم الدين) فنسبه إلى اليوم وقال أيضاً ﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ " (٢٢٦) .

أمّا من اختار قراءة (مالك) وهي القراءة التي عليها رسم المصحف فإنّه يرى أنّه قد يدخل في (الملك) ما لا يصحّ دخوله في (الملك) فيقال مثلاً : فلان مالك الدراهم والطيور ولا يقال : ملك الدراهم والطيور . والله تعالى مالك كل شيء وقد وصف نفسه بأنّه مالك الملك فقال: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ (آل عمران : من الآية ٢٦) . فوصفه جلّ وعلا بالملك أبلغ في الثناء وأعمّ من وصفه بالملك (٢٢٧) .

ويرى ابن عطية أنَّ القراءتين حسنتان ، وأنَّ الله تعالى مالك يوم الدين ومَلِكُهُ (٢٢٨) ، غير أنّه يرجح قراءة (مالك) ويمثل لاختلاف المعنيين بينهما بقوله : "مثال ذلك أن نقدر مدينة أهلة عظيمة ثمّ نقدر لها رجلاً يملكها أجمع أو رجلاً هو ملكها فقط إنّما يملك التدبير

(٥) جامع البيان : ٧٦/١ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن : ٩٩/١ .

(٧) ينظر : أنوار التنزيل : ١٠/١ .

(٨) تفسير المنار : ٤٩/١ .

(١) الميزان : ٢٠/١ ، والنص القرآني من (غافر : من الآية ١٦)

(٢) ينظر : الحجة في علل القراءات السبع : ٨/١ ، الفروق اللغوية : ٢٠٦ ، ٢٠٧ معالم التنزيل : ١ / ١٤ ، مجمع البيان : ٢٦ ، ٢٥ / ١ .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز : ١٠٧ / ١ .

والأحكام ، فلاشك أنّ المالك أبلغ تصرفاً وأعظم ، إذ إليه إجراء قوانين الشرع فيها كما لكل أحد في ملكه " (٢٢٩) .

وقريب من هذا المعنى ما جاء به الشيخ محمد عبده مفرقاً بين القراءتين ومرجحاً قراءة (مالك) حيث قال : " وإنّما تظهر هذه التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان ولا ريب أنّ مالكة هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه " (٢٣٠) .

ويحتمل السيد عبد الأعلى السبزواري رجحان قراءة مالك ؛ " لأنّ المالكية تشمل ملكية الأجزاء والجزئيات بخلاف (ملك) فإنّ الملكية هي التي تسيطر على الكل " (٢٣١) .

وقد جاء في تفسير القرطبي : " وقال أبو حاتم : إنّ (مالكا) أبلغ في مدح الخالق من (ملك) و(ملك) أبلغ في مدح المخلوقين من (مالك) ؛ لأنّ المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك ، وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا " (٢٣٢) وذلك ؛ لأنّ "الألفاظ الدالة على صفات الله ذات دلالة لا نهائية إذا جاءت في سياق قرآني وهي ذات دلالة محدودة إذا وصف بها الإنسان " (٢٣٣) .

ولم يرتض علم الدين السخاوي (ت: ٦٦٣هـ) ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى ، وعدّه غلطاً وقع فيه المفسرون ، محتجاً لما ذهب إليه بأنّ القراءتين صحيحتان ، وأنّ الله تعالى قد وصف نفسه بالمالك والملك ، وأنّ ما قيل في القراءتين من مفاضلة إنّما يكون لبني آدم ، أمّا الله تعالى فهو الملك والمالك فوصفه بالملك لا يخرج عن الملك (٢٣٤) .

وفي ما ذهب إليه السخاويّ نظر من جهتين ، الأولى : أنّي لم أجد - في حدود ما اطلعت عليه - من المفسرين الذين رجحوا إحدى القراءتين من قال بعدم صحة القراءة الأخرى التي لم يرحّحها ، بل شاع عندهم وصفهما بأنهما صحيحتان أو حسنتان (٢٣٥) ، وقد روي عن الكسائي قوله " لا أبالي كيف قرأتها (مَلِك) أو (مَالِك) " (٢٣٦) .

والجهة الثانية : أنّ هؤلاء المفسرين قد صرّحوا بشكل واضح بأنّ الله تعالى قد وصف نفسه بالمالك والملك وأنّ المالكية والملكية ثابتتان في حقه تعالى ، غير أنّهم بحثوا في أيّ القراءتين أبلغ في جملة الحمد كما مرّ ، وهذا ديدنهم في بحثهم كثيراً من القراءات

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٥) مشكلات القرآن الكريم وتفسير سورة الفاتحة ، الشيخ محمد عبده : ٤١ .

(٦) مواهب الرحمن في تفسير القرآن ، السيد عبد الأعلى السبزواري : ١ / ٣٤ .

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٩٩ / ١ ، وينظر : فتح القدير : ٢٤ / ١ .

(٢) نظرية جديدة في دلالة الكلمة القرآنية ، د. عبد الصبور شاهين ، بحث منشور في كتاب (بحوث في اللغة والأدب) إشراف د. سهام الفريخ : ٦٨ .

(٣) ينظر : فتح الوصيد في شرح القصيد ، علم الدين السخاوي : ٢٨٢ / ١ .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز : ١٠٧ / ١ ، الجامع لأحكام القرآن : ٩٨ / ١ ، تفسير القرآن العظيم : ٢٤ / ١ ، تفسير المنار : ٤٩ .

(٥) المبسوط في القراءات العشر ، أبو بكر الأصبهاني : ٤ ، وينظر : إبراز المعاني من حرز الأمان : ٧٠ .

ومحاولتهم بيان أيّ قراءة أبلغ في سياق الآية ، فترجيح القراءة بـ (مَلِك) لا يعني أنّ الله جلّ وعلا ليس (مَالِكًا) والعكس صحيح .

والغريب أنّ السخاوي بعدما أنكر على المفسرين الترجيح بين القراءتين قال : " وملك معدول عن مالك للمبالغة " (٢٣٧) . ويشمّ من قوله هذا رائحة ترجيح قراءة (ملك) ؛ لأنها أبلغ من القراءة الأخرى وهذا ما أنكره بعينه .

وبعد أن عرفنا أن المعنى الذي تفيده كل قراءة من هاتين القراءتين ثابت في حق الله تعالى ، وأنّ وصفه تعالى بأحدهما لا يعني انتفاء اتصافه جلّ وعلا بالآخر كما أننا إذا وصفناه عزّ وجلّ بأنه شديد العقاب فهذا لا يعني أنه ليس غفوراً رحيماً بل هو كما قال سبحانه : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٩٨) .

أقول بعد أن عرفنا ذلك : إنه يمكن القول بأنّ من يقرأ (مالك يوم الدين) فهو يحمّد الله تعالى بأنّه المالك للأشياء صغيرها وكبيرها المتصرف بدقائقها ، وأنّ من يقرأ (ملك يوم الدين) فهو يحمّد الله تعالى بأنّه الملك الذي له سلطة الحكم والتدبير والقوة المسيطرة على الجميع .

وبعد أن أخذنا قراءة (ملك) مثلاً لتقصير الصائت الطويل نأخذ الآن مثلاً على إطالة الصائت القصير ليصير صائتاً طويلاً ، وذلك قراءة (أفئدة)^(٢٣٨) في قوله تعالى في سياق الشكر حكاية عن إبراهيم -عليه السلام- في دعائه لذريته ، قال تعالى : ﴿فَجَعَلْ أَفِدَّةً مِنَ النَّاسِ

تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم من الآية: ٣٧) . حيث صار الصائت القصير (الكسرة) صائتاً طويلاً (ياءً مدية) وقد يكون لإطالة الصائت القصير تأثير في معنى الكلمة وقد لا يكون^(٢٣٩) .

وإطالة الصوت في (أفئدة) لا تغيّر من معنى الكلمة غير أنّ لها تأثيراً في المعنى العام فهي تشعر بقوة المعنى في الكلمة والمبالغة فيه ، وبعبارة أخرى : كأنّ هذه الإطالة تنبئ عن أهمية هذه الكلمة في دعاء إبراهيم -عليه السلام- ، لا سيما أنّ صاحب كتاب إتحاف فضلاء

(١) فتح الوصيد : ٢٨٢ / ١ .

(٢) ينظر : جامع البيان في القراءات السبع المشهورة ، أبو عمرو الداني : ٥٧٩ ، كتاب التيسير في القراءات السبع : ١٣٥ ، الإقناع في القراءات السبع ، أبو جعفر الأنصاري : ٣٧ ، الكنز في القراءات العشر ، عبد الله بن عبد المؤمن الواسطي : ٥٢٤ / ٢ .

(٣) ينظر : دراسات في علم أصوات العربية : ٢٥

البشر قد صرّح بأنّ زيادة الياء " بعد الهمزة لغرض المبالغة " (٢٤٠) كما أشار إلى أنّها لغة المشبّعين على حدّ قولهم : الدراهم والصياريف وليست ضرورة (٢٤١).

ومما هو جدير بالذكر أنّ علماء التجويد يسمّون الإطالة في مثل هذا المثال وما شابهه بمدّ البدل الذي ينتج عن وقوع أحد حروف المدّ بعد الهمزة مثل : آدم أوتوا ، إيمان (٢٤٢) .

وقد اجتمع تقصير الصائت وإطالته في قراءتي لفظة (يرضه) من قوله تعالى في سياق الشكر: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر من الآية: ٧) فالقراءة التي توافق رسم المصحف (يرضه) بتقصير الصائت ، وقرئت (يرضه) بإطالته (٢٤٣) .

وقد ذكر علماء التجويد هذه المسألة ضمن مدّ الصلة الصغرى وهو مدّ خاص بصلة هاء الضمير المفرد المذكر الغائب إذا وقعت بين حرفين متحركين (٢٤٤). وحكمه عند القراء الإشباع ، ومن إشباعه في حالة الرفع يتولّد واو وفي حالة الكسر يتولد ياء ، ويسمى هذا الواو والياء (واو الصلة) و(ياء الصلة) (٢٤٥) وبعبارة أخرى : يمدّ الصوت بالصائت القصير (الضمة) فيتولد الصائت الطويل (الواو) وبالصائت القصير (الكسرة) فيتولد الصائت الطويل (الياء) ، وقد اجتمع لكل صلة مثالان في قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ

وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر : ٦٧) . (قدره - بيمينه) وتلفظ : قدرهه - بيمينه ، ويرمز لها في المصحف بياء صغيرة بعد الهاء ، (قبضته - سبحانه) وتلفظ : قبضتهو - سبحانهو ، ويرمز لها في المصحف بواو صغيرة بعد الهاء .

ويشترط لهذا المدّ أن تقع الهاء بين متحركين كما مرّ في التعريف فإنّ سبقت الهاء بساكن قصر الصائت الطويل مثل : منه ، عليه ، أنزلناه ، واستثنى من ذلك (فيه) في قوله

- (١) إتحاف فضلاء البشر في قراءات الأربعة عشر ، شهاب الدين الدميّطي : ٣٤٣ .
- (٢) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، قراءة الكسائي من القراءات العشر المتواترة ، أحمد الحفيان : ٨٠ .
- (٣) ينظر : التجويد ، إعداد لجنة في كلية أصول الدين في قم المقدسة : ٤٢ .
- (٤) ينظر : السبعة في القراءات : ٥٦١ ، كتاب التيسير في القراءات السبع : ١٨٩ ، جامع البيان في القراءات السبع المشهورة : ٦٩٦ ، الكافي في القراءات السبع ، أبو عبد الله الرعيني الأندلسي : ١٩٧ ، وهناك قراءة ثالثة في اللفظة هي (يرضه) بسكون الهاء ، قيل : هي لغة لبني كلاب وبني عقيل إجراء للوصول مجرى الوقف ، ينظر : البحر المحيط : ٤٠١/٧ ، البدر المنير في قراءة نافع وأبي عمرو وابن كثير ، عمر بن قاسم الأنصاري : ٤٤٩ ، روح المعاني : ٢٣٤/١٢ .
- (٥) ينظر : التطور النحوي للغة العربية ، المستشرق برجشتراسر : ٦٧ ، التبسيط لأحكام التجويد ، ملحق مطبوع مع المصحف الشريف (مصحف التفخيم) : ٦٣٥ .
- (٦) ينظر : غصن البان : ١١٥ .

تعالى: ﴿يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ (الفرقان: ٦٩) لنكتة فإنه يقرأ بصائت طويل ويلفظ (فيهي مهانا) لئلا يتوهم السامع أنه: يخلد فيهم هانا، في حال قُرى بصائت قصير. ويقصر الصائت الطويل أيضا بعد الهاء إن تليت بساكن مثل ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ (البقرة، من الآية: ٢٨٢) و ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ (القصص، من الآية: ٥٣) للتخلص من التقاء الساكنين.

ويبدو مما سبق في شرط مدّ الصلة (إطالة الصائت القصير) أن قراءة (يرضهو) جاءت على وفق هذا الشرط؛ لأنّ الهاء وقعت بين متحركين (يرضه لكم).

يقول ابن خالويه (ت: ٣٧٠هـ) في حجة هذه القراءة: "إنّه لما ذهبت الألف من (يرضى) علامة للجزم أتت الهاء وقبلها فتحة فردّ حركتها إلى ما كان لها في الأصل وأتبعها الواو تبييناً للحركة" (٢٤٦).

ويرى د. تمام حسان أنّ "أضعف ما يكون الحرف إنما يكون وسطا بين حركتين" (٢٤٧) وهذا ما قد يفسر مدّ الصوت بصلة الهاء عندما تكون بين حركتين تقوية لها، لاسيما أنّ الهاء صوت مهموس ضعيف (٢٤٨).

أمّا قراءة (يرضه) بتقصير الصائت الطويل - وهي القراءة التي توافق رسم المصحف - فحجتها - كما يقول الطبرسي - : "أنّ الألف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها؛ لأنّ الكلمة إذا نصبت أو رفعت عادت الألف فصار الألف في حكم الثابت، فإذا ثبت الألف فالأحسن أن لا يلحق الواو نحو قوله تعالى: ﴿فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾ وذلك أنّ الهاء خفيفة فلو لحقتها الواو وقبلها الألف لأشبه الجمع بين الساكنين" (٢٤٩).

(١) الحجة في القراءات السبع: ١٩٩

(٢) اللغة العربية معناه ومبناها: ٣٠٢.

(٣) ينظر: التمهيد في علم التجويد: ٩٧، الأصوات اللغوية: ٧١.

(١) مجمع البيان: ٦٣١/٨ والنص القرآني من (الشعراء، من الآية: ٤٥).

وفي (يرضه لكم) نجد أنّ شرط مدّ الصلة متوافر من حيث وقعت الهاء بين متحركين لكنها لم تمدّ ، فهي اللفظة الوحيدة في المصحف التي لم تمدّ صلتها مع توافر الشرط لمدّها ؛ ولذا نجد علماء التجويد يستثنونها من حكم هذا المدّ (٢٥٠) .

ويبدو أنّ خروج هذه اللفظة من قاعدة مدّ الصلة (إطالة الصائت القصير) يكشف عن نكتة لطيفة في سياق الآية (وإن تشكروا يرضه لكم) ، وهي أنّ هذه الجملة تشترط لرضا الله شكرهم أنّهم يشكرون وجاء عدم مدّ الصلة في جواب الشرط كأنّهم يشعرون بأنّ الله سريع الرضا لشكر من يشكره فحالما يشكره العبد يتحقق رضا الله تعالى لهذا الشكر دونما مدّة بين شكره ورضاه جلّ وعلا وقد ورد في الدعاء : " يا سريع الرضا اغفر لمن لا يملك إلا الدعاء " (٢٥١) .

وإذا كان لحذف الواو من الخط في كلمة (يدع) من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ

نُكِرُ﴾ (القمر ، من الآية : ٦) دلالة على سرعة الدعاء والإجابة (٢٥٢) فإنّ تقصير الصائت الطويل في الأداء الصوتي في كلمة (يرضه) أجدر بأن تكون له دلالة على سرعة الرضا ؛ لأنّ للصوت أثره في النفس .

ومن القراءات الناتجة عن تغيّر الصائت الطويل ما جاء في لفظة (تهوي) من قوله تعالى في سياق الشكر : ﴿فَجَعَلْ أَفُودَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧) إذا قرئت (تهوى) (٢٥٣) بتغيّر الصائت الطويل من الياء إلى الألف، ولا شك في أنّ لهذا التغير تأثيره في الدلالة (٢٥٤) ؛ إذ إنّ معنى القراءة الأولى (تهوي) بالياء تميل إليهم و" تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقا ونزاعا من قوله: يهوي مخارمها هوي الأجل " (٢٥٥) .

-
- (٢) ينظر : التجريد من قواعد التجويد ، الشيخ جلال الدين الحنفي : ١٦ .
 (٣) مفاتيح الجنان : ١٠١ (دعاء كميل بن زياد) وهو من أدعية الإمام علي - عليه السلام - علمه لصاحبه كميل بن زياد فسمي باسمه .
 (٤) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٩٨/١ .
 (١) ينظر : مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع ، ابن خالويه : ٦٩ ، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني : ٣٦٤ ، النكت والعيون : ١٣٨/٣ .
 (٢) ينظر : المنهج الصوتي للبنية العربية ، رؤية جديدة في الصرف العربي : د. عبد الصبور شاهين : ١١ .
 (٣) الكشف : ٥٥٣ ، وعجز البيت لأبي كبير الهذلي واسمه عامر بن الحليس ورواية الديوان : وإذا رميت به الفجاج رأيتَه ينضو مخارمها هوي الأجل
 والفجاج : الطرق الواحد : فج ، وينضو يقطع ويجوز ، المخارم : أنوف الجبال والواحد : مخرم والأجل : الصقر ، ينظر : ديوان الهذليين : ٩٤ / ٢ وهامشها .
 (٤) ينظر : البحر المحيط : ٤٢١/٥ ، ولم أقف على نسبة البيت لقائل معين .

ومثال ما في الآية قول الشاعر :

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمن الجن ككفارها^(٢٥٦)

أي إنها تسير بجد وإسراع^(٢٥٧)، والمتحصل مما سبق يفيد بأن إبراهيم -عليه السلام- دعا الله تعالى أن يتقاطر الناس نحو مكة فتراهم ذريته وهم يسرون إليها فيكون ذلك مدعاة لشكر الله تعالى ، فكان دعاؤه -عليه السلام- لأمر محسوس منظور من ذريته وهو سير الناس نحو مكة التي يسكنون فيها ، ومما يعضد ذلك ما أورده الماوردي من معاني (تهوي إليهم) وهو أن معناها " تنزل إليهم ؛ لأن مكة في وادٍ والقاصد إليها نازل إليها " ^(٢٥٨) .

ومما يعضد هذا المعنى أيضا أن لفظة (تهوي) وردت مرتين في القرآن الكريم الأولى في هذه الآية ، والثانية في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ

أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج : ٣١) فاستعملت للدلالة على الهبوط من أعلى إلى أدنى وهو أمر محسوس .

أما قراءة (تهوى) فهي بمعنى تهواهم^(٢٥٩) ، وتحبهم^(٢٦٠) وإنما عدّي بـ (إلى)؛ لأنه محمول على المعنى ألا ترى أن معنى هويت الشيء ملت إليه^(٢٦١) ، أو أنه تضمن معنى الشوق والنزوع^(٢٦٢) ، وهو كما قال تعالى: ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ (النمل، من الآية: ٧٢) يريد :

ردفكم^(٢٦٣) ، ودلالة هذه القراءة أن إبراهيم -عليه السلام- دعا الله تعالى أن يجعل في قلوب الناس محبة لذريته فهو دعاء لأمر معنوي وليس محسوسا كما أفادت القراءة الأخرى وإذا ألقى الله تعالى على إنسان محبة في قلوب الناس فإن هذه نعمة كبيرة تستوجب الشكر ؛ ولذلك ذكرها تعالى في مقام تعداد النعم على موسى -عليه السلام- فقال عز من قال: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي

وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (طه، من الآية : ٣٩).

(٥) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ١ / ٤١٢ .

(٦) النكت والعيون : ٣ / ١٣٨ .

(١) ينظر : معاني القرآن ، أبو زكريا الفراء : ٧٨/٢ .

(٢) ينظر : المحتسب : ٣٦٤/١ ، تفسير جوامع الجامع : ٢٨٧/٢ .

(٣) ينظر : المحتسب : ٣٦٤/١ .

(٤) ينظر : البحر المحيط : ٤٢٢/٥ .

(٥) معاني القرآن ، الفراء : ٧٨/٢ .

ومعنى (يهوى) يرجع بالأصل إلى معنى (يهوي) غير أن ذلك لا يمنع من اختلاف الدلالة بينهما كما هو مستفاد من كلام ابن جني فهو يقول " ومنه قولهم : هويت فلانا فهذا من لفظ : هوى الشيء يهوى إلا أنهم خالفوا بين المثالين لاختلاف ظاهر الأمرين وإن كانا على معنى واحد متلاقين " (٢٦٤).

ويبدو أنه كرجوع كثير من الألفاظ التي تدل على أمر معنوي إلى أصلها الذي يدل على أمر محسوس كلفظة العقل التي أصلها " الإمساك والاستمساك كعقل البعير بالعقل " (٢٦٥). وكأن معنى هويت فلانا أنني أهوى إليه واتجه نحوه ، والذي أفهمه من قول ابن جني : (لاختلاف ظاهر الأمرين) أنهما الأمر المحسوس الذي تفيدته قراءة (تهوى) بالياء والأمر المعنوي الذي تفيدته قراءة (تهوى) بالالف والمعنى على القراءة الأولى أن ذرية إبراهيم - ﷺ - تشكر الله تعالى حينما تبصر الناس يتوافدون عليهم ويهوون نحوهم ، وعلى القراءة الثانية أنهم يشكرون الله حينما يعلمون أنه جعل في قلوب الناس محبة لهم .

ومن القراءات الناتجة عن تغيير بعض الصوائت والصوامت ما جاء في لفظة (يسيركم) من قوله تعالى في سياق الشكر: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرْنَ بِيْهِمْ رِيْحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُجِيتْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ ﴾ (يونس: ٢٢) فقد قرئ (ينشركم) بفتح الياء ونون وشين (٢٦٦).

لقد ابتدأت الآية بذكر نعمة من نعم الله تعالى على الناس في البر والبحر مما يستلزم شكرها ، وهذه النعمة على قراءة (يسيركم) هي تسييرهم في البر والبحر فـ(يسيركم) من السير (٢٦٧) أي " يحملكم في البر على الدواب وفي البحر على الفلك ، قال الكلبي : يحفظكم في السير " (٢٦٨) . أمّا على قراءة (ينشركم) فالنعمة التي تستلزم الشكر هي أن الله عز وجل ينشر الناس فيبسطهم برا وبحرا فـ(ينشركم) من النشر وهو البسط ، من قول القائل : نشرت

(٦) المحتسب : ٣٦٤/١ .

(٧) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٧٨ .

(١) ينظر : كتاب السبعة في القراءات : ٣٢٥ ، كتاب التفسير في القراءات السبع : ١٢١ ، الكافي في القراءات السبع : ١٢٦ ، الكنز في القراءات العشر : ٥٠٢/٢ ، وفي اللفظة قراءتان أخريان الأولى : (ينشركم) من (أنشر) بمعنى (أحيا) والثانية : (ينشركم) بالتشديد من النشر أيضا ، ينظر : روح المعاني : ٩١/٦ .

(٢) ينظر : جامع البيان : ١١٧/١١ ، البحر المحيط : ١٤١/٥ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٥/٨ .

الثوب وذلك بسطه ونشره من طيّه^(٢٦٩). وحجة هذه القراءة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ

الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾

(الجمعة، من الآية : ١٠) ^(٢٧٠) ومن المجاز قولهم: نشر الله الموتى وأنشرهم وأرض ناشرة وظهر نشرها إذا أصابها الربيع فأنبئت^(٢٧١).

فمن نعم الله تعالى على الناس أن يبتهم ويفرقهم ويبسطهم في البر على الظهر وفي البحر على الفلك لعلهم يشكرون^(٢٧٢).

ونختم هذا المبحث بقراءة ناتجة عن تغيير الصامت وذلك ما جاء في قوله تعالى في سياق التسبيح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ

وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفتح : ٨ ، ٩) فـ(تعزروه) بالراء قرئت (تعزروه) بالزاي^(٢٧٣)

و(تعزروه) من التعزير ، وهو "النصرة مع التعظيم"^(٢٧٤) أي : تنصروه وتعظموه ، " والضمائر لله عز وجل والمراد بتعزير الله تعزير دينه ورسوله - ﷺ - " ^(٢٧٥).

وقيل : " الضمير في تعزروه وتوقروه للنبي - ﷺ - وفي تسبحوه لله "^(٢٧٦) ولم يرتض ذلك الألوسي لئلا يلزم فك الضمائر من غير ضرورة^(٢٧٧).

أما (تعزروه) بالزاي فهو من " العزة أي تجعلوه عزيزا وذلك بالنسبة إليه

سبحانه بجعل دينه ورسوله - ﷺ - كذلك " ^(٢٧٨).

(٤) ينظر : جامع البيان : ١١٧/١١ ، تفسير جوامع الجامع : ١٢٠ / ٢ ، التبيان في إعراب القرآن ، أبو البقاء العكبري : ٦٦٩ / ٢ .

(٥) ينظر : حجة القراءات ، ابن أبي زرعة : ٣٢٩ ، دلالة الفعل المضارع في القرآن الكريم (رسالة) علي خضر فنون : ١١ .

(٦) ينظر : أساس البلاغة ، جار الله الزمخشري : ٤٤٢/٢ .

(١) ينظر : الكشف والبيان في تفسير القرآن ، أبو إسحاق الثعالبي : ٢٧٩/٣ ، الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٥/٨ .

(٢) ينظر : الكشف والبيان في تفسير القرآن : ٤٩٠/٥ ، الكشف : ١٠٢٥ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٢٨٧/٢ إرشاد العقل السليم : ١٦٢/٦ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٦٤ .

(٤) الكشف : ١٠٢٥ ، وينظر : تفسير جوامع الجامع : ٣ / ٣٨٢ .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل : ٢ / ٢٨٧ .

(٦) ينظر : روح المعاني : ٢١٥/١٣ .

ويلاحظ أنّ تغيّر الصامت لم يؤدّ إلى اختلاف كبير في المعاني مثلما أدّى إلى اختلاف في المباني فيكاد معنى القراءتين يكون واحدًا ، وهو معنى تعظيم الله الذي يتفق مع سياق التسبيح ؛ لأنّ التسبيح تعظيم لله جلّ وعلا بتنزيهه عن كلّ ما لا ينبغي له ولا يجوز في حقّه عز وجلّ .

معاني حروف الجر ودلالاتها

عرّف سيبويه الكلم بقوله: " فالكلم : اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل " (٢٧٩) ، ويظهر من ذلك أنه حدّ الحرف بأنه ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل . وقد حدّ أيضا بأنه ما يدل على معنى في غيره ، وذلك كالباء الجارة ، ومن والواو العاطفة وما أشبه ذلك (٢٨٠) ، أي ليس للحرف منفردا من معنى وإنما يتحدد المعنى عندما يدخل ضمن التركيب ؛ لأنّ " دلالة الحرف على معناه الإفرادي متوقفة على ذكر متعلقه بخلاف الاسم والفعل فإنّ دلالة كلّ منهما على معناه الإفرادي غير متوقفة على ذكر متعلق " (٢٨١) .

وحروف الجر مما يجري عليه هذا الحكم ؛ لأننا لا نفهم معنى الجر في الباء مثلا وحدها ، وإنما يفهم منها ذلك إذا جرّت الاسم بعدها نحو : بزيد .

وحروف الجر مما يختص بالدخول على الأسماء فقط (٢٨٢) ولذلك عملت فيها الجرّ لأنّ ما اختص بالاسم من الحروف ولم يتنزل منه منزلة الجزء " فحقّه أن يعمل ؛ لأنّ ما لازم شيئا ولم يكن كالجزء منه أثر فيه غالبا ، وإذا عمل فأصله أن يعمل الجرّ لأنه العمل المخصوص بالاسم " (٢٨٣) .

(٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(١) كتاب سيبويه : ١٢/١ ، وينظر : المقتضب : ١ / ١٤١ ، كتاب المقتصد في شرح الإيضاح ، عبد القاهر الجرجاني : ٦٨/١ .

(٢) ينظر : الإيضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزجاجي : ٥٤ ، المسائل العسكرية في النحو العربي ، أبو علي الفارسي : ٧٩ ، نشأة دراسة حروف المعاني ، د. هادي عطية مطر : ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني ، المرادي : ٢٢ .

(٤) ينظر : الأصول في النحو ، ابن السراج : ٤٠٨/١ .

(٥) الجنى الداني : ٢٦ .

وتسميتها بـ(حروف الجر) تسمية بصرية^(٢٨٤) ، أمّا الكوفيون فيسمونها (حروف الخفض) ، أو (حروف الصفات)^(٢٨٥) واشترك الفريقان بتسميتها (حروف الإضافة)؛ لأنها تضيف الأفعال إلى الأسماء وتوصلها إليها^(٢٨٦) .

ويعدّ استعمال حروف الجر من أهم وسائل التعبير الدقيق^(٢٨٧) ، لاسيما أنّ لها وظيفتين أساسيتين في الكلام :

الأولى : وظيفة نحوية تتمثل في تحقيق الترابط بين مكونات الجملة .

والثانية: وظيفة دلالية تتمثل في تحديد دلالة السياق .

والوظيفتان مترابطتان ومتداخلتان تنصهر فيهما العناصر النحوية بالمكونات الدلالية^(٢٨٨) .

ولحرف الجر في الاستعمال القرآني أثر كبير في دلالة الآية التي يرد فيها^(٢٨٩) لذا فإنني سأبحث في معاني بعض حروف الجر في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه متلمسا أثرها في الدلالة .

دلالة اللام :

قال سيبويه في بيان معنى لام الجر: " ومعناها الملك واستحقاق الشيء ، ألا ترى أنك تقول : الغلام لك والعبد لك فيكون في معنى هو عبدك وهو أخ له فيصير نحو هو أخوك فيكون مستحقا لما يملك " ^(٢٩٠) .

وقد فهم أصحاب حروف المعاني من كلام سيبويه هذا أنّ للام معنيين ، أحدهما : الملك . والآخر: الاستحقاق ، وزادوا على ذلك معاني أخر منها الاختصاص^(٢٩١) الذي جعله بعضهم

(٦) ينظر : كتاب سيبويه : ٤١٩/١ ، شرح كافية ابن الحاجب ، رضي الدين الاسترأبادي : ٢٥٦ /١ ، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، ابن هشام الأنصاري : ٢٩٨ .

(٧) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ٣٢٢/١ ، إعراب القرآن ، النحاس : ١١٩ /١ ، مدرسة الكوفة ومنهجها في اللغة والنحو، د. مهدي المخزومي : ٣٥٩ .

(٨) ينظر : كتاب سيبويه : ٤٢١/١ ، ٢١٧/٤ ، المقتضب : ١٣٦ /٤ ، الموفي في النحو الكوفي ، صدر الدين الكنغراوي : ١٣٦ ، نحو القرآن الكوفيين ، د. خديجة أحمد مفتي : ٣٤٧ .

والمقصود من الإضافة هنا أنّ حرف الجر يضيف معنى الفعل إلى ما بعده فإذا قلت "مررت بزيد فإنما أضفت المرور إلى زيد بالباء " كتاب سيبويه : ٤٢١/١ .

(١) ينظر : نحو القرآن ، د. أحمد عبد الستار الجوّاري : ٥٠ .

(٢) ينظر : معجم حروف المعاني في القرآن الكريم ، مفهوم شامل مع تحديد دلالة الأدوات ، محمد حسن الشريف : ١ .

(٣) ينظر : للتمثيل على ذلك : دلالة الجر والإضافة في سورة المائدة ، د. رحيم جبر الحسناوي : ٥٣ - ٧١ .

(٤) كتاب سيبويه : ٢١٧/٤ ، وينظر : كتاب اللامات ، الهروي : ٣١ .

أصل معانيها^(٢٩٢). وتذكر هذه المعاني للام في قوله تعالى: (أَحْمَدُ لِلَّهِ) أينما وردت في القرآن الكريم^(٢٩٣)، وقد تختلف الألفاظ المعبّرة عن هذه المعاني قليلا فيرى ابن خالويه أنّ اللام " لام الملك وتسمى لام التحقيق أي استحق الله الحمد " ^(٢٩٤) وهي عند الطبرسي للتحقيق والملك^(٢٩٥) ، ويذكر لها الرازي وجوها أحدها : الاختصاص اللائق وثانيها : الملك ، وثالثها : القدرة والاستيلاء ، ثم يقول " واللام في قولك (أَحْمَدُ لِلَّهِ) يحتمل هذه الوجوه الثلاثة فإن حملته على الاختصاص اللائق فمن المعلوم أنه لا يليق الحمد إلا به لغاية جلاله ، وكثرة فضله وإحسانه ، وإن حملته على الملك فمعلوم أنه تعالى مالك لكل فوجب أن يملك منهم كونهم مشتغلين بحمده ، وإن حملته على الاستيلاء والقدرة فالحق سبحانه وتعالى كذلك ؛ لأنه واجب لذاته وما سواه ممكن لذاته والواجب لذاته مستول على الممكن لذاته ، فالحمد لله بمعنى أنّ الحمد لا يليق إلا به وبمعنى أنّ الحمد ملكه وملكه ، وبمعنى أنه هو المستولي على الكل والمستعلي على الكل " ^(٢٩٦) .

والحق أنّ هذه المعاني متداخلة فيما بينها وهي ترجع - فيما يبدو - إلى ما قاله سيبويه عن معنى اللام من أنها تفيد " الملك واستحقاق الشيء " ^(٢٩٧) فالله تعالى مالك الحمد ومستحقه ، وكيف لا يستحقّه وهو مالكة الحقيقي ، وفي ذلك ذكر الزركشي أنّ من معاني اللام الملك الحقيقي ، وذكر آيات تنسب الأشياء لله تعالى^(٢٩٨) ولاشك في أنّ مالك الشيء الحقيقي قادر ومستول عليه ، وبهذا ترجع المعاني التي ذكرها الرازي إلى ما ذكره سيبويه ؛ لأنه جلّ وعلا لما ملك الحمد ملكا حقيقيا فهو مختص به لا يشاركه فيه غيره ، فضلا عن أنّ مالك الشيء له القدرة عليه وهو مستول عليه بملكه إياه فكيف إذا كان المالك هو الله الذي: ﴿ لَهُ

الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التغابن ، من الآية : ١) .

- (٥) ينظر : كتاب حروف المعاني ، أبو القاسم الزجاجي : ٤٥ ، رسالتان في اللغة ، الرماني : ٥١ ، الجنى الداني : ٩٦ ، اللامات (دراسة نحوية شاملة في ضوء القراءات القرآنية) د. عبد الهادي الفضلي : ٧٤ ، ٧٥ .
(٦) ينظر : رسالتان في اللغة : ٥١ ، أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية د. عبد القادر السعدي : ١٢٣ .
(٧) من مواضعها ينظر : الفاتحة : ٢ ، الأنعام : ١ ، الكهف : ١ ، فاطر : ١ .

- (١) كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم : ٣١ ، وينظر : الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، محمد حسين سلامة : ١٥ .
(٢) ينظر : مجمع البيان : ٢٦ / ١ .
(٣) التفسير الكبير : ١٩٢ / ١ ، والواجب والممكن مصطلحان من مصطلحات علم الكلام ، والمقصود بالأول هو الموجود الذي لا تكون ذاته قابلة للعدم أصلاً ، بل يكون ضروري الوجود لذاته ومصادقه الله تعالى دون أي شيء سواه ، والمقصود بالثاني هو الموجود الذي تكون حقيقته من حيث هي قابلة للعدم ، فهو المسمى بممكن الوجود لذاته ومصادقه كل شيء سوى الله تعالى . ينظر : شرح المصطلحات الكلامية ، إعداد قسم الكلام في مجمع البحوث الإسلامية في مدينة قم المقدسة : ٣٥١ ، ٣٨٣ .
(٤) كتاب سيبويه : ٢١٧ / ٤ ، وينظر : مفتاح أحسن الخزان الإلهية : ٢٧٢ / ١ .
(٥) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٣٩ / ٤ .

وقد فرّق الراغب الأصفهاني بين الملك والاستحقاق اللذين تفيدهما اللام، وقال في الاستحقاق بعد أن ذكر له مثالين هما قوله تعالى: ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (الرعد: من

الآية ٢٥) و: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّينَ﴾ (المطففين: ١): " وهذا كالأول لكن الأول لما قد حصل في الملك وثبت وهذا لما لم يحصل بعد ولكن هو في حكم الحاصل من حيثما قد استحق " (٢٩٩).

وإذا كان هذا التفريق يصدق على ما ذكره الراغب من أمثلة فالكافرون يستحقون اللعنة وسوء الدار ، والمطففون يستحقون الويل غير أنّ ذلك لم يحصل بل يكون في يوم القيامة مثلاً فإنّ هذا لا يصدق أبداً في حق الله تعالى ؛ لأنّ ما يستحقه تعالى من الحمد وغيره أزليّ دائماً لا يتحدد بوقت دون وقت فهو " محمود من الأزل إلى الأبد بحمده القديم وكلامه القديم " (٣٠٠) ، وقد ذكر ابن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١هـ) والسيوطي (ت: ٩١١هـ) معنى الاستحقاق للام وذكر لها أمثلة منها في حقه تعالى مثل (الحمد لله) و (العزة لله) و (الملك لله) ، ومنها في غيره جلّ وعلا مثل (ويل للمطففين) دونما تفريق بين التمثيلين (٣٠١).

ومما يجدر ذكره أنّا إذا أخذنا بالحسبان أنّ المالك الحقيقي لكل شيء هو الله جلّ وعلا ، وأنّ ما يملكه غيره راجع بالأصالة إليه تعالى، فإنّ معنى الملك في قولنا : الغلام لك ونحوه إنما يكون ضمن ملك التصرف لا ملك العين كما يسميهما الراغب الأصفهاني إذ ذكر أنّ ملك العين هو ملك الله لكل شيء ، وملك التصرف هو ما يكون لضرب من التصرف (٣٠٢) أي ليس ملكاً بالأصالة ، وهذا ما ينطبق على ملك غير الله للأشياء كقولنا : الغلام لك والمال لزيد ونحو ذلك.

وجاءت اللام في سياق حمد الله تعالى في قوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا

لِنَهْتَدِي لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف: من الآية ٤٣) مفيدة - كما يقول الزركشي - معنى (إلى) (٣٠٣) . أي: الحمد لله الذي هدانا إلى هذا ، وهذه مقولة أهل الجنة كما روي عن الإمام

(١) مفردات ألفاظ القرآن : ١٩١/١ .

(٢) التفسير الكبير : ١٩١/١ .

(٣) ينظر : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري : ٢٧٥/١ ، الإتيان في علوم القرآن : ٢٦٥/٢ ، معترك الأقران : ٢٨٣/٢ .

(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٧٥٥ .

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٤١/٤ .

علي -عليه السلام- ، يقولونها عندما يرون النعيم فيها^(٣٠٤) ، وهي اعتراف منهم بنعمة الله سبحانه وتعالى إليهم ومنته عليهم^(٣٠٥) .

وقد ذكر الراغب أنَّ الفعل (هدى) في القرآن الكريم عدِّي في مواضع بنفسه وفي مواضع بـ(إلى) وفي مواضع باللام^(٣٠٦) ، ولعل السرَّ في إثبات اللام هنا في سياق حمد الله تعالى - فيما يبدو - هو الإشارة إلى معنى الاختصاص الذي يعدُّ الأصل في معاني اللام ، وكل ما سواه راجع إليه^(٣٠٧) فلو جاءت مكان اللام (إلى) التي تقيد انتهاء الغاية^(٣٠٨) لكان المعنى أنَّ هداية الله تعالى انتهت بهم إلى نعيم الجنة ، أمَّا استعمال (اللام) في الآية والتي قد تكون لام العاقبة^(٣٠٩) فهو يدل على أنَّ عاقبة هدايتهم هي هذا النعيم المقيم ، ويكاد المعنى يكون واحدًا غير أنَّ معنى الاختصاص الذي ترجع إليه لام العاقبة^(٣١٠) لا يتحقق باستعمال (إلى) ، وكأنَّ استعمال (اللام) هنا يدل على أنَّ بلوغ أهل الجنة نعيمها مما اختصت به هدايته تعالى لهم وفي هذا المعنى نكتتان : الأولى: بيان أنهم لم يدخلوا الجنة ما لم ينعم الله عليهم بهدايتهم لها ، وفيه إظهار لنعمته واعتراف بمنتته . والثانية: أنَّ ذلك أبلغ في حمد الله الذي جعل نعيم الجنة عاقبة لهدايتهم ومآلا لهم .

وجاءت لام العاقبة في سياق الشكر في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان: من الآية ١٢) .

ويدلَّ استعمال اللام على أنَّ الإنسان هو المنتفع من شكره لا غيره ؛ " لأنَّ ثواب شكره عائد إليه ويستحق مزيد النعمة ، والزيادة الحاصلة بالشكر تكون له " ^(٣١١) وفي ذلك حثُّ على زيادة الشكر والمواظبة عليه .

وقد ورد الفعل من الشكر والتسبيح متعديا باللام في مواضع فما دلالة هذا اللام؟ لاسيما أنَّ هذه الأفعال جاءت متعدية بنفسها في مواضع أخر . جاء فعل الأمر من الشكر متعديا

(٢) ينظر : زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي : ٤٣٠ .

(٣) ينظر : مجمع البيان : ٥٢٢/١ .

(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٨٣٧ ، شرح الفصيح ، ابن هشام اللخمي : ٨٠ ، وينظر : مثالا على تعدي الفعل (هدى) بنفسه (الفاحة ٦) وعلى تعديه بـ(إلى) (الأنعام : ٨٧) وعلى تعديه باللام غير الآية التي ذكرناها (الكهف: ٢٤) .

(٥) ينظر : رسالتان في اللغة : ٥١ ، الجنى الداني : ٩٦ ، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة) د. ميشال زكريا : ١٦٧ .

(٦) ينظر : شرح كافية ابن الحاجب : ٢٦٥/٤ ، مغني اللبيب : ١/ ١٠٤ .

(٧) من المعاني التي ذكرت للام أنها تفيد العاقبة أي أنَّ ما بعدها يكون عاقبة لما قبلها ويسمِّيها بعضهم لام المال أي أنَّ ما قبلها يؤول إلى ما بعدها ، ينظر : مغني اللبيب : ٢٨٢/١ ، معترك الأقران : ٢٨٥/٢ .

(٨) ينظر : شرح كافية ابن الحاجب : ٢٨١/٤ .

(٩) مجمع البيان : ٤٠٨/٨ ، وينظر : تفسير الجلالين : ١١٥/٢ .

باللام في ستة مواضع من القرآن الكريم في حين ورد متعديا بنفسه في موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ (النحل : من الآية ١١٤).

أما مواضع تعديه باللام فهي قوله تعالى ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة : من الآية ١٥٢) و ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ (البقرة : من الآية ١٧٢) . و ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ (العنكبوت : من الآية ١٧) و ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ (لقمان : من الآية ١٢) و ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلَوْ لَدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (لقمان : من الآية ١٤) و ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ (سبا : من الآية ١٥) .

يقول ابن عطية " (واشكروا لي) و(اشكروني) بمعنى واحد و(لي) أفصح وأشهر مع الشكر " (٣١٢) . ولعل غلبة تعدي فعل الأمر من الشكر باللام يرجع إلى ما تفيد هذه اللام من معنى الاختصاص لينبئنا الأسلوب القرآني على أن شكرنا يجب أن يكون لله خالصا وبه مختصا دونما أحد سواه .

فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلَوْ لَدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (لقمان : من الآية ١٤) فأمرنا بشكر الوالدين باللام أيضا وقد أفادت اختصاص الشكر بالله ؟ .

الجواب أن " شكر الله بالحمد والطاعة وشكر الوالدين بالبر والصلة " (٣١٣) ، فاللام في شكر الله تفيد اختصاصه سبحانه بالحمد والشكر مطلقا ، أما اللام في شكر الوالدين فإنها تفيد أن نختصهم - لفضلهم - بالبر والصلة لاسيما أن الله تعالى قد قرن شكرهما بشكره تنبيها على عظيم فضلهم ، وحثا على إدامة شكرهم ببرهم وصلتهم .

(٢) المحرر الوجيز : ٢٩/٢ ، وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٣٣٤/٣ .
(٣) مجمع البيان : ٤٠٨/٨ .

ومما ورد من تعدي فعل التسبيح باللام قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد : ١) ^(٣١٤) وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور : من الآية ٤١) ^(٣١٥).

فيرى الرازي أنّ أصل هذا الفعل أن يتعدى بنفسه ؛ لأنّ معنى (سبّحته) : أبعدته عن السوء وإنّما عدّي باللام للدلالة على أنّ إحداث التسبيح لأجل الله وأنه خالص لوجهه تعالى ^(٣١٦).

وقال البيضاوي : " وإنّما عدّي باللام وهو متعدّ بنفسه مثل : نصحت له ونصحته إشعاراً بأنّ إيقاع الفعل لأجل الله وخالص لوجهه " ^(٣١٧).

فاللام هنا تفيد التعليل ، أي أنّ العلة من تسبيح ما في السماوات والأرض هي أنّ هذا التسبيح راجع إلى الله تعالى ، والتعليل الذي أفادته اللام يرجع بالأصل إلى معنى الاختصاص ^(٣١٨) ؛ ولذا يقول السيد الطباطبائي في قوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (فصلت : من الآية ٣٨) : " وقوله (يسبحون له) ولم يقل (يسبحونه) للدلالة على الحصر والاختصاص أي يسبحونه خاصة " ^(٣١٩).

وقد تأتي اللام بمعنى (على) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨) أي يخرون على الأذقان ^(٣٢٠)، ومن ذلك قول الشاعر :

-
- (١) ينظر أيضا : الحشر : ١ ، الصف : ١ .
 - (٢) ينظر أيضا : الحشر : ٢٤ ، الجمعة : ١ ، التغابن : ١ .
 - (٣) ينظر : التفسير الكبير : ٤٤٢/٢٩ .
 - (٤) أنوار التنزيل : ٢٤١/٤ ، وينظر : إرشاد العقل السليم : ٢٧٤/٦ ، وينظر : مقتنيات الدرر ، السيد علي الحائري المفسر : ٤١/١١ .
 - (٥) ينظر : شرح كافيّة ابن الحاجب : ٢٨١/٤ .
 - (٦) الميزان : ٤١٩/١٧ .
 - (١) ينظر : كتاب اللامات : ٤٣ ، الجنى الداني : ٩٨ ، حروف المعاني بين الأصالة والحداثة ، حسن عباس : ٥١ .

تناولت بالرمح الطويل ثيابه فخر صريعا لليدين وللعم (٣٢١)

أي خرّ على اليدين .

وقد أوضح المفسرون النكتة في إيثار (اللام) في تصوير خرور المؤمنين الذي يعقبه تسبيحهم لله تعالى فقال الزمخشري: " فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت: خرّ على وجهه وعلى ذقنه فما معنى اللام في خرّ لذقنه ووجهه (...) قلت: معناه: جعل ذقنه للخرور واختصه به لأنّ اللام للاختصاص " (٣٢٢) .

ولا يبعد أن يكون إيثار حرف الجر (اللام) على حرف الجر (على) في مقام التذلل والخضوع والتسبيح لله تعالى يعود إلى أنّ حرف الجر (على) جاء مع الفعل (خرّ) في موضعين من القرآن الكريم (٣٢٣) . الأول : في مقام العذاب والتهويل وهو قوله تعالى: ﴿ فَآتَى

اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ (النحل: من الآية ٢٦) ، والثاني : في

مقام التعريض بالصمم والعمى عن آيات الله وهو قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ

يَخْرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (الفرقان : من الآية ٧٣) فلما جاء الفعل (خرّ) في مقام التذلل

والتسبيح لله تعالى استعمل حرف الجر (اللام) الذي يفيد اختصاص الأذقان بالخرور لله تعالى بمعنى أنّ أذقانهم دائمة الخرور لله جلّ وعلا ؛ لأنّ الخرور مختص بها لا يفارقها وهو ما يدل على دوام التسبيح لله أيضا ؛ " لأنّ استعمال الخرّ تنبيه على اجتماع أمرين : السقوط وحصول الصوت منهم بالتسبيح " (٣٢٤) .

دلالة الباء :

ذكر سيبويه الأصل فيما تفيد الباء من معان وهو الإلصاق (٣٢٥) . وأشار إلى أنّ ما يذكر لها من معان آخر فهو راجع إليه فقال: " وباء الجر إنما هي للإلحاق والاختلاط وذلك قولك :

(٢) ينظر : كتاب اللامات : ٤٢ ، مغني اللبيب : ٢٨٠/١ مع اختلاف في الرواية .

(٣) الكشف : ٦١١ ، وينظر : مدارك التنزيل : ٩٣٠/٢ ، إرشاد العقل السليم : ٤٦٧/٤ .

(٤) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٢٣٠ .

(٥) مفردات ألفاظ القرآن : ٢٧٧ .

(١) هكذا يسمّيه من نقل هذا المعنى عن سيبويه (الإلصاق) بالصاد ، ينظر : مغني اللبيب : ١٣٧/١ ، الجنى الداني : ٣٦ ، الإتيان في علوم القرآن : ٢١٥/٢ ، وهو في كلام سيبويه كما نقلناه عنه (الإلحاق) بالزاي وهما لغتان ، ينظر : لسان العرب : ٣٢٩/١٠ .

خرجت بزيد ودخلت به ، وضربته بالسوط ألزقت ضربك إياه بالسوط فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله " (٣٢٦) .

ويكون الإلصاق حقيقيا ومجازيا^(٣٢٧) ، فالأول نحو : أمسكت بزيد إذا قبضت على شيء من جسمه ، والثاني : مررت بزيد ، إذ معناه : ألصقت مروري بمكان قريب منه لا به ، فهو وارد على الاتساع^(٣٢٨) .

وقد اتسع في دلالة الباء وذكرت لها معان كثيرة^(٣٢٩) . ومما ورد من استعمال الباء في سياق الحمد قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٥٢):

إنَّ الحمد الذي تخبر عنه هذه الآية يصدر من المشركين بالله يوم يدعوه إلى البعث بعد الموت ، والمعنى تستجيبون مضطرين بحمده أي حامدين لله على نعمه وأنتم موحدون^(٣٣٠) .

وقد أفادت الباء معنى الإلصاق المجازي بمعنى أنَّ استجابتهم عندما يدعون إلى القيام من قبورهم في يوم البعث ملتصقة بحمده تعالى ، وفي ذلك " مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع : ستركبه وأنت حامد شاكر ، يعني أنك تحمل عليه وتقسر قسرا حتى إنك تلين لين المسمح الراغب الحامد عليه" (٣٣١) .

وذلك نظير قولنا : جاء فلان بغضبه أي غضبان^(٣٣٢) وفي الباء التي تفيد التصاقه بغضبه مبالغة في التعبير عن معنى الغضب ، وروي أنهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك^(٣٣٣) فيحمدونه تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعانيه أحكامها^(٣٣٤) . وقال صاحب الميزان : " تستجيبون متلبسين بحمده أي حامدين له تعدون البعث والإعادة منه فعلا جميلا يحمد فاعله ويثنى عليه لأنَّ الحقائق تنكشف لكم اليوم فيتبين لكم أنَّ من الواجب في الحكمة الإلهية أن يبعث الناس للجزاء " (٣٣٥) .

(٢) كتاب سيبويه : ٢١٧/٤ ، وينظر : المقتضب : ١٤٢/٤ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٢٥٢/٤ ، مغني اللبيب : ١٣٧/١ ، معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي : ١٧/٣ .

(٤) ينظر : كتاب سيبويه : ٢١٧/٤ ، الجنى الداني : ٣٦ ، حروف المعاني بين الأصالة والحدثة : ٥٣ .

(٥) ينظر : كتاب حروف المعاني : ٤٧، ٤٨ ، كتاب الحروف لأبي الفضائل الرازي، نشر في مجلة المورد، المجلد ٣ ، العدد ٤ : ٢٠١ ، الإقناع في علوم القرآن : ٢١٥-٢١٩ ، الألسنية التوليدية والتحويلية : ١٧٣-١٧٤ .

(٦) ينظر : مجمع البيان : ٥٤٣/٦ .

(٧) الكشف : ٥٩٩ .

(٨) ينظر : التفسير الكبير : ٣٥٤/٢٠ .

(٩) ينظر : زاد المسير : ٧٤٧ ، أنوار التنزيل : ٤٥١/٢ .

(١٠) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٤٣٦/٤ .

(١١) الميزان : ١٢٣/١٣ .

ويفهم من قوله (متلبسين) معنى الإلصاق في الباء بمعنى أن الحمد ملتصق بهم لا يفارقهم ؛ لأنهم متلبسون به عندما يستجيبون لداعي الحق .

وقيل : المعنى : فيستجيبون بأمره^(٣٣٦) . فتفيد الباء على هذا القول معنى السببية أي أنهم يستجيبون لأن الله أمر ببعثهم ، وقيل : الباء في الآية تفيد المصاحبة^(٣٣٧) ، أي أن استجابتهم يصاحبها حمدهم لله تعالى وذلك لا يخرج الباء عما تقدم من معنى الإلصاق ؛ لأنه الأصل في معانيها كما مر .

وقد تأتي الباء مفيدة السببية (التعليل)^(٣٣٨) ، ومن ذلك ما جاء في سياق الشكر وهو قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ نِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (لقمان : ٣١) .

وهذه الآية في مقام تقرير نعمة من نعم الله على عباده لتحملهم على شكره والاعتراف بفضله ، وهي نعمة تسخير الفلك في البحر لهم لينتفعوا بها ، فدلّت الباء على أن جريان الفلك في البحر إنما كان بسبب نعمة الله وهي إيجاد الأسباب لجريانها من الرياح ورطوبة الماء وغير ذلك^(٣٣٩) ، أي أن إنعام الله تعالى على عباده تسبب في تسخير الفلك لهم ؛ لأن " من نعمه جريان الفلك " ^(٣٤٠) وفي ذلك تلويح بوجوب شكره على نعمته^(٣٤١) .

وقد تفيد الباء هنا المصاحبة^(٣٤٢) ، قال أبو حيان : " وتحتمل الحالية أي مصحوبة بنعمة الله وهي ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والتجارات " ^(٣٤٣) وباختلاف معنى (الباء) تختلف دلالة الآية في تقرير النعمة ، فالنعمة التي يجب شكرها على معنى السببية في (الباء) هي تهيئة الأسباب اللازمة لجريان السفن ، أمّا على معنى المصاحبة فالنعمة هي ما تحمله هذه السفن من نعم الله على عباده من مأكّل ومشرب وملبس .

-
- (٥) ينظر : زاد المسير : ٧٤٧ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٤٤٨/١ .
 (٦) ينظر : مغني اللبيب : ١٤٠/١ .
 (٧) ينظر : الجني الداني : ٣٦ ، مغني اللبيب : ١٣٩/١ ، حروف المعاني المختصة بالأسماء في شعر السيّاب ظاهر محسن كاظم (رسالة) : ٤٥ .
 (٨) ينظر : الميزان : ٣١/١٦ ، صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني : ٤٩٧/٢ .
 (١) زاد المسير : ١٠٠٦ ، وينظر : التبيان في إعراب القرآن : ١٠٤٦/٢ .
 (٢) ينظر : الميزان : ٣١/١٦ .
 (٣) المصاحبة من المعاني التي تفيدها الباء ، وينظر : البرهان في علوم القرآن : ٢٥٦/٤ ، معترك الأقران : ٩١/٢ .
 (٤) البحر المحيط : ١٨٨/٧ .

وجاءت (الباء) في سياق التسييح المقترن بالحمد كثيرا ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة: من الآية ٣٠) ، وقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَّرُنَّ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ (الشورى : من الآية ٥) ، وقوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الحجر : ٩٨) .

وذكر أبو البركات الأنباري أنّ هذه الباء تسمى باء الحال والمعنى نسبحك حامدين لك^(٣٤٤) ، وقيل : نسبحك مشتملين بحمدك أو متعبدين بحمدك^(٣٤٥) ، وقد أطلق الزركشي هذه التسمية على الباء التي تفيد المصاحبة^(٣٤٦) .

ويرى ابن هشام الأنصاري أنّ الحمد على معنى المصاحبة مضاف إلى المفعول أي أنّ تسييحنا لك مصاحب لحمدنا إياك بخلاف ما إذا كانت الباء في الآيات التي ذكرناها بمعنى الاستعانة ، فإنّ الحمد حينئذ مضاف إلى الفاعل والمعنى نسبحك بما حمدت به نفسك^(٣٤٧) ، أي نستعين بحمدك على تسييحك ونحمدك لكي نسبحك ، قال الرازي " معناه سبّحه بواسطة أن تحمده أي سبّحه بهذا الطريق " ^(٣٤٨) .

ولعل ما ذكره ابن هشام من أنّ الحمد على معنى الاستعانة مضاف إلى الفاعل بلحاظ أنّ الاستعانة إنّما تكون بما عند الله لا بما عند المستعين به ، قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة: ٥) زيادة على ذلك فإنّ حمد الله نفسه أتمّ من حمد غيره له لاسيما أنّه تعالى لمّا علم عجز عباده عن حمده حمد نفسه بنفسه^(٣٤٩) . وهذا يعني أنّ الاستعانة بما حمد الله به نفسه على تسييحه جلّ وعلا أفضل من استعانة المسبّح بحمده هو في الإتيان بتسييحه تبارك وتعالى .

(٥) ينظر : البيان في غريب إعراب القرآن : ٧١/١ .

(٦) ينظر : التبيان في إعراب القرآن : ٤٧/١ .

(٧) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٢٥٦/٤ .

(١) ينظر : مغني اللبيب : ١٤٠/١ .

(٢) التفسير الكبير : ٣٤٣/٣٢ ، وينظر : تفسير البصائر ، يعسوب الدين رستگار الجوباري : ١٩١/٦٠ .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ٩٥/١ .

ويحتمل في هذه الباء على كلا المعنيين (معنى المصاحبة أو الاستعانة) أن تفيد معنى الإلصاق الذي قيل إنه لا يفارقها^(٣٥٠) ، ويظهر ذلك من تقدير المفسرين للحال في الآية بـ(متلبسين)^(٣٥١) ، والمعنى متلبسين بحمدك وفي ذلك " إشارة إلى أن التسبيح والحمد لا يتأخر أحدهما عن الآخر ولا يمكن أن يؤتى بهما معا " ^(٣٥٢) ، وهذا ما يفيدنا بأن تسبيحهم لله ملتصق بحمدهم له تعالى وكأنهما أمران متلازمان ، ولاسيما أن في التسبيح إظهارا لصفات الجلال وأن في الحمد تذكيرا بصفات الإنعام ^(٣٥٣) .

وقد ذكر الرازي عند حديثه عن قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ معنى آخر للباء وهو " أن تكون هذه الباء هي التي في قولك : فعلت هذا بفضل الله أي : سبّحه بحمد الله وإرشاده وإنعامه لا بحمد غيره (...) ولذلك روي أنه -عليه السلام- كان يقول : (الحمد لله على الحمد لله) " ^(٣٥٤) ، وعلى هذا المعنى فإن الباء تفيد معنى السببية أي سبّح بسبب فضل الله عليك ، ونسبحك بسبب فضلك ، ففضل الله وإنعامه وإرشاده هو السبب في توفيقنا لتسبيحه وهذا نظير قولنا مثلا : نجحت بحمد الله ، أي بسبب حمده وفضله وإنعامه .

ومما ورد من استعمال الباء في سياق التسبيح مجيئها مع التسبيح باسم الله تعالى حيث ورد التسبيح باسمه تبارك وتعالى في آيتين من القرآن الكريم^(٣٥٥) ، وقد جاء بصيغة الأمر بالتسبيح ، الأولى تقترن فيها الباء بالاسم وقد تكررت هذه الآية ثلاث مرات وهي قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة : ٧٤ ، ٩٦) (الحاقة: ٥٢) والآية الثانية لم تأت فيها الباء ، وهي قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (الأعلى : ١) .

وللوقوف على دلالة الباء في الآية الأولى سنحاول أن نتلمس الفرق بين الآيتين في التعبير .

ذكر الرازي أن الفراء (ت: ٢٠٧هـ) قال : لا فرق بين (سبّح اسم ربك) وبين (فسبّح باسم ربك)^(٣٥٦) ، والحقيقة أن الفراء لم يقل سوى أن " كل ذلك قد جاء وهو من كلام العرب "

-
- (٤) ينظر : مغني اللبيب : ١٣٧/١ ، معترك الأقران : ٩٠/٢ .
 (٥) ينظر : أنوار التنزيل : ٨٣/١ ، إرشاد العقل السليم : ١٧٠/١ ، صفوة التفاسير : ٤٨/١ ، تفسير البصائر : ١٩١/٦٠ .
 (٦) اللباب في علوم الكتاب : ٥٤٥/٢٠ .
 (٧) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٧٠/١ ، مواهب الرحمن : ١٧٠/١ ، وصفات الجلال هي ما يتعلق بالعزة والعظمة والسعة ، وصفات الإنعام هي ما يتعلق باللطف والرحمة ، ينظر : شرح المصطلحات الكلامية : ١٨٨ .
 (٨) التفسير الكبير : ٣٤٣/٣٢ ، ٣٤٤ .
 (٩) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٣٩ .
 (١٠) ينظر : التفسير الكبير : ١٢٥/٣١ .

(٣٥٧) ، ولا يفهم من قوله هذا أنه صرّح بعدم الفرق بينهما كما ذكر الرازي ، والحق أن يقال : لم يذكر الفراء فرقا بينهما ؛ إذ من المحتمل أنه لم يكن في مقام بيان الفرق بقدر ما أراد أن يبين أن كلا الاستعمالين وارد في كلام العرب .

وقيل : إن بينهما فرقا ؛ لأن معنى (فسبح باسم ربك) نزّه الله تعالى بذكر اسمه المنبئ عن تنزيهه وعلوه عما يقول المبطلون ، أمّا (سبح اسم ربك) فمعناه نزّه اسم ربك من السوء (٣٥٨) .

وقد ذكر الزمخشري من قبل ما يقرب من هذين المعنيين من دون أن يصرّح بفرق بينهما ، فقال في (فسبح باسم ربك) : " فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك ، أراد بالاسم الذكر أي بذكر ربك " (٣٥٩) وقال في (سبح اسم ربك) : " تسبيح اسمه عز وعلا تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني التي هي إلحاد بأسمائه " (٣٦٠) .

ويتضح مما تقدّم أن المعنى الأقوى في الباء أن تكون للاستعانة ، ومعنى الآية "فسبح مستعينا بذكر اسم ربك أو المراد بالاسم الذكر ؛ لأن إطلاق اسم الشيء ذكر له" (٣٦١) .

وقد عرّف السيوطي باء الاستعانة بقوله : " هي الداخلة على آلة الفعل كباء البسمة " (٣٦٢) فكما أننا نستعين في بدء أي عمل بذكر اسمه تعالى عندما نقول (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فإننا نستعين بذكر اسمه جلّ وعلا في تسبيحه تعالى ، أي أن ذكر اسمه آلة تسبيحه . وعلى أساس هذا التفريق تتضح الفائدة من ورود الباء في قوله تعالى (فسبح باسم ربك العظيم) دون قوله (سبح اسم ربك الأعلى) .

وملخص هذه الفائدة أن الآية الأولى جاءت كأنها نتيجة لما سبقها ، فالآيات التي سبقت هذه الآية في مواضعها الثلاثة من القرآن الكريم اشتملت على دلائل قدرة الله تعالى ونعمته ، وذكر القرآن الكريم وعظمته ، وبعد كل ذلك يأتي قوله تعالى : (فسبح باسم ربك العظيم) بالباء التي تفيد الاستعانة لتشعر - بعد ما ذكر من معالم قدرته تعالى - بضرورة الاستعانة بذكره جلّ وعلا على تسبيحه ، والمعنى أنه إذا كان الأمر كذلك فسبح مستعينا بذكر اسم ربك ، ومما يشعر بكون هذه الآية نتيجة لما قبلها الفاء الرابطة (٣٦٣) التي يبدو أنها ما تربط

(٣) معاني القرآن ، الفراء : ٢٥٦/٣ .

(٤) ينظر : التفسير الكبير : ١٢٥/٣١ .

(١) الكشف : ١٠٧٩ .

(٢) المصدر نفسه : ١١٩٥ .

(٣) الميزان : ١٥٥/١٩ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن : ٢١٦/٢ .

(٥) ينظر : معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم ، د. محمد سيد طنطاوي : ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧٦٤ ، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل ، العلامة ناصر مكرم الشيرازي : ٣٧٨/١٧ .

شبه الجواب بشبه الشرط^(٣٦٤) إذ لم يتقدمها شرط صريح ، وإنما تقدمها الإخبار عن معالم قدرة الله جل شأنه ، ولا سيما أن هذه الآية وردت خاتمة لسورتين هما الواقعة والحاقة فهي تأمر في الختام - بعد ما تقدم من معالم عظمته تعالى وقدرته - بالاستعانة به جلّ وعلا على تسبيحه ، وأما قوله تعالى (سُبِّحْ اسمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) فجاء افتتاحاً لسورة ولا شك في أن مقام الافتتاح يختلف عن مقام الاختتام ، فإذا كان مما يناسب الاختتام أن يأمرنا تعالى بعد ما تقدم من السورة أن نستعين باسمه على تسبيحه فإنّ مما يناسب الافتتاح أن يأمرنا عزّ وجل أن ننزّه اسمه عمّا لا يصح في حقه ابتداء ؛ ليكون هذا التنزيه مقدمة للشروع في ذكر ما تضمنته السورة المباركة .

وقد حاول السهيلي (ت: ٥٨١هـ) أن يجد الفائدة من دخول الباء في الآية الأولى دون الثانية ففرّق بين نوعين من التسبيح ، الأول : التنزيه والذكر ، والثاني : الصلاة ، ثم قال : "إذا ثبت ذلك وأردت التسبيح المجرد فلا معنى للباء ؛ لأنه لا يتعدى بحرف جر ، لا تقول : سُبِّحْتَ بِاللَّهِ ، وإذا أردت التضمين لمعنى الصلاة دخلت الباء تنبيهاً على ذلك المعنى فتقول : سُبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ كما تقول : صلّ باسم ربك أي مفتتحاً باسمه " (٣٦٥) .

وفي ما ذكره السهيلي نظر وهو أن إرادة التسبيح المجرد لا تقضي - ضرورة - عدم مجيء الباء معه ، لا سيما إذا كانت الباء للاستعانة ، ولم تأت الباء مع التسبيح في القرآن الكريم إلا في حالتين : الأولى : عندما يقترن التسبيح بالحمد مثل قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٩٨) . والثانية : عند تسبيحه باسمه تعالى وذلك في قوله

جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٧٤ ، ٩٦) (الحاقة: ٥٢) فلا يبعد - كما مرّ سابقاً - أن يكون المعنى في الآية الأولى : فسبح مستعينا بحمد ربك وفي الثانية : فسبح بذكر اسم ربك .

أما ما ذكر من أن التسبيح المجرد لا يتعدى بحرف جر فلا نقول : سُبِّحْتَ بِاللَّهِ . فإنّ الآية تقول (فسبح باسم ربك) وليس (فسبح بربك) وبهذا يتضح أن التسبيح المجرد قد تعدّى بالباء الداخلة على الحمد تارة وعلى الاسم تارة أخرى . والآية مع إفادتها التسبيح المجرد

(٦) ذكر السيوطي هذا النوع من أنواع الفاء ومثّل له بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران : ٢١) ، ينظر : الإتيان في علوم القرآن : ٢٤٩/٢ .

(١) نتائج الفكر في النحو ، أبو القاسم السهيلي : ٣٦ .

تحتل أن تكون الباء فيها للتعدية كما ذكر السيد الطباطبائي ذلك بقوله: "أو الباء للتعدية لأنّ تنزيه اسم الشيء تنزيه له والمعنى نزّه اسم ربك" (٣٦٦).

وإذا اتضح من ذلك أنّ مجيء الباء مع التسبيح لا يمنع كونه بمعنى التسبيح المجرد فإنّه سيتضح أنّ دخول الباء مع التسبيح لا يصرف معناه إلى الصلاة مطلقاً فلا يصح أن نستدل بالباء وحدها على أنّ المراد من التسبيح معنى الصلاة لاسيما أنّ عدداً من المفسرين ذكروا في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ معنى التسبيح والذكر دونما إشارة إلى معنى الصلاة (٣٦٧).

دلالة من :

من حرف جر يأتي زائداً وغير زائد (٣٦٨)، ولغير الزائد معان كثيرة (٣٦٩) وسأذكر منها ما ورد في سياق الحمد والتسبيح. فمما ورد منه في سياق حمده تعالى ما جاء في قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر: ٧٤).

ذكر المرادي (ت: ٧٤٩هـ) أنّ من معاني (من) أن تكون للغاية نحو: أخذت من الصندوق. والمعنى أنّ الصندوق محل لابتداء الغاية وانتهائها معاً (٣٧٠)، ويبدو أنّ (من) في قوله تعالى (نتبوأ من الجنة) تحمل هذا المعنى فأهل الجنة يحمدون الله جلّ وعلا بأن جعل لهم الجنة محلاً لابتداء غاياتهم وانتهائها فكل ما يشاؤون من نعيمها يبدأ منها وينتهي إليها وفي ذلك ترغيب للناس بأن يسعوا إلى أن يكونوا من أهل الجنة، مادام كلّ ما يتمنونه من الجنة فهو فيها يبدأ منها وينتهي إليها.

-
- (٢) الميزان : ١٥٥/١٩ ، وينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محيي الدين الدرويش : ٤١٥/٧ .
 (١) ينظر : الكشف : ١٠٧٩ ، مجمع البيان : ٢٨٥/٩ ، ٣٨٩ ، ٣٤٣ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٣٤٢/٢ تفسير القرآن الكريم ، السيد عبد الله شبر : ٥٣٦ .
 (٢) ينظر : رسالتان في اللغة : ٤٩ ، ٥٠ ، الجنى الداني : ٣٠٨ ، دراسة في حروف المعاني الزائدة ، د. عباس محمد السامرائي : ٢٠٤ .
 (٣) ينظر : مغني اللبيب : ٤١٩/١ - ٤٢٥ ، معترك الأقران : ٥٣٠/٢ ، ٥٣١ ، الألسنية التوليدية والتحويلية : ١٧١ .
 (٤) ينظر : الجنى الداني : ٣١٣ .

وقد تفيد (من) التعليل^(٣٧١) ، وقد جاءت في سياق الشكر لتبين ما تسبب في إنعامه تعالى على عباده لعلهم يشكرون ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص: ٧٣) .

فلئن علم العباد أنّ إنعام الله عليهم ليس لأنهم يستحقون ذلك وإنما إنعامه تعالى عليهم بسبب رحمته جلّ وعلا كان ذلك أبلغ في تقرير النعمة وأدعى لشكرها .

ومن معاني (من) التبعية^(٣٧٢) ، وعلامتها إمكان سد (بعض) مسدها^(٣٧٣) . ومن استعمالها بهذا المعنى في سياق الشكر قوله تعالى حكاية عن سليمان -عليه السلام- بعد أن رأى عرش بلقيس قد استقر عنده : ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ (النمل : من الآية ٤٠) . أي هذا بعض فضل ربي فأفادت (من) أنّ ما أنعم به الله على سليمان -عليه السلام- ليس إلا جزء من فضل الله عليه ، ففيها إشعار بأنّ فضله تعالى لا يحده حدّ ولا يحصى بعدّ ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (إبراهيم : من الآية ٣٤) وفي ذلك حثّ على شكره تبارك وتعالى مقابل ما لا يحصى من فضله ونعمته .

ومما جاء من استعمال (من) في سياق التسبيح قوله تعالى : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (الرعد: من الآية ١٣) . وتفيد (من) هنا التعليل ؛ لأنها تدلّ على أنّ الملائكة تسبح الله بسبب خشيته وهيئته جلّ وعلا^(٣٧٤) .

أمّا (من) الزائدة فمعناها التوكيد ، قال سيبويه : " وقد تدخل في موضع لو لم تدخل فيه كان الكلام مستقيماً ، ولكنها توكيد (...) وذلك قولك : ما أثناني من رجل وما رأيت من أحد " ^(٣٧٥) . وهو يرى أنّ (من) الزائدة تفيد التبعية ، والمعنى أنه لم يأتني بعض الرجال ولم أر بعض الناس^(٣٧٦) .

(٥) ينظر : مغني اللبيب : ٤٢١/١ ، الإتيان في علوم القرآن : ٢٩٤/٢ .

(١) ينظر : كتاب سيبويه : ٢٢٥/٤ ، المقتضب : ١٣٧/٤ ، رسالتان في اللغة : ٥٠ .

(٢) ينظر : الجني الداني : ٣٠٩ ، مغني اللبيب : ٤٢٠/١ ، الإتيان في علوم القرآن : ٢٩٣/٢ .

(٣) ينظر : الكشف : ٥٣٦ ، مجمع البيان : ٣٦٦/٦ .

(٤) كتاب سيبويه : ٢٢٥ / ٤ .

(٥) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، معاني النحو : ٧١ / ٣ .

ويشترط لزيادة (من) شرطان : الأول : أن يكون الكلام منفيًا أو شبيها بالمنفي وشبه النفي النهي والاستفهام ، والثاني : أن يكون مجرورها نكرة^(٣٧٧) وقد زاد ابن هشام الأنصاري شرطًا ثالثًا وهو أن يكون مجرورها فاعلا أو مفعولا به أو مبتدأ^(٣٧٨) ولها حالتان : الأولى : أن تدخل على الأسماء الموضوعية للعموم وتسمى الزائدة لتوكيد الاستغراق نحو : ما قام من أحد ، فهي زائدة لمجرد التوكيد؛ لأنَّ (ما قام من أحد) و(ما قام أحد) سيان في إفادة العموم^(٣٧٩).

وقد جاءت في سياق التسييح لإفادة الاستغراق في أن كلَّ شيء يسبح لله تعالى وذلك في قوله جلَّ وعلا : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء : من الآية ٤٤) .

أمَّا الحالة الثانية التي تأتي فيها (من) الزائدة ، فهي أن تكون زائدة لتفيد التنصيص على العموم وتسمى الزائدة لاستغراق الجنس نحو : ما في الدار من رجل فهي تفيد التنصيص على عموم الجنس؛ لأنَّ قولنا: (ما في الدار رجل) يحتمل أن يكون لنفي واحد من الرجال لا جنسهم لذا يصحَّ أن يقال : ما في الدار رجل بل رجلان ، فلمَّا زيدت (من) صار نصًّا في عموم جنس الرجال^(٣٨٠).

ومما ورد من ذلك قوله تعالى في سياق التسييح : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَكِدٍ سُبْحَنَهُ﴾ (مريم : من الآية ٣٥) ، فنفي الولد عن الله تعالى على جهة التنصيص على العموم واستغراق الجنس أبلغ في تنزيهه تعالى .

وقد اجتمع دخولها لإفادة استغراق الجنس في نفي الولد عنه جلَّ وعلا وفي نفي وجود إله غيره تعالى في قوله : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَكِدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ

(٦) ينظر : شرح كافية ابن الحاجب : ٢٦٢/٤ ، وشرح ألفية ابن مالك ، ابن الناظم : ١٤٠ ، دراسة في حروف المعاني الزائدة : ٢٠٧ . وهذا مذهب البصريين ، أما الكوفيون فيجوزون زيادتها في الإيجاب بشرط تنكيرها مستشهدين بقول العرب (قد كان من مطر) في حين لا يشترط الأخفش أيا من الشرطين مستشهدا بقوله تعالى ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ (إبراهيم : من الآية ١٠) ينظر : شرح الوافية نظم الكافية ، ابن الحاجب النحوي : ٣٨١ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ١٧/٣ .

(١) ينظر : مغني اللبيب : ٤٦٢ / ٢ .

(٢) ينظر : الجنى الداني : ٣١٦ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ٣١٦ ، ٣١٧ .

وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿المؤمنون: ٩١﴾ ، فأفادت (من) نفي قليل الجنس وكثيره والواحد وما فوقه^(٣٨١) .

ومن أسرار التعبير القرآني في سياق التسبيح أنه لم يرد نفي الولد عنه تعالى إلا وقد دخلت (من) التي يتقدمها النفي على لفظة (ولد)^(٣٨٢) ؛ لإفادة معنى استغراق الجنس في نفي الولد عنه جلّ وعلا كما مثلنا . أمّا نفي وجود إله أو آلهة مع الله سبحانه فهو كذلك دخلت فيه (من) على لفظة (إله) في آيات القرآن الكريم كلها^(٣٨٣) سواء في ما صرح فيها بألفاظ التسبيح أم في غيرها ؛ وذلك لإفادة معنى الاستغراق في نفي وجود إله غير الله ومعنى الاستغراق هنا هو " تأمل وحدانية الله مع اليقين والجزم بأنه لا إله إلا هو " ^(٣٨٤) .

فإن قيل : قد جاء نفي الولد عن الله تعالى في غير سياق التسبيح في ثلاث آيات من غير دخول (من) الزائدة فهل يكون النفي فيها ليس على جهة الاستغراق؟

الجواب - فيما يبدو - هو أنّ ما اطرّد فيه مجيء (من) من الآيات إنّما كان في مقام تنزيه الله تعالى عمّا ادّعاه المشركون فيكون تنزيهه بنفي الولد عنه على جهة الاستغراق أبلغ في الردّ على أباطيلهم ومفترياتهم . أمّا الآيات الثلاث التي لم ترد فيها (من) في نفي الولد عنه جلّ وعلا فاثنتان منها وردتا في مقام الحمد والثناء وليس في مقام التنزيه والردّ على المشركين وهما قوله تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

وَلِيُّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء : ١١١) وقوله تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى

عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في

الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ (الفرقان : ١ ، ٢) ، فلم تدخل (من) الزائدة في نفي الولد

كما أنها لم تدخل في نفي الشريك ووليّ الذل ؛ لأنّ الحمد والثناء إنما يصدران من المؤمنين الموحدين الذين لا يشركون بالله شيئاً ولا شك في أنّ مقام الحمد والثناء يختلف عن مقام

(٤) ينظر : كتاب حروف المعاني : ٥٠ .

(٥) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٧٦٣ .

(١) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) دلالة الجر والإضافة في سورة المائدة : ٥٨ .

التنزيه والرد على المشركين، لاسيما أنّ الآية الأولى جاءت خطاباً للنبي المصطفى - ﷺ
 ﴿لَيْسَ عَلَيْهِ وَلاَ عَلَيْهِ وَلاَ عَلَيْهِ﴾ بأن يحمده الله تبارك وتعالى .

أمّا الآية الثالثة التي ورد فيها نفي الولد عن الله عز وجل من غير دخول (من) الزائدة
 التي تفيد الاستغراق فهي ضمن قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ
 وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ (مريم: ٩٠،
 ٩١، ٩٢) .

هذه الآية جاءت ردّاً على من ادّعوا لله ولداً من المشركين فالمقام الذي وردت فيه قريب
 من المقام الذي وردت فيه (من) في سياق تنزيهه تعالى عن الولد. فلم لم تدخل (من) هنا مع
 أنّ المقام واحد ؟

يبدو أنّ ما سوغ ذلك أمران :

الأول : بقاء التناسق الصوتي للفاصلة القرآنية المنصوبة في هذه الآيات فلو دخلت (من)
 وصارت الآية (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ من ولد) لاختلّ تناسق الفواصل الصوتي .

الثاني : كأنّه تعالى ردّ عليهم ما ادّعوه في حقه لفظاً ومعنى فلما أخبر أنهم ادّعوا له ولداً ردّ
 سبحانه بأنه لم يتخذ ولداً وفي ذلك إشعار بأنّه عز وجل ردّ عليهم مقولتهم نفسها كما هي من
 دون تأكيد استحقاقا لهم واستهزاء بادّعائهم .

دلالة على :

على حرف جرّ له معانٍ كثيرة أشهرها الاستعلاء^(٣٨٥) ، ولم يذكر سيبويه غيره^(٣٨٦) .

والاستعلاء حسيّ ومعنوي ، فمثال الأول قوله تعالى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾

(المؤمنون: ٢٢) . ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (البقرة :
 من الآية ٢٥٣)^(٣٨٧) .

(١) ينظر : شرح عيون الإعراب ، علي بن فضال المجاشعي : ١٩٦ ، مغني اللبيب : ١٩٠/١ ، شرح ابن عقيل : ٢٣/٣ ،
 نشأة دراسة حروف المعاني : ٤٨ .
 (٢) ينظر : كتاب سيبويه : ٢٣٠/٤ .

وردت (على) في سياق الشكر بمعنى استعلاء نعمته وفضله جلّ وعلا على الناس ، وهو استعلاء معنوي، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن سليمان -عليه السلام-: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ (النمل: من الآية ١٩) ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: من الآية ٢٤٣) ، (غافر: من الآية ٦١) . فر(على) في الآية الأولى تفيد أنّ نعمة الله على سليمان -عليه السلام- ووالديه قد علّتهم ؛ لأنّ " أصل (على) العلوّ على الشيء وإتيانه من فوقه" (٣٨٨) ، مما يوحي بعظم هذه النعمة وشمولها وهو ما يتطلب المواظبة على شكرها .

وكذا الحال في الآية الثانية ، إذ توحى (على) بأنّ فضل الله على الناس قد علاهم وأظلمهم . ثم أخبر تعالى بأنه مع استعلاء فضله ونعمته على الناس فإنّ أكثرهم لا يشكرون تحقيرا لمن هذه حاله منهم وحثا على التنبّه إلى سوايغ نعمه على الخلق وشكره عليها .

ومن معاني (على) التي ذكرها النحاة التعليل ، ومثّلوا له بقوله تعالى في سياق الشكر أيضا: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: من الآية ١٨٥) أي لهدايته إياكم (٣٨٩) .

والمهم أنّ نتبيّن فائدة إيثار (على) هنا دون(اللام) ، قال الزمخشري " إنّما عدّي فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمنا معنى الحمد كأنه قيل : ولتكبّروا الله حامدين على ما هداكم " (٣٩٠) .

وذكر أبو حيان ما قاله الزمخشري ، وعلّق عليه بقوله : " وقوله (كأنه قيل: ولتكبّروا الله حامدين على ما هداكم) هو تفسير معنى لا تفسير إعراب ، إذ لو كان تفسير إعراب لم تكن (على) متعلقة بـ(تكبّروا) المضمّنة معنى الحمد إنّما تكون متعلقة بـ(حامدين) التي قدرها ، والتقدير الإعرابي هو أن تقول : كأنه قيل : ولتحمّدوا الله على ما هداكم " (٣٩١) . وفي إيثار(على) هنا " إشعار بالعلية كما تقول : أشكرك على ما أسديت إليّ " (٣٩٢) ، وهي تشعر

(٣) ينظر : شرح ألفية ابن مالك ، ابن الناظم : ١٤٢ ، الإتقان في علوم القرآن : ٢٣٧/٢ ، ٢٣٨ ، حروف المعاني بين الأصالة والحداثة : ٦٩ .

(١) كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي : ٢٨٢ / ٢ .
(٢) ينظر : الجنى الداني : ٤٧٧ ، مغني اللبيب : ١ / ١٩١ ، الإتقان في علوم القرآن : ٢٣٨/٢ ، معترك الأقران : ٢٢٣/٢ ، القرآن وأثره في الدراسات النحوية ، د. عبد العال سالم مكرم : ٣٠٨ .

(٣) الكشاف : ١١٣

(٤) البحر المحيط : ٥١ / ٢ ، وينظر : مدارك التنزيل : ١ / ١٣٤ .

(١) البحر المحيط : ١٥/٢ .

أيضا بسمو الصلة وإحاطتها بين الله تعالى والمهدين^(٣٩٣) ، وتوحي بتعظيم نعمة الهداية مما يكون أبلغ في تقريرها وأدلّ على وجوب شكره تعالى عليها .

وفي ما تقدّم ردّ على ما أورده السيوطي عن بعضهم قال : " وقال بعضهم : وإذا ذكرت النعمة في الغالب مع الحمد لم تقترب بـ (على) وإذا أريدت النعمة أتى بها ، ولذا كان - ﷺ - إذا رأى ما يعجبه قال : الحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات ، وإذا رأى ما

يكره قال : الحمد لله على كل حال " ^(٣٩٤) ، لاسيما أن قول النبي - ﷺ - : (الحمد لله على كل حال) عام لا يختص بالحمد على المكروهات ، ويظهر عمومته من لفظة (كل) ، ومعناه الحمد لله على كل حال من خير أو شر فكيف يقصر على أحد الحالين ، ولعلّ النبي - ﷺ - كان يؤثر هذا القول في حمد الله تعالى إذا رأى ما يكره إبهاما لهذا المكروه وابتعادا عن ذكره ويحمده على النعم بذكرها تأدبا منه - عليه الصلاة والسلام - مع الله تبارك وتعالى . زيادة على ذلك فإنّ (على) تشعر باستعلاء الحمد الثابت لله تعالى على كل حال سواء في ما نكره أو في ما نرغب فإذا قلنا : الحمد لله على كل حال أو الحمد لله على نعمه ، ففي ذلك إشعار باستعلاء حمده تعالى مما لا يترك مسوغا لقصر (على) في حمده تعالى على ما لا يرغب فيه فقط .

ومن المعاني التي يفيدها حرف الجر (على) المصاحبة^(٣٩٥) وجاء على ذلك قوله تعالى في سياق الحمد حكاية عن إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (إبراهيم : ٣٩) .

ذكر الزمخشري أنّ (على) في هذه الآية بمعنى (مع) ومثّل لها بقول الشاعر :

إني على ما ترين من كبري أعلم من حيث توكل الكتف^(٣٩٦)

(٢) ينظر : حروف المعاني بين الأصالة والحدثة : ٧٠ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن : ٢٣٩/٢ ، معترك الأقران : ٦٢٣/٢ .

(٤) ينظر : الجنى الداني : ٤٧٦ ، مغني اللبيب : ١٩٠/١ ، الإتيان في علوم القرآن : ٢٣٨/٢ .

(١) البيت لقيس بن الخطيم ، في ديوانه : ٢٣٩ ، ورواية الديوان :

إني على ما ترين من كبري أعلم من أين توكل الكتف

أي مع ما ترين ، وهي في الآية في موضع الحال والمعنى : الحمد لله الذي وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر^(٣٩٧).

ويرى أبو حيان أن (على) في الآية " على بابها من الاستعلاء لكنه مجاز إذ الكبر معنى لا جرم يتكون ، وكأنه لما أسنّ وكبر صار مستعليا على الكبر " (٣٩٨).

وذكر الدكتور عبد الحميد السيد أن (على) عند أبي حيان بمعنى (مع)^(٣٩٩) وليس بصحيح كما هو واضح من قول أبي حيان. ووافق الألوسي (ت: ١٢٧٠ هـ) أبا حيان فيما ذهب إليه ، إلا أنه نقل عن بعضهم اعتراضا مفاده أن الكبر بهذا المعنى هو الذي يستعلي على صاحبه وليس العكس قال: " ويصح جعل (على) بمعناها الأصلي والاستعلاء مجازي كما في البحر ومعنى استعلائه على الكبر أنه وصل غايته فكأنه تجاوزه وعلا ظهره كما يقال : على رأس السنة ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى وقال بعضهم لو كانت للاستعلاء لكان الأنسب جعل الكبر مستعليا عليه كما في قولهم : علي دين وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ بل الكبر أولى بالاستعلاء منها حيث يظهر أثره في الرأس " (٤٠٠).

وما يهمنا هو أن نتبين دلالة إثارة (على) في سياق حمد إبراهيم -عليه السلام- لله تعالى لاسيما أنها تحمل دلالة لطيفة في سياق الحمد لم يذكرها المفسرون . وقد تلمس هذه الدلالة أحد الباحثين المحدثين إذ يرى أن من شأن الكبر أن يكون مانعا من الإنجاب ، إلا أن الله تعالى شاء أن يخرق ما جرت عليه العادة دلالة على عظيم قدرته وإطلاق يده في ما خلق تكريما لمن خرقت من أجله النواميس وحطمت بسببه ظواهر العادات مما جعل إبراهيم -عليه السلام- يلهج ثناء على الله وشكرا له ، فأفادت (على) استعلاء قدرة الخالق على الكبر الذي من شأنه أن يمنع حصول الولد ، فلو قيل (مع الكبر) لما أوحى ذلك بالاستعلاء على الأسباب والعادات كما يوحي به حرف الاستعلاء^(٤٠١).

وفي ضوء ذلك يتضح أن إثارة (على) في الآية أبلغ في حمده تعالى؛ لأن إبراهيم -عليه السلام- يحمده مقرا باستعلاء قدرته وعظمة نعمته .

دلالة عن :

- (٢) ينظر : الكشف : ٥٥٤ ، دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، محمد عبد الخالق عضيمة : ١٩٩/٢ .
- (٣) البحر المحيط : ٤٢٢/٥ .
- (٤) ينظر : مسائل النحو والصرف في تفسير البحر المحيط ، د. عبد الحميد السيد : ٤٠٤/١ .
- (٥) روح المعاني : ٢٢١/٧ ، والنص القرآني من الشعراء : من الآية ١٤ .
- (١) ينظر : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، د. محمد الأمين الخضري : ٧١ ، ٧٢ .

قال سيبويه في معنى حرف الجر (عن) : " وأما (عن) فلما عدا الشيء وذلك قولك : أطمعه عن جوع ، جعل الجوع منصرفا تاركا له قد جاوزه " (٤٠٢) ، وهذا هو أشهر معانيها ويسمى المجاوزة (٤٠٣) ومعنى المجاوزة فيها أنها تدلّ على "بعد شيء عن المجرور بها بسبب إيجاد مصدر المعدّى بها نحو : رميت عن القوس أي بعد السهم عن القوس بسبب الرمي وكذا أطمعه عن الجوع أي بعده عن الجوع بسبب الإطعام " (٤٠٤) .

وقد جاءت (عن) بهذا المعنى في سياق تسبيح الله جلّ وعلا لتدلّ على بعد الله تعالى عن ما يصفه به المشركون من ادعاءاتهم الباطلة كادعائهم أنّ بينه تعالى وبين الجنة نسبا ، والمراد بالجنة هنا الملائكة وبالنسب القرابة إذ قالوا : الملائكة بنات الله قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿٥٩﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الصافات : ١٥٨ ، ١٥٩) فقد نزه الله جلّ وعلا نفسه عن ما وصفوه به وأضافوه إليه (٤٠٥) فأفادت (عن) بعده تعالى عن وصفهم الباطل .

وإذا علمنا أنّ التسبيح لغة فيه معنى البعد عمّا لا ينبغي لله عز وجل كما قال ابن منظور (ت: ٧١١ هـ) في معنى (سبحان الله) : " وجماع معناه بعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل أو شريك أو ندّ أو ضدّ " (٤٠٦) فإنه سيتضح أنّ معنى بعده تعالى عمّا لا ينبغي له الذي يفيد حرف الجر (عن) كأنه توكيد لمعنى البعد الذي يفيد قوله تعالى (سبحان الله) ، فيكون قوله تعالى (فسبحان الله عمّا يصفون) أوضح في الدلالة على بعده تعالى عمّا لا يليق به وأبلغ في تنزيهه عمّا يصفه به المشركون .

وما قيل في هذه الآية يقال أيضا في إفادة حرف الجر (عن) بعد الله جلّ وعلا عمّا اتخذه المشركون له شريكا من الآلهة ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الطور: ٤٣) .

أما في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم : ٤٠) فإنه يتبادر إلى الذهن -

(٢) كتاب سيبويه : ٢٢٦/٤ .

(٣) ينظر : مغني اللبيب : ١٩٦/١ ، الإتقان في علوم القرآن : ٢٤٠/٢ ، دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢٠٩/٢ .

(٤) شرح كافية ابن الحاجب : ٣١٩/٤ .

(٥) ينظر : مجمع البيان : ٥٩٣/٨ .

(١) لسان العرب : ٤٧١/٢ .

أول وهلة - أن يأتي مع الفعل (تعالى) حرف الجر (على) ؛ لأنه حرف الاستعلاء ، فما دلالة إثثار حرف الجر (عن) في هذه الآية وفي غيرها مما جاء فيه حرف الجر (عن) مع الفعل (تعالى) في سياق التسبيح ؟ ^(٤٠٧)

الجواب - فيما يبدو- أنّ ذلك للجمع بين معنيين أساسيين في تنزيه الله تبارك وتعالى ، هما بعده عمّا لا يليق به ولا ينبغي له وهذا ما يفيد حرف الجر (عن) كما سبق ذكره وعلوّه على ما جعل له شريكا وهذا ما يفيد الفعل (تعالى) وقد سبقت الإشارة إلى أنّ صيغة (تفاعل) لا تعني التكلف في تعاليه جلّ وعلا كما يكون ذلك من البشر وإنما هي للمبالغة في علوّه ^(٤٠٨). ولعل في مجيء المصدر (علوا) وهو مصدر الفعل (علا) مع الفعل (تعالى) الذي مصدره (تعاليا) دلالة على هذا المعنى .

ومما هو جدير بالذكر أيضا أنّ الفرق بين (سبحانه) و(تعالى) هو أنّ المراد بالأول أنّ القائل يسبح الله وينزهه عمّا لا يليق به، والمراد بالثاني كونه عز وجل متعاليا في ذاته متقدسا عن هذه الصفات سواء سبّحه مسبّح أم لم يسبّحه ، فالتسبيح يرجع إلى أقوال المسبّحين والتعالي يرجع إلى صفته الذاتية التي حصلت له لا لغيره ^(٤٠٩) وليس المراد بالتعالي في حق الله تعالى هو التعالي في المكان والجهة ؛ لأنّ التعالي عن الشريك والنظير والنقائص لا يمكن تفسيره بالمكان والجهة ^(٤١٠) لاسيما أنه تعالى منزّه عن التجسيم ^(٤١١).

وبعد ذلك نقول : إنّ المعنيين اللذين ذكرناهما ، وهما البعد عمّا لا ينبغي لله سبحانه والعلوّ على ما جعل له شريكا لا يجتمعان ما لم يأت حرف الجر (عن) مع الفعل (تعالى) ، ولو جاء مكان (عن) حرف الجر (على) الذي يفيد الاستعلاء الذي يفيد الفعل (تعالى) لتحصل من الآية معنى واحد وهو العلوّ دون المعنى الآخر الذي هو البعد ، ولا شك في أنّ الجمع بين هذين المعنيين وعدم الاختصار على أحدهما أبلغ في تسبيحه تعالى .

فإن قيل : علوّ الله جلّ وعلا يعني بعده عمّا لا يليق به فلا فرق بين المعنيين، فالجواب - إنّ صحّ عدم الفرق - أنّ الاختصار على أحدهما - وإن كانا بمعنى واحد - يفوت نكتة توكيد المعنى وتقريره ، لاسيما أنّ هذا التعبير يأتي في سياق الرد على منكري التوحيد ، والردّ على المنكر يتطلب زيادة في توكيد الكلام.

(٢) ينظر : الإنعام : ١٠٠ ، يونس : ١٨ ، النحل : ١ ، الزمر : ٦٧ .

(٣) ينظر : ٣٢ من هذه الرسالة .

(١) ينظر : التفسير الكبير : ٩٢/١٣ ، ومبحث الصفات الإلهية مبحث واسع عني به المتكلمون ، والاتساع فيه هنا يخرجنا عمّا نحن فيه من درس لغوي .

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٣٤٦/٢٠ .

(٣) ينظر : الاحتجاج : ١٢١/١ - ١٢٥ ، العقائد الإسلامية : ٤٤ ، ٤٥ .

دلالة الفعل الزمنية

يعد الفعل أحد الأقسام الثلاثة التي يتألف منها الكلام^(٤١٢) ، وهو شائع الاستعمال في العربية ، وموضع اهتمام المتكلمين بها^(٤١٣) ، لما له من دلالات متنوعة تدخل في مختلف سياقات التعبير ، لاسيما أنّ في معانيه " تنوعاً أكثر بكثير مما يوجد في أي لغة كانت من سائر اللغات السامية " ^(٤١٤).

والفعل عند الكوفيين أصل الاشتقاق على خلاف البصريين الذين يرون أنّ الأصل في الاشتقاق هو المصدر ، والفعل فرع عليه ^(٤١٥).

وقد رجّح بعض المحدثين ما ذهب إليه الكوفيون ؛ نظراً لأهمية الفعل في الكلام بما يؤديه من وظائف لغوية متعددة الجوانب ؛ ولكونه يعبر عن الأحداث وأزمانها وغير ذلك^(٤١٦).

وقد عرّف سيبويه الفعل بقوله : " وأما الفعل : فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع " ^(٤١٧).

وقال ابن يعيش (ت: ٦٤٣هـ) : " فأما الفعل فكل كلمة تدل على معنى في نفسها مقترنة بزمن " ^(٤١٨).

ولابدّ من أن يدل الفعل عند النحاة القدماء على زمن ؛ لأنّه يتشكل من الحدث والزمن بعد اقترانهما ^(٤١٩).

-
- (١) ينظر : كتاب سيبويه : ١٢/١ ، شرح عيون الإعراب : ٤١ .
 - (٢) ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي : ١١٠ ، لغة الشعر عند الجواهري ، د. علي ناصر غالب : ١٣٢ ، الأفعال في القرآن الكريم ونظائرها السامية ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد ، العدد ٢٤ ، كانون الثاني ١٩٧٩ ، د. خالد إسماعيل : ٤٠٦ .
 - (٣) التطور النحوي للغة العربية : ٨٩ .
 - (٤) ينظر : الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، أبو البركات الأنباري : ٢٣٥ / ١ .
 - (٥) ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه : ١١٠ ، ١١٦ .
 - (٦) كتاب سيبويه : ١٢/١ .
 - (٧) شرح المفصل : ٢٢١/٧ ، وينظر : شرح اللوحة البدرية في علم اللغة العربية ، ابن هشام الأنصاري : ٥٠/٢ .
 - (٨) ينظر : كتاب سيبويه : ٣٥/١ ، الأصول في النحو : ٣٨/١ ، المقتصد في شرح الإيضاح : ٨٢ / ١ .

ويقسم الفعل عند جمهور النحاة على ماض ومضارع وأمر^(٤٢٠)، وقد تباين الدارسون قديما وحديثا في تحديد الدلالات الزمنية التي يفيدها كل قسم من هذه الأقسام^(٤٢١).

وسأحاول أن أتبين ما يضيفه الفعل بأقسامه الثلاثة من دلالة زمنية في سياق الحمد والتسبيح ، ومما هو جدير بالذكر أنه لم يرد في القرآن الكريم فعل من مادة الحمد إلا مرة واحدة ، جاء فيها الفعل مضارعا مبنيًا للمجهول ، ولم يكن في سياق حمد الله تعالى وإنما جاء في سياق ذكر صفات اليهود أو المنافقين التي منها أنهم يحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا^(٤٢٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا

تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٨٨) ، غير أن هذا لا يعني أن ليس هناك أفعال لها دلالاتها في سياق التعبير عند حمد الله جل وعلا ؛ وإن لم تكن من مادة الحمد ، لاسيما أننا نتبع منهجا لا يقتصر في البحث عن الدلالة على ألفاظ مادة (حمد) و(سبح) ، وإنما يعنى أكثر ما يعنى بالسياق الذي ترد فيه هذه الألفاظ .

دلالة الفعل الماضي :

ورد الفعل الماضي في سياق الحمد ؛ ليدل على زمن الماضي المطلق سواء أكان بعيدا أم قريبا ، لاسيما أنه الزمن الغالب للفعل الماضي^(٤٢٣) وقد ذكره أكثر النحاة ، قال سيبويه : " فإذا قال (ذهب) فهو دليل على أن الحدث فيما مضى من الزمان " ^(٤٢٤) وجاء في كتاب المفصل في صنعة الإعراب " وهو الدال على اقتران حدث بزمان قبل زمانك " ^(٤٢٥) .

(١) ينظر : شرح شذور الذهب : ١٤ ، شرح اللمع في النحو ، الواسطي الضرير : ٢٨ ، معاني النحو : ٢٦٧/٣ وهذا هو تقسيم البصريين أما الكوفيون فيتفقون مع البصريين في القسمين الأول والثاني ويخالفونهم في القسم الثالث فهو عندهم الفعل الدائم لا فعل الأمر والفعل الدائم هو اسم الفاعل ، ينظر : مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو : ٢٧٥ ، في النحو العربي نقد وتوجيه : ١٢٤ ، ١٢٥ ، ويرى فاضل الساقى أن الكوفيين قد جانبوا الدقة في عدّهم اسم الفاعل فعلا لأنه لا يقبل علامات الفعل كناء التأنيث الساكنة أو السين أو سوف أو حروف المضارعة وغير ذلك من علامات الفعل ، ينظر : اسم الفاعل بين الاسمية والفعلية : ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) ينظر : همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي : ٣١ ، ٣٢ ، معجم الجملة القرآنية ، القسم الثاني : الدلالة الزمنية للأفعال في القرآن الكريم، د. طالب محمد الزوبعي : ١٥ ، ٩٥ ، ٢٧٤ .

(٣) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ١ / ١٧٤ .

(٤) ينظر : همع الهوامع : ١ / ٣٧ ، معجم الجملة القرآنية (القسم الثاني) : ٢٨ .

(٥) كتاب سيبويه : ١ / ٣٥ ، وينظر : المقتصد في شرح الإيضاح : ١ / ٨٢ .

(١) المفصل في صنعة الإعراب : ٣١٣ ، وينظر : معاني النحو : ٢٦٧ / ٣ .

فمن دلالاته على الماضي البعيد في سياق الحمد قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (الأنعام : من الآية ١) . فخلقه تعالى السماوات والأرض وجعله الظلمات والنور قد حدث في الماضي البعيد ونحن نحمده عليه .

ومن دلالاته على الماضي القريب قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٨) ، إذ أمر الله تعالى نبيّه نوحاً -عليه السلام- أن يحمده على ما تقدّم في الماضي القريب من نعمته عليه وعلى من آمن به ، وهو نجاتهم من قومهم الظالمين ، وفي ذلك دلالة على وجوب حمده تعالى على نعمه بعد تحققها مباشرة ، ويدلنا على ذلك الشرط في الآية والمعنى أنه حالما تحقق الاستواء على الفلك وهو علامة النجاة فقد وجب حمده جلّ وعلا على هذه النعمة .

أمّا الفعل الماضي من لفظ الشكر فقد ورد في القرآن الكريم أربع مرات^(٤٢٦) ثلاث منها في سياق الشرط ، مما يجعل الفعل الماضي ينصرف إلى الاستقبال^(٤٢٧) ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم : من الآية ٧) . وإنما ينصرف الفعل الماضي للاستقبال في سياق الشرط لأنّ الجملة الشرطية تتحدث دائماً عن المستقبل^(٤٢٨) ، فالآية تطلب من العباد أن يشكروا الله تعالى على نعمه كي يزيدهم عليها ويبارك لهم فيها .

أمّا الفعل الماضي الذي لم يرد في سياق الشرط فهو ما ورد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ (القمر : ٣٤ ، ٣٥) .

ويبدو أنّ الفعل (شكر) يدل على الاستمرار الزمني ، وإن كان الأصل فيه أن يدل على الماضي بلحاظ أنّ الجزاء على الشكر متأخر عنه ، كما أنّ نجاة آل لوط -عليه السلام- جاءت جزاء

(٢) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٨٥ ، والمواضع التي ورد فيها هي : النساء : ١٤٧ ، إبراهيم : ٧ ، النمل : ٤٠ ، القمر : ٣٥ .

(٣) ينظر : شرح كافية ابن الحاجب : ٩/٤ .

(٤) ينظر : تجديد النحو ، د. شوقي ضيف : ٢٠٢ .

على شكرهم الذي سبق منهم ؛ لأن السياق يدلنا على أنّ الفعل (شكر) في الآية لا يختص بزمن دون آخر ؛ لأنّ المعنى أنّ الله تعالى يجزي كل من هو شاكر له على نعمه وأفضاله في أي زمان كان ، كما جرى آل لوط على شكرهم نعمه بأن نجاهم من العذاب . وبعبارة أخرى إنّ الله تعالى يجزي من شكر ويشكر وسيشكر .

وقد ورد الفعل الماضي من لفظ التسبيح أربع مرات أيضاً^(٤٢٩) يدل في ثلاث منها على الاستمرار الزمني ؛ لأنّ دلالاته لا تتوقف ولا تنقطع^(٤٣٠) ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ١) ، (الصف: ١) . إذ لا يمكن أن يقصر تسبيح ما في السماوات وما في الأرض على الزمن الماضي فقط ؛ لأنّ ما فيهما دائم التسبيح لله تبارك وتعالى ولا يمكن لهذا التسبيح أن يتوقف أو ينقطع لاسيما " أنّ السماوات والأرض والدواب مسبّحات بالتسخير من حيث إنّ أحوالها تدل على حكمة الله تعالى " ^(٤٣١) ، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: من الآية ٤٤) ، وقال جلّ وعلا: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور: من الآية ٤١) .

أمّا الفعل الماضي الرابع من لفظ التسبيح فيدلّ على الاستقبال ؛ لأنه وارد في سياق الشرط ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (السجدة: ١٥) .

دلالة الفعل المضارع :

اختلف النحاة في دلالة الفعل المضارع على الزمن ، ف قيل : لا يكون الفعل المضارع إلا للحال ، وقيل : لا يكون إلا للاستقبال ، وهناك من يرى أنه حقيقة في الحال مجاز في

(١) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٣٩ ، والمواضع التي ورد فيها هي : السجدة : ١٥ ، الحديد : ١ ، الحشر : ١ ، الصف : ١ .
(٢) ينظر : تجديد النحو : ٢٠٢ .
(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ٣٩٣ .

الاستقبال ، وآخر يرى أنه حقيقة في الاستقبال مجاز في الحال^(٤٣٢) . والذي عليه جمهور النحاة هو أن المضارع صالح للحال والاستقبال مشترك بينهما^(٤٣٣) ما لم يتخصص لأحدهما بقرينة كالظرف مثلا ، فـ(الآن) تخصصه للحال و(غدا) تخصصه للمستقبل ، وغير ذلك مما يتخصص به المضارع بزمن معين^(٤٣٤) .

وقد يدل الفعل المضارع على الزمن المستمر غير المقيد بزمن ، وذلك إذا دلّ على عمل يتكرر حيناً بعد آخر^(٤٣٥) .

وجاء من لفظ الحمد فعل مضارع واحد ليس في سياق حمد الله تعالى كما سبق أن ألمعنا وهو ما ورد في قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران : ١٨٨) . وقد دلّ الفعل (يحمدوا) على الزمن المستمر ؛ لأنه جاء في سياق بيان صفات المنافقين ، فهم يحبون أن يتكرر حمد الناس لهم - بما لم يفعلوا - في جميع الأوقات.

ومن لفظ الشكر ورد الفعل المضارع دالا على الاستمرار الزمني أيضا وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان: من الآية ١٢) فلا شك في أنّ مفاد الآية أنّ من يشكر في الماضي ومن يشكر في الحاضر ومن سيشكر في المستقبل فإنّ شكره في أي وقت راجع إليه لا ينتفع به إلا هو فالفعل (يشكر) غير مقيد في دلالاته بزمن ؛ لأنه مما يتكرر دائما .

وقد ذكر الرازي نكتة اختيار المضارع في (الشكر) والماضي في (الكفر) وإن كان الشرط يجعل الماضي والمضارع في معنى واحد كما يقول^(٤٣٦) . والنكتة التي ذكرها هي أنّ ذلك " إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر وهو أنّ الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرار النعمة ، فمن شكر ينبغي أن يكرر ، والكفر ينبغي أن ينقطع فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران ، ولأنّ الشكر من الشاكر لا يقع بكماله بل أبدا يكون منه شيء في العدم يريد الشاكر

(١) ينظر : شرح كافية ابن الحاجب : ١٢/٤ ، مع الهوامع : ٣١/١ ، ٣٢ .
 (٢) ينظر : شرح الوافية نظم الكافية : ٣٤ ، مع الهوامع : ٣١/١ . ومصطلح (جمهور النحاة) يدل ظاهره على أنه يشمل مذاهب النحويين جميعا غير أنّ النحاة استعملوه وهم يقصدون به البصريين فقط ، وهذا كما يرى أستاذنا الدكتور رحيم جبر الحسناوي - تعسف . ينظر : محاضرات أستاذنا الدكتور رحيم جبر الحسناوي التي أقيمت على طلاب مرحلة الماجستير في كلية التربية / جامعة بابل (مدوّنتي) .
 (٣) ينظر : معاني النحو : ٢٨٠/٣ ، ٢٨١ .
 (٤) ينظر : معجم الجملة القرآنية (القسم الثاني) : ١٢٧ .
 (١) ينظر : التفسير الكبير : ١١٩/٢٥ .

إدخاله في الوجود (...). فأشار إليه بصيغة المستقبل تنبيهاً على أن الشكر بكماله لم يوجد ، وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام فقاله بصيغة الماضي " (٤٣٧).

وأشار السيد الطباطبائي إلى نقطة أخرى في هذا الاختيار ، وهي أن في التعبير عن الشكر بالمضارع الدال على الاستمرار ، وعن الكفر بالماضي الدال على المرة إشعاراً بأن الشكر إنما ينفع مع تكراره والاستمرار عليه وأن الكفر يتضرر منه بالمرة (٤٣٨).

ومما يدل على الاستمرار الزمني في الفعل المضارع زيادة على كونه مما يتكرر هو أن يدل الفعل على صفة ثابتة أو راسخة (٤٣٩). وقد اجتمع هذان الأمران (التكرار والدلالة على الصفة الثابتة) في الفعل المضارع من لفظ التسبيح ، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الجمعة: ١) فمن حيث

التكرار فالتسبيح من الأذكار التي تتكرر دائماً ، وفي ذلك يقول الله تعالى عن الملائكة : ﴿

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفُتُونَ ﴾ (الأنبياء ٢٠). ومن حيث الدلالة على الصفة الثابتة

فالتسبيح صفة لازمة لكل شيء (٤٤٠) إذ إن مجرد وجود الشيء وحدوثه هو تسبيح لله الواجب ؛ لأن الممكن مفتقر إلى الواجب فتسبيح الجمادات مثلاً هو دلالتها على تعظيم الله وتنزيهه فهي تسبيح بلسان الحال ، وقيل : إنها تسبيح بلسان المقال (٤٤١).

ونخلص من ذلك إلى أن الفعل المضارع من لفظ التسبيح يدل على الاستمرار في الزمن فيفيد تسبيح الموجودات لله في جميع الأوقات .

وذكر الرازي وأبو السعود أنه قد جاءت بعض السور مفتوحة بالفعل الماضي (سَبَّحَ) ، وبعضها مفتوحة بالفعل المضارع (يُسَبِّحُ) ؛ للدلالة على أن تسبيح هذه الموجودات غير مختص بوقت دون وقت ، بل هي كانت مسبحة أبداً في الماضي وتكون مسبحة أبداً في المستقبل ؛ لأن كونها مسبحة صفة لازمة لماهياتها (٤٤٢).

وقد ذكرنا في دلالة الفعل الماضي من لفظ التسبيح أن (سَبَّحَ) لا تدل على الماضي فقط ، بل تدلّ على الاستمرار الزمني ؛ لأن دلالة الفعل لا تتوقف ولا تنقطع إذ لا يصح أن يقصر

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٣) ينظر : الميزان : ٢٢٦ / ١٦ .

(٤) ينظر : معجم الجملة القرآنية (القسم الثاني) : ١٢٨ .

(٦) ينظر : التفسير الكبير : ٤٤١ / ٢٩ ، ٤٤٢ ، الميزان : ١٦٤ / ١٩ .

(١) ينظر : مجمع البيان : ١٩٥ / ٧ ، التفسير الكبير : ٤٤٢ / ٢٩ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٤٤١ / ٢٩ ، إرشاد العقل السليم : ٢٧٤ / ٦ .

تسبيح الموجودات لله على زمن ما وهي لا تنفك عن ذلك التسبيح لأنه صفة لازمة لها ، وهذا لا يتعارض مع ما ذكره الرازي وأبو السعود من أن فواتح السور جاءت بـ(سَبِّح) الماضي تارة وبـ(يَسْبَح) المضارع تارة أخرى للدلالة على استمرار التسبيح وعدم اقتصاره على وقت دون وقت ؛ لأنَّ ما ذكرناه على سبيل إخبار الله تعالى عن تسبيح الموجودات ، فأخبر تعالى أنَّ ما في السماوات وما في الأرض قد سَبَّحَ له في الماضي ويسبِّح له في الحاضر والمستقبل ، أمَّا بالنظر إلى الفعل (سَبَّحَ) بدلالته التي لا يمكن أن تنقطع أو تتوقف فلا يصح قصره على الزمن الماضي فقط ، وذلك أبلغ في الدلالة على دوام التسبيح لله جلَّ وعلا في جميع الأوقات.

وقد يؤثر الاستعمال القرآني للفعل المضارع على الاسم للدلالة على استمرار التسبيح ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (ص: ١٨) .

قال الزمخشري : " و(يسبِّحن) في معنى(ومسبِّحات) على الحال ، فإن قلت : هل من فرق بين (يسبِّحن) و(مسبِّحات) ؟ قلت : نعم وما اختير (يسبِّحن) على (مسبِّحات) إلا لذلك ، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال وكأن السامع حاضر تلك الحال يسمعها تسبِّح " (٤٤٣) فدلَّ الفعل المضارع (يسبِّحن) على استمرار تسبيح الجبال مع داود -عليه السلام- ، لاسيما أنَّ قوله تعالى (بالعشي والإشراق) يقوِّي معنى الاستمرار الذي أفاده الفعل (٤٤٤) .

دلالة فعل الأمر :

تباينت مواقف النحاة قديماً وحديثاً إزاء دلالة فعل الأمر الزمنية فذهب سيبويه وغيره من البصريين إلى أنه يدل على الزمن المستقبل ، ويفهم ذلك من تحديد سيبويه لصيغة الأمر بأنها لما يكون ولم يقع ، قال : " وأمّا بناء ما لم يقع فإنه قولك أمراً : اذهب واقتل واضرب ... " (٤٤٥) ، وجاء في همع الهوامع : " والأمر مستقبل أبداً ؛ لأنه مطلوب به حصول ما لم يحصل أو دوام ما حصل " (٤٤٦) .

(١) الكشف : ٩٢١ ، وينظر : تفسير جوامع الجامع : ١٩٠/٣ ، البحر المحيط : ٣٧٤/٧ إرشاد العقل السليم : ٥٥٧/٥ .

(٢) ينظر : دلالة الفعل المضارع في القرآن الكريم (رسالة) : ١٣٧ .

(٣) كتاب سيبويه : ١٢/١ ، وينظر : المقتضب : ٨٣/١ .

(٤) همع الهوامع : ٣٠/١ .

وذهب آخرون إلى أنّ الأمر يدل على الحال فيرى السكاكي (ت: ٦٢٦ هـ) أنّ الأمر حقه الفور ، بمعنى أنه إذا قيل : افعل ، فمعناه : افعل فوراً^(٤٤٧) فهو يلّمح إلى دلالة فعل الأمر على الزمن الحاضر^(٤٤٨) .

وقد اختار هذا الرأي جماعة من الأصوليين^(٤٤٩) . وهناك من يرى أنه يدل على الحال والاستقبال لكونه مأخوذاً من المضارع الذي يدل عليهما^(٤٥٠) .

أمّا الكوفيون فإنهم لا يرون في فعل الأمر دلالة على الزمن ، ويفهم ذلك من تقسيمهم للفعل على ثلاثة أقسام : الماضي والمضارع والدائم^(٤٥١) ، فلم يجعلوا الأمر قسيماً للماضي والمضارع^(٤٥٢) .

ويبدو أنّ بعض نحاة البصرة قد ذهبوا إلى أنّ فعل الأمر لا يدل على زمن ويظهر ذلك من أنهم لم يذكروا فعل الأمر في تقسيمهم الأفعال من حيث دلالتها على الزمن^(٤٥٣) ، ومن هؤلاء ابن السراج (ت: ٣١٦ هـ)^(٤٥٤) وعبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ) الذي يقول : " اعلم أنّ أمثلة الفعل إنما جاءت للدلالة على الأزمنة الثلاثة فإذا قلت : ضرب ، دلّ على زمن ماض وضرب فيه وإذا قلت : يضرب دلّ على ضرب في الحال ، إذا قلت : سيضرب دلّ على زمان مستقبل وضرب فيه " ^(٤٥٥) .

وممن قال بعدم دلالة فعل الأمر على الزمن المحققون من متأخري الأصوليين^(٤٥٦) وذهب إلى ذلك من المحدثين إبراهيم مصطفى^(٤٥٧) والمخزومي^(٤٥٨) والجواري^(٤٥٩) وأوضح الدكتور طالب الزوبعي والدكتور فاضل صالح السامرائي أنّ فعل الأمر يفيد أزمنة متعددة ، وأنّ ما يحدد الزمن الذي يفيد الفعل هو السياق الذي يرد فيه^(٤٦٠) . ومن هذه الأزمنة أنه يدلّ على الزمن المطلق بمعنى أن يكون ذا دلالة زمنية دائمة غير مقيدة بزمن معين ولا سيما إذا حمل معنى التكليف بأمور العبادة فإنه يدلّ على طلب الإتيان بهذا التكليف

(٥) ينظر : مفتاح العلوم ، السكاكي : ٥٤٥ ، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ، د. قيس إسماعيل الأوسي : ١٠٤

(٦) ينظر : معجم الجملة القرآنية (القسم الثاني) : ٢٧٥ .

(٧) ينظر : البحث النحوي عند الأصوليين ، د. مصطفى جمال الدين : ١٥٤ .

(٨) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(١) ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه : ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) ينظر : الفعل زمانه وأبنيته ، د. إبراهيم السامرائي : ٢١ ، معجم الجملة القرآنية (القسم الثاني) : ٢٧٤ .

(٣) ينظر : معجم الجملة القرآنية (القسم الثاني) : ٢٧٥ .

(٤) ينظر : الأصول في النحو : ٣٨ / ١ .

(٥) كتاب المقتصد في شرح الإيضاح : ٨٢ / ١ .

(٦) ينظر : البحث النحوي عند الأصوليين : ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٧) ينظر : إحياء النحو ، إبراهيم مصطفى : ٦ ، دراسة تطور الجملة العربية بين النحاة والأصوليين ، د. صالح الظالمي : ١٤٧ .

(٨) ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه : ١٣٠ .

(٩) ينظر : نحو الفعل ، د. أحمد عبد الستار الجواري : ٢٤ ، نحو التيسير ، د. أحمد عبد الستار الجواري : ١١٦ .

(١٠) ينظر : معجم الجملة القرآنية (القسم الثاني) : ٢٧٨ ، معاني النحو : ٢٧ / ٤ - ٣٣ .

باستمرار من غير تقييد بزمن ، وأنه يشمل المكلفين به في كل زمان^(٤٦١) . ولا شك في أنّ شكر الله على سوايغ نعمه وتسبيحه عمّا لا يليق بجلالة شأنه من الأمور التي أمرنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بالتعبد بها .

ورد فعل الأمر من لفظ الشكر في القرآن الكريم سبع مرات^(٤٦٢) وقد دلّ في كل مرة منها على الأمر بشكره تعالى مطلقاً من غير تقييد بزمن معين ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٢) .

فالفعل (اشكروا) يأمر الذين آمنوا أن يشكروا الله تعالى على نعمه من دون أن يقيّد هذا الشكر بزمن معين ، بل هو أمر بإدامة الشكر في جميع الأزمان لاسيما أنه مما كلّفوا به إزاء نعم الله التي لا تعدّ ولا تحصى ، وقد ذكر الدكتور فاضل السامرائي أنّ الفعل (كلوا) يدل على استمرار اختيار الطيبات من الرزق^(٤٦٣) . وهذا مما يستدل به - زيادة على ما تقدم - على معنى الزمن المطلق (المستمر) في الفعل (اشكروا) لأنّ دوام النعمة واستمرارها يستلزم دوام شكرها واستمراره .

أمّا فعل الأمر من لفظ التسبيح فقد ورد ثماني عشرة مرّة^(٤٦٤) وهو يأمر في كل مرة بدوام التسبيح لله جلّ وعلا ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴾ (الفرقان : ٥٨) فالفعل (سبّح) يأمر المكلفين في كل زمان بإدامة التسبيح والمواظبة عليه ، فالآية خطاب لكل مسلم فكما أنها تأمر بالتوكل على الله تعالى في كل زمان ومكان فهي تأمر أيضاً بتسبيحه جلّ وعلا في كل زمان ومكان دونما تقييد أو تحديد .

أمّا في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَلِيلٍ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ (الإنسان : ٢٦) فقد ذكر الدكتور طالب الزوبعي احتمال أن يفهم من القرينة اللفظية (ليلاً طويلاً) تقييد التسبيح بزمن غير أنه ردّ هذا الاحتمال ، ورجّح أن يدل الفعل (سبّحه) على الاستمرار الزمني في

(١١) ينظر : معجم الجملة القرآنية (القسم الثاني) : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ .
(١) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٨٦ ، والآيات هي : (البقرة : ١٥٢ ، ١٧٢) ، (لقمان : ١٢ ، ١٤) ، (النحل : ١١٤) ، (العنكبوت : ١٧) ، (سبا : ١٥) .
(٢) ينظر : معاني النحو : ٣٠ / ٤ .
(٣) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٣٨ ، وينظر - على سبيل التمثيل لا الحصر - الآيات : (غافر : ٥٥) ، (الأحزاب : ٤٢) ، (ق : ٣٩) ، (الواقعة : ٧٤) ، (الأعلى : ١) وغير ذلك .

التسبيح^(٤٦٥)، وما رجّحه صحيح إلا أنّ الاحتمال الذي ذكره غير وارد أصلاً ؛ لأنّ الظرف (ليلاً طويلاً) لا يحدد الزمن كما يرى ، لاسيما أنه يبحث في دلالة الفعل الزمنية ؛ لأنّ هذه القرينة اللفظية (ليلاً طويلاً) لا تحدد فيما إذا كان الأمر بالتسبيح في الماضي أو الحاضر أو المستقبل وإنما تتحدد (الوقت) من اليوم الواحد ، فقد حددت التسبيح بالليل الطويل ، وهذا ما لا يتنافى أبداً مع دلالة الاستمرار الزمني للتسبيح ولا يقيده بزمن دون آخر؛ لأنّ الليل الطويل الذي أمرنا الله تبارك وتعالى أن نسبح فيه لا يمكن قصره على الماضي أو الحاضر أو المستقبل وإنما هو ليل يوم مطلق من كل زمن .

وقد ورد الأمر بالتسبيح محددًا بالأوقات التي يسبح فيها من اليوم الواحد ، ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ (آل عمران : من الآية ٤١) وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (طه: ١٣٠).

ولا يتنافى تحديد أوقات التسبيح هذا مع دلالة الأمر بالتسبيح على الزمن المطلق وعدم تقييده بالماضي أو الحاضر أو المستقبل .

وبهذا يتضح أنّ فعل الأمر بالشكر والتسبيح قد دلّ في القرآن الكريم على دوام هاتين العبادتين اللتين أمرنا الله بهما واستمرارهما في كل زمان ومكان .

(٤) ينظر : معجم الجملة القرآنية (القسم الثاني) : ٢٨٢ .

دلالة العطف

العطف أحد التوابع في العربية ؛ لأنه يقضي بأن يتبع المعطوف ما عطف عليه بالإعراب^(٤٦٦)، وهو نوعان : عطف النسق ، وعطف البيان^(٤٦٧) . وسأقتصر هنا على دلالة عطف النسق في سياق الحمد والتسبيح .

يعدّ الفراء أول من اصطلح على تسميته بعطف النسق^(٤٦٨) ، ويسمى عند بعض النحاة بالعطف بالحروف^(٤٦٩) ، وحروف العطف كثيرة منها الواو والفاء وثم وغيرها^(٤٧٠) وتعدّ الواو أصل حروف العطف ومعناه الجمع بين الشيئين مطلقاً^(٤٧١) وإنما جعلت أصل حروف العطف ؛ لأنها لا تدل على أكثر من الاشتراك على خلاف غيرها من الحروف فإنها تدل على الاشتراك وعلى معنى زائد^(٤٧٢) .

وسنحاول أن نتلمس ما يضيفه عطف النسق من دلالات في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه ، لاسيما العطف بالواو لما له من أثر في الدلالة ؛ ولما يتطلبه من تتبع لمعرفة المغزى منه^(٤٧٣) ، فمما جاء من العطف في سياق الحمد قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام : ١).

فقد ورد حرف العطف (ثم) الذي يفيد الترتيب والتراخي^(٤٧٤) عاطفا جملة (الذين كفروا بربهم يعدلون) على جملة سبقتها، قيل: هي جملة (الحمد لله) وقيل : هي جملة

(خلق السماوات والأرض)^(٤٧٥).

- (١) ينظر : كتاب أمالي ابن الحاجب : ٥١٧/٢ ، شرح الوافية نظم الكافية : ٢٥٨ ، شرح ألفية ابن مالك ، ابن الناطم : ١٨٨ ، شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية : ٢١٧/٢ .
- (٢) ينظر : شرح ابن عقيل : ٢١٨/٣ ، شرح شذور الذهب : ٤٠٠ .
- (٣) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ٤٤ / ١ ، نحو القراء الكوفيين : ٣٤٥ .
- (٤) ينظر : المقتضب : ١٤٨/١ ، شرح عيون الإعراب : ٢٤٥ .
- (٥) ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٣٧/٣ ، نحو المعاني ، د.أحمد عبد الستار الجواري : ٩٢ .
- (٦) ينظر : كتاب سيبويه : ٤٣٨/١ ، المقتضب : ١٤٨/١ ، المقرّب : ٢٢٩/١ ، القرآن وأثره في الدراسات النحوية : ٣٠٩ ، أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية : ١٥٣ ، أساليب العطف في القرآن الكريم ، د. مصطفى حميدة : ٤٩ .
- (٧) ينظر : أسرار العربية ، أبو البركات الأنباري : ١٥٩ ، من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي : ١٧٣ ، نحو المعاني : ٩٢ .
- (٨) ينظر : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، عبد القاهر الجرجاني : ١٤٧ ، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر ، د. عبد الفتاح لاشين : ١٣٥ ، ١٣٦ .
- (٩) ينظر : دلائل الإعجاز : ١٤٧ ، أسرار العربية : ١٦٠ ، شرح كافية ابن الحاجب : ٣٩٧ / ٤ .

غير أنّ العطف على جملة الحمد أولى^(٤٧٦)، وفيه دلالة على ثبوت الحمد لله تعالى واختصاصه به .

يرى الزمخشري أنّ معنى (ثم) " استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته"^(٤٧٧) وقال ابن عطية عنها : " (ثم) دالة على قبح فعل الذين كفروا ؛ لأنّ المعنى أنّ خلقه السماوات والأرض وغيرها قد تقرر وآياته قد سطعت وإنعامه بذلك قد تبين ثم بعد هذا كلّه عدلوا بربهم فهذا كما تقول : يا فلان : أعطيتك وأكرمتك وأحسنيت إليك ثم تشتمني ؟ أي بعد مهلة من وقوع هذا كله ، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ(ثم) " ^(٤٧٨).

وقد أنكر أبو حيان على الزمخشري معنى الاستبعاد الذي يراه في (ثم) وعلى ابن عطية معنى التوبيخ الذي قال به معللاً ذلك بأنّ (ثم) لم توضع لما ذكره ، وأنّ الاستبعاد أو التوبيخ مفهوم من سياق الكلام لا من مدلول (ثم) ، بل (ثم) هنا للمهلة في الزمان فأخبر الله تعالى بأنّ الحمد له ونبّه على العلة المقتضية للحمد من جميع الناس ، وهي خلق السماوات والأرض والظلمات والنور ثم أخبر بأنّ الكافرين به يعدلون فلا يحمدونه^(٤٧٩).

ولا أظنّ أنّ ما ذكره الزمخشري من معنى الاستبعاد وابن عطية من معنى التوبيخ في (ثم) ، كان بمعزل عن السياق ، وأنهما يقصدان - بما ذكره - معناها الذي وضعت له ؛ إذ لا يعقل أن يقول الزمخشري في قولنا : جاء محمد ثم علي ، إنّ (ثم) في هذا القول للاستبعاد أو أن يقول ابن عطية فيها إنها للتوبيخ على احتمال أنهما ذكرا ما وضعت له (ثم) من معنى ، وزيادة على ذلك فإنّ الزمخشري في كتابه (المفصل في صنعة الإعراب) لم يذكر لـ(ثم) معنى الاستبعاد بل ذكر أنها تفيد الترتيب والتراخي^(٤٨٠) ، مما يؤكد أنّ معنى الاستبعاد فيها قد تلمسه الزمخشري من سياق الآية ، وبهذا يتضح أن أبا حيان لم ينصف الزمخشري وابن عطية في ما أنكره عليهما ؛ لأنّهما استدلا بالسياق في ما ذكره من معنى لـ (ثم) ، لاسيما أنّ ما ذكره لهما من معنى لا يخرجها عمّا وضعت للدلالة عليه ، وهو المهلة من الزمان وإنما يفهم من معناها الوضعي بقريضة السياق أنها تفيد معنى الاستبعاد والتوبيخ ، وعلى هذا ستتضح دلالة العطف بـ (ثم) في التعبير عن حمده جلّ وعلا ؛ لأنّ الاستبعاد والتوبيخ يدلان على أنّ ما ذكر قبل (ثم) من حمده تعالى على نعمته بخلقه السماوات والأرض وجعله الظلمات والنور أمر ثابت وواضح لا ريب فيه ، فإذا كان حمده تعالى على هذا الوصف فإنّ من يعدل به جلّ وعلا ويشرك أحقّ بأن يستبعد منه ذلك وأجدر بأن يوبّخ عليه .

(١) ينظر : الكشف : ٣١٨ ، ٣١٩ ، مدارك التنزيل : ٤٣٨ / ١ .

(٢) ينظر : البحر المحيط : ٧٤ / ٤ ، إرشاد العقل السليم : ٥ / ٣ .

(٣) الكشف : ٣١٩ .

(٤) المحرر الوجيز : ١٢٢ / ٥ .

(٥) ينظر : البحر المحيط : ٧٤ / ٤ .

(٦) ينظر : المفصل في صنعة الإعراب : ٣٩٠ .

ويشعر إيثار (ثم) في الآية بأن اختصاصه تعالى بالحمد ثابت وقديم منذ الأزل ثم بعد هذا الثبوت والقدم يعدل به المشركون. ويفهم هذا المعنى مما تدل عليه ثم من معنى المهلة والتراخي ، وفي ذلك دلالة على تقابل أمرين الأول : حمد الله الثابت القديم منذ الأزل ، والثاني : إشراك الكافرين الطارئ المحدث ، ولا شك في أن الأول بثبوته يوحى بوهن الثاني وبطلانه ، وذلك أبلغ في حمده تبارك وتعالى.

ومن دلالة العطف بالواو في سياق الحمد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا

وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل: ١٥) فقد عطف الواو جملة (وقالا الحمد لله...) على الجملة التي سبقتها .

قال الزمخشري في بيان دلالة العطف في الآية : " فإن قلت : أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك : أعطيته فشكر ومنعته فصبر ؟ قلت : بلى ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه ، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قال : لقد آتيناهما علما فعملا به وعلما وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة وقالوا الحمد لله الذي فضلنا " (٤٨١).

وفي ذلك دلالة على أن حمد الله على نعمه هو نعمة منه أيضا ، فكل ما عند العباد من خير فهو منه تعالى حتى حمدهم إياه على ما أنعم ، ويدل على هذا المعنى قول الإمام زين العابدين علي بن الحسين -عليه السلام- في مناجاة الشاكرين : " فكلما قلت : لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد " (٤٨٢).

ويشير أبو السعود إلى فائدة أخرى من العطف بالواو ، هي أنه يدل على أن كل واحد من داود وسليمان -عليه السلام- قد حمد الله تعالى على ما آتاه من العلم ، لا أنهما حمداه على ما آتاهما من العلم كما هو المتبادر لو كان العطف بالفاء (٤٨٣) . ويفهم من هذا أنهما -عليهما السلام- لم يحمداه تعالى ؛ لأنه أعطاهما العلم كليهما ولم يعطه أحدهما دون الآخر ، وإنما حمده كل واحد منهما على ما خصّه الله به من نعمة العلم .

ومن دلالة العطف في سياق الشكر ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ

أُمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨) .

(١) الكشف : ٧٧٧ ، وينظر : مدارك التنزيل : ١٢٢١ / ٢ .

(١) الصحيفة السجادية : ٢٦٤ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٣٦٨/٤ .

فقد ذكرنا في بداية هذا الموضوع أنّ معنى الواو هو الجمع بين الشيئين مطلقاً من دون ترتيب في الحكم ، وهذه الآية مثال لذلك ولو كانت الواو تفيد ترتيباً لفسد المعنى ؛ لأنّ جعل السمع والأبصار والأفئدة يكون قبل إخراج الطفل من بطن أمه وقد عطفت الواو هنا الجعل على الإخراج ، وليس في هذا العطف دلالة على تأخر الجعل عن الإخراج؛ لأنّ الواو تفيد الجمع المطلق ، لاسيما أن أثر جعل السمع والأبصار والأفئدة لا يظهر قبل الإخراج (٤٨٤) .

ولعل في الخروج عن الترتيب في هذا العطف إشعاراً بأهمية نعمة الجعل في تقرير النعمة وطلب الشكر لاسيما أنّ شكر النعم إنما يكون بعد أن يحصل العلم بها وتعيها الأسماع والأبصار والقلوب .

ومن دلالة العطف في سياق الشكر أيضاً ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ

الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الروم : ٤٦) .

حيث عطفت الواو جملة ترجي الشكر (ولعلكم تشكرون) على ما قبلها (٤٨٥) في هذه الآية وفي خمس آيات أخر غيرها (٤٨٦) . ودلالة العطف في هذه الآيات هي أنّ فيه إشارة إلى أنّ توفيق العباد إلى شكر نعم الله جلّ وعلا هو من نعمه تعالى ، وهذا نظير ما ذكرناه في حمد داود وسليمان -عليهما السلام- .

فإن قيل : لقد وردت جملة (لعلكم تشكرون) غير معطوفة على ما قبلها في ثمانية مواضع من القرآن الكريم (٤٨٧) ، فما الفرق ؟ . فالجواب - فيما يبدو - هو أنّ ما جاء بالعطف قد سبق بقوله تعالى ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ في خمسة مواضع وبقوله تعالى ﴿ وَلِتَكْبَرُوا اللَّهَ عَلَى

مَا هَدَاكُمْ ﴾ في موضع واحد (٤٨٨) . أمّا ما جاء بغير العطف فلم يسبق بأيّ مما ذكرناه ، ولعل في ذلك دلالة على أنه شكر العباد له تعالى هو جزء من فضله عليهم وهدايتهم لهم ، بمعنى أنه تعالى يتفضل عليهم بأن يوفّقهم إلى شكره ويهديهم إليه.

(٣) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمال : ٣٠٢/٣ .

(١) ينظر : معجم حروف المعاني في القرآن الكريم : ١٢٦٩/٣ .

(٢) الآيات هي : البقرة : ١٨٥ ، القصص : ٧٣ ، فاطر : ١٢ ، الجاثية : ١٢ ، .

(٣) الآيات هي : البقرة : ٥٢ ، ٦٥ ، آل عمران : ١٢٣ ، المائدة : ٦ ، ٨٩ ، الأنفال : ٢٦ ، النحل : ٧٨ ، الحج : ٣٦ .

(٤) هو الآية : البقرة : ١٨٥ .

أما دلالة العطف في سياق التسبيح ، فمنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو

إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

ففي عطف جملة (سبحان الله) وجهان :

الأول : أن تكون معطوفة على جملة (قل هذه سبيلي) والمعنى : قل هذه سبيلي وقل سبحان

الله ^(٤٨٩) ، فيكون التسبيح مما أمر الله به نبيه المصطفى - ﷺ - ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهِ تَوَكَّلْ﴾ .

والثاني : أن تكون معطوفة على جملة (أدعو إلى الله) ، والمعنى : أدعو إلى الله وأنزله عن الشركاء ^(٤٩٠) ، أو أدعو إلى الله وأقول سبحان الله ^(٤٩١) ، فيكون التسبيح مما اتصف به النبي

محمد - ﷺ - ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِهِ تَوَكَّلْ﴾ - فهو يدعو إلى الله ويسبحه وليس هو من المشركين .

ونختم حديثنا عن دلالة العطف بقوله تعالى في سياق التسبيح أيضا : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ

سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (النحل : ٥٧) .

فالواو في (ولهم ما يشتهون) تحتل في عطفها ثلاثة أوجه :

الأول : أن تعطف الجملة الاسمية المكونة من الخبر المقدم (لهم) والمبتدأ المؤخر (ما) على جملة (ويجعلون لله البنات) ^(٤٩٢) وتكون جملة (لهم ما يشتهون) على هذا الوجه مسوقة للتقريع أو الاستهزاء بدعوى هؤلاء الذين يجعلون لله تعالى البنات ^(٤٩٣) .

الثاني : أن تكون (ما) مفعولا بفعل مضمر والتقدير : يجعلون لأنفسهم ما يشتهون فتعطف الواو جملة فعلية على الجملة الفعلية التي تقدمتها ^(٤٩٤) .

الثالث : أن تكون (ما) معطوفة على (البنات) أي : يجعلون لله البنات ولأنفسهم ما يشتهون ^(٤٩٥) .

(١) ينظر : مجمع البيان : ٣٤٦/٥ .

(٢) ينظر : الكشف : ٥٣٢ .

(٣) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ٣٩٧ / ١ .

(٤) ينظر : معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج : ١٦٨/٣ ، الكشف : ٥٧٥ ، التبيان في إعراب القرآن : ٧٩٨ / ٢ البحر المحيط : ٤٨٨/٥ .

(٥) ينظر : الميزان : ٢٩٣/١٢ .

(٦) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ٤٢٩/١ .

والمعنى على الوجهين (الثاني والثالث) أنهم يثبتون لله سبحانه وتعالى البنات باعتقادهم أن الملائكة بناته جلّ وعلا ويثبتون لأنفسهم ما يشتهون وهم البنون والمتحصل من ذلك أنهم يرضون لله ما لا يرضونه لأنفسهم^(٤٩٦) ، وقد نزه الله تعالى نفسه بقوله (سبحانه) رداً على أباطيلهم ومعتقداتهم الفاسدة سبحانه وتعالى عما يصفون علواً كبيراً .

وبهذا نكون قد تعرّفنا ما يضيفه العطف من دلالة في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه بما يتيح من تنوع دلالات النص القرآني تارة وما يفيد من تقرير المعنى وتثبيته تارة أخرى .

(٧) ينظر : مءات القرآن ، الباقولي الملقب بـ (جامع العلوم النحوي): ١٤٧ ، الكشف : ٥٧٥ ، مجمع البيان : ٤٧٥/٦ .
(٨) ينظر : البحر المحيط : ٤٨٨/٥ ، تفسير الجالين : ٣٢٤/١ .

دلالة التنكير والتعريف

التنكير والتعريف من الوسائل التي يستعين بها المتكلم لتحقيق أغراض دلالية كثيرة ، ولكل من التنكير والتعريف أثره في التعبير بما يحمل من دلالات ومعان. فقد يستعمل المتكلم النكرة للدلالة على معنى معين ، ولو استعمل مكانها المعرفة لدلت على خلاف ما أفادته النكرة ، ومن ذلك مثلاً أنك إذا قلت لي : اشتريت بيتاً ، علمت أنه بيت لا عهد لي به ولم تخبرني عنه من قبل بشيء ، أمّا إذا قلت لي : اشتريت البيت ، فسيتبادر إلى ذهني أنه بيت قد سبق لك أن أخبرتني عنه أي إنه معهود عندي أو في الأقل أنك أخبرتني في يوم ما أنك ستشتري بيتاً فلما اشتريته قلت : اشتريت البيت بالتعريف .

درس النحاة النكرة والمعرفة ، وحدّوا كلا منهما ، فالنكرة : " ما لم تخصّ واحداً من جنسه نحو : رجل و غلام " (٤٩٧) ، والمعرفة : " ما خصّ الواحد من جنسه " (٤٩٨) وجاء في كتاب كشف المشكل في النحو : " المعرفة : كل اسم معروف بنفسه مختص لا يشكل بغيره ، والنكرة : كل اسم شائع في جنسه لا يختص به واحد دون واحد فالنكرة أصل والمعرفة طارئة عليها " (٤٩٩) .

واختلف النحاة في أنواع المعارف فمنهم من يرى أنها خمسة : الضمير ، والعلم والمعرف بالآلف واللام ، واسم الإشارة ، والمضاف إلى إحدى هذه المعارف (٥٠٠) . ويرى آخرون أنها ستة بزيادة المعرف بالنداء كما يرى ابن الحاجب (ت: ٦٤٥ هـ) (٥٠١) أو زيادة الاسم الموصول كما يرى ابن مالك (ت: ٦٧٢ هـ) في الألفية (٥٠٢) .

وجعلها ابن مالك في شرح الكافية الشافية وشرح التسهيل (٥٠٣) وابن هشام (٥٠٤) سبعة أنواع بزيادة كل من المعرف بالنداء والاسم الموصول .

واختلف النحاة أيضاً في أعرف المعارف ، فقليل الضمير أعرف أنواعها وقيل العلم ، وقيل اسم الإشارة (٥٠٥) ، ولا نريد الخوض في تفصيلات هذا الموضوع ؛ لأن ما يعيننا هو

- (١) اللع في العربية، ابن جني : ١٨٥ .
- (٢) المصدر نفسه : ١٨٦ ، وينظر : أسرار العربية : ١٧٥ .
- (٣) كشف المشكل في النحو ، علي بن سليمان الحيدرة اليمني : ٨٢/٢ .
- (٤) ينظر : كتاب سيبويه : ٥/٢ ، الأصول في النحو : ٤٩/١ ، التبصرة والتذكرة ، الصيمري : ٩٥ /١ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، كمال الدين الزمكاني : ١٣٣ .
- (٥) ينظر : شرح كافية ابن الحاجب : ٣١٣/٣ .
- (٦) ينظر : شرح ألفية ابن مالك ، ابن الناظم : ٢٣ ، شرح ابن عقيل : ٨٧/١ .
- (٧) ينظر : شرح الكافية الشافية : ٩٠/١ ، شرح التسهيل ، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، ابن مالك : ١١٤/١ وينظر : المساعد على تسهيل الفوائد ، ابن عقيل : ٧٧/١ .
- (٨) ينظر : أوضح المسالك : ٦٠/١ .
- (٩) ينظر : أسرار العربية : ١٧٧ ، دلالة التنكير والتعريف في سياق النظم القرآني (رسالة) : ١٢-١٤ .

دلالة التنكير والتعريف في السياق بما يضيفه كل من النكرة والمعرفة من أثر في التعبير القرآني .

ونبدأ بدلالة التنكير في سياق حمده تعالى وتسبيحه مسلمين بأن الأغراض التي تحققها النكرة في الجملة العربية لا تحدد إلا من طريق المقام الذي ترد فيه^(٥٠٦).

قال تعالى في سياق الحمد : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء : ١١١) .

من المعلوم أن النكرة إذا جاءت في سياق النفي دللت على الاستغراق والتعميم^(٥٠٧) وقد جاءت في الآية ثلاث نكرات هي (ولدا) و(شريك) و(ولي) في سياق نفي أن يتخذ الله ولداً أو يكون له شريك أو ولي من الذل . فدللت كل واحدة منها على استغراق الحكم وتعميمه . فالله تعالى لم يتخذ أي ولد ولم يكن له أي شريك في ملكه وأي ولي في قوته ، وفي ذلك زيادة في تقرير استحقاقه تعالى للحمد ؛ " لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة فهو الذي يستحق جنس الحمد"^(٥٠٨) .

ومن المعاني التي تفيدها النكرة التعظيم ، بمعنى أن ما عبّر عنه بالنكرة أعظم من أن يعرف ويعين^(٥٠٩) .

ومن معانيها أيضا إرادة النوع^(٥١٠) . ويحتمل أن تفيد النكرة (علما) أحد هذين المعنيين في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النمل : ١٥) . فتنكير (علما) إمّا للتعظيم أي آتيناهما علما سنيا غزيرا ، وأمّا

للنوع أي آتيناهما طائفة من العلم^(٥١١) . ورجّح ابن منير المالكي (ت: ٦٨٣هـ) أن يكون تنكير (علما) للتعظيم " كأنه قال : علما أي علم ، وهو كذلك فإن علمهما كان مما يستعظم ويستغرب ، ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات الذي خصّهما الله تعالى به"^(٥١٢)

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٩٣/٤ ، من بلاغة القرآن : ١٢٨ ، دراسة لغوية في كتاب نهج البلاغة (أطروحة) : ١٠٨ .

(٣) ينظر : دراسات قرآنية في جزء عم : ١٤١ .

(٤) الكشف : ٦١١ .

(٥) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٩٠/٤ ، الإتيان في علوم القرآن : ٣٤٧/٢ .

(٦) ينظر : المصدران أنفسهما والصفحتان أنفسهما .

(١) ينظر : الكشف : ٧٧٧ ، فتح القدير : ١٦٠/٤ .

(٢) الانتصاف في ما تضمنه الكشف من الاعتزال ، ابن منير المالكي (مطبوع بهامش الكشف) : ٧٧٧ .

واحترس من تعظيم علمهما فقال: " وكلّ علم بالإضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل " (٥١٣) واختار معنى التعظيم أيضا السيد الطباطبائي في الميزان (٥١٤) .

وعلى أيّ المعنيين نحمل دلالة النكرة فإنّ داود وسليمان -عليهما السلام- قد حمدا الله على ما أنعم به عليهما لاسيما أنّ " نعمة العلم من أجلّ النعم التي ينعم بها الله على عباده " (٥١٥) وفي ذلك إشارة إلى وجوب حمده تعالى على القليل والكثير على حدّ سواء.

وقد جاءت النكرة في سياق الشكر للدلالة على الاستغراق والتعميم في قوله تعالى حكاية عن علي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم الصلاة والسلام - في حادثة إطعامهم المسكين واليتيم والأسير : ﴿ إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ (الإنسان: ٩) ، ف(شكورا) نكرة جاءت في سياق النفي لتدل على الاستغراق في نفيعهم - عليهم السلام - طلب الشكر من الخلق ؛ لأنهم فعلوه لله خالصا ومن الرياء وطلب الجزاء مخلصا ، فهم لا يريدون مكافأة عليه إلا من الله تعالى (٥١٦) .

ومن دلالة التكرير في سياق التسبيح أنّ القرآن الكريم عندما يخبر عما اعتقده المشركون من أنّ الله ﷻ اتخذ ولدا يؤثر استعمال النكرة (ولد) إذ لم ترد هذه اللفظة في هذا السياق معرفة في القرآن الكريم (٥١٧) ، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ

عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٦) (٥١٨) وقد أفادت النكرة هنا معنى التحقير لأنها توحى بأنّ ما

قالوا به لا يجوز في حقّه تعالى فهو الغني عن أن يتّخذ ولدا ، قال عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ

يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (مريم : من الآية ٣٥) ، ولو قيل

في غير القرآن : وقالوا اتّخذ الله الولد لأوهم ذلك أنّ اتّخاذ الولد جائز في حق الله تعالى وليس ما قالوه إلا إخبارا منهم بتحقيقه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وبهذا يتّضح أنّ إيثار التعبير بالنكرة مشعر بتنزّهه جلّ وعلا عما نسبته إليه المشركون ؛ ولذلك نزّه نفسه بعد أن أخبر عن معتقدهم الباطل بقوله (سبحانه) .

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤) ينظر : ٣٨١ / ١٥ .

(٥) فتح القدير : ١٦٠ / ٤ .

(٦) ينظر : مجمع البيان : ٥١٩ / ١٠ .

(٧) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٧٦٣ .

(٨) وينظر: أيضا الآيات البقرة : ١١٦ ، يونس : ٦٨ ، الزمر : ٤ .

ومن دلالة استعمال النكرة في سياق التسبيح أيضا قوله تعالى : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى

بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ (الإسراء : من الآية ١) .

ذكر المفسرون أنَّ الغرض من تنكير (ليلا) هو تقليل مدة الإسراء ، بمعنى أنه ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى

بِعَبْدِهِ لَيْلًا وَنَهْلًا﴾ - قد أسري به في بعض الليل^(٥١٩) ، وقال الزركشي : " فيه نظر لأنَّ التقليل عبارة عن تقليل الجنس إلى فرد من أفرادها لا ببعض فرد إلى جزء من أجزائه " (٥٢٠) . ويمكن أن يجاب الزركشي في ما ذكر بما يأتي :

أولا : قال أبو السعود : " (ليلا) لإفادة قلة زمان الإسراء لما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الأجزاء دلالته على البعضية من حيث الأفراد ، فإنَّ قولك : سرت ليلا كما يفيد بعضيّة زمان سيرك من الليالي يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما إذا قلت : سرت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعا " (٥٢١) .

ثانيا : قال بهاء الدين السبكي (ت: ٧٧٣هـ) : " ولكننا لا نسلم أنَّ الليل حقيقة في جميع الليلة بل كل جزء من أجزائها يسمّى (ليلا) " (٥٢٢) .

ثالثا : لما كان الإسراء لا يكون إلا بالليل فهذا يعني أنَّ المجيء بلفظة (ليلا) نكرة للإشارة إلى تقليل مدة الإسراء وأنه - ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا وَنَهْلًا﴾ - قد أسري به في بعض الليل^(٥٢٣) .

رابعا : مما يستدل به على إفادة النكرة (ليلا) معنى التقليل قراءة بعضهم (من الليل)^(٥٢٤) أي بعضه^(٥٢٥) .

(٢) ينظر : الكشف : ٥٨٩ ، التفسير الكبير : ٢٩٢/٢٠ ، البحر المحيط : ٦/٦ ، أنوار التنزيل : ٤٣٣/٢ ، فتح القدير : ٢٥٦/٣ .

(٣) البرهان في علوم القرآن : ٩٣/٤ .

(٤) إرشاد العقل السليم : ٤٠٠/٤ ، ٤٠١ .

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، بهاء الدين السبكي : ٣١٠/١ ، وينظر : الإتيان في علوم القرآن : ٣٤٨/٢ .

(٢) ينظر : الكشف : ٥٨٩ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، البحر المحيط : ٦/٦ ، معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء ، د. أحمد مختار عمر ، د. عبد العال سالم مكرم : ٤٣/٣ .

(٤) ينظر : الكشف : ٥٨٩ ، البحر المحيط : ٦/٦ ، أنوار التنزيل : ٤٣٣/٢ ، فتح القدير : ٢٥٦/٣ .

خامسا : ما روي عن حادثة الإسراء والمعراج من روايات تدلّ بوضوح على أنّ النبي قد نام جزءاً من الليل ثم أسري به ثم عاد إلى مكانه ولمّا ينقض الليل ، وهو ما يدل على أنه - ﷺ - قد أسري به في بعض الليل ، ونذكر من هذه الروايات ما روي عن أم هاني زوج النبي وقد كان ليلة أسري به عندها ، قالت أمّ هاني : " ما أسري برسول الله - ﷺ - إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة ، فصلّى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا فلمّا كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله - ﷺ - فلمّا صلى الصبح وصلينا معه قال - ﷺ - : يا أم هاني : لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيته بهذا الوادي ثمّ جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين " (٥٢٦).

سادسا : ذكر أصحاب كتب الوجوه والنظائر وبعض المفسرين أنّ التسبيح في هذه الآية بمعنى التعجب لأنّ أمر الإسراء بالنبي - ﷺ - مما يتعجب منه (٥٢٧) ولا ريب في أنّ مما يزيد في العجب أن يحدث ذلك الأمر العظيم في بعض الليل ، قال ابن جزي الغرناطي (ت ٧٤١هـ) : " أراد بقوله (ليلاً) بلفظ التكرير تقليل مدة الإسراء وأنه أسري به في بعض الليل مسيرة أربعين ليلة وذلك أبلغ في الأعجوبة " (٥٢٨) . وهو مما يدل على تنزيه الله تعالى من كل عيب ونقص (٥٢٩) ، وبعد كل ما مرّ يمكن أن نرجح إفادة النكرة (ليلاً) معنى التقليل فيكون ذلك أدل على قدرته تعالى وأجلى لتتزهه عمّا لا ينبغي له جلّ وعلا .

ونتعرّف الآن دلالة التعريف في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه ، ففي سياق الحمد لم ترد جملة (الحمد لله) إلا بتعريف لفظ (الحمد) ولهذا التعريف دلالاته ، قال الطبري : " فإن قال لنا قائل : وما وجه الألف واللام في الحمد ؟ وهلا قيل : حمدا لله رب العالمين ، قيل : إنّ لدخول الألف واللام في (الحمد) معنى لا يؤديه قول القائل : حمدا بإسقاط الألف واللام ؛ وذلك أنّ دخولهما في (الحمد) مبنيّ على أنّ معناه : جميع المحامد والشكر الكامل لله " (٥٣٠) .

واختلف في نوع (ال التعريف) في (الحمد) ، فيرى الزمخشري أنّ التعريف فيه تعريف الجنس ، ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أنّ الحمد جنس من أجناس الأفعال ، وهو

(٥) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي : ٢٧٥/٤ .
(٦) ينظر : وجوه القرآن ، أبو عبد الرحمن إسماعيل الحيري النيسابوري : ٢٩٨ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٤٤٦/١ ، النكت والعيون : ٢٢٤/٣ .
(١) التسهيل لعلوم التنزيل : ٤٤٠/١ .
(٢) ينظر : الأمثل : ٢٨٦/٨ .
(٣) جامع البيان : ٧١/١ .

يرى أنّ الاستغراق الذي يقول به كثير من الناس وهم منهم^(٥٣١). وذكر الرازي أنها قد تفيد العهد أو الاستغراق أو الحقيقة وعلى أي معنى من هذه المعاني كانت فإن قولنا (الحمد لله) ينفي حصول الحمد لغير الله تعالى^(٥٣٢).

واختار القرطبي وابن كثير والنسفي أن تكون الألف واللام في (الحمد) لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى^(٥٣٣)، أمّا أبو السعود فيرى أنّ التعريف في (الحمد) يفيد الجنس والحقيقة في آن واحد ، ويظهر ذلك من قوله " وتعريفه للجنس ومعناه الإشارة إلى الحقيقة من حيث هي حاضرة في ذهن السامع ، والمراد تخصيص حقيقة الحمد به تعالى " ^(٥٣٤).

ويرى السيد الطباطبائي أنّ المأل واحد بين معنى الجنس والاستغراق في تعريف (الحمد) ، " فله سبحانه جنس الحمد وله سبحانه كلّ حمد " ^(٥٣٥).

وخلاصة هذه الأقوال أنّ تعريف الحمد مشعر بأنّ كلّ المحامد لله تعالى على جهة الاستغراق في حمده ، وأنّ الحمد مختص به جل وعلا على جهة الحقيقة وليس لأحد سواه فيه من شيء .

ومن دلالة التعريف بالألف واللام في سياق الحمد ما ورد في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (فاطر : ١٥) .

إنّ الآية المباركة تبين احتياج الناس إلى الله تعالى وغناه عنهم وعن حمدهم فوردت لفظة (الفقراء) ولفظنا (الغني الحميد) معارف . فما دلالة هذا التعريف ؟

إنّ في تعريف (الفقراء) مبالغة في فقرهم ، وإشارة إلى أنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء^(٥٣٦) أي أنّ صفة الفقر لازمة لهم ثابتة فيهم ، فهم الكاملون في الفقر. ولعل الأمر في ذلك يرجع إلى أنّ تعريف الخبر يدل على أنّ السامع يعلم بما أخبرت به فإذا قلت لمن شهد انطلاق زيد : زيد المنطلق بتعريف الخبر فقد أشرت إلى معنى تمكّنه في الانطلاق وقصدت المبالغة في إخبارك^(٥٣٧)، وقد يكون تعريف (الفقراء) للعهد أي أنّ فقر

(٤) ينظر : الكشف : ٢٧ .

(٥) ينظر : التفسير الكبير : ١٩٢/١ .

(٦) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ٩٣/١ ، تفسير القرآن العظيم : ٢٣/١ ، مدارك التنزيل : ١٩ / ١ .

(٧) إرشاد العقل السليم : ٣٥ / ١ .

(١) الميزان : ١٧/١ .

(٢) ينظر : أنوار التنزيل : ٤٢١/٣ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ١٧٤/٢ .

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز : ١١٧ ، ١١٨ .

الناس واحتياجهم لله أمر معهود معروف فلما " كان كون الناس فقراء أمرا ظاهرا لا يخفى على أحد قال (أنتم الفقراء) " (٥٣٨) بالتعريف تنبيهها على فقرهم ومبالغة فيه لا إخبارا عنه .

أما تعريف (الغني الحميد) ففيه دلالة على تمكّن هاتين الصفتين في الذات المقدسة فهو الغني عن الناس الحميد بإنعامه عليهم .

ولما كان التقابل في القرآن الكريم يأتي لغرض معيّن (٥٣٩) ، فيبدو أنّ الغرض من التقابل في التعريف بين (الفقراء) من جهة و(الغني الحميد) من جهة هو المبالغة في اتصاف كل من الطرفين بصفته وهذا مما يبعث على إكثار الناس من حمده جلّ وعلا والمواظبة عليه ما داموا المتصفين الكاملين في الفقر إلى الله الكامل في غناه عنهم المستحق للحمد على ما انعم عليهم .

وجاء في سياق الحمد استعمال الاسم الموصول وهو أحد أنواع المعارف ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ (الكهف: ١) . ودلالة التعريف بالموصول في سياق الحمد تكمن في أنه يشعر بعالية ما في حيز الصلة لاستحقاق الحمد (٥٤٠) .

وقد أشار الرازي إلى أنّ الاسم الموصول يدل على أنّ الله تعالى موصوف بهذه الصفة لا أنه ورد لتمييزه عن غيره (٥٤١) بمعنى أنّ (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) لا تعني أنّ هناك إلها لم ينزل على عبده كتابا وأنّ (الذي) جاءت تمييزا لمن أنزل عمّن لم ينزل ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل المقصود أنّ الله متّصف بأنه أنزل على عبده الكتاب ، وهذه نعمة يستحق الحمد عليها؛ لما في القرآن من هداية ونور وتشريع .

وقد استعمل القرآن الكريم الاسم الموصول في سياق الحمد كثيرا ويمكن أن يقسم هذا الاستعمال على قسمين :

الأول : تكون صلة الموصول فيه مبيّنة للنعمة التي حمد الله عليها كالأية السابقة وكقوله تعالى حكاية عن إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾

(٤) التفسير الكبير : ٢٢٩/٢٦ .

(٥) ينظر : التقابل الدلالي بين أهل الجنة وأهل النار في سورة المطففين . (بحث مقبول للنشر في مجلة جامعة بابل) ، د. صباح عطوي عبود : ١ .

(١) ينظر : أنوار التنزيل : ٣/٣٣٣ ، إرشاد العقل السليم : ٤/٤٧٢ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٤٧٦/١٢ .

(إبراهيم : من الآية ٣٩) وقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ (فاطر : من الآية ٣٤) .

والثاني : تكون فيه صلة الموصول مبيّنة للعلة التي استحق الله تعالى بها أن يكون له الحمد لا لغيره ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء : ١١١) . وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (سبأ : من الآية ١) . أمّا في سياق الشكر فقد كثر مجيء الاسم الموصول خبرا عن الله تعالى ، وفي صلته بيان للنعمة التي يطلب تعالى من عباده شكرها أو يبيّن أنهم قليلا ما يشكرونها ، فمن الأول قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْزِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَتَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الجاثية : ١٢) ومن الثاني قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك : ٢٣) وعلى كلا الأمرين فإنّ لاستعمال الاسم الموصول دلالة في تقرير نعمه تعالى على عباده ، لاسيما أنّ القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل الاسم الموصول " حين تكون صلته هي مناط الحكم وموضع الاهتمام " (٥٤٢) .

ومن دلالة التعريف في سياق الشكر تعريف (الشاكرين) في كثير من الآيات (٥٤٣) ومنها قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران : من الآية ١٤٥) . وقوله تعالى : ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر : ٦٦) فتعريف (الشاكرين) يدل على أنّ المقصود بهم القائمون لله بحق الشكر قولاً وعملاً

(١) دراسات قرآنية في جزء عم : ١٥٨ .
(٢) ينظر مثلاً : الآيات : الأنعام : ٥٣ ، الأعراف : ١٨٩ ، يونس : ٢٢ .

واعتمادا وإخلاصا^(٥٤٤) ، بمعنى أنّ الشكر صار عندهم ملكة لا تفارقهم ، " فالشاكرون هم الذين ثبت فيهم وصف الشكر واستقرت فيهم هذه الفضيلة"^(٥٤٥) .

ولعلّ ذلك مما دعا إلى أن يأمر الله تبارك وتعالى أنبياءه - عليهم السلام - بأن يكونوا من جنس من اتّصف بهذه الصفة ، فأمر نبيّه موسى -عليه السلام- بذلك فقال

تعالى : ﴿ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ

الشَّاكِرِينَ ﴾ (الأعراف ١٤٤) وأمر نبيّنا محمدا المصطفى -عليه السلام- بقوله: ﴿بَلِّ اللّٰهَ

فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الزمر : ٦٦) وكما يدل تعريف (الشاكرين) على أنّ الشكر صفة

لازمة وملكة ثابتة في المتصفين بالشكر فإنّ تعريف (المسبحين) يدل على أن صفة التسبيح ثابتة ولازمة لمن اتصف بهذه الصفة وقد ورد هذا التعبير في موضعين من القرآن الكريم^(٥٤٦) :

الأول : في حق نبي الله يونس -عليه السلام- وهو قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ للبت

فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤) .

والثاني : في حق الملائكة وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ (الصافات : ١٦٦) ففي

التعريف إشعار بأنّ يونس -عليه السلام- كان يكثر من التسبيح لله تعالى حتى صار ذلك التسبيح صفة ثابتة فيه أدخلته في جنس المسبحين ، وكانت السبب في نجاته بإخراجه من بطن الحوت ، ولو قيل في غير القرآن : لولا أنه كان مسبحا لما دلّ الدلالة التي أفادها التعريف من حيث الإشعار باتّصافه الثابت وإكثاره من تسبيح الله تبارك وتعالى .

(٣) ينظر : تفسير المنار : ٤٢٩/٩ .

(٤) الميزان : ٣٨/٤ .

(١) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٤٠ .

أما الملائكة الذين ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء : ٢٠) فحقيق بهم أن يوصفوا بأنهم المسبحون لا بأنهم مسبحون .

ومن دلالة التعريف في سياق التسبيح أنه لم ترد لفظة (سبحان) وهي علم التسبيح كما يقال^(٥٤٧) إلا مضافة فهي معرفة بالإضافة ولازمة لها^(٥٤٨) ، وقد أضيفت إلى ظاهر ومضمر ومضمر ، أما الظاهر فهو ثلاثة أنواع :

الأول : اسم علم وهو لفظ الجلالة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف : من الآية ١٠٨) وقد وردت هذه الإضافة في تسعة مواضع من القرآن الكريم^(٥٤٩) .

والثاني : مضاف وهو لفظة (رب) مضافة إلى اسم ظاهر في موضع واحد ، وهو قوله تعالى : ﴿سُبِّحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الزخرف : ٨٢) وإلى مضمر وهو ياء المتكلم في موضع واحد^(٥٥٠) ، وكاف الخطاب في موضع واحد أيضا^(٥٥١) و(نا) المتكلمين في موضعين^(٥٥٢) .

والثالث : اسم موصول وهو (الذي) ، وقد وردت هذه الإضافة في أربعة مواضع^(٥٥٣) منها قوله تعالى : ﴿سُبِّحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس : ٣٦) .

أما المضمر الذي أضيفت له لفظة (سبحان) فهو نوعان :

الأول : كاف الخطاب ، وقد وردت هذه الإضافة في تسعة مواضع^(٥٥٤) منها قوله تعالى : ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ (الفرقان : من الآية ١٨) .

(٢) ينظر : همع الهوامع : ٧٧/٢ .

(٣) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٢٣٥/٢ .

(١) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٣٩ . والمواضع هي : يوسف : ١٠٨ ، الأنبياء : ٢٢ المؤمنون : ٩١ ، النمل : ٧٨ ، القصص : ٦٨ ، الروم : ١٧ ، الصافات : ١٥٩ ، الطور : ٤٣ ، الحشر : ٢٣ .

(٢) هو الآية : الإسراء : ٩٣ .

(٣) هو الآية : الصافات : ١٨٠ .

(٤) هما الأيتان : الإسراء : ١٠٨ ، القلم : ٢٩ .

(٥) ينظر غير ما ذكرنا الآيات : الإسراء : ١ ، يس : ٨٣ ، الزخرف : ١٣ .

والثاني : هاء الغيبة وقد وردت هذه الإضافة في أربعة عشر موضعاً^(٥٥)، ومنها قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل : ١)

ويلاحظ مما تقدّم أنّ تسبيح الله تعالى قد يكون باسمه جلّ وعلا وهو لفظ الجلالة المنبئ عن الذات المقدسة المنزهة عن كل سوء ، أو بما توصف به هذه الذات المقدسة كصفة الربوبية التي تشير إلى معنى التربية ، فهو تعالى خالق الموجودات ومربيها والاسم الموصول الذي يتضمن في صلتها بياناً لعلّة التسبيح ويشعر بعليّة ما في حيز الصلة مما يكون أدلّ على كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تنزهه عن صفات المخلوقين^(٥٦) أو يكون تسبيحه تعالى بضمير المخاطب المشعر بتوجه العبد إلى الله جلّ وعلا عند تسبيحه فيكون تعالى حاضراً في قلبه فيخاطبه بـ(سبحانك) كما أثر التعبير القرآني كاف الخطاب في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة : ٥) لتحقيق الحضور والتوجه إلى الله تعالى في الصلاة .

أمّا هاء الغيبة فلا يمكن أن تحمل على حقيقتها في حق الله تعالى إذ لا يصح أن يدل قولنا (سبحانه) على أننا نسبحه تعالى وهو غائب ؛ لأنه جلّ وعلا حاضر في كل زمان ومكان ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَذْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (المجادلة : من الآية ٧) وإثما تدل هذه الهاء عليه تبارك وتعالى من دون أن تفيد معنى الغيبة ، لاسيما أنّ هذه الهاء - وهي ضمير لا بدّ من أن يعود على ظاهر يذكر قبله - لا تقتضي هذه القاعدة في عود الضمير عندما تكون دالة على الله تعالى فكثيراً ما تذكر أولاً ولا يفهم منها إلا أنها تعود على الله لأنه جلّ وعلا معهود لدى عباده ؛ ولذلك فإننا نقول مثلاً (وبه نستعين) أو (ومنه التوفيق) بالهاء التي لا نقصد بها إلا الله ﷻ وعمّ نواله .

ولمّا كانت لفظة (سبحان) وهي علم التسبيح لازمة الإضافة ولا تضاف إلا إلى لفظ الجلالة أو ما يدل عليه من وصف أو ضمير فإنّ في ذلك "مبالغة من جهة إسناد التنزه إلى الذات المقدسة فالمعنى تنزّه بذاته عن كل ما لا يليق به تنزّها خاصاً به"^(٥٧).

(٦) ينظر غير ما ذكرنا الآيات : البقرة : ٣٢ ، آل عمران : ١٩١ ، المائدة : ١١٦ ، الأعراف : ١٤٣ ، يونس : ١٠ ، الأنبياء : ٨٧ ، النور : ١٦ ، سبأ : ٤١ .
(٧) ينظر غير ما ذكرنا الآيات : البقرة : ١١٦ ، النساء : ١٧١ ، الإنعام : ١٠٠ ، التوبة : ٣١ ، يونس : ١٨ ، ٦٨ ، النحل : ٥٧ ، الإسراء : ٤٣ ، مريم : ٣٥ ، الأنبياء : ٢٦ ، الروم : ٤٠ ، الزمر : ٤ ، ٦٧ .
(١) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٤ / ٤٠١ .
(٢) المصدر نفسه : ٤٩٥/٥ .

ومن دلالة التعريف في سياق التسبيح استعمال الاسمين الموصولين (من) و(ما) والغالب في استعمالهما في الكلام أن نستعمل (ما) لغير العاقل و(من) للعاقل ، ونكتته أن (ما) أكثر وقوعا في الكلام من (من) ، وما لا يعقل أكثر مما يعقل فأعطوا ما كثرت مواقعه للكثير وما قلت للقليل^(٥٥٨) . وقد أخبر تعالى عن تسبيح ما في السماوات وما في الأرض باستعمال (ما) في ستة مواضع^(٥٥٩) وباستعمال (من) في موضع واحد^(٥٦٠) .

فمن استعمال (ما) قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ﴾ (الحشر : ١) ، (الصف : ١) .

ويظهر من كلام المفسرين في الآية أن (ما) تشمل العاقل وغير العاقل ، فيرى الزمخشري أن معنى (ما في السماوات وما في الأرض) " ما يتأتى منه التسبيح ويصح " ^(٥٦١) ، ويعني ذلك كل شيء من ذي الروح وغيره^(٥٦٢) " وتحقيقه أن العقلاء يسبحون قولاً واعتقاداً ولفظاً ومعنى ، وما ليس بعاقل من سائر الحيوانات والجمادات فتسبيحه ما فيه من الأدلة الدالة على وحدانيته " ^(٥٦٣) .

ويتضح من ذلك أن استعمال (ما) أكثر شمولاً في الدلالة على أن كل شيء يسبح لله ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء : من الآية ٤٤) . ولعل إثبات استعمالها أكثر من استعمال (من) - لاسيما في فواتح السور التي افتتحت بالتسبيح حيث وردت في فاتحة كل من سورة الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن - للدلالة من أول السورة على أن كل شيء يسبح الله تعالى وينزهه .

أما الموضع الذي استعملت فيه (من) فهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور : من الآية ٤١) .

وفي إثبات استعمال (من) في هذه الآية وجهان :

- (١) ينظر : معترك القرآن : ٥٣٢/٢ ، ٥٣٣ .
- (٢) هي الآيات : الحديد : ١ ، الحشر : ١ ، الصف : ١ ، الجمعة : ١ ، التغابن : ١ .
- (٣) هي الآية : النور : ٤١ .
- (٤) ينظر : الكشف : ١٠٨١ .
- (٥) ينظر : مجمع البيان : ٢٩٢/٩ .
- (٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها ، وينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ٣٤٣/٢ .

الأول : أن (من) قد تأتي للدلالة على اختلاط العقلاء بغير العقلاء ؛ " لأنّ العقلاء إذا اختلط بهم من ليس بصفته ، جاز أن يغلب صفة العقلاء على غيرهم فيعبّر عنهم بـ(من) دون(ما) " ^(٥٦٤). أي أنّ المراد بـ(من) جميع الأشياء ، غير أنّ التعبير جاء بلفظ أولي العقل تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال ، كأنّ كلّ شيء في السماوات والأرض عاقل ناطق ومخبر صادق بعلوّ شأنه تعالى وعزّة سلطانه ^(٥٦٥).

والثاني : ما أورده السيد الطباطبائي بقوله : " ولعل ذلك من باب اختيار أمور من أعاجيب الخلقة للذكر فإنّ ظهور الموجد العاقل الذي يدل عليه لفظ (من في السماوات والأرض) من عجيب أمر الخلقة الذي يدهش لبّ ذي اللب كما أنّ صفيّ الصافات في الجو من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان " ^(٥٦٦) ويفهم أيضا من كلام السيد الطباطبائي أنّ إثبات (من) هنا للجمع بين تسبيح العقلاء المعبّر عنهم بـ(من) وتسبيح غير العقلاء وهو تسبيح الطير ، فيكون الجمع بين هذين الخلقين في أمر واحد ، هو تسبيح الله جلّ وعلا من أعاجيب قدرته تبارك وتعالى .

ومن دلالة استعمال الاسم الموصول (ما) في سياق تسبيح الموجودات في السماوات والأرض أنه ورد استعماله مكررا في أربعة مواضع ^(٥٦٧) وغير مكرر في موضعين ^(٥٦٨) ، ومعنى تكراره أنه يذكر مع السماوات ومع الأرض أيضا ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الجمعة : ١) .

جعل الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠ هـ) إعادة (ما) هي الأصل ^(٥٦٩) وفيها مبالغة في تسبيح الله تعالى ؛ لأنها تدلّ على تسبيح ما في السماوات وعلى تسبيح ما في الأرض ^(٥٧٠) أي أنّ إعادة (ما) لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح ^(٥٧١) ولعل ما أفادته إعادة (ما) من المبالغة وزيادة التقرير في تسبيح ما في السماوات وما في الأرض لله هو ما حمل الخطيب الإسكافي على عدّها الأصل في الاستعمال ؛ لأنّها أبلغ في الدلالة على شمول التسبيح لله ، على أنّ في إعادة (ما) دلالة أخرى وهي أنها تشعر باختلاف تسبيح ما في

(١) حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، الشريف الرضي : ١٥٤ ، وينظر : الشريف الرضي وجهوده النحوية ، د. حازم سليمان الحلي : ٤٧ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٢٥ / ٥ .

(٣) الميزان : ١٤٥ / ١٥ .

(٤) هي الآيات : الحشر : ١ ، الصف : ١ ، الجمعة : ١ ، التغابن : ١ .

(٥) هما الآيتان : الحديد : ١ ، الحشر : ١ .

(٦) ينظر : درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ، محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي : ٤٧٠ .

(١) ينظر : التفسير الكبير : ٥٥٢ / ٣٠ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٣٠٢ / ٦ .

السموات عن تسبيح ما في الأرض ، من حيث الكثرة والقلة ومن حيث الخلوص من المعاصي وعدم الاختلاط بها^(٥٧٢).

أما الموضعان اللذان لم تتكرر فيهما (ما) فهما قوله تعالى في افتتاح سورة الحديد: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد : ١) وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر : ٢٤) . فما السرّ في هذا العدول عن الأصل؟.

إنّ مما يلائم المقام الذي وردت فيه كل من الآيتين السابقتين أن ينتظم تسبيح ما في السموات وما في الأرض في نظام واحد فلا يفصل بينهما ، فقد ورد في كل مقام ما يلائم الجمع بين التسبيحين ، فقال تعالى بعد فاتحة سورة الحديد : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحديد : من الآية ٢)، وقال أيضا : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (الحديد : من الآية ٤) فلمّا كان المقام مقام الجمع في ملكه تعالى للسموات والأرض وخلقهما لهما جاء تسبيح ما فيهما له جلّ وعلا على سبيل الجمع أيضا^(٥٧٣) ، أمّا ما يلائم الجمع في الآية الأخرى فهو قوله تعالى فيها : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فنظم تحت هذه الصفات مخلوقات السموات والأرض وجمع بينهما^(٥٧٤) فكان الجمع في تسبيح هذه المخلوقات لله عز وجل أكثر ملائمة للمقام .

وقد ورد في سياق التسبيح أيضا أن تكرر الموصول العائد على الله تعالى مرتين للمبالغة في استحقاقه جلّ وعلا للتسبيح ، وذلك في قوله تعالى : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿ (الأعلى : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) ، فقد " كرر اسم الموصول في قوله (والذي قدّر) وقوله (والذي أخرج المرعى) ، مع أنّ صاحب الصلة

(٣) ينظر : درة التنزيل : ٤٨٧ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه : ٤٧٠ .

(١) ينظر : درة التنزيل : ٤٧٠ .

واحد ، فلم يقل : الذي خلق فسوّى وقدرّ فهدى وأخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ؛ للاهتمام بمدلول كلّ صلة من الصلات الثلاث واستقلال كل واحدة منها في الدلالة على استحقاق التسبيح " (٥٧٥) .

ونختم موضوع التنكير والتعريف بآية وردت في سياق الشكر كان لكل من التنكير والتعريف دلالة فيها حيث تكررت فيها لفظة وردت نكرة مرة ومعرفة مرة أخرى والآية هي قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت : ١٧) .

وردت لفظة (رزقا) نكرة ثم عرّفت بالألف واللام (الرزق) فما الفائدة من تنكيرها أولا وتعريفها ثانيا ؟

قال الزمخشري : " فإن قلت لم نكر الرزق ثم عرّفه ؟ قلت : لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق فابتغوا عند الله الرزق كله فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره " (٥٧٦) . وبعبارة أخرى فإنّ (رزقا) نكرة في مقام النفي فهي تفيد أن لا رزق عند من تعبدونهم من دون الله أصلا ، أمّا (الرزق) بالتعريف في مقام الإثبات فهي تفيد أنّ كلّ الرزق عند الله تعالى فاطلبوه منه (٥٧٧) ، وفي ذلك وجه آخر - كما يرى الرازي - " وهو أنّ الرزق من الله معروف بقوله : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود : من الآية ٦) والرزق من الأوثان غير معلوم فقال (لا يملكون لكم رزقا) لعدم حصول العلم به ، وقال (فابتغوا عند الله الرزق) الموعود به " (٥٧٨) .

ولما كان تنكير (رزقا) مبالغة في الدلالة على نفي أن يرزق الخلق غير الله فإنّ ذلك أبلغ في الدعوة إلى شكره جلّ وعلا على رزقه المعلوم الموعود به والانتفاء عن طلب رزق غيره الذي ليس له وجود .

(٢) التحرير والتنوير ، (المقدمات وتفسير سورة الفاتحة وجزء عم) ، محمد الطاهر بن عاشور : ٢٣٨ - ٢٣٩ وينظر : دراسات قرآنية في جزء عم : ١٥٩ .

(٣) الكشف : ٨١٦ .

(٤) ينظر : التفسير الكبير : ٣٨/٢٥ ، أنوار التنزيل : ٣٢٣/٣ .

(١) التفسير الكبير : ٣٨/٢٥ ، وينظر : دلالة التنكير والتعريف في سياق النظم القرآني (رسالة) : ٩١ .

دلالة التقديم والتأخير

التقديم والتأخير من سنن العرب في كلامهم ، ومن مظاهر حرية التعبير في لغتهم^(٥٧٩) ، وهو " باب كثير الفوائد جمّ المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة " ^(٥٨٠).

وقد تحدّث النحاة عن التقديم والتأخير ، ولعل سيبويه أوّل من ذكر الغرض من التقديم ، فقال بعد أن ذكر الفاعل والمفعول " كأنهم إنما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم ، وهم ببيانه أعمى ، وإن كانا جميعا يهّمّانهم ويعنيانهم " ^(٥٨١) ومعنى ذلك أنهم إذا خصّوا شيئاً باهتمامهم قدّموه ليقع ذلك في نفوسهم موقعا ثابتا^(٥٨٢) ، وأدخل ابن جني التقديم والتأخير ضمن ظواهر كثيرة عدّها من شجاعة العربية ^(٥٨٣).

إنّ الإعراب الذي تختص به العربية يتيح للمتكلّم بها أن يقدّم ويؤخر بين أجزاء الجملة تبعا لأغراض يقصدها ؛ لأنّ الإعراب قرينة مهمة تدل على المعنى النحوي للكلمة^(٥٨٤) ، غير أنّ التقديم والتأخير في العربية ليس مباحا في كل عناصر الجملة ، بل منها ما لا بدّ من أن يتقدم بحسب وضعه اللغوي ، كتقديم الموصوف على الصفة والمضاف على المضاف إليه وتقديم أدوات الشرط والاستفهام وغيرها مما له الصدارة في الكلام^(٥٨٥) ، أو ما يكون واجب التقديم كتقديم الخبر الظرف على المبتدأ النكرة نحو : أملك أسد^(٥٨٦) . ومنها ما لا بدّ من أن يتأخر كتأخير المضاف إليه عن المضاف والصفة عن الموصوف والفاعل عن الفعل وغير ذلك^(٥٨٧) ، ومنها ما يمكن أن يتقدّم أو يتأخر كتقديم المفعول به على الفعل والخبر على على المبتدأ جوازا وهذا ما يؤدي فيه التقديم والتأخير أغراضا ودلالات يقصدها المتكلّم ^(٥٨٨).

- (١) ينظر : الصاحبى : ١٨٩ ، الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى ، د. حامد كاظم عبّاس : ٢٥٨ .
- (٢) دلائل الإعجاز : ٧٢ .
- (٣) كتاب سيبويه : ٣٤/١ .
- (٤) ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٦٠ .
- (٥) ينظر : الخصائص : ٣٣٤/٢ .
- (٦) ينظر : قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم : ٤٣٤ ، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، د. أحمد سعد محمد : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، نظام الجملة العربية (رسالة) ، سناء البياتي : ١٨٠ .
- (٧) ينظر : علم المعاني ، د. عبد العزيز عتيق : ١١٦ .
- (٨) ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٦١ .
- (٩) ينظر : الأشباه والنظائر في النحو : ٣٤٥/١ ، ٣٤٦ .
- (١٠) ينظر : الجملة العربية والمعنى ، د. فاضل السامرائي : ٢٦٤ .

والعربية بهذا تقع وسطا بين اللغات الإنسانية ؛ لأنها لم تكن كالإغريقية أو اللاتينية مثلا من اللغات التي تملك ترتيبا حرا في عناصر الجملة ، ولا كالفرنسية أو الإنكليزية من اللغات التي تعتمد ترتيبا ثابتا في عناصر جملها^(٥٨٩) .

إنّ أحوال التقديم والتأخير تنقسم على قسمين :

الأول : تقديم اللفظ على عامله كتقديم الخبر على المبتدأ أو الجار والمجرور أو الظرف على الفعل وغير ذلك .

والآخر : تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير دائرة العامل والمعمول كتقديم (الغني) على (الحميد) وتأخير (شكور) عن (غفور) وغير ذلك^(٥٩٠) .

وسنقتصر هنا في المستوى النحوي على دلالة القسم الأول من التقديم والتأخير في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه لاسيما أنّ القرآن الكريم حرص على أن يكون هذا القسم مشيرا إلى مغزى ، ودالا على هدف^(٥٩١) ، أمّا القسم الثاني فسننبين دلالاته في المستوى الدلالي إن شاء الله تعالى .

ومما جاء من التقديم والتأخير في سياق الحمد قوله تعالى في افتتاح سورة سبأ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (سبأ : ١) حيث تقدّم الخبر وهو شبه الجملة من الجار والمجرور (له) على المبتدأ (الحمد) وهذا النوع من التقديم يفيد الاختصاص^(٥٩٢) بمعنى أنّ الله تعالى مختص بالحمد في الآخرة .

وذكر البيضاوي السرّ في تقديم الخبر مع حمده تعالى في الآخرة قائلا : "وتقديم الصلة للاختصاص فإنّ النعم الدنيوية قد تكون بواسطة من يستحق الحمد لأجلها ولا كذلك نعم الآخرة " ^(٥٩٣) . وما ذكره ليس مطردا وذلك من جهتين :

-
- (١) ينظر : التطور النحوي للغة العربية : ١٣٤ ، لغة الشعر عند الصعاليك (رسالة) : ٢١١ .
 - (٢) ينظر : التعبير القرآني ، د. فاضل السامرائي : ٤٨ ، ٥٤ .
 - (٣) ينظر : من بلاغة القرآن : ١٢٢ .
 - (٤) ينظر : مفتاح العلوم : ٤٢١ ، المثل السائر : ١٧٨/٢ ، معترك الأقران : ١٤١/١ ، علم المعاني ، عبد العزيز عتيق : ١١٩-١٢٠ ، التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، حميد أحمد العامري : ٩٤ .
 - (٥) أنوار التنزيل : ٣٩٧/٣ .

الأولى : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

تَرْجِعُونَ ﴾ (القصص: ٧٠) فأخبر عز وجل عن حمده في الدنيا والآخرة بتقديم الخبر (له) على المبتدأ (الحمد) .

وزيادة على ذلك فإن من المفسرين من ذكر في قوله تعالى (له الحمد في الآخرة) أَنَّ معناه له الحمد في الدنيا والآخرة غير أَنَّ الآخرة خصت بالتصريح بها لفضل نعمها الباقية على نعم الدنيا الزائلة^(٥٩٤) .

والثانية : أنه ورد حمده تعالى على نعم الآخرة من دون تقديم الخبر على المبتدأ ومن ذلك ما ورد على لسان أهل الجنة حامدين الله تعالى على نعيمها مثل قوله عز وجل: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي

صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ (الأعراف : من

الآية ٤٣) وزيادة على ذلك فإن قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاحة : ٢) مطلق

وليس مقيدا بالحمد في الدنيا أو الآخرة بل هو جار على لسان أهل الدارين فنحن نقول في الدنيا (الحمد لله رب العالمين) في صلاتنا وفي غيرها ، ويقول أهل الآخرة (الحمد لله رب العالمين) أيضا كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿ (الزمر : من الآية ٧٥) وإذا اتضح من ذلك أَنَّ الله تعالى يحمد على نعم الدنيا والآخرة بـ(الحمد لله) من دون تقديم الخبر على المبتدأ فإنه سيصبح جلياً أَنَّ ما ذكره البيضاوي من أَنَّ التقديم لاختصاصه تعالى بالحمد على نعم الآخرة ليس مطردا ولا كافيا في بيان علة التقديم .

والذي يبدو من تتبع السياق الذي وردت فيه الآية محل البحث أَنَّ تقديم الخبر (له) على المبتدأ (الحمد) في حمده تعالى في الآخرة أكثر مناسبة للمقام الذي يرد فيه ذكر منكري البعث والنشور - أي منكري الآخرة - والرد عليهم فافتتح تعالى السورة بقوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ ثم قال ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا

(١) ينظر : الجوهر الثمين : ١٦٨/٥ .

تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴿سبأ: من الآية ٣﴾ . وعلى هذا فالتقديم في (له الحمد) أبلغ في الرد على اعتقادهم الباطل ؛ لأنه يقطع عليهم منذ البداية أن يتوهموا الحمد لغير الله تعالى ويفيد بأن له لا لغيره الحمد .

وفي السياق نفسه ورد قوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الجاثية : ٣٦) بتقديم الخبر وهو شبه الجملة من الجار والمجرور (فله) على المبتدأ (الحمد) ، إذ وردت هذه الآية بعد أن ذكر تعالى حال منكري الآخرة بقوله عز وجل : ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُشْفِقِينَ﴾ (الجاثية : ٣٢) . فتقديم الخبر على المبتدأ أبلغ في الرد على منكري الآخرة ؛ لأنه يزيد المعنى إثباتا وتقريراً ، وكأن الآية تخاطبهم بأنه ليس لله تعالى أمر الساعة والبعث والنشور فحسب ، وإثما لله لا لغيره الحمد على ذلك أيضا فإذا كان لله الحمد على ما تنكرونه فكم هو زائف إنكاركم هذا .

ومن التقديم في سياق الشكر ما ورد في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف : ١٠) فقد تقدّم الجار والمجرور (لكم) و(فيها) على المفعول به (معيش) ، وفائدة هذا التقديم هو " الاعتناء بشأن المقدّم والتشويق إلى المؤخر فإنّ النفس عند تأخير ما حقه التقديم - لاسيما عند كون المقدّم منبئاً عن منفعة للسامع - تبقى مترقبة لورود المؤخر فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن " (٥٩٥) ، فأتضح من هذا التقديم أنّ الغاية من خلق المعاييش جعل الناس مالكين لها متمكنين من الانتفاع بها وليست الغاية كونها مجعولة ومخلوقة (٥٩٦) .

وفي تقديم (لكم) على (فيها) نكتة أيضا ، وهي بيان أنّ كون المعاييش لهم أهم في الذكر من كونها في الأرض التي مكنهم الله فيها ، فهناك ثلاثة أشياء : النعمة التي يريد تعالى تقريرها وهي (المعاش) ، وكون هذه المعاييش في الوطن الذي يعيش فيه المرء ، وكون المرء مالكا لها ومتصرفا فيها، ولاشك في أنّ الأهم عند كلّ إنسان أن يكون مالكا لما يعيش

(١) إرشاد العقل السليم : ١٦٢/٣ ، وينظر : علم المعاني ، د. عبد العزيز عتيق : ١١٧ .
(٢) ينظر : تفسير المنار : ٢٨٩/٨ .

به ثم يكون ذلك في وطنه ثم أن يكون ما يعيش به كثير الأنواع وهذا ما أفاده جمع (معاش) ، فقدم ما الاعتناء بشأنه أتمّ والمسارعة إلى ذكره أهمّ^(٥٩٧)، فالتقديم في الآية يشعر السامع بأنه مناط جعل المعاش وغايته مما يكون أدل على نعم الله تعالى عليه وأدعى إلى إكثار الشكر عليها لا مقابلتها بقلته كما قال تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

ومن التقديم والتأخير في سياق الشكر أيضا تقديم الخبر على المبتدأ ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ اَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ : من الآية ١٣) .

ففي تقديم الخبر (قليل) وتأخير المبتدأ (الشكور) إشارة إلى الاهتمام بذكر قلة الشكر^(٥٩٨) من عباد الله تعالى ، وهذا ما أفاده تقديم ما يخبر عن قلته وهو الخبر (قليل) لاسيما أن من أغراض التقديم التنبيه^(٥٩٩) ، أي أن هذا التقديم أفاد التنبيه على قلة الشكر.

أمّا التقديم والتأخير في سياق التسبيح ، فمنه تقديم الجار والمجرور على ما يتعلق به وتقديم المفعول الثاني على المفعول الأول ، وقد اجتمع هذان النوعان من التقديم في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (الأنعام : ١٠٠) .

فتقدم الجار والمجرور (لله) على ما يتعلق به (شركاء) وتقدم الجار والمجرور (له) على ما يتعلق به أيضا (بنين وبنات) .

والغرض من هذين التقديمين - فيما يبدو - هو الإشعار من أول الأمر بالغاية من إنكار هذا الجعل الباطل وتنزيه الله تعالى عنه فتقديم (لله) و(له) يدل على أن مدار الاهتمام في هذا الإنكار هو أن يجعل لله لا لغيره شركاء وأن يخرق له لا لغيره بنون وبنات مما يدل على عظم ما ادّعاه هؤلاء المشركون وينبّه على وجوب تنزيهه تعالى عن مفترياتهم الزائفة ما دام قد اتضح من أول الأمر أن هذه المفتريات إنما كانت في حق الله تعالى عمّا يصفون ويفترون علوا كبيرا ولذلك ذيلت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ .

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٦٢/٣ ، تفسير المنار : ٢٨٩/٨ .
(٢) (الشكر) بضمّتين جمع (الشكور) ؛ لأنّ ما كان على وزن (فعول) يجمع على (فعل) .
(٣) ينظر : المطول : ٢٥٤ ، التقديم والتأخير في القرآن الكريم : ١٤ .

أما النوع الثاني من التقديم في الآية فهو تقديم المفعول الثاني (شركاء) على المفعول الأول (الجن)^(٦٠٠) ، ولو لم يقدّم المفعول الثاني لكان التعبير : وجعلوا لله الجن شركاء ، غير أنّ في هذا التقديم نكتة لطيفة وهي أنّك " إذا قدمت الشركاء أفاد أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شركاء لا من الجن ولا من غير الجن ، وإذا أخرت فقلت : جعلوا الجن شركاء لم يفد ذلك المقصود ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله ، فأما إنكار المعبود الثاني على الإطلاق فلا يكون في اللفظ دليل عليه مع تأخير الشركاء " (٦٠١) .

ويفهم من ذلك أنّ تقديم المفعول الثاني (شركاء) أفاد التنبيه من أول الأمر على أنه لا ينبغي أن يكون لله تعالى شريك أيا كان ، وفي ذلك استعظام أن يتخذ الله شريك مطلقا (٦٠٢) "ولو قال (وجعلوا الجن شركاء لله) لأفاد أن موضع الإنكار أن يكون الجن شركاء لكونهم جناً ، وليس الأمر كذلك بل المنكر أن يكون لله شريك من أي جنس كان " (٦٠٣) .

ويتّضح من ذلك أنّ التقديم هنا أبلغ في تنزيهه تعالى عن الشركاء وازداد هذا المعنى توكيدا بختم الآية بقوله عز وجل: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ .

ونختم موضوع التقديم والتأخير بقوله تعالى في سياق التسبيح أيضا : ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ رجال لا تلهيهم تجرّة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكوات يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار (النور : ٣٦ ، ٣٧) . حيث تقدّمت أشباه الجمل الثلاثة وهي: الجار والمجرور (له) ، وظرف المكان (فيها) ، وظرف الزمان (بالغدو والآصال) التي تتعلق بالفعل (سبح) على فاعل هذا الفعل (رجال) ولتقديم أشباه الجمل وتأخير الفاعل سببان : أحدهما من جهة اللفظ ، والآخر من جهة المعنى . فالأول هو أنّ في وصف الفاعل نوع طول فيخلّ تقديمه بحسن الانتظام . والثاني : هو أنّ تقديم أشباه الجمل للاعتناء بها وتأخير الفاعل للتشويق له (٦٠٤) .

(١) ينظر : إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج : ٦٨٩/٢ ، البيان في غريب إعراب القرآن : ٣٣٣/١ . وهناك وجه آخر في إعراب (الجن) وهو أن ينتصب على أنه بدل من (شركاء) ومفسّر له . ينظر : معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج : ٢٢٤/٢ ، مجمع البيان : ٤٢٧/٤ ،

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازي : ١٥٩ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٩٠/١٣ ، إرشاد العقل السليم : ٩٤/٣ .

(٤) تفسير المنار : ٥٣٤/٧ ، وينظر : التقديم والتأخير في القرآن الكريم : ١١٨ .

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٢٠/٥ .

وهذا يدلنا على أنّ الأولى بالذكر في الآية هو بيان كون التسبيح لله ، وذلك بتقديم (له) ، ثم بيان موضع ذلك التسبيح بكونه في البيوت التي أذن الله أن ترفع وذلك بتقديم (فيها) ثم بيان أوقات التسبيح وذلك بتقديم (بالغدو والأصال) ، وبعد ذلك بيّن تعالى من يسبّح له في هذه البيوت بتلك الأوقات فقال : ﴿رَجَالٌ لَا تُلِهِمُ تَجَرَّةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ على أنّ هذا التأخير يبعث على التشويق لمعرفة هؤلاء الذين طال الكلام عن تسبيحهم وعلم أنهم يسبّحون لله في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه بالغدو والأصال وهذا التشويق يغرس في النفس الحرص على الانتظام في سلك هؤلاء الرجال الذين يسبحون الله تعالى بالاتصاف بما ذكر لهم القرآن الكريم من صفات الإيمان .

دلالة إشار الجملة الاسمية

درس علماء العربية القدماء والمحدثون الجملة وحدّدوا أنواعها وقسموها تقسيمات كثيرة من جوانب متعددة^(٦٠٥) ، والجملة هي " عبارة عن مركب من كلمتين أسندت إحداها إلى الأخرى سواء أفاد كقولك : زيد قائم أو لم يفد كقولك : إنّ يكرمني ، فإنه جملة لا تفيد إلا بعد مجيء جوابه " ^(٦٠٦) ، وقد عرّفها من المحدثين الدكتور مهدي المخزومي بأنها " الصورة اللفظية الصغرى للكلام المفيد في أية لغة من اللغات ، وهي المركب الذي يبيّن المتكلم به أنّ صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه ، ثم هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع " ^(٦٠٧) .

ويلحظ في ذلك أنّ المهم في الجملة عند المحدثين إفادتها معنى مستقلا بنفسه^(٦٠٨) .

(١) للوقوف على هذه التقسيمات : ينظر : مغني اللبيب : ٤٩٠/٢ - ٥٦٦ ، نحو المعاني ، د. أحمد عبد الستار الجوّاري : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) كتاب التعريفات : ٦٣ .

(٣) في النحو العربي نقد وتوجيه : ٣٥ .

(٤) ينظر : من أسرار اللغة : ٢٣٦ ، نحو التيسير ، د. أحمد عبد الستار الجوّاري : ١١٤ ، ١١٥ ، لغة الشعر عند الصعاليك (رسالة) : ١٧٥ .

ومن تقسيمات الجملة في العربية أنها تقسم على جملة اسمية وجملة فعلية والجملة الاسمية عند النحاة القدماء هي ما كان صدرها مبدوءاً باسم^(٦٠٩) نحو : الحق واضح والحق ظهر ، غير أنّ المحدثين لا يوافقون على هذا التعريف ، ويرون أنّ الجملة الاسمية ما كان المسند فيها اسماً ، فجملة الحق ظهر مثلاً جملة فعلية عندهم لأنّ المسند (ظهر) فعل وليس اسماً كما اشترطوا^(٦١٠).

ولسنا في مقام مناقشة هذا الاختلاف بين القدماء والمحدثين بقدر ما نحن في مقام معرفة دلالة الجملة الاسمية وأثر هذه الدلالة في سياق حمده تعالى وتسبيحه .

ويكاد القدماء والمحدثون يتفقون على أنّ الجملة الاسمية تدلّ على ثبات المعنى ودوامه على عكس الجملة الفعلية التي تدلّ على التغيير والتجدد^(٦١١) ، وقد عدّ ذلك من بلاغة الاستعمال القرآني^(٦١٢) .

واشترط د. عبد العزيز عتيق في الجملة الاسمية التي تدلّ على ثبات المعنى ودوامه أن يكون " خبرها مفرداً أو جملة اسمية أمّا إذا كان خبرها جملة فعلية فإنها تفيد التجدد فإذا قلت : الدولة تكرم العاملين من أبنائها ، كان معنى هذا أن تكريم الدولة للعاملين من أبنائها أمر متجدد غير منقطع " ^(٦١٣) ويلاحظ أنّ الجملة التي ذكرها ، وعدّها اسمية هي جملة فعلية عند أكثر المحدثين - كما مرّ قبل قليل - لأنّ المسند فيها فعل (تكرم) وليس اسماً .

ويلاحظ أيضاً أنه يوافق القدماء في عدّه الجملة الاسمية ما كانت مبدوءة باسم سواء كان خبرها اسماً أم فعلاً ويخالفهم في دلالتها على الثبات والدوام؛ لأنّه يقصر هذه الدلالة على ما كان خبرها اسماً أو جملة اسمية ، وأنه يوافق المحدثين في رفضهم دلالة الثبات والدوام في الجملة التي يكون خبرها فعلاً ويخالفهم في نوع هذه الجملة ، فهم يرون أنها فعلية لأنّ المسند فيها فعل ، وهو يرى أنها اسمية خبرها جملة فعلية لأنها مبدوءة باسم .

وسنقتصر في دلالة الجملة الاسمية في سياق الحمد والتسبيح على ما كان خبرها اسماً سواء كان ظاهراً أم مقدراً ، وبهذا نكون قد اخترنا من الجمل الاسمية ما يتفق القدماء والمحدثون بمن فيهم د. عبد العزيز عتيق على إفادته معنى الثبات والدوام .

(٥) ينظر : مغني اللبيب : ٤٩٢/٢ ، المعنى والنحو ، د. عبد الله أحمد جاد الكريم : ٩٥ ، تطور دراسة الجملة العربية بين النحاة والأصوليين : ٨٤ .

(٦) ينظر : إحياء النحو : ٥٥ ، ٦٥ ، نحو التيسير : ١١٤ ، نحو الفعل : ٢٠ ، في النحو العربي نقد وتوجيه : ٤٦ ، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم : ٣٦ .

(١) ينظر : دلائل الإعجاز : ١١٥ ، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : ١٤٠ ، الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني : ٩٦ ، تجديد النحو : ٢٥٣ ، التعبير القرآني : ٢٤ - ٣٤ ، دراسات قرآنية في جزء عم : ١٩٢ ، ١٩٣ ، نظام الجملة العربية (رسالة) : ٧٢ - ٧٦ .

(٢) ينظر : من بلاغة القرآن : ١٠٧ .

(٣) علم المعاني ، د. عبد العزيز عتيق : ٣٨ .

ولعل إفادة هذا النوع من الجملة الاسمية معنى الثبات والدوام هي السبب في أنّ حمد الله عزّ وجل لم يرد في القرآن الكريم إلا به ^(٦١٤) وذلك قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ برفع (الحمد).

وذكر سيبويه أنّ (الحمد) مصدر وهو منصوب ، غير أنه اختير أن يبتدأ به فاستحبوا الرفع فيه ؛ لأنه صار معرفة وهو خبر فقوي في الابتداء ^(٦١٥).

ثم قال : " واعلم أنّ (الحمد لله) وإن ابتدأته ففيه معنى المنصوب وهو بدل من اللفظ بقولك : أحمد الله " ^(٦١٦) . وذكر أيضا أنّ كثيرا من العرب - منهم عامة بني تميم - من ينصب فيقول : الحمد لله ^(٦١٧).

وقال الأعلام الشنتمري (ت ٤٧٦ هـ) في تفسير كلام سيبويه الأول : " اعلم أنّ العرب اختارت رفع هذه المصادر ؛ لأنهم جعلوها كالشيء اللازم الواجب فأخبروا عنها فجعلوها مبتدآت وما بعدها خبر عنها ، وصارت بمنزلة قولك : الغلام لزيد " ^(٦١٨) و(الحمد لله) بالنصب جملة فعلية ؛ لأنّ (الحمد) مصدر منصوب على إضمار فعل كسائر المصادر التي تنصبها العرب ^(٦١٩) ، أمّا (الحمد لله) بالرفع فهي جملة اسمية.

وذكر أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) في دلالة هذه الجملة أنّ سيبويه قال : " إذا قال الرجل : الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قوله : حمدت الله حمداً إلا أن الذي يرفع (الحمد) يخبر أنّ الحمد منه ومن جميع الخلق لله والذي ينصب (الحمد) يخبر أنّ الحمد منه وحده لله تعالى " ^(٦٢٠) ، وذلك لأنّ الرفع " إنّما يستدعي اسماً ، ذلك الاسم صفة ثابتة ألا ترى أنّ المقدّر مع النصب : نحمد الله الحمد ومع الرفع : الحمد ثابت لله أو مستقر " ^(٦٢١).

(٤) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٢١٧ ، ٢١٨ .

(١) ينظر : كتاب سيبويه : ٣٢٨/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٢٩/١ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، وقال النحاس : " وقرأ ابن عيينة ورؤية بن العجاج (الحمد لله) على المصدر وهي لغة قيس والحارث بن سامة " إعراب القرآن ، النحاس : ١١٩ /١ ، وينظر : البحر المحيط : ١٣١/١ .

(٤) النكت في تفسير كتاب سيبويه ، الأعلام الشنتمري : ٣٧٥/١ .

(٥) ينظر : معاني القرآن ، سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط : ٩ /١ ، ، زبدة التفاسير ، فتح الله الكاشاني : ٢٦/١ ، تفسير التحرير والتنوير : ١٥٧/١ ، الترجيح النحوي في البحر المحيط (أطروحة) محسن حسين علي : ١٨٩ .

(٦) معاني القرآن ، أبو جعفر النحاس : ٢٢ /١ ، وذكر هذا الكلام أيضا مع اختلاف يسير القرطبي وابن عاشور ونسبها إلى سيبويه وأشار ابن عاشور إلى أنّ سيبويه قال هذا الكلام تحت (باب يختار فيه أن تكون المصادر مبتدآت مبنيا عليها ما بعدها) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ٩٥ /١ ، تفسير التحرير والتنوير : ١٥٧ ، ١٥٨ ، غير أنني لم أجد ما نسب إلى سيبويه في هذا الباب ولا في غيره من أبواب الكتاب في طبعاته الثلاث .

(٧) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، (مطبوع بهامش الكشاف) : ٢٧ ، وينظر : تفسير الجلالين : ١٦٧/١ .

وبهذا يتّضح أنّ العدول من النصب في (الحمد) إلى الرفع فيه هو " لقصد الدلالة على الدوام والثبات المستفاد من الجملة الاسمية دون الحدوث والتجدد اللذين تفيدهما الجملة الفعلية " (٦٢٢) بمعنى أنّ هذا العدول دلّ على ثبات الحمد ودوامه لله تبارك وتعالى دون تجدده وحدوثه (٦٢٣) .

وانطلاقاً مما تفيد الجملة الاسمية من معنى الثبات والدوام ذكر الرازي أربع فوائد لطيفة لإيثار التعبير عن حمد الله تعالى بالجملة الاسمية نلخصها في ما يأتي :

الأولى : لو قال القائل : أحمد الله بالجملة الفعلية ، لأفاد ذلك انه قادر على حمد الله تعالى ، أما لو قال (الحمد لله) فقد أفاد ذلك أنه تعالى كان محموداً قبل حمد الحامدين فهو سواء حمد أم لم يحمد فالله تعالى محمود في الأزل إلى الأبد بحمده القديم فقول القائل : الحمد لله لا ينبئ عن حمده هو وإثما هو تعبير عما ثبت لله جل وعلا من الحمد .

والثانية : معنى (الحمد لله) أنّ الحمد والثناء حق لله تعالى ومملك له ، فهو المستحق للحمد بكثرة أياديهِ وأنواع آلائه ، ولو قيل : أحمد الله ، لم يدل ذلك على استحقاقه تعالى للحمد ولا ريب في أنّ اللفظ الدال على كونه مستحقاً للحمد أولى من اللفظ الدال على أنّ شخصاً واحداً قد حمده .

والثالثة : لو قال القائل : أحمد الله ، لكان قد حمده ولكن ليس حمداً يليق به تعالى أمّا إذا قال : الحمد لله فكأنه قال : من أنا حتى أحمده ؟! لكنه تعالى محمود بجميع حمد الحامدين . وهذا المعنى قريب مما ذكره الرازي في الفائدة الأولى .

والرابعة : لما كان الحمد صفة القلب وهي الاعتقاد بكون ذلك المحمود متفضلاً منعماً مستحقاً للتعظيم والإجلال فإنه إذا تلفظ الإنسان بقوله : أحمد الله مع أنه كان قلبه غافلاً عن معنى التعظيم اللائق بجلال الله كان كاذباً ؛ لأنه أخبر عن نفسه بكونه حامداً لله مع أنه ليس كذلك ، أمّا إذا قال : الحمد لله فإنه لا يكون كاذباً سواء كان قلبه غافلاً أم مستحضراً لمعنى التعظيم لأنه أخبر بأنّ الحمد حق لله تعالى وهذا المعنى حاصل وهو حق وصدق سواء كان العبد مشتغلاً بمعنى التعظيم أم لم يكن (٦٢٤) .

(١) فتح القدير : ٢١/١ ، وينظر : لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن) ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشهير بالخازن : ١١٧/٢ .

(٢) ينظر : تفسير جوامع الجامع : ٥٤/١ ، التبيان في إعراب القرآن : ٥/١ ، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب الميرزا محمد المشهدي : ٧٦/١ ، تيجان البيان في مشكلات القرآن ، محمد أمين العمري : ٢٦٥ ، تفسير القرآن الكريم ، صدر المتألهين الشيرازي : ٧٣/١ ، ٧٤ ، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، د. فاضل السامرائي : ١٤ .

(١) ينظر : التفسير الكبير : ١٩١/١ ، ٤٧٣/١٢ ، إرشاد العقل السليم : ٣٤/١ ، ٣٥ ، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل : ١١ ، ١٢ ، ١٣ .

ومن كلّ ما تقدّم يتضح أنّ التعبير عن الحمد بالجملة الاسمية أبلغ في حمد الله تعالى مما لو جاء معبراً عنه بالجملة الفعلية وهذا ما يفسّر إثارة التعبير عن حمده جل وعلا بالجملة الاسمية فقط في القرآن الكريم .

أمّا دلالة إثارة الجملة الاسمية في سياق الشكر فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لَتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٨٠) .

إنّ من نعم الله تبارك وتعالى على قوم داود -عليه السلام- أنه علّم نبيهم صنع الدروع التي تقيهم من وقع السلاح في حروبهم^(٦٢٥) فطلب تعالى منهم أن يشكروه على هذه النعمة وعبر عن ذلك بالجملة الاسمية إذ لم يقل : فهل تشكرون وذلك لتأكيد الطلب لأنّ الجملة الاسمية أدلّ على حصول المطلوب وثبوته^(٦٢٦) كأنه تعالى طلب منهم أن يديموا الشكر ويتصفوا به اتصافاً ثابتاً لا متغيّراً .

وجاءت الجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن : ١٧) . لتفيد أنه تعالى متصف على وجه الثبات والدوام بشكره أعمال عباده الصالحة بأن يثيبهم عليها أضعافاً من الأجر والثواب ، وفي ذلك ترغيب للعباد في فعل الصالحات مادام الله تعالى متصفاً على وجه الثبات والدوام بأنه يشكرهم ويثيبهم عليها .

ومما جاء من إثارة الجملة الاسمية في سياق التسبيح قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (يونس: من الآية ٦٨) .

فقوله تعالى (هو الغنيّ) جملة اسمية تفيد علة نفي الولد عن الله عز وجل ؛ لأنه تعالى لما كان غنيا بذاته فإنه لا يحتاج أن يتخذ ولداً^(٦٢٧) ، وإثارة الجملة الاسمية للدلالة على أنه جل وعلا غنيّ على جهة الثبات والدوام وذلك أبلغ في تنزيهه تعالى عن اتخاذ الولد .

(٢) ينظر : مجمع البيان : ٧٩/٧ .

(٣) ينظر : عروس الأفراح : ٥٢٧/٢ ، البرهان في علوم القرآن : ١٧٨/٤ .

(٤) ينظر : الكشف : ٤٦٩ ، تفسير التبيان : ٦٧/٥ ، مجمع البيان : ١٥٦/٥ ، لباب التأويل : ٢٠٠/٣ .

ومن دلالة إيثار الجملة الاسمية في سياق التسبيح ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ

جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا

يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ (سبأ: ٤٠، ٤١) حيث جاءت الجملة الاسمية (أنت ولينا)

في خطاب الملائكة لله تعالى ليدلوا على ثبات موالاتهم له واستمرارها . قال الزمخشري : " والمعنى أنت الذي نواله من دونهم إذ لا موالاته بيننا وبينهم فبينوا بإثبات موالاته الله ومعاداة الكفار ببراءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك " (٦٢٨). وفي التعبير عن هذا المعنى بما يفيد الثبات والدوام استهزاء بالكافرين ؛ لأنهم أشركوا بالله من هو ثابت الموالاته له عز وجل ومبالغة في تنزيهه تعالى من أن يستحق العبادة غيره .

(١) الكشف : ٨٧٦ ، وينظر : تفسير جوامع الجامع : ١٠٥/٣ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ١٦٨/٢ .

دلالة الجملة المعترضة

يعدّ الاعتراض من ظواهر العربية ومن خصائصها وسننّها^(٦٢٩) وهو كثير في كلام العرب وجار عندهم مجرى التأكيد^(٦٣٠).

وحده : أنه " كلّ كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو سقط لبقى الأول على حاله " ^(٦٣١). أي يتم الغرض الأصلي من دونه ولا يفوت بفواته ، غير أنه يأتي لإفادة نكتة ^(٦٣٢).

والجملة المعترضة عند النحاة هي " جملة صغرى تتخلل جملة كبرى على جهة التأكيد " ^(٦٣٣) ، وهي تفيد الكلام الذي تعترض بين أجزائه تأكيدا وتسديدا ^(٦٣٤).

وتقع الجملة المعترضة في مواضع كثيرة من الكلام كأن تقع بين الفعل وفاعله أو بين المبتدأ وخبره ، وقد عدّ ابن هشام الأنصاري سبعة عشر موضعا للجملة المعترضة^(٦٣٥).

وذكر الزركشي أنّ مما تفيد الجملة المعترضة تقرير الكلام وقصد التنزيه^(٦٣٦) وسيوضح - إن شاء الله - أن الاعتراض بالحمد جاء لتقرير حمد الله تعالى والاعتراض بالتسبيح قصد به تنزيهه جلّ وعلا .

ومما جاء في سياق الحمد قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق
إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ (إبراهيم : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠) .

حيث جاءت جملة الحمد معترضة بين فقرات دعاء إبراهيم - عليه السلام - والذي دعاه إلى ذلك أنه تذكر - ضمن ما أورده من أدعية - عظيم نعمة الله عليه بأن وهب له ولدين صالحين بعد

-
- (١) ينظر : الصاحبى : ١٩٠ ، النحو والمعنى : ٨٧ ، دراسة لغوية في كتاب نهج البلاغة : ١٠٩ .
 - (٢) ينظر : الخصائص : ٣٣٦/١ .
 - (٣) المثل السائر : ٤٠/٣ .
 - (٤) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٥٦/٣ .
 - (٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
 - (٦) ينظر : همع الهوامع : ٢٥٣/٢ ، تجديد النحو : ٢٥٧ .
 - (٧) ينظر : مغني اللبيب : ٥٠٤/٢ - ٥١٦ .
 - (٨) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٥٧/٣ .

الكبر الذي من شأنه أن يمنع النسل وأنه تعالى إنما وهبهما له باستجابة دعائه^(٦٣٧) ، فأفاد هذا الاعتراض تقرير حمد الله تعالى على ما أنعم به على إبراهيم -عليه السلام- .

وقد وردت جملة الحمد معترضة في سياق التسبيح في قوله تعالى: ﴿ فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ

تُسُونَّ وَحِينَ تَصْبِحُونَ ﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (الروم :

١٧ ، ١٨) فجملة (وله الحمد في السماوات والأرض) معترضة بين أوقات التسبيح^(٦٣٨) ؛ لأن معنى الآية : سبّحوا الله تعالى في وقت الصباح والمساء وفي العشي وفي وقت الظهيرة^(٦٣٩) ، وجاء الاعتراض بالحمد لنكتة لطيفة مفادها أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بيّن لهم أن تسبيحهم له إنما هو لنفعهم لا لنفع يعود عليه تعالى فعليهم أن يحمده إذا سبّحوه^(٦٤٠) .

ونظر الشوكاني إلى دلالة الاعتراض بالحمد في الآية من جهة أخرى ، فقال : "وجملة (وله الحمد في السماوات والأرض) معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح " ^(٦٤١) .

وجاءت جملة التسبيح معترضة في سياق الكلام وسماها ابن هشام الأنصاري الجملة التنزيهية^(٦٤٢) ، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انَّهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ

وَاحِدٌ سُبِّحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (النساء : من الآية ١٧١).

فجاءت الجملة التنزيهية (سبحانه أن يكون له ولد) معترضة بين جملة (إنما الله إله واحد وجملة (له ما في السماوات وما في الأرض) فلما أخبر تعالى بأنه إله واحد رداً على أهل الكتاب الذين ادّعوا أن المسيح عيسى بن مريم -عليه السلام- ابن الله وأنه وأمه إلهان معه جلّ وعلا ، أخبر أيضاً أنه تبارك وتعالى له ما في السماوات وما في الأرض للدلالة على غناه عن أن يتّخذ ولداً ، وجاءت جملة التسبيح معترضة بين هذين الإخبارين على جهة التعظيم^(٦٤٣) ودلالاتها قصد تنزيهه تعالى عن أن يكون له شريك إنكاراً لما ادّعاه أهل الكتاب وردا عليهم .

(١) ينظر : الميزان : ٧٨/١٢ .

(٢) ينظر : الكشف : ٨٢٧ ، الميزان : ١٦٨/١٦ .

(٣) ينظر : فتح القدير : ٢٧٢/٤ ، ٢٧٣ .

(٤) ينظر : التفسير الكبير : ٨٨/٢٥ ، الفتوحات الإلهية : ٣٨٨/٣ .

(٥) فتح القدير : ٢٧٣/٤ .

(٦) ينظر : مغني اللبيب : ٥١٨/٢ .

(١) ينظر : الميزان : ١٥٨/٥ .

ومما جاء من الاعتراض بجملة التسبيح ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ

سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (النحل : ٥٧) .

فتقدير الكلام : ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون فاعترض بين المفعولين بـ(سبحانه) فكأنه قال : ويجعلون لله تعالى البنات وهو منزّه عن ذلك ، ولهم ما يشتهون^(٦٤٤) ، وفي ذلك تعظيم لله جل وعلا وشناعة على من جعل له البنات^(٦٤٥) .

وقد بسط السيد يحيى بن حمزة العلويّ اليمينيّ (ت : ٧٤٩هـ) القول في لطائف هذا الاعتراض فقال : " فقلوه (سبحانه) كلمة تنزيه أوردها اعتراضا بين الجملتين مبالغة في التنزيه عما نسبوه إليه من اتخاذ البنات ومبالغة في الإنكار عليهم في هذه المقالة ، فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه اللفظة أعني قوله (سبحانه) من حسن الموقع بكونها واردة على جهة الاعتراض وما تضمنته من الفوائد الشريفة والأسرار الخفية من الإنكار والردّ والتهكم وإظهار التعجب من حالهم وغير ذلك من اللطائف ، فسبحان الله لقد أنشأت هذه الآية للعارفين استطرفا وعجبا وحركت في قلوبهم أشواقا وطربا لما اشتملت عليه من عجائب الفصاحة التي لا ينطق بها لسان ومن غرائب البلاغة ما لا يطلع على فجّها إنسان " ^(٦٤٦) .

دلالة عود الضمير

الضمير أو المضمّر - كما يسمى أيضا - مأخوذ من قولهم : أضمرت الشيء إذا سترته وأخفيته ومنه قولهم : أضمرت الشيء في نفسي^(٦٤٧) ، وقيل : هو مأخوذ من الضمور وهو الهزال ؛ لأنه غالبا ما يكون قليل الحروف ، زيادة على ذلك فإنّ الحروف الموضوعة له

(٢) ينظر : المثل السائر : ٤٢/٣ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٥٦/٣ .

(٤) كتاب الطراز : ٢٨٤ .

(١) ينظر : كتاب العين : ٤١/٧ ، لسان العرب : ٤٩٢/٤ ، المعجم الوسيط : ٥٤٤/١ .

غالبا من الحروف المهموسة وهي (التاء والكاف والهاء) والهمس هو الصوت الخفي وهو قريب من معنى الإضممار^(٦٤٨). " وسمي مضمرا ؛لأنه كُتِبَ به عن الظاهر للاختصار " (٦٤٩).

واصطلح البصريون على تسميته بالضمير أو المضممر ، أمّا الكوفيون فيسمونه الكناية أو المكّي^(٦٥٠) ، وقد أطلق عليه سيبويه الإضممار وعلامة الإضممار وعلامة المضممر^(٦٥١) ، ويأتي الضمير في الكلام ليعود على ما قد عرف في سياق ذلك الكلام عند المتلقي ، قال سيبويه : " وإنما صار الإضممار معرفة لأنك إنما تضممر اسما بعد ما تعلم أنّ من يحدث قد عرف من تعني وما تعني وأنك تريد شيئا يعلمه " (٦٥٢).

ومن أغراض الإتيان بالضمير الاختصار وإزالة اللبس والربط بين أجزاء الجملة^(٦٥٣)، واتضح مما تقدم من كلام سيبويه أنّ الضمير لا بدّ من أن يعود على اسم قد عرف في سياق الكلام ، غير أنه قد يرد أكثر من اسم يمكن أن يعود عليه الضمير لأنّ دلالة الضمير " على المسمّى لا تتأتى إلا بمعونة الاسم " (٦٥٤).

ولعود الضمير صور كثيرة^(٦٥٥) لا مجال لذكرها . وما نريد أن نتعرفه هنا هو ما يثيره الاختلاف في عود الضمير من دلالة في سياق الحمد والتسبيح

ومما جاء من ذلك في سياق الشكر قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص : ٧٣) .

اختلف في عود الضمير (الهاء) في قوله (فيه) ، وقوله (فضله) فالضمير في (فيه) يعود على الليل^(٦٥٦) ، واحتمل الطبري أن يعود على (الليل والنهار) ويكون وجه توحيده وهو

(٢) ينظر : شرح شذور الذهب : ١٣٠ .

(٣) كشف المشكل في النحو : ١٨٤/١ .

(٤) ينظر : همع الهوامع : ١٩٠/١ .

(٥) ينظر : كتاب سيبويه : ٥/٢ ، ٦ ، ٧٨ ، ٣٥٠ ، ١٨٩/٤ ، ٢٠٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٦/٢ .

(٧) ينظر : الترجيح النحوي في البحر المحيط (أطروحة) : ٢١١ ، لغة الشعر عند الصعاليك (رسالة) : ٢٨٨ .

(٨) اللغة العربية معناها ومبناها : ١١٣ ، وينظر : ألفاظ السلوك الخلقي في القرآن الكريم (أطروحة) ، عبد الكريم مصلح البهلة : ١٣٥ .

(٩) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٣٣٤/٢ - ٣٣٧ ، الترجيح النحوي في البحر المحيط (أطروحة) : ٢١٢ ، ٢١٣ .

(١) ينظر : جامع البيان : ١٢١/٢٠ ، الكشف : ٨٠٩ ، مجمع البيان : ٣٤٠/٧ ، البحر المحيط : ١٢٥/٧ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ١١٨/٢ .

لهما وجه توحيد العرب في قولهم : إقبالك وإدبارك يؤذيني لأنَّ الإقبال والإدبار فعل والفعل يوحد كثيره وقليله (٦٥٧) .

وذكر ذلك أيضا الشيخ الطوسي ولم يرَّجحه واختار أن يعود الضمير على (الليل) (٦٥٨) وفيما احتمله الطبري في عود الضمير على (الليل والنهار) نظر وهو أن توحيد الضمير في قول العرب الذي ذكره يحتمل أن يدل على أن اجتماع الإقبال والإدبار هو المؤذي ، لا أن كلا منهما مؤذ من جهته أي أني إذا كررت الإقبال والإدبار فجمعت هذين الفعلين بفعل واحد يسمى الإقبال والإدبار فإني أقوم بفعل مؤذ ويرجع الضمير إلى هذا الفعل بالإفراد ، وزيادة على ذلك فإننا إذا سلّمنا بأن الضمير في (فيه) يعود على (الليل والنهار) ، فإنّ هذا يدل على أن السكون المعبر عنه بقوله تعالى (لتسكنوا فيه) يكون في الليل والنهار على حد سواء وهذا بعيد لأن الله جلّ وعلا قد جعل السكون في الليل خاصة وابتغاء الرزق والمعاش في النهار خاصة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (يونس: ٦٧) وقال أيضا : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (النبا: ١٠، ١١) (٦٥٩) .

أمّا الضمير في (فضله) فقيل : إنه يعود على الله تعالى أي لتبتغوا من فضل الله فيه أي في النهار وحذف (فيه) لدلالة المعنى ولدلالة لفظ (فيه) السابق عليه (٦٦٠) . وقيل : إنه يعود على النهار أي من فضل النهار على سبيل المجاز ، لما كان الفضل واصلا فيه أضيف إليه كقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (سبا : من الآية ٣٣) (٦٦١) .

وجعل علماء البلاغة هذه الآية التي نحن في مقام الحديث عنها مثالا للّف والنشر وهو " أن تلف بين شيئين في الذكر ثم تتبعهما كلاما مشتملا على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين ثقة، بأن السامع يرد كلا منهما إلى ما هو له " (٦٦٢) ولا يتحقق اللف والنشر في هذه الآية إلا إذا عاد الضمير في (فيه) على الليل وفي (فضله) على النهار . وقد تلمّس صاحب كتاب الطراز دلالة ذلك فقال : " فجمع بين الليل والنهار بواو العطف ثم بعد ذلك أضاف إلى

(٢) ينظر : جامع البيان : ١٢١/٢٠ .

(٣) ينظر : تفسير التبيان : ١٧٣/٨ .

(٤) ينظر أيضا الآيات : النمل : ٨٦ ، غافر : ٦١ .

(٥) ينظر : مجاز القرآن ، أبو عبيدة : ١١٠/٢ ، الكشاف : ٨٠٩ ، البحر المحيط : ١٢٥/٧ .

(١) ينظر : البحر المحيط : ١٢٥/٧ .

(٢) مفتاح العلوم : ٦٦٢ ، وينظر : حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، شهاب الدين الحلبي : ٢٤٥ ، جواهر البلاغة : ٣٢٣ .

كل واحد منهما ما يليق به فأضاف السكون إلى الليل لأن حركات الخلق تسكن ليلاً لأجل النوم ثم قال بعد ذلك (ولتبتغوا من فضله) إثارة لما يظهر في اللف بعده النشر من البلاغة وحسن التأليف " (٦٦٣).

ويظهر من ذلك أن الله تعالى ذكر نعمته وهي جعل الليل والنهار ، ثم زادها تقريراً وإظهاراً بأن ذكر لكل من الليل والنهار منفعة العباد فيه وهي سكونهم في الليل وابتغائهم الرزق في النهار والذي أفاد ذلك عود الضمير في الآية ، وفيه مدعاة لمقابلة ما تقرر من نعمته بشكره تعالى عليها .

ومن أمثلة عود الضمير في سياق الشكر أيضاً ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا

جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٥﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس : ٣٤ ، ٣٥) . فقد اختلف في عود الضمير (الهاء) في (ثمره) على أوجه :

الأول : أن يعود على (النخيل) وتترك (الأعناب) من غير ضمير يعود عليها ؛ لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره (٦٦٤) ، وهذا جار على ما ورد في القرآن الكريم بأن يذكر اسمان ويعاد الضمير إلى أحدهما كقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (البقرة : ٤٥) فذكر الصبر والصلاة وأعاد الضمير إلى الصلاة فقط (٦٦٥) .

والثاني : أن يعود على المذكور والمعنى : لياكلوا من ثمر ما ذكر من الجنات ، كما قال رؤبة :

فيها خطوط من بياض وبلق كأنه في الجلد توليع البهق (٦٦٦)

فلما سئل عن عود الضمير في (كأنه) قال : أردت كأن ذاك ، أي : كأن ما ذكر (٦٦٧) .

(٣) كتاب الطراز : ٣٩٧ .
(٤) ينظر : مجاز القرآن : ١٦١/٢ ، الكشاف : ٨٩٤ ، التفسير الكبير : ٢٦/٢٧٤ .
(١) ينظر : الإتيان في علوم القرآن : ٣٣٦/٢ ، وقيل : الضمير في (إنها) يعود على الاستعانة المفهومة من (استعينوا) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها . وعلى هذا الرأي يسقط وجه الاستشهاد بالآية على عود الضمير على أحد الاسمين .
(٢) ورواية الديوان : فيها خطوط من سواد وبلق كأنها في الجلد توليع البهق
ينظر : مجموع أشعار العرب ، وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج : ١٠٤ ، على رواية الديوان يسقط وجه الاستشهاد بالبيت ؛ لأن الضمير في (كأنها) يعود على (خطوط) .

والثالث : ما ذكره الرازي ووصفه بأنه أغرب وأقرب ، وهو أن يعود الضمير على (التفجير) المدلول عليه بقوله تعالى (وفجّرنا فيها من العيون) والمعنى : ليأكلوا من ثمر التفجير والمراد من ثمر التفجير هنا فوائده ، كما يقال ثمرة التجارة الربح وثمره العبادة الثواب^(٦٦٨) ، ويبدو أنّ وصف الرازي هذا الوجه بالغرابة لكون الضمير يعود على ما لم يذكر في الآية صراحة وأنّ وصفه إياه بالقرب ، لكون (التفجير) المفهوم من (فجّرنا) أقرب إلى الضمير لاسيما أنّ الأصل في عود الضمير أن يعود على أقرب مذكور^(٦٦٩) .

والرابع : أن يعود الضمير على الله تعالى بمعنى أنّ الثمر في نفسه فعل الله وخلقه والأصل أن يقال (من ثمرنا) كما قال (جعلنا) و(فجرنا) فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريق الالتفات^(٦٧٠) .

وفي عوده على الله تعالى : " لطيفة ، وهي أنّ الثمار بعد وجود الأشجار وجريان الأنهار لم توجد إلا بالله ، ولولا خلق الله ذلك لم توجد " ^(٦٧١) . ويلاحظ أنّ هذا الوجه ما هو إلا رجوع الأوجه الثلاثة السابقة إلى أصلها ؛ لأنّ النخيل التي يعود عليها الضمير كما في الوجه الأول أو ما ذكر من الجنات كما في الوجه الثاني أو التفجير كما في الوجه الثالث إنما هي فعل الله وخلقه لأنه جل وعلا أصل هذه النعم التي اشتملت عليها الآيتان واحتمل أن يعود الضمير على كل واحدة منها .

وعلى أي وجه من الأوجه المتقدمة حملنا المعنى فإنه يدل على فضل الله تعالى ونعمته وفي ذلك إشارة إلى تعدد نعمه وكثرتها مما يستوجب على العباد شكره جل وعلا عليها .

ومما جاء من الاختلاف في عود الضمير في سياق التسبيح ما ورد في قوله تعالى : ﴿الْمُ

تَرَأَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (النور : ٤١) . حيث اختلف فيما يعود عليه الضمير في (علم) و (صلاته

وتسبيحه) على ثلاثة أوجه :

(٣) ينظر : الكشف : ٨٩٤ ، أنوار التنزيل : ٤٣٧/٣ .

(٤) ينظر : التفسير الكبير : ٢٧٤/٢٦ .

(٥) ينظر : معترك الأقران : ٤٦٥/٣ .

(٦) ينظر : الكشف : ٨٩٤ ، إرشاد العقل السليم : ٤٩٥/٥ .

(٧) التفسير الكبير : ٢٧٤/٢٦ .

الأول : أن يعود الضمير في (علم) على الله تعالى وفي (صلاته وتسبيحه) على (كل) والمعنى : كلّ مصلّ ومستبّح منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه وهو ما اختاره الطبري^(٦٧٢) ورجحه الزجاج (ت: ٣١١ هـ) فقال " والأجود أن يكون : كل قد علم الله تعالى صلاته وتسبيحه ودليل ذلك قوله (والله عليم بما يفعلون) " ^(٦٧٣). ورجّحه أيضا الطبرسي فقال: " وهو أجود لأنّ الأشياء كلها لا يعلم كيفية دلالتها على الله وإنما يعلم الله تعالى ذلك " ^(٦٧٤).

والثاني : خلاف الأول ، وهو أن يعود الضمير في (علم) على (كل) وفي (صلاته وتسبيحه) على الله تعالى والمعنى : قد علم كل مصلّ ومستبّح صلاة الله التي كلّفه إياه وتسبيحه ^(٦٧٥).

والثالث : أن يعود الضمير في (علم) وفي (صلاته وتسبيحه) على (كل) ، والمعنى : قد علم كلّ مصلّ ومستبّح منهم صلاة نفسه وتسبيحه الذي كلّفه وألزمه^(٦٧٦) ، وهذا ما اختاره أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) وأبو حيان والشوكاني والسيد الطباطبائي والعلامة ناصر مكارم الشيرازي .

وذكر الشوكاني أنه لو كان الضمير في (علم) لله لكان نصب (كل) أولى ، وذكر فائدة لعود الضمير في الموضعين على (كل) فقال : " وفائدة الإخبار بأنّ كل واحد قد علم ذلك أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها الله ذلك وألهمها إليه لا أنّ صدوره منها على طريق الاتفاق بلا روية وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه وعظيم شأنه كونه جعلها مسبّحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له " ^(٦٧٧).

وفي الآية على هذا الوجه فائدة أخرى وهي بيان أنّ لكل مخلوق صلاة وتسبيحا يختص بهما ويختلف عن غيره فيهما وذلك أدلّ على بديع صنعه جلّ وعلا وعظيم خلقه وهو يتلاءم مع ما ذكر من أنّ لكل ملك من ملائكة الله ولكل نبيّ من أنبيائه تسبيحه الخاص به الذي دأب

(١) ينظر : جامع البيان : ١٨٢/١٨ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه : ٣٩/٤ .

(٣) مجمع البيان : ١٩٥/٧ ، وينظر : لباب التأويل : ٨٣/٥ ، تفسير الجلالين : ٨٥/٢ .

(٤) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ٢٥٥/٢ ، جامع البيان : ١٨٢/١٨ ، التفسير الكبير : ٤٠٢/٢٤ .

(١) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ٢٥٥/٢ ، جامع البيان : ١٨٢/١٨ ، مجمع البيان : ١٩٥/٧ ، التفسير الكبير : ٢٤/٤٠٢ .

(٢) فتح القدير : ٥٠/٤ .

على تسبيح الله به^(٦٧٨) بل أن كل حيوان يسبح الله بلغته^(٦٧٩) وأن كل ورقة من النبات ينتشر صوت تسبيحها بين أرجاء الكون الفسيح^(٦٨٠).

ومما جاء من دلالة عود الضمير في سياق التسبيح أيضا قوله تعالى : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ

بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (الرعد : من الآية ١٣) .

فالهاء في (خيفته) تحتل أن تعود على الله تعالى وهو ما رجّحه أغلب المفسرين والمعنى أن الملائكة تسبح الله من هيئته وخشيته ، ويحتل أن تعود (الهاء) على (الرعد) إذا فسر بأنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب وهو احتمال ضعيف^(٦٨١).

وعود الضمير على الله تعالى أبلغ في تسبيحه عز وجل ؛ لأن تسبيحه بسبب هيئته وخشيته جلّ وعلا أولى من تسبيحه بسبب خشية غيره .

ونختتم الكلام على عود الضمير بما جاء في قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ

بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ١٨ ، ١٩) ، فالضمير في (له) يحتل في عوده وجهين .

الأول : أن يعود على داود -عليه السلام- والمعنى : كل واحد من الجبال والطير مسبح لأجل تسبيح داود^(٦٨٢) ورجّحه أبو حيان^(٦٨٣).

والآخر : أن يعود على الله تعالى والمعنى : كل من داود والجبال والطير رجّاع بالتسبيح^(٦٨٤) ، ورجّحه السيد الطباطبائي ؛ لأن " التسبيح من مصاديق الرجوع إليه تعالى " ^(٦٨٥).

ويلاحظ أن اللام في (له) على الوجه الأول تفيد السببية ، وعلى الوجه الثاني تفيد الاختصاص . ويبدو أن الوجه الثاني أرجح ، لأنه يوجب رجوع كلّ من داود والجبال

(٣) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ١٧٤/٣ - ١٧٦ .

(٤) ينظر : التفسير الكبير : ٣٤٨/٧ .

(٥) ينظر : الأمثل : ١٠/٩ .

(٦) ينظر : الكشف : ٥٣٦ ، مجمع البيان : ٣٦٦/٦ ، أنوار التنزيل : ٣٣٧/٢ ، البحر المحيط : ٣٦٦/٥ ، فتح القدير : ٨٨/٣ .

(١) ينظر : الكشف : ٩٢١ ، التفسير الكبير : ٣٧٥/٢٦ ، أنوار التنزيل : ١٠/٤ .

(٢) ينظر : البحر المحيط : ٣٧٤ / ٧ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٣٧٥ / ٢٦ ، إرشاد العقل السليم : ٥٥٧/٥ .

(٤) الميزان : ١٩٩/١٧ .

والطير وتسبيحهم لله تعالى بخلاف الوجه الأول الذي يفيد أن كلا من الجبال والطير أوّاب لله لأجل تسبيح داود -عليه السلام- .

دلالة وضع الظاهر موضع المضمّر

إنّ الأصل في الاسم أن يكون ظاهراً ، كما أنّ الأصل فيما يحدث عنه هو الإظهار، فإن احتيج إلى تكرير ذلك الاسم في جملة واحدة فالأصل - تبعاً لما هو شائع في أساليب اللغة وسنن كلامها - أن يذكر مضمراً للاستغناء عنه بالظاهر السابق^(٦٨٦) ، هذا هو الأصل ، وقد يأتي الكلام على خلاف هذا الأصل لأغراض دلالية كثيرة^(٦٨٧) وسنقتصر هنا على دلالة إظهار لفظ الجلالة (الله) في موضع الإضمار وأثره في سياق حمده جلّ وعلا وتسبيحه .

إنّ من أغراض وضع الظاهر موضع المضمّر قصد تعظيمه والاستلذاذ بذكره^(٦٨٨) وقد جاء من ذلك قوله تعالى في سياق الحمد : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت : ٦٣) .

لقد جاءت جملة الحمد وهي قوله تعالى (الحمد لله) في القرآن الكريم بإظهار لفظ الجلالة في مواضع ورودها جميعاً إذ لم يرد التعبير بـ (الحمد له) بالإضمار^(٦٨٩) وفي ذلك دلالة

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٢٨٤/٢ ، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٢٨٥/٢ ، الإتقان في علوم القرآن : ٢٤٤/٣ - ٢٤٩ ، معترك الأقران : ٢٧٤-٢٧٦ .
(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٤٨٥ / ٢ ، ٤٨٧ .

على قصد تعظيم الله تبارك وتعالى والاستلذاذ بذكره عند حمده ، لكن قد يقال : إنّ الأصل في (الحمد لله) الإظهار ؛ لأنّ لفظ الجلالة لم يذكر قبلا كي يضمّر فيما بعد . وهذا صحيح في مواضع كثيرة غير أنه لا يصحّ مثلا في الآية التي ذكرناها ؛ لأنّ لفظ الجلالة قد ذكر قبل جملة الحمد ، ولو كان ذلك في غير كتاب الله لجاز القول : (ليقولنّ الله قل الحمد له) بإضمار الاسم الظاهر الذي سبق ذكره ، ولكن : أين هذا الاستعمال من استعمال القرآن الكريم ؟! وأين دلالة الإضمار من بلاغة الإظهار ؟!

وبهذا يتضح أنّ إثارة الإظهار هنا يبقي جملة (الحمد لله) واردة بإظهار لفظ الجلالة في القرآن الكريم كله وإن أمكن إضماره في بعض المواضع ؛ وذلك للإشعار بعظمته تعالى والاستلذاذ بذكره ، زيادة على هذا فإنّ إظهار لفظ الجلالة في سياق الردّ على المشركين كما جاء في الآية يحمل دلالة أخرى وهي تربية المهابة وإدخال الروع في نفس السامع بذكر الاسم المقضي للحمد وهو الله ﷻ وعظم شأنه وعزّ اسمه .

ومن إظهار لفظ الجلالة في سياق الشكر ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢) .

قال السيد الطباطبائي في بيان دلالة إظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى (واشكروا لله) : " لم يقل : واشكروا لنا بل واشكروا لله ليكون أدلّ على الأمر بالتوحيد " (٦٩٠).

فإن قيل : قد جاء الأمر بالشكر بإضمار لفظ الجلالة غير مرة كقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا

لي﴾ (البقرة: من الآية ١٥٢) و﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ (العنكبوت: من الآية: ١٧) ، (سبأ: من الآية: ١٥) فما الفرق بين التعبيرين ؟ .

الجواب هو أنّ من وجوه الشكر في القرآن الكريم أن يكون بمعنى التوحيد^(٦٩١) ، والذي يظهر من كلام السيد الطباطبائي السابق أنّ المراد من الشكر في الآية هو التوحيد ، وإذا علمنا أنّ من أغراض وضع الظاهر موضع المضمّر التنبيه على علة الحكم^(٦٩٢) فإنّه سيّضح أنّ إظهار لفظ الجلالة في سياق هذه الآية لبيان أنّ علة الأمر بتوحيده جل وعلا هي

(٤) جاء إضمار لفظ الجلالة في جملة الحمد بتقديم الخبر (له) على المبتدأ (الحمد) فقط وذلك في أربعة مواضع هي : القصص : ٧٠ ، الروم : ١٨ ، سبأ : ١ ، التغابن : ١ .

(١) الميزان : ٤٣٤/١ .

(٢) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم عن هارون بن موسى القارئ : ١٢٤ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ١/ ٤٨٥ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٤٩٢/٢ ، معترك الأقران : ١/ ٢٧٦ .

أنه الله ؛ " فَإِنَّ الْأَلُوْهِيَّةَ مَنَاطٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ كَمَالِهِ " (٦٩٣) ، والتي من جملتها توحيده عز وجل عن الشريك ولعل توحيده تعالى أصل هذه الصفات لأنه جل اسمه ﴿ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (النساء : من الآية ٤٨) .

ومثلما حدّد سياق الآية دلالة إظهار لفظ الجلالة في الأمر بالشكر مع وجود آيات أخر جاء الأمر بالشكر فيها بالإضمار فإنّ السياق يحدّد أيضا دلالة إظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ مع وجود آيات أخر جاءت بالإضمار كقوله تعالى ﴿ سُبْحَنَهُ ﴾ و ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ .

ومما جاء بوضع الظاهر موضع المضمّر قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (القصص : ٦٨) .

فجاء لفظ الجلالة مظهرا مع إمكان أن يضمّر ؛ لأنه سبق ذكره تعالى بقوله (وربك) ، ولما تحمله الآية من معنى أثر في هذا الإظهار .

إنّ هذه الآية المباركة ترجع كلّ شيء إلى اختيار الله جل وعلا وتنفي عن غيره أن يكون له أيّ اختيار فوضع الظاهر وهو لفظ الجلالة موضع المضمّر " والنكتة فيه إرجاع الأمر إلى الذات المتعالية التي هي المبدأ للتنزّه والتعالي عن كلّ ما لا يليق بساحة قدسه فإنّه تعالى يتّصف بكلّ كمال ويتنزه عن كلّ نقص ؛ لأنه هو (الله) عزّ اسمه " (٦٩٤) .

وقد اتضح مما تقدّم بلاغة إظهار لفظ الجلالة في سياق حمد الله جلّ اسمه وتسبيحه وما يترتب على ذلك الإظهار من دلالة في سياق الآية التي يرد فيها . فسبحان الله سبحان الله من أسرار كتاب الله وخفاياه .

(٤) إرشاد العقل السليم : ٦٦٣/٤ .

(١) الميزان : ٩٦/ ١٦ .

معاني أبنية الأفعال ودلالاتها

يُعنى الصرف ببنية الكلمة ، إذ يعرض لأحوالها وتغيّراتها مما ليس بإعراب سواء أدّى هذا التغيّر إلى اختلاف المعاني أم لم يؤدِّ (٦٩٥) .

والمراد ببنية الكلمة " هيأتها التي يمكن أن يشاركها فيها غيرها، وهي عدد حروفها المرتبة ، وحركاتها المعيّنة ، وسكونها مع اعتبار الحروف الزائدة والأصلية كلّ في موضعه " (٦٩٦) .

وبدخل البحث في بنية الكلمة ضمن التغيّر الصرفي الذي يترتب عليه تغيّر المعاني (٦٩٧) ، فالأفعال مثلا تأتي " على صيغ مختلفة لضروب من المعاني نحو : ضَرَبَ وضَرَبَ وتَضَرَّبَ وتَضَارَبَ واضطربَ ، فالكلمة التي هي مركبة من ضاد وراء وباء نحو (ضَرَبَ) قد بنيت منها هذه الأبنية المختلفة لمعانٍ مختلفة " (٦٩٨) . ومن ثَمَّ جعل لكل صيغة من صيغ الأفعال معانيها التي حددها الصرفيون قديما وحديثا (٦٩٩) .

قسّم الصرفيون الفعل بحسب أصول بنائه على مجرد ومزید ، " فالمجرد : ما كانت حروفه أصلية لا يسقط حرف منها في تصاريف الكلمة بغير علة . والمزید : ما زيد فيه حرف أو أكثر على حروفه الأصلية " (٧٠٠) .

ولكلٍ من المجرد والمزید نوعان هما : الثلاثي والرباعي (٧٠١) ، أي أنّ الفعل

(١) ينظر : التصريف الملوكي ، ابن جني : ٣ ، الممتع في التصريف ، ابن عصفور الأشبيلي : ٣١/١ ، ٣٢ ، الصرف الوافي ، د. هادي نهر : ٢٢ .

(٢) شرح شافية ابن الحاجب ، رضي الدين الاستراباذي : ٢/١ .

(٣) ينظر : علم الدلالة ، د. أحمد مختار عمر : ١٣ ، اللغة العربية معناها ومبناها : ٨٢ ، ٨٣ ، علم الدلالة دراسة وتطبيقا : ٨٤ .

(٤) الممتع في التصريف : ٣١/١ .

(٥) تنتظر هذه المعاني في : شرح شافية ابن الحاجب : ٨٣-١١٢ ، عمدة الصرف ، كمال إبراهيم : ١٦-٥٢ ، المهذب في علم التصريف ، د. هاشم طه شلاش وآخرون : ٥٦-١٠٠ ، الصرف الوافي : ٢٢١-٢٢١ .

(٦) شذا العرف في فن الصرف ، أحمد الحمالوي : ١٨ ، وينظر : أبنية الصرف في كتاب سيبويه ، د. خديجة الحديثي : ٣٧٧ ، موجز التصريف ، د. عبد الهادي الفضلي : ١١٠ .

على أربعة أقسام : ثلاثي مجرد ، وثلاثي مزيد ، ورباعي مجرد ، ورباعي مزيد^(٧٠٢).

وقد أُملي علينا ورود الأفعال في سياق الحمد والتسبيح أنْ نقتصر على الفعل الثلاثي بنوعيه المجرد والمزيد ، على أننا لن نستوفي أمثلة هذين النوعين استيفاء تاماً بل نذكر منها ما ورد في سياق الآيات التي ندرسها فقط .

ونبدأ بأبنية الثلاثي المجرد التي من أشهرها بناء (فَعَلَ) بفتحتين ، وله بحسب عينه في المضارع ثلاثة أوزان هي : (يَفْعُل) بضم العين و(يَفْعَل) بفتحها و(يَفْعِل) بكسرها^(٧٠٣).

ويرى الصرفيون أنْ بناء (فَعَلَ) قد استعمل لمعانٍ كثيرة لا تحصى^(٧٠٤) ؛ وذلك لخفته فإنه " لم يختص بمعنى من المعاني بل استعمل في جميعها ؛ لأنَّ اللفظ إذا خفَّ كثر استعماله واتسع التصرف فيه " ^(٧٠٥) . ومن المعاني التي ذكرت لبناء (فَعَلَ) معنى الإعطاء أو المنح^(٧٠٦) .

وقد حمل هذا المعنى الفعل (وَهَبَ) في سياق الحمد ، قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ

لِي عَلَى الْكَبْرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (إبراهيم : من الآية : ٣٩) .

ودلالة هذا المعنى في سياق الحمد أنه يعدّ السبب في حمد إبراهيم -عليه السلام- لله تعالى ؛ لأنه -عليه السلام- حمد الله جلّ وعلا ؛ لأنه منحه الذرية بعدما حلّ به الكبر .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ

الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (الأنعام : من الآية ١) فمعنى (خلق) السماوات والأرض " اخترعهما بما

(٧) ينظر : كتاب المفتاح في الصرف ، الشيخ عبد القاهر الجرجاني : ٣٦ ، التطبيق الصرفي ، د. عبده الراجحي : ٢٤ .

(١) ينظر : نزهة الطرف في علم الصرف ، السيد محمد تقي الجلاي : ٣٧ ، تصنيف الأفعال ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، ملحق مطبوع مع شرح ابن عقيل : ٢٥٩/٢ ، الإمام في الصرف العربي ، د. زين كامل الخويسكي : ٤١ ، ٤٤ .

(٢) ينظر : كتاب التكملة ، أبو علي الفارسي : ٥٠٨ ، دقائق التصريف ، القاسم بن محمد بن سعيد المؤدب : ٣٩٢ ، نزهة الطرف في علم الصرف ، أحمد بن محمد الميداني : ٨ ، أبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٣٧٨ ، أوزان الفعل ومعانيها ، د. هاشم طه شلاش : ٢١ .

(٣) ينظر : شرح الاشموني على ألفية ابن مالك ، الاشموني : ٦٤/٤ ، عمدة الصرف : ١٦ ، ١٧ ، الصرف الوافي : ٢١٧ ، الأبنية الصرفية في الكشف للزمخشري (رسالة) ، أسيل عبد الحسين حميدي : ٤١٠-٤١٦ .

(٤) شرح شافية ابن الحاجب : ٧٠/١ ، وينظر : دروس التصريف ، محمد محيي الدين عبد الحميد : ٦٢ .

(٥) ينظر : الاشتقاق ، عبد الله أمين : ١٨٣ ، عمدة الصرف : ١٦ .

اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة " (٧٠٧) أي : منحهما الوجود وهذا ما يستحق الله جلّ وعلا أن يحمد عليه ؛ لأنه من نعمه .

ولا يبعد أن يحمل هذا المعنى أيضا الفعل (جَعَلَ) في الآية ودلالته في الحمد أنه تعالى يحمد ؛ لأنه أنشأ الظلمات والنور وأحدثهما (٧٠٨) ، ولا شك في أن ذلك من نعمه عز وجل أيضا .

وبهذا المعنى كذلك ورد الفعل (رزق) في سياق الشكر ؛ ليدل على أنه تعالى مانح النعم التي يجب على العباد شكرها ، قال تعالى : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الأنفال

: من الآية ٢٦) وكذلك الفعل (عفا) قال تعالى: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

﴾ (البقرة : من الآية ٥٢) . فالآية تخاطب بني إسرائيل بعد أن اتخذوا العجل إلها من دون الله بأنّ الله تعالى منحكم العفو من بعد ارتكابكم هذا الأمر العظيم لعلكم تشكرون نعمة العفو عنكم (٧٠٩) .

وقيل : إنّ المعنى : تركنا معاجلتكم بالعقاب من بعد اتخاذكم العجل (٧١٠) وعلى هذا فإنّ بناء (فَعَلَ) يكون قد حمل معنى الترك أو المنع وهو من معانيه التي ذكرت له (٧١١) غير أنّ دلالة (فَعَلَ) على المعنيين واحدة في بيان نعمة الله التي يجب شكرها ؛ لأنه لا فرق بين منحهم العفو ومنع العقوبة عنهم .

ومما هو جدير بالذكر أنّ معنى الإِطْعَاء والمنح لبناء (فَعَلَ) قد كثر وروده في سياق الحمد والشكر (٧١٢) ، ومرجع ذلك إلى أنّ الله تعالى هو الخالق والواهب والمُعْطِي والمَانِح للنعم التي يلزم علينا أن نحمده عليها .

ومما ورد بهذا المعنى في سياق التسبيح الفعل (خلق) قال تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ

الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: ٣٦) ودلالته في سياق

(١) مجمع البيان : ٣٤٢/٤ .

(٢) ينظر : الكشف : ٣١٨ ، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين النيسابوري : ٤٧ / ٣ .

(٣) ينظر : الكشف : ٧٦ .

(٤) ينظر : مجمع البيان : ١٤٠/١ .

(٥) ينظر : عمدة الصرف : ١٦ ، الأبنية الصرفية في ديوان امرئ القيس (أطروحة) ، صباح عباس السالم : ٢٩٤ .

(٦) ينظر - غير ما ذكرنا مثلاً - : الفعل (هدى) في (البقرة : ١٨٥) ، (الأعراف : ٤٣) والفعل (جعل) في (الأعراف :

١٠) ، (النحل: ١٤) ، (الحج: ٣) ، (القصص: ٧٣) (الملك: ٢٣) والفعل (زاد) في (إبراهيم : ٧) والفعل (خلق) في (لقمان : ٢٥) .

التسبيح أن الله عز وجل الذي منح الأصناف والأشكال من الأشياء الحياة بخلقها وجعلها أزواجاً مما نعلم ومما لا نعلم حقيق بأن ينزهه ويبرأ عن كل سوء^(٧١٣).

ومن المعاني التي ذكرت لبناء (فَعَلَ) معنى الامتلاء^(٧١٤) ، وقد جاء بهذا المعنى الفعل (شكر) ؛ لأنَّ أصل الشكر - على ما قيل - هو الامتلاء والغزر من الشيء يقال : حلوبة شكرة إذا أصابت حظاً من بقل أو مرعى فيغزر لبنها بعد قلته ويمتلئ ضرعها منه ويقال أيضاً : عين شكرى أي ممتلئة^(٧١٥) " فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم " ^(٧١٦) ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان : ١٢) وقال تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (النحل : من الآية ١١٤) وقال تعالى : ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ (سبأ من الآية : ١٥) .

فهذه الآيات تأمر العباد بأن يديموا ذكر الله وشكره على ما أنعم عليهم ، ولا يعني الامتلاء من ذكر المنعم أن ذكره يصل إلى حد لا يقبل الزيادة كما هو معنى الامتلاء في المجالات المادية بل معنى الامتلاء هنا هو الاشتغال الدائم بشكره تبارك وتعالى ؛ لأنَّ نعمه جل وعلا على عباده لا تحصى قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : من الآية ٣٤) وهم عاجزون عن شكرها غير أن من شُكِرَ النِّعَمَ ذَكَرَهَا الدالُّ على تعظيم المنعم بها^(٧١٧) وقد قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى : ١١) ، على أنَّ الاشتغال بالشكر والاستمرار عليه يقودنا إلى معنى آخر لبناء (فعل) وهو معنى الإكثار الذي ذكر ضمن معاني هذا البناء أيضاً^(٧١٨) وهو قريب من معنى الامتلاء ، لأنَّ الامتلاء من ذكر الله والاستمرار على شكره إكثار له وهو إكثار وليس كثرة ، أي إنَّ العبد يكثر شكره لله تعالى إكثاراً لا أن شكره كثير بل هو ضئيل موازنة بنعم الله وأفضاله فلا يعبر عن شكر العبد لله جل وعلا بأنه كثر كثرة فأتى له الكثرة أمام نعم لا تعد ولا تحصى؟! .

(١) ينظر : مجمع البيان : ٥٧٤/٨ .

(٢) ينظر : الأبنية الصرفية في ديوان امرئ القيس (اطروحة) : ٢٩٤ .

(٣) ينظر : كتاب العين : ٢٩٢/٥ ، معجم مقاييس اللغة : ٢٠٧/٣ ، لسان العرب : ٤٢٤/٤ .

(٤) مفردات ألفاظ القرآن : ٤٦١ ، وينظر : بصائر ذوي التمييز : ٣٣٤/٣ .

(٥) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ٣٣٩/٣ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٤٩١/٢ .

(١) ينظر : الأبنية الصرفية في الكشف للزمخشري (رسالة) : ٤١٢ .

ونختم معاني (فَعَلَ) بما أفاده من معنى الرجوع^(٧١٩) في سياق التسبيح ، قال تعالى :
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف : ١٤٣) .

إنّ هذه الآية تبين أنّ رؤية الله تعالى بالبصر أمر ممتنع محال ، وأنه مما لا يليق بجلالة قدسه جل وعلا ؛ لأنه منزّه عن أن تراه العيون^(٧٢٠) . كما قال تعالى عن ذاته المقدسة : ﴿لَا

تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ ﴾ (الأنعام : من الآية ١٠٣) وما أبدع قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - في بيان ذلك قال : " الحمد لله الذي بَطَّنْ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ وَامْتَنَعَ عَنْ عَيْنِ الْبَصِيرِ فَلَا قَلْبَ مَنْ لَمْ يَرِهِ يَنْكَرُهُ وَلَا عَيْنَ مَنْ أَثْبَتَهُ تَبَصَّرَهُ " ^(٧٢١) . فلما عرف موسى - عليه السلام - استحالة رؤيته تعالى نزّهه عما لا ينبغي له فقال : سبحانك تبت إليك فالفعل (تاب) قد أفاد معنى الرجوع عن طلب ما لا يليق بالله جلّ وعلا ، وقد ذكر الزمخشري أنّ موسى - عليه السلام - أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز وبتعالیه وتنزّهه عن الرؤية ، غير أنه طلب الرؤيا لبيّكت الذين طلبوا رؤيته تعالى من الكافرين الذين قالوا : ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (البقرة : من الآية ٥٥) فأراد أن يسمعهم النص من عند الله تعالى باستحالة ذلك^(٧٢٢) .

ثم قال : " فإن قلت : فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته فمّمّ تاب ؟ قلت : من إجرائه تلك المقالة العظيمة - وإن كان لغرض صحيح - على لسانه من غير إذن فيه من الله

(٢) ينظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها .
(٣) للتفصيل في هذا الموضوع ينظر : الاحتجاج ، الشيخ أبو منصور الطبرسي : ١٢٢/١ - ١٢٣ ، ٢١٦/٢ ، عقائد الإمامية ، الشيخ المظفر : ٣٢ ، ٣٣ ، العقائد الإسلامية ، السيد محمد الشيرازي : ٤٩ - ٥١ ، رؤية الله بين التنزيه والتشبيه ، إعداد لجنة البحوث والدراسات في المجمع العالمي لأهل البيت - عليهم السلام - .
(٤) نهج البلاغة : ١٢٢/١ ، وقد ذكرت الرواية التي ذكرها الشارح في الهامش وقال : إنها أليق من رواية المتن وأنا أوافق في ذلك ، ورواية المتن " فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبتّه يبصره " ويبدو لي أنّ اختيار الشارح للرواية الأخرى في كلام الإمام - عليه السلام - يرجع إلى أنّ ظاهر قوله " ولا قلب من أثبتّه يبصره " يتعارض مع ما يعرفه العلماء وعامة الناس من أن الله لا يعرف بالعين بل بالعقل والقلب وهذا ما ورد عن أهل البيت - عليهم السلام - قال الإمام الباقر - عليه السلام - : " لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رآته القلوب بحقائق الإيمان " ينظر : أصول الكافي : ١١٩/١ ، غير أنّ الشارح ذكر لرواية المتن توجيهها وهو أنّ معنى العبارة " ومن أثبتّه لا يستطيع اكتناه حقيقته " نهج البلاغة : ١٢٣/١ (الهامش) .
(١) ينظر : الكشف : ٣٨٥ ، رؤية الله بين التنزيه والتشبيه : ٧٦ ، ٧٧ .

تعالى ، فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية ، وكيف أرجف الجبل بطالبيها وجعله دكا ، وكيف أصعقهم ولم يخل كلمه من نفيان ذلك مبالغة في إعظام الأمر وكيف سبّح ربّه ملتجئاً إليه وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه " (٧٢٣) .

فالفعل (تاب) يدل على الالتجاء إلى الله تعالى والرجوع عمّا لا ينبغي في حقه لاسيما أنّ من معاني التوبة الرجوع وهو ترك الذنب وترك المعاودة له^(٧٢٤) ودلالة ذلك في سياق التسبيح أنّ الرجوع عمّا لا ينبغي في حق الله جلّ وعلا ، وترك المعاودة له تنزيه له تعالى عن ذلك ، ومن ملاءمة هذا المعنى لتسبيح الله عز وجل أنّ التسبيح يحمل معنى الرجوع إلى الله تعالى ، قال السيد محمد تقي المدرسي : " إنّ التسبيح يجعلنا فجأة أمام الله ، إذ إنه ينفي عن أذهاننا المخلوقين فيظهر الخالق ؛ ولأنه من جهة أخرى يحلّ عقدة مستعصية من نفس البشر ، وهي العادة على تحديد الأشياء ؛ لأن النفس البشرية مخلوقة ، من طبيعتها التحديد فلما تقف أمام الله وتعجز عن التحديد تتورط في الشبهات العقيمة ، كيف ؟ وأين ؟ وماذا ؟ بل حتى لماذا ؟ وتريد أن تُخضع الله لمقاييس الخلق ، فتضل ضلالاً بعيداً ، وهنا تأتي كلمة (سبحان الله) لتنفذ البشر مرة واحدة من ورطته الكبيرة وتقول له: إنك أمام خالق المخلوقات ، حيث تعجز الألفاظ وتنهار الحدود وتتحسر المعارف البشرية الساذجة ، وهكذا يحاول معرفة الله من جديد " (٧٢٥) .

وفي ضوء ذلك يتّضح أنّ الرجوع إلى الله من أهم مصاديق تنزيهه تعالى فحين تجول النفس بأوهامها وتتورط بشبهاتها وتبتعد عن الله عز وجل فإنه لا يرجعها إليه إلا تسبيحه تبارك وتعالى ؛ لأنّ فيه تنزيهه وتبرئته من تلك الأوهام والشبهات .

بهذا نكون قد تعرفنا معاني بناء (فعل) ودلالاتها في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه .

وجدير بالذكر أنّ الدكتور هاشم طه شلاش يرى أنّ كثيراً من المعاني التي ذكرت لوزن (فعل) تمثل معاني الألفاظ أنفسها وليس معاني الوزن ؛ لأنّ في معنى الوزن زيادة لم تكن موجودة في اللفظة ، فمعنى الجمع مثلاً في نحو : حشد وحشر وجمع ومعنى الطلب في نحو : طلب وسأل ومعنى المنع في نحو : حبس ومنع إنما يفهم من معنى اللفظ فحسب^(٧٢٦) فهو لا لا يرى أنّ هذه معاني تذكر لبناء (فعل) وهذا ما ينطبق أيضاً على ما ذكرنا من معاني (فعل) في سياق الحمد والتسبيح فمعنى الإعطاء أو المنح إنما يفهم من (رزق) مثلاً ومعنى الرجوع إنما يفهم من (تاب) وهكذا ، وهذا صحيح غير أنه لا يمنع من أن تذكر هذه المعاني لبناء (فعل) وإن فهمت من ألفاظ الأفعال التي جاءت على هذا البناء ؛ لأنّ مناط البحث عن

(٢) الكشف : ٣٨٦ .

(٣) ينظر : إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي : ١٣ ، ١٢/٤ .

(١) بحوث في القرآن الكريم ، السيد محمد تقي المدرسي : ٧٩ ، ٨٠ ، والمراد من التعبير بـ (مرة واحدة) أنّ الإنقاذ يعم البشر جميعهم .

(٢) ينظر : أوزان الفعل ومعانيها : ٤٢ .

أغلب معاني أبنية الثلاثي المجرد - فيما أحسب - هو ما جاء من المعاني على هذا البناء وليس دلالة الوزن على المعنى وإلا فقد ذكر الصرفيون - مثلاً - أنَّ الألوان والعيوب كلها تجيء على بناء (فعل) وأنَّ الطبائع والغرائز تجيء على بناء (فعل) ^(٧٢٧) فهل معنى الحمرة مثلاً في نحو : (حمر) ، والعور في نحو : (عور) قد دلَّ عليه وزن (فعل) بفتح الفاء وكسر العين ؟ وهل معنى الكرم مثلاً في نحو (كرّم) والشرف في نحو (شرف) قد دلَّ عليه وزن (فعل) بفتح الفاء وضم العين؟! لا ريب في أنَّ هذه المعاني مأخوذة من ألفاظ الأفعال لا من أوزانها إذن ليس الأمر سوى أنَّ هذه المعاني جاءت على هذه الأبنية ، وكذا الحال في المعاني التي تذكر لبناء (فعل) وليس ما يختلف فيه هذا البناء عن البناءين الآخرين من أبنية الثلاثي المجرد سوى أنَّ المعاني التي جاءت على هذا البناء لا تكاد تحصى . أما دلالة الوزن على هذا المعنى فغالباً ما تكون في أبنية المزيد من الثلاثي وغيره وهو ما قد يندرج ضمن ما هو مشهور من أنَّ الزيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى كما سيوضح - إن شاء الله تعالى - فيما نعرض له من أبنية الثلاثي المزيد .

إنَّ الثلاثي المزيد قد يكون مزيداً بحرف أو بحرفين أو بثلاثة ، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة أبنيته ^(٧٢٨) . فمن أبنية الثلاثي المزيد بحرف بناء (أفعل) المزيد بالهمزة ، ومن المعاني التي يفيدها هذا البناء التعدية " وهي أن يجعل ما كان فاعلاً لازماً مفعولاً لمعنى الجعل فاعلاً لأصل الحدث على ما كان ، فمعنى (أذهب زيداً) جعلت زيدا ذاهباً ، فزيد مفعولٌ لمعنى الجعل الذي استفيد من الهمزة ، فاعل للذهاب كما كان في (ذهب زيد) " ^(٧٢٩) .

ويفهم من هذا أنَّ تعدية الفعل بالهمزة تختلف عن تعديته في أصل الوضع إذ إنَّ مفعول الفعل المتعدي بالهمزة هو الفاعل الحقيقي للحدث كما كان مع الفعل اللازم في حين أنَّ مفعول الفعل المتعدي في أصل وضعه هو ما وقع عليه فعل الفاعل ^(٧٣٠) . ويتضح من ذلك أنَّ تعدية الفعل بالهمزة تأتي لغرض دلالي يصير من أجله الفاعل الحقيقي للحدث مفعولاً به وهو ما يشعر بأنَّ فاعل (أفعل) المعدى بالهمزة الذي صيّر الفاعل الحقيقي للحدث مفعولاً به ، له فضل تمكن وقدر على ذلك، إذ لا شك في أنَّ الذي يجعل زيدا يذهب بعد أن كان يذهب بنفسه له القدرة والفضل والتسبب في هذا الإذهاب وهذا ما دلَّ عليه بناء (أفعل) في سياق

(٣) ينظر : شرح شافية ابن الحاجب : ٧١/١ ، ٧٤ ، الاشتقاق : ١٨٤ ، تصريف الأفعال : ، ملحق بشرح ابن عقيل : ٢/ ٢٦١ ، الصرف الحديث في بيان القرآن والحديث ، أحمد أمين الشيرازي : ٢٤ ، ٢٦ .

(١) ينظر : كتاب التكملة : ٥١٥ ، شذا العرف : ٢٥ ، ٢٦ ، الاشتقاق : ١٨٨ ، المذهب في علم التصريف : ٨٠ - ٨٨ ، أبنية الأفعال في العربية ، أحمد محمد الشيخ : ٥١ - ٦٦ .

(٢) شرح شافية ابن الحاجب : ٨٦/١ ، وينظر : كتاب فصل الخطاب في أصول لغة الإعراب ، الشيخ ناصيف اليازجي : ١٧ .

(٣) ينظر : معاني الأبنية في مجمع البيان (رسالة) ، نسرین عبد الله الزجراوي : ١٠٧ .

الحمد والتسبيح الذي أفاد أنّ الله تبارك وتعالى هو مصدر النعم والسبب الحقيقي فيها وله الفضل والمنة على عباده بها .

ومما ورد في سياق الحمد من هذا البناء ما جاء في قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ

عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ﴾ (الكهف: ١) .

إنّ إنزال القرآن الكريم نعمة لا تضاهيها نعمة ؛ لأنه نور الله في أرضه وصراطه المستقيم ومعجزة النبوة الخالدة الذي أتاح لها إعلاء كلمة التوحيد ونشرها في الآفاق ، وقد ذكرت هذه الآية حمد الله تعالى على ما أنعم به من إنزال القرآن الكريم وجاء الفعل (أنزل) متعديا بالهمزة ، وهو في أصل وضعه لازم نحو: نزل المطر ، ومعنى التعدية في هذا البناء يشعر بأن الله مصدر هذه النعمة وسببها ، مما يكون أبلغ في الحمد وأدعى له كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (البقرة : من الآية : ٢٣١)

ولعل هذا المعنى هو السرّ في تقديم (أنزل) على (نزل) في قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ

وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء: من الآية ١٠٥) أي أنه تعالى قدّم ذكر ما يشعر بأنه مصدر النعمة

وسببها على ذكر النعمة نفسها فقدم إنزال القرآن الكريم على نزوله ولعل الزمخشري قد أشار إلى هذا المعنى عندما ذكر أحد أوجه المعنى في الآية بقوله : " أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظا بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول إلا محفوظا بهم من تخليط الشياطين " (٧٣١) إذ إنّ إنزال القرآن الكريم من السماء سابق على نزوله على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، لاسيما أنّ معنى (وبالحق أنزلناه) هو بيان أنه جلّ وعلا أنزل القرآن الكريم ؛ ليأمر الناس بالعدل والإنصاف والصفات الحميدة فاختصت صيغة (أنزل) بهذا

المعنى وأن معنى (وبالحق نزل) هو أن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه - ﷺ

﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ محتويا هذه الأمور من فنون الحق (٧٣٢) .

وأود الإشارة هنا إلى أمر مهم وهو أنه إذا قال قائل : هل بناء (نزل) الذي يعني نزول القرآن لا يدل على أنه تعالى مصدر هذا النزول وسببه كما دل بناء (أنزل) على أنه جل

(١) الكشف : ٦١٠

(١) ينظر : تفسير التبيان : ٥٣٠/٦ ، التنوع في الخطاب القرآني ، دراسة أسلوبية (اطروحة) ، أنمار علي ياسين الغالي : ٧٨ ، ٧٧ .

وعلا مصدر الإنزال وسببه ، لاسيما أنّ فاعل (نزل) وهو القرآن يسمى - كما مرّ - الفاعل الحقيقي للحدث ؟ فالجواب - فيما يبدو - هو أنّ المراد من (الفاعل الحقيقي للحدث) لا يمكن أن يتعدى إطار البحث اللغوي أو المعايير اللغوية في النحو والصرف ، والمقصود به - وفاقا لهذه المعايير - في مثل هذه الجملة هو من قام بالفعل ، وواضح أنّ القرآن لم يقم هو بالنزول ، وإنما أنزله الله تعالى ويترتب على هذا أنّ (أنزل) و(نزل) كليهما - في حقيقة الأمر - يدلان على أنه تعالى المنعم بنعمة القرآن الكريم ، ومرجع ذلك إلى أنّ الله تعالى هو مصدر الوجود وخالق كل شيء ، وما سواه مخلوق له ومفتقر إليه . وإذا كان الأمر كذلك فما معنى أن تكون (أفعل) للتعدية إذن ؟ الجواب هو أنّ ذلك محكوم بمعايير النحو والصرف - كما ألمعنا - ولا نعدم فيه دلالة في الكلام فمعنى : أنزل الله القرآن - بحسب هذه المعايير - يختلف عن معنى : نزل القرآن فالفاعل في الجملة الأولى هو لفظ الجلالة وفي الجملة الثانية هو القرآن فبناء (أفعل) يشير أو يوحي بأنّ الله تعالى هو مصدر هذه النعمة وسببها ، وهو ما ذكرناه من دلالة معنى التعدية في بناء (أفعل) في سياق الحمد .

وهذا - من حيث المعنى - يشبه إلى حد كبير معنى المطاوعة في بناء (انفعل) في نحو : انقطع الحبل ، تقول : قطعت الحبل فانقطع ، فيصير فاعل (انقطع) إلى مثل حال الفاعل الذي يصح منه الفعل وهو ليس كذلك ؛ لأنه لا قدرة له بنفسه على الانقطاع وإنما أردت أنت ذلك منه فبلغته بما أحدثته فيه لا أنه تولّى الفعل بنفسه ؛ لأنّ الفعل لا يصح من مثله^(٧٣٣) فكما أنّ (الحبل) - من حيث معايير النحو والصرف - فاعل وهو في الحقيقة ليس بفاعل فإنّ القرآن في : نزل القرآن ، فاعل - وفاقا لهذه المعايير - وهو ليس بفاعل في الحقيقة وهذا لم يمنع من أن يكون لبناء (انفعل) دلالاته وأن يكون لمعنى التعدية في بناء (أفعل) دلالاته أيضًا .

وما قيل في دلالة التعدية في الفعل (أنزل) يقال أيضا في الفعل (أذهب) الذي ورد في سياق حمد أهل الجنة لله جل وعلا قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ (فاطر : من الآية ٣٤) فالأصل في (أذهب) اللزوم نحو : ذهب زيد وقد عُدّي بالهمزة المزيدة في بناء (أفعل) للإشارة إلى أنّ الله تعالى هو من أذهب عنهم الحزن فله الحمد على ذلك .

ومن دلالة معنى التعدية لبناء (أفعل) في سياق الشكر ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ

الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (المؤمنون : ٧٨) فالفعل (أنشأ) مزيد بهمزة التعدية واللازم منه (نشأ) ، ومعنى التعدية فيه يشعر بأنّ الله تعالى - لا غيره -

(٢) ينظر : الممتع في التصريف : ١٩٠/١ ، معاني الأنبياء في مجمع البيان (رسالة) : ١٣٢ ، ١٣٣ .

من أنعم على عباده بخلق هذه الحواس ، لاسيما أنّ هذه الآية جاءت في سياق الرد على منكري التوحيد فيكون التصريح بذكر فاعل الإنشاء عن طريق التعدية أبلغ في وضوح آياته ، وتقدير نعمه تعالى وأدعى للإقرار بربوبيته ؛ لأنّ مقدمة شكر النعم الإقرار بالمنعم بها^(٧٣٤) .

ومن المعاني التي ذكرت لبناء (أفعل) أنها تفيد معنى " الوصول كقولك : أغفلته ، أي : وصلت غفلتي إليه " ^(٧٣٥) .

وقد جاء بهذا المعنى في سياق الشكر الفعل (أنعم) ، قال تعالى : ﴿فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّنْ

قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ (النمل : من الآية

١٩) إذ لا ريب في أنّ نعم الله علينا واصله منه تعالى إلينا ، وقد حمل بناء (أفعل) هذا المعنى فالقائل في هذه الآية هو نبي الله سليمان -عليه السلام- الذي قال هذا الكلام بعد أن سمع كلام النملة فتبسم سرورا بما آتاه الله من نعمة إدراك منطق الحيوان أي أنه شعر بوصول نعم الله إليه فطلب منه تعالى أن يوزعه شكرها بأن يجعله مرتبطا بالشكر لا ينفلت عنه حتى لا ينفك شاكرًا له^(٧٣٦) .

ومما جاء في بناء (أفعل) في سياق التسبيح الفعل (أسرى) في قوله تعالى : ﴿سُبْحَنَ

الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ (الإسراء : من الآية ١) وفي هذا الفعل ثلاثة آراء :

الأول : أنّ (أسرى) و(سرى) بمعنى واحد^(٧٣٧) واستشهد لذلك أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) بقول امرئ القيس :

سريت بهم حتى تكل مطيهم وحتى الجياد ما يُعَدْن بأرسان^(٧٣٨)

وقول النابغة الذبياني : أسرت عليه من الجوزاء سارية^(٧٣٩) .

(١) ينظر : الكشف : ٧١٣ .

(٢) الممتع في التصريف : ١٨٨/١ ، وينظر : المُبدع في التصريف ، أبو حيان الأندلسي : ١١٢ .

(١) ينظر : الكشف : ٧٧٩ ، مجمع البيان : ٢٧٩/٧ .

(٢) ينظر : أدب الكاتب ، ابن قتيبة : ٢٩٥ ، فصيح ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب : ٢١ ، ٢٢ ، مجمع البحرين ومطلع النيرين ، الشيخ فخر الدين الطريحي : ٢١٦/١ .

(٣) رواية الديوان : مطوت بهم حتى تكل مطيهم وحتى الجياد ما يُقَدْن بأرسان .

ينظر : ديوان امرئ القيس : ١٧٥ ، وليس فيه استشهاد على رواية الديوان . والأرسان : جمع الرّسن وهو الحبل ويُجمع أيضا على أرْسُن ، ينظر : لسان العرب : ١٨٠/١٣ .

إذ لم يقل : مُسرية ؛ لأنها لا اختلاف بينهما^(٧٤٠) .

فـ(أسرى) و(سرى) كأَمْحَضَ وَمَحَضَ^(٧٤١) أي ليست الهمزة فيه للتعدية وقد عُذِّي في الآية بالباء وهذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين^(٧٤٢) ، وقد ورد الاستعمالان في القرآن الكريم فمن (أسرى) قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ (الشعراء : من الآية ٥٢) ومن (سرى) قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلَ إِذَا يَسَّرِ ﴾ (الفجر : ٤) .

والمعنى على هذا الرأي : سبحان الذي سِيرَ عبده محمدا - ﷺ - إذ هو من عجيب قدرة الله تعالى وفيه تنزيه له عز وجل عن الشريك وتعجيب ممن أشرك به غيره ، ومعنى التعجب هنا هو أن الله جل وعلا يَسْبَحُ له عند رؤية المتعجب منه^(٧٤٣) .

والرأي الثاني : ما ذهب إليه ابن عطية وهو أن (أسرى) معدى بالهمزة إلى مفعول محذوف والتقدير : سبحان الذي أسرى الملائكة بعبد ، فهو لا يرى أن يُسند الفعل (أسرى) وهو بمعنى (سرى) إلى الله تعالى ؛ لأنه فعل يعطي معنى النقلة كمشى وجرى^(٧٤٤) فابن عطية

يعتقد أن (أسرى) إذا كانت بمعنى (سرى) أثبتت السير للنبي - ﷺ - عليه السلام - والله جل وعلا أيضا وهو منزّه تعالى عن ذلك وقد دفعه هذا الاعتقاد إلى أن يتأول ما يفيد بأن الفعلين بمعنى واحد ، فهو يحتمل أن يكون (أسرى) بمعنى (سرى) ولكن على حذف مضاف ، يعني أن يكون التقدير : أسرت ملائكته بعبد^(٧٤٥) .

ولم يلق ما ذهب إليه ابن عطية قبولا لدى المفسرين^(٧٤٦) وقد ردّ عليه أبو حيان (ت: ٧٤٥هـ) وذكر أنه التبست عنده باء التعدية بباء الحال فظن أن الباء في (بعبد) تلزم مشاركة الفاعل للمفعول وهي ليست كذلك ؛ لأنها باء التعدية لا باء الحال التي يلزم فيها المشاركة فإذا قلت : قمت بزيد كان المعنى : قمت ملتبسا بزيد أما باء التعدية فهي مرادفة

(٤) رواية الديوان : سرت عليه من الجوزاء سارية تُزجي الشمال عليها جامد الزرد ينظر : ديوان النابغة الذبياني : ٣١ ، وعلى رواية الديوان يسقط وجه الاستشهاد ، والجوزاء : نجم يقال إنه يعترض في جوز السماء أي : وسطها ، وهو من بروج السماء ، ينظر : لسان العرب : ٣٢٩/٥ .
(٥) ينظر : فعلت وأفعلت ، أبو حاتم السجستاني : ١٠١ .
(٦) ينظر : الصاحبى في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، أحمد بن فارس : ١٦٩ .
(٧) ينظر : الكشف : ٥٨٩ ، مجمع البيان : ٥١٢/٦ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٤٤٠/١ ، البحر المحيط : ٥/٦ .
(١) ينظر : مجمع البيان : ٥١٢/٦ .
(٢) ينظر : المحرر الوجيز : ٢/٩ ، ٣ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه : ٣/٩ ، ٤ .
(٤) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ٤٤٠/١ : ٤٨/١٦ .

للهمزة فوقك : قمت بزيد والباء للتعدية كقولك : أقمت زيدا ولا يلزم من إقامتك أن تقوم أنت^(٧٤٧) .

والرأي الثالث : أن (أسرى) ليست من (سرى - يسرى) وإنما هي من السَّراة وهي الأرض الواسعة وأصله من الواو ، وأسرى نحو أجبل^(٧٤٨) أي إن (أفعل) على هذا الرأي تفيد معنى الدخول في المكان الذي هو أصله نحو : أجبل إذا وصل إلى الجبل^(٧٤٩) فـ(أسرى) بمعنى وصل إلى السَّراة والمعنى على هذا الرأي: سبحان الذي ذهب بنبيّه - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى سراة من الأرض .

وأحسب أنّ الرأي الأول هو الأرجح في سياق التسييح ؛ لأنه أدل على التعجب من قدرة الله تعالى وتنزيهه عن أن يشاركه فيها غيره وهو ما عليه أغلب المفسرين كما ذكرنا .

ومن أبنية الفعل الثلاثي المزيد بحرف بناء (فعل) بتشديد العين ومن أشهر معانيه التكرير في الفعل وقد أشار سيبويه إلى ذلك بقوله : " تقول كسرتها وقطعتها فإذا أردت كثرة العمل قلت : كسّرتها وقطعته " ^(٧٥٠) وجاء في المنصف : " اعلم أنّ (فعلت) أكثر ما يكون لتكرير الفعل نحو : قطّعت وكسّرت ، وإنما تخبر أنّ هذا فعل وقع منك شيئاً بعد شيء على تطاول الزمان " ^(٧٥١) . وتدخل إفادة (فعل) معنى التكرير ضمن ما اشتهر من أنّ الزيادة في المبنى تؤدي إلى الزيادة في المعنى " ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل فقالوا : كسّر وقطّع وفتح وغلق ، وذلك أنهم لمّا جعلوا الألفاظ دليلاً المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل " ^(٧٥٢) .

وفرقت نسرين الزجراوي بين معنى التكرير ومعنى المبالغة في بناء (فعل) وذهبت إلى أنه قد يدل على التكرير وحده أو المبالغة وحدها أو يدل على المعنيين كليهما وذكرت مثلاً أو مثالين لكل معنى^(٧٥٣) . والحق أنّ ما ذكرته من أمثلة للتفريق بين معنى التكرير ومعنى المبالغة لا يفرّق بينهما بل يدل كل مثال عليهما جميعاً - كما سيتضح إن شاء الله - ويرجع ذلك - فيما أحسب - إلى أنّ المبالغة غالباً ما تفهم من تكرير الفعل في السياق الذي يرد فيه ، فمثال ما يدل على معنى التكرير وحده كما ترى قوله تعالى : ﴿ قَالَ سُنُقِلْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾

(الأعراف : من الآية ١٢٧) فهي ترى أنّ (نقتل) لا يدل إلا على تكرير الفعل ، وهذا صحيح

(٥) ينظر : البحر المحيط : ٥ / ٦ .

(٦) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٧) ينظر : شرح شافية ابن الحاجب : ٩٠ / ١ ، شذا العرف : ٢٧ ، الاشتقاق : ١٨٩ .

(١) كتاب سيبويه : ٦٤ / ٤ ، وينظر : المفصل في صناعة الإعراب : ٣٦ ، الممتع في التصريف : ١٨٩ / ١ المبدع في التصريف : ١١٢ .

(٢) المنصف ، ابن جني : ٩١ / ١ .

(٣) الخصائص : ١٥٧ / ٢ .

(٤) ينظر : معاني الأبنية الصرفية في مجمع البيان (رسالة) : ١٢٤ - ١٢٦ .

، غير أنه يدل أيضا على المبالغة في القتل وإنما تفهم المبالغة فيه من معنى تكثير الفعل وقد اعتمدت في ما ذهبت إليه على ما قاله الطبرسي في الآية قال : " ومن قرأ سنقتل بالتخفيف فإنه قد يقع ذلك على التكثير وغير التكثير ، والتثقيل بهذا المعنى أخص وبالموضع أليق " (٧٥٤) . وليس في قول الطبرسي هذا ما يدل على أنّ (نقتل) للتكثير وحده ، بل أحسبه يقصد بقوله (والتثقيل بهذا المعنى أخص وبالموضع أليق) معنى المبالغة - المفهومة من معنى تكثير الفعل - في هذا الموضع ؛ لأنه كلام صادر من فرعون الذي يريد أن يبالغ أشد المبالغة في قتل من يؤمن لموسى -عليه السلام- ترهيبا لهم ليركوا إيمانهم أمّا المثال الذي رأته فيه الباحثة معنى المبالغة وحدها فهو قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (محمد : من الآية ٢٢)

وذكرت أنّ الطبرسي قال في هذه الآية " والتشديد أبلغ " والحق أنّ الطبرسي قال : " والتشديد للمبالغة " (٧٥٥) غير أن ذلك لا يمنع من أن تفهم المبالغة من معنى التكثير في معنى (تقطعوا) سواء كانت الكثرة في عدد الأرحام التي تحصل معهم القطيعة أم في المدة الزمنية لهذه القطيعة لاسيما أنّ هذه الآية جاءت في سياق ذكر المنافقين فيما لو أصبحوا ولاية بأنهم يبالغون حينئذ في قطع أرحامهم (٧٥٦) .

وفي ضوء ما تقدّم يتضح أنه لا يصحّ - في الأغلب - الفصل بين معنى التكثير ومعنى المبالغة ما لم نحتكم إلى السياق ، وزيادة على ذلك فإنّ القدماء وبعض المحدثين لم يذكروا معنى المبالغة ضمن معاني بناء (فعل) (٧٥٧) ؛ لأنه يفهم من معنى التكثير وإنّ من المحدثين من يجعل المعنيين متلازمين عندما يذكر معاني (فعل) فيقول : التكثير والمبالغة نحو غلق مثلا (٧٥٨) .

وقد ورد بناء (فعل) في سياق الحمد والتسبيح دالاً على هذين المعنيين ، قال تعالى في سياق الحمد: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّنا مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ﴾ (المؤمنون : ٢٨) .

(١) مجمع البيان : ٥٧٥/٤ ، ٥٧٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١٣٣/٩ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ١٣٤/٩ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٢٨٣/٢ .

(٤) ينظر : كتاب المفتاح في الصرف : ٤٩ ، الممتع في التصريف : ١٨٨ ، ١٨٩ ، شرح شافية ابن الحاجب : ٩٢ - ٩٩ ، شذا العرف : ٢٩ ، ٣٠ ، الاشتقاق : ١٩٠ ، ١٩١ ، عمدة الصرف : ٣٢ - ٣٤ ، أوزان الفعل ومعانيها : ٧٤ - ٨٤ ، المهذب في علم التصريف : ٩٢ - ٩٤ .

(٥) ينظر : التطبيق الصرفي : ٣٠ ، الصرف الوافي : ٢١٨ ، الأبنية الصرفية في ديوان امرئ القيس (اطروحة) : ٣١١ ، الأبنية الصرفية في الكشف للزمخشري (رسالة) : ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

إنَّ من المعاني التي ذكرت لبناء (فَعَلَ) التعدية^(٧٥٩) فالفعل (نَجَّى) أصبح متعدياً بالتضعيف بعد أن كان لازماً (نجا - ينجو) وإذا علمنا أنَّ هذا الفعل مما يتعدى بالهمزة أيضاً (أنجانا) فإنه سيتضح أنَّ إثثار (نَجَّانا) في سياق حمد الله تعالى للدلالة على معنى التكثير والمبالغة ، فالآية خطاب للنبي نوح -عليه السلام- بأن يحمّد الله تعالى على أن نجّاه ومن آمن معه من القوم الظالمين. وفي بناء (نَجَّانا) الذي يدل على التكثير والمبالغة نكتة لطيفة في سياق الآية ، وهي أنه يدل على أنهم لم يحمّدوا الله على أن أنجاهم مرة واحدة بركوبهم السفينة ، وإنما حمّدوه ؛ لأنه كان يُنَجِّيهم كل يوم من كيد قومهم الظالمين وشرورهم حتى إذا ركبوا السفينة ، وعلموا أنَّ الله تعالى سيهلك الظالمين من قومهم حمّدوه جل وعلا على ما كثر من نعمة النجاة منهم ، لاسيما أنَّ الآية لم تقل : الحمد لله الذي نجّانا من الغرق أو الطوفان مثلاً فيحتمل أنهم حمّدوه على نجاة واحدة ، وإنما قالت : من القوم الظالمين مما يوحي بأن (نَجَّانا) تدل على أنهم حمّدوا الله تعالى على ما تكرر من نجاتهم من قومهم الظالمين حتى نجاتهم الأخيرة بركوبهم السفينة وهلاك قومهم بالغرق ، وعلى هذا فإنَّ (نَجَّانا) أفادت معنى التكثير والمبالغة .

أما إذا كان نوح -عليه السلام- قد عدَّ حفظ الله له ولمن آمن معه من كيد قومهم حتى استوائهم على السفينة نجاة واحدة أو عدّوا ركوبهم السفينة وحده نجاة لهم فإنَّ الفعل (نَجَّانا) على هذا المعنى يفيد معنى المبالغة في نجاتهم من دون إفادة التكثير بمعنى أنهم استعظموا نعمة النجاة فعبروا عنها بالتضعيف مبالغة في تعظيمها ، ولا شك في أنَّ تعظيم نعمة الله تعالى أبلغ في سياق حمده عو وجلّ عليها .

ومن دلالة هذا الفعل في سياق الشكر ما جاء في قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتٍ

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَنْجَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأنعام: ٦٣) ، إذ ورد الفعل (نجا) في هذه الآية متعدياً بالتضعيف مرة ، وبالهمزة مرة ، فما دلالة ذلك في سياق الشكر لاسيما التضعيف ؟ .

إنَّ الفعل (ينجّيكم) بالتضعيف أكثر دلالة على تقرير نعم الله تعالى وكثرتها إذ يظهر أنه جل وعلا يخاطبهم بأنه من ينجّيهم في كل مرة من ظلمات البر والبحر، أي أنَّ بناء (فَعَلَ) يحمل معنى التكثير الذي يدل على المبالغة في تقرير نعمته تعالى مما يشعر بوجوب شكرها ولكن الكافرين لا يشكرون .

(١) ينظر : كتاب المفتاح في الصرف : ٤٩ ، شرح شافية ابن الحاجب : ٩٢ ، الاشتقاق : ١٩٠ ، المذهب في علم التصريف : ٩٢ .

أما الفعل (أنجنا) الذي لا دلالة فيه على التكرير فإنه ورد في سياق طلب النجاة ،
فالكافرون حين يضيق بهم الأمر يطلبون من الله تعالى نجاة واحدة تخلصهم مما هم فيه ،
ويظهر ذلك من قول الطبرسي ، قال " (لئن أنجيتنا) أي في أيّ شدة وقعتم قلتم لئن أنجيتنا " ^(٧٦٠)
فبناء (فعل) قد دلّ في سياق الآية على أنّ نعم الله جلّ جلاله على الناس كثيرة غير أنهم
لا يشكرونها ولذلك قال عز من قائل بعد هذه الآية: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ
أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام : ٦٤) .

وإذا اتضح من ذلك أنّ تعدية الفعل بالتضعيف تدل على ما لا تدل عليه تعديته بالهمزة
من معنى التكرير والمبالغة فإنه سيظهر جلياً أنّ الفعل (عَلَّمَ) الذي عدّه الدكتور هاشم طه
شلاش مثلاً لبناء (فعل) حين يكون بنية لا لمعنى ^(٧٦١) لم يكن كذلك ؛ لأنّ هناك فرقاً بين
الإعلام وهو من (أعلم) والتعليم وهو من (علّم) فـ "الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع
والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكرير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم " ^(٧٦٢) . أي :
أنّ (علّم) جاء على (فعل) التي هي لمعنى وهو التكرير والتكرير لا أنه بنية لا لمعنى .

أما في سياق التسبيح فإنّ الفعل (سَبَّحَ) يعدّ مثلاً لمعنى التكرير والمبالغة في بناء (فعل) ؛
لأنّ أصل التسبيح هو السَّبْح - كما مرّ في التمهيد ^(٧٦٣) - وفعله (سَبَّحَ) ومعناه السرعة في
الجري ، ففي (سَبَّحَ) بالتضعيف دلالة على إكثار ذكر الله تعالى والمبالغة في تنزيهه .

وقد ورد الفعل (سَبَّحَ) بمعنى التكرير والمبالغة دالاً على أمرين :

الأول : الدلالة على كثرة تسبيح الموجودات وعدم انقطاعه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الجمعة : ١) ، فبناء (فعل)
يشعر بكثرة تسبيح ما في السماوات وما في الأرض وديمومته .

والثاني : الأمر بإكثار التسبيح لله تبارك وتعالى ، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى

الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبيراً ﴾ (الفرقان : ٥٨) فـ(سَبَّحَ)

(١) مجمع البيان : ٣٩٢/٤ .

(٢) ينظر : أوزان الفعل ومعانيها : ٧٦ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٨٠ .

(٤) ينظر : ١٤ من هذه الرسالة .

بالتضعيف يأمر بإكثار التسبيح وتكراره ، ولا يمتنع معنى الكثرة والتكرار في (سَبِّح) مع ذكر الأوقات التي أمر الله عز وجل بالتسبيح فيها كقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (غافر: من الآية ٥٥) ؛ إذ إنَّ تقييد التسبيح بالعشي والإبكار لا يعني عدم الكثرة

في معنى (سَبِّح) ؛ لأنَّ العشي والإبكار مما يتكرر كلَّ يوم^(٧٦٤) ففيه معنى التكرار والكثرة ، أو أنه يدل على جميع الأوقات من اليوم الواحد^(٧٦٥) ، كأنَّ ذكر طرفي اليوم - وهما العشي والإبكار - يدل على اشتمال ما ينحصر بينهما من أوقات .

وذكر بعض الصرفيين أنَّ (سَبِّح) تفيد أيضا معنى اختصار الحكاية أي إنها بمعنى قال : سبحان الله^(٧٦٦) . وقد ورد الفعل (سَبِّح) في القرآن الكريم لاختصار الحكاية ولكن بمعنى أعم من أنَّ أحدا قال : سبحان الله ، بل هي اختصار لأذكار كثيرة يشتغل بها المسبح لله تعالى فد (سبح) في قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الحديد : من الآية ١) لا تدل على أنَّ ما في السماوات والأرض قالوا أو يقولون : سبحان الله فحسب ، وإنما (سَبِّح) اختصار لكل ما يصدر منهم في إطار التسبيح لله جل وعلا ، سواء كان تسبيح حال أم تسبيح

مقال^(٧٦٧) .

وفي قوله تعالى على لسان موسى وهارون - عليهما وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام - ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ (طه : ٣٣ ، ٣٤) نجد أنَّ موسى وهارون - عليهما السلام - قد اختصرا كلَّ ما يشتغلان بذكره في تسبيح الله تعالى بقولهما (نسبحك) فلم يقلوا : (كي نقول تنزيها لك كذا وكذا كثيرا) مما يطول الكلام بذكره بل قالوا (نسبحك كثيرا) أي

(١) ينظر : التفسير الكبير : ١١٤/٢٢ .

(٢) ينظر : أرشاد العقل السليم : ١٢٠/٥ .

(٣) ينظر : شذا العرف : ٢٩ ، عمدة الصرف : ٣٤ ، التطبيق الصرفي : ٣١ ، الأبنية الصرفية في الكشف للزمخشري (رسالة) : ٤٢٩ .

(١) المراد من تسبيح الحال أنَّ وجود الموجودات دال على أنَّ موجدتها الحقيقي هو الله تعالى فحالها ينبئ عن صانعها ويحمل على الإيمان به، وهذا هو تسبيحها له ، ويسمى أيضًا التسبيح المجازي ، أما تسبيح المقال فهو أن تنطق الموجودات بتسبيح الله نطقًا كما يسبح الإنسان مثلاً ويسمى التسبيح الحقيقي ، وقيل إنَّ تسبيح الموجودات كلها حقيقي بدلالة قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء : من الآية ٤٤) إذ لو كان تسبيح الموجودات تسبيح حال لكان أمرًا مفهوماً لكل أحد ، فما معنى أن يقال (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) أي أنها تسبح لله تسبيحًا حقيقيًا ولكننا لا نفهم هذا التسبيح ، ينظر : فتح القدير : ٢٨٦/٣ .

نزهك عما لا يليق بك ، (ونذكرك كثيرا) أي نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك ، وتفضلت به علينا من تحميل رسالتك^(٧٦٨) .

ومن أوضح الأمثلة في القرآن الكريم على أن (سبح) لا تدل على اختصار قول : سبحان الله فحسب ما ورد في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم : ٢٨) إذ ورد هذا الكلام على لسان الأخ الأوسط لأصحاب البستان المثمرة الذين أقسموا أنهم سيجنون ثمرها عند الصباح ولم يستثنوا أي أنهم لم يقولوا : إلا أن يشاء الله ؛ لأنَّ القائل إذا قال : لأفعلن كذا إلا أن يشاء الله فقد استثنى ، ومعناه : إلا أن يشاء الله منعي^(٧٦٩) فلمَّا جاؤوها ووجدوها قد احترقت قال لهم أخوهم الأوسط (ألم أقل لكم لولا تسبحون) ف (تسبحون) اختصار لقول : إن شاء الله ، فهي ليست اختصارا لـ (سبحان الله) حصرا بل هي اختصار لذكر آخر يدل على تسبيح الله تعالى وهو الاستثناء أي أن يقولوا : إلا أن يشاء الله ، لاسيما أن الاستثناء والتسبيح يلتقيان " في معنى التعظيم لله ؛ لأنَّ الاستثناء تفويض إليه والتسبيح تنزيه له وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم "^(٧٧٠) فإن قيل : ألا يدل قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ قَالُوا سُبْحَنَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (القلم : ٢٩) على أن (تسبحون) اختصار لقول : سبحان الله أو سبحان ربنا ؟ فالجواب من وجهين :

الأول : هو أن المفسرين ذكروا أن التسبيح في هذا الموضع بمعنى الاستثناء^(٧٧١) فـ (تسبحون) اختصار للاستثناء الذي هو قول : إلا أن يشاء الله - كما مرّ - .

الثاني : هو أن أصحاب البستان قالوا سبحان ربنا بعد أن رأوا بستانهم قد احترقت تنزيها له تعالى عن أن يكون قد ظلمهم بإحراقها واعترافا منهم بأنهم السبب في ما حلَّ بها؛ ولذلك نسبوا لأنفسهم الظلم فقالوا (إنا كنا ظالمين)^(٧٧٢) .

ومن أبنية الثلاثي المزيد بحرفين بناء (تفعّل) بزيادة التاء في أوله وتضعيف العين ، وقد جاء على هذا البناء الفعل (تأذّن) الوارد في سياق الشكر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم : من الآية ٧) . ف (تأذّن) على وزن (تفعّل) من : أذن على وزن

(٢) ينظر : مجمع البيان : ١٦ / ٧ ، تفسير حدائق الروح والريحان : ٣٧٨ / ١٧ .

(٣) ينظر : مجمع البيان : ٤٢٦ / ١٠ .

(١) الكشف : ١١٣١ ، وينظر : تفسير غرائب القرآن : ٣٣٨ / ٦ .

(٢) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣٩٣ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٤٤٧ / ١ ، مجمع البيان : ٤٢٦ / ١٠ ، بصائر ذوي التمييز : ١٧٨ / ٣ .

(٣) ينظر : الكشف : ١١٣١ ، مجمع البيان : ٤٢٧ / ١٠ .

(أفعل) والعرب ربما وضعت (تفعّل) موضع (أفعل) كما قالوا : أو عدته وتوعدته بمعنى واحد^(٧٧٣) غير أنه " لا بد في (تفعّل) من زيادة معنى ليس في (أفعل) كأنه قيل : وإذ أذن ربكم إيدانا بليغا تنتفي عنه الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى : وإذ تأذن ربكم فقال (لئن شكرتم) أو أجرى (تأذن) مجرى (قال) لأنه ضرب من القول " ^(٧٧٤).

وأشار بعض المفسرين إلى أنّ معنى (تفعّل) في الآية هو التكلّف^(٧٧٥)

وهو من المعاني التي ذكرت لهذا البناء^(٧٧٦) والمراد به - في غير هذه الآية- أن الفعل يحصل للفاعل بالمعاناة نحو : تصبّر إذا تكلف الصبر وعانى الاتصاف به معاناة^(٧٧٧) غير أنّ معنى التكلّف في (تأذن) لا يمكن أن يكون كذلك ؛ لأنّ الفاعل هو الله ﷻ وهو منزّه عن أن يتكلّف أمرا أو يعانيه ؛ ولذلك ذكر أبو السعود أنّ المعنى " واذكروا حين تأذن ربكم أي : أذن إيدانا بليغا لا تبقى معه شائبة لما في صيغة التفعّل من معنى التكلّف المجعول في حقّه سبحانه على غايته التي هي الكمال " ^(٧٧٨). فنجد أنّ أبا السعود قد احتسب - بجعله التكلّف في حقّه تعالى على غايته التي هي الكمال - من أن يفهم في حقّه تعالى ما ذكره الصرفيون لهذا البناء من معنى . وغاية ما في الأمر أنّ بناء (تأذن) يشعر بأهمية شكر الله تعالى على نعمه إلى حدّ أنه جل وعلا يتأذن عباده بالزيادة إذا ما شكروا هذه النعم فزيادة المبنى في الصيغة يدل على زيادة المعنى في سياق الآية والمبالغة فيه ، وقد ألمح إلى ذلك البيضاوي فقال : " وتأذن بمعنى أذن كتوعد بمعنى أوعد غير أنه أبلغ لما في التفعّل من معنى التكلّف والمبالغة " ^(٧٧٩) ، وذلك أدعى لشكر النعم ما دام الله تعالى قد بالغ في أن شكرها يستدعي زيادتها ونماءها .

ومن أبنية الثلاثي المزيد بحرفين بناء (تفاعل) بزيادة التاء في أوله والألف بين الفاء والعين ، ومما ورد من هذا البناء الفعل (تعالى) في سياق التسبيح ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص : ٦٨) .

-
- (٤) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ٦٩/٢ ، جامع البيان : ٢٢٠/١٣ ، مفردات ألفاظ القرآن : ٧٠ .
 (٥) الكشف : ٥٤٥ ، وينظر : التفسير الكبير : ٦٦/١٩ ، فتح القدير : ١١٧/٣ .
 (٦) ينظر : أنوار التنزيل : ٣٥٢/٢ ، إرشاد العقل السليم : ٢٣٥/٤ .
 (٧) ينظر : الصاحبى : ١٦٩ ، كتاب المفتاح في الصرف : ٥٠ ، شرح شافية ابن الحاجب : ١٠٤/١ ، حاشية الصبان على شرح الأشموني ، محمد بن علي الصبان : ٣٤٣/٤ ، المهذب في علم التصريف : ٩٦ .
 (١) ينظر : الاشتقاق : ١٩٣ ، عمدة الصرف : ٤٠ .
 (٢) إرشاد العقل السليم : ٢٣٥/٤ .
 (٣) أنوار التنزيل : ٣٥٢/٢ .

ذكر الصرفيون المحدثون أنّ من معاني (تفاعل) حصول الشيء تدريجيًا نحو: تزايد المطر إذا ازداد شيئًا فشيئًا^(٧٨٠) وهذا المعنى يمكن أن يُتصوّر في (تعالى) إذا كانت إخبارًا عن غير الله عز وجل في نحو: تعالى زيد إذ المعنى أنه تدرّج في تعاليه شيئًا فشيئًا ، أمّا في حقه تعالى فلا يمكن أن يُتصور معنى التدرج في علّوه جل وعلا لأنّ " تخصيص لفظ التفاعل لمبالغة ذلك منه لا على سبيل التفاعل كما يكون من البشر " ^(٧٨١) ، فالله تعالى قديم في علّوه وصفاته أزليّة^(٧٨٢) وهو منزّه عن أن يتصف بصفة العلو شيئًا فشيئًا ولذلك قال الصّبّان (ت ١٢٠٦ هـ) في هذا البناء " وقد جاء لأصل الفعل كتعالى الله " ^(٧٨٣) فـ (تعالى) إذن في سياق الآية تدل على تعظيمه جل وعلا^(٧٨٤) والمبالغة في علّوه عما لا ينبغي له لاسيما أنّ القرآن الكريم لم يعبّر عن علّوه ﷻ بالفعل (علا) وإنما أثر في التعبير عن ذلك الفعل (تعالى) الذي لم يرد إلا في حقه عز وجل^(٧٨٥) مما يشير إلى أنّ التعبير القرآني إنما يؤثر استعمال هذا البناء الذي يدل على تعظيم الله تعالى والمبالغة في علّوه لأنه أبلغ في سياق تسبيحه جل وعلا وتنزيهه عما لا يصح لذاته المقدسة .

(٤) ينظر : شذا العرف : ٣٢ ، عمدة الصرف : ٤٢ ، التطبيق الصرفي : ٣٤ ، الصرف الوافي : ٢١٩ ، المذهب في علم التصريف : ٩٧ .

(١) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٨٣ .

(٢) ينظر : عقائد الإمامية : ٣٥ .

(٣) حاشية الصبان : ٤ / ٣٤٣ .

(٤) ينظر : الأبنية الصرفية في الكشف (رسالة) : ٤٣٦ .

(٥) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٤٨١ .

دلالة المبني للمجهول

يقسم الفعل على مبني للمعلوم ومبني للمجهول ، ويسمى الأول أيضا مبنيا للفاعل ، وهو ما ذكر معه فاعله نحو : كتب الطالب الدرس ، ويسمى الثاني مبنيا للمفعول ، وهو ما حذف فاعله وأنيب عنه غيره نحو : كُتِبَ الدرس ^(٧٨٦).

ولحذف الفاعل أغراض كثيرة يقصدها المتكلم ^(٧٨٧) وقد كثر في القرآن الكريم أسلوب العدول إلى الفعل المبني للمجهول ، إذ يعدّ ظاهرة أسلوبية مطّردة ^(٧٨٨) ، ومن دلالة ذلك في سياق الحمد ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الزمر : ٧٥) .

إنّ من أغراض بناء الفعل للمجهول تعميم الفاعل ^(٧٨٩) . ولعل بناء الفعل (قيل) للمجهول جاء لهذا الغرض ، ودلالته أن لا يقصر حمده تعالى على قائل معين ؛ ولذا ذكر الماوردي أنّ في قائل الحمد قولين :

أحدهما : أنه من قول الملائكة ، حمدوا الله تعالى على عدله في قضائه .

والآخر : أنه من قول المؤمنين ، حمدوه جلّ وعلا على أن نجّاهم مما صار إليه أهل النار وعلى ما صاروا هم إليه من نعيم الجنة ^(٧٩٠) . فلو لم يُبنَ الفعل (قيل) للمجهول لعلّ قائل الحمد فإن كان القائل الملائكة لم يشمل المؤمنين وإن كان القائل المؤمنين لم يشمل الملائكة ، أما ببنائه للمجهول فهو يشمل الفريقين مما يدل على شمول حمده جلّ وعلا وأنّ الجميع لهج بحمده في ذلك اليوم ، وليس حمده مقتصرا على أحد دون آخر ، وهذا ما يشير إلى عظيم

-
- (١) ينظر : كتاب المفتاح في الصرف : ٥٦ ، ٥٧ ، شذا العرف : ٣٦ ، دروس التصريف : ٢١٠ .
 (٢) ينظر : شرح المراح في التصريف ، بدر الدين العيني : ١١١ ، ١١٢ ، عمدة الصرف : ٨٨ ، الفعل زمانه وأبنيته : ٩٧ ، إسناد الفعل ، رسميّة محمد الميّاخ : ١١٦ ، ١١٧ .
 (٣) ينظر : من أساليب التعبير القرآني ، د. طالب محمد إسماعيل الزوبعي : ٢٥٣ .
 (٤) ينظر : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، د. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي : ١٢٨ .
 (٥) ينظر : النكت والعيون : ١٤٠/٥ ، الميزان : ٣١٦ / ١٧ .

نعمه تعالى على جميع مخلوقاته ، على أن في بناء (قيل) للمجهول " دقيقة أخرى وهي أنه لم يبين أن ذلك القائل من هو؟ والمقصود من هذا الإيهام التنبيه على أن خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس إلا أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين ، وتأكد هذا بقوله تعالى في صفة أهل الجنة ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾" (٧٩١) .

وهذا يعني أن دلالة البناء للمجهول هي تعلق الغرض بغير الفاعل (٧٩٢) بمعنى أن المهم في سياق الآية هو التعبير عن حمده جل وعلا أيًا كان القائل ، أي أن مدار الاهتمام هو المفعول وهذا " يدل على تمكن المفعول عندهم وتقدم حاله في أنفسهم إذ أفردوه بأن صاغوا الفعل له صيغة مخالفة لصيغته وهو للفاعل " (٧٩٣) .

ومما جاء من المبني للمجهول في سياق التسبيح قراءة (يسبح) بفتح الباء (٧٩٤) أي بالبناء للمجهول في قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (النور : ٣٦ ، ومن الآية ٣٧) والمعنى على قراءة البناء للمجهول : يسبح الله في البيوت التي أذن أن ترفع فسبح له رجال (٧٩٥) ، فيقام أحد الظروف مقام الفاعل المحذوف ويرفع (رجال) بفعل مضمر دل عليه الفعل المذكور (٧٩٦) وتقيد هذه القراءة أن الغرض متعلق بغير الفاعل فتأخر الإخبار عن فاعل التسبيح وتقدم ذكر أن الله يسبح في البيوت التي أذن أن ترفع .

ومن دلالة البناء للمجهول في سياق التسبيح أيضا قراءة (تتخذ) بالبناء للمجهول (٧٩٧) في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ (الفرقان : من الآية ١٨)

إن الفرق بين دلالة القراءتين هو أن قراءة المبني للمجهول للمعلوم تدل على أن الملائكة وعيسى - عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام - ومن عبد من دون الله من المؤمنين قد تبرأوا إلى الله

- (١) التفسير الكبير : ٢٧ / ٤٨١ . والنص القرآني من سورة يونس من الآية : ١٠ .
- (٢) وهو من أغراض البناء للمجهول في القرآن الكريم ، ينظر : دراسات قرآنية في جزء عم : ١٣٣ التنوع في الخطاب القرآني (اطروحة) : ٧٤ .
- (٣) الخصائص : ٢٢٠ / ٢ .
- (٤) ينظر : الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد ، أبو علي الفارسي : ٢٠١ ، جامع البيان في القراءات السبع المشهورة : ٤٦٢ ، المبسوط : ٣١٩ .
- (٥) ينظر : جامع البيان : ١٧٤ / ١٨ .
- (٦) ينظر : مجمع البيان : ١٧٨ / ٧ ، التفسير الكبير : ٣٩٦ / ٢٤ ، فتح القدير : ٤٢ / ٤ .
- (٧) ينظر : جامع البيان في القراءات السبع المشهورة : ٦٤٥ ، إتحاف فضلاء البشر : ٤١٦ .

من أن يكون لهم ولي غيره تعالى ، أما قراءة المبني للمجهول فتدل على أنهم تبرأوا إلى الله جل وعلا من أن يكونوا راضين بأن يعبدوا من دون الله جل ثناؤه^(٧٩٨) .

وتحمل قراءة البناء للمجهول معنى التنكيل بالمشركين الذين عبدوا غير الله تعالى ؛ لأنها تدل على أنّ هؤلاء المعبودين معترفون بافتقارهم إلى الله جل وعلا ووحدانيته وأنه منزّه عن أن يشرك به غيره فكيف يتخذهم المشركون أولياء من دون الله والحال أنهم ليسوا سوى عباد له عز وجل ؟ .

وفي ذلك تنزيه له جلّ وعلا عن الشريك وتنكيل بمن يشرك به غيره سبحانه وتعالى عما يشركون علوا كبيرا .

دلالة المصدر واسم المصدر

(١) ينظر : جامع البيان : ٢٢٥/١٨ ، فتح القدير : ٨٣/٤ .

يُعرّف المصدر بأنه " كل اسم دلّ على حدث وزمان مجهول وهو وفعله من لفظ واحد" ^(٧٩٩) ، أو هو " اسم الحدث الذي تحمله مادة الكلمة في أصولها الصامتة" ^(٨٠٠) .

أمّا اسم المصدر فهو : " ما ساوى المصدر في الدلالة على معناه وخالفه بخلوه - لفظاً أو تقديرًا - من بعض ما في فعله دون تعويض " ^(٨٠١) .

ومن دلالة المصدر في سياق الحمد أنه لم يأتِ التعبير عن حمد الله جل وعلا في القرآن الكريم إلا بالمصدر ^(٨٠٢) ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة : ٢) .

فـ (الحمد) مصدر وهو يشير إلى الحدث نفسه دونما دلالة على زمان الحدث أو مكانه أو فاعله ؛ لأنّ الأصل في دلالة المصدر أن يكون معبراً عن الحدث المجرد فحسب ^(٨٠٣) ، وفي ذلك دلالة على شمول حمده جل وعلا وعدم تقييده بزمان أو مكان أو شخص فهو أعمّ من أن يُقيّد بأحد هذه المقيّدات ، وذلك أبلغ في التعبير عن حمده جلّ وعلا ، لاسيما أنّ فيه تعليم العباد حمد الله تعالى من حيث اللفظ والمعنى ^(٨٠٤) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى حكاية عن الملائكة : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ (البقرة : من

الآية ٣٠) فالملائكة يسبحون الله جل وعلا بما يدل على الحدث نفسه وهو حمده تعالى ، وفيه إشارة إلى ثبوت ذلك الحمد ودوامه ، بمعنى نسبّحك بما ثبت من حمدك وثبات حمده عز وجل أنه لم يتقيد بزمان أو مكان أو شخص فينتفي بانتفائه بل هو ثابت باق ؛ لأنه يدل على الحدث المفهوم من معناه دونما تقييد بشيء .

وفي قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة : ٢) مصدر آخر هو قوله عز

وجل (ربّ) ، فالربّ في الأصل مصدر بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً ، وهو من : ربّه يرّبّه ربّاً ، وقد وصف به الله جل وعلا مبالغة وهو من الوصف بالمصدر لغرض المبالغة نحو : زيد عدل فإنه أكثر مبالغة في العدل من قولك : زيد

-
- (١) كتاب شرح اللمع في العربية ، جامع العلوم الباقولي : ٢٩٣/١ ، وينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ابن هشام الأنصاري : ٢٤٠/٢ ، كتاب فصل الخطاب : ٢٥ ، أبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٢٠٨ .
 (٢) المنهج الصوتي للبنية العربية : ١٠٩ ، وينظر : القول في القرآن الكريم : ٩٥ ، مصطفى جمال الدين جهوده وظواهر لغوية في شعره ، تحسين فاضل المشهدي : ١٥٥ .
 (٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، بهاء الدين بن عقيل : ٩٨/٣ .
 (٤) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٢١٧ ، ٢١٨ .
 (٥) ينظر : الدرس الصرفي والنحوي عند مكي بن أبي طالب القيسي (اطروحة) ، عبد الله أحمد حمزة النهاري : ٢٥ ، الصبر ودلالته في القرآن الكريم (رسالة) : ٤٠ ، ٤١ .
 (٦) ينظر : مدارك التنزيل : ٤٣٧/١ ، الميزان : ١٨ / ١ ، ١٩ .

عادل^(٨٠٥) ، ولما كان الوصف بالمصدر أكثر مبالغة في معنى التربية فإنه يشعر بعظمة هذه النعمة على العباد مما يوجب الحمد عليها فقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يبين أنه عز وجل استحق الحمد لأنه المربي لمخلوقاته فقد جاء التعبير بالمصدر (رب) ليؤكد هذا الاستحقاق بإفادته المبالغة في تقرير نعمة التربية . أما في سياق الشكر ، فقد ورد المصدر (شكرا) مرة واحدة والمصدر (شكورا) مرتين^(٨٠٦) والشكر والشكور مصدران من الفعل (شكر) كالكفر والكفور من الفعل (كفر)^(٨٠٧) .

وجاء الأول في قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ (سبأ : من الآية ١٣) فاستعمال المصدر في الأمر بالشكر يدل على وجوب الشكر في كل زمان ومكان لأن المصدر يدل على الحدث المطلق من دون تقييد ، ومما يدل على أن استعمال المصدر هنا للإشارة إلى معنى الحدث والاهتمام به ما ذكره الرازي في الآية إذ قال : " وإنما الواجب الذي ينبغي أن يكثر منه هو العمل الصالح الذي يكون شكرا"^(٨٠٨) .

وجاء المصدر (شكورا) في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان : ٦٢) فـ (شكورا) مصدر يدل على الحدث ، بمعنى أن من أراد أن يتصف بالشكر أو يأتي به دائما فعليه أن يعتبر بحركة الليل والنهار ويجعل من كون أحدهما خلف الآخر تذكرة له بأن لهما مديرا ومصرفا لا يشبههما ولا يشبهانه يجب أن يتوجه الشكر إليه دائما^(٨٠٩) .

والموضع الثاني الذي ورد فيه المصدر (شكورا) هو قوله تعالى حكاية عن علي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم السلام - ﴿ إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنسان : ٩) . إذ عبّروا - عليهم السلام - عن عدم طلبهم المكافأة ممن أطعموهم بالمصدر ليدل على نفيهم المطلق لأي جزاء أو شكر يصدر منهم لأنهم قد أطعموا المسكين واليتيم والأسير لوجه الله تعالى ، فلا معنى لمكافأة الخلق أصلاً^(٨١٠) .

(١) ينظر : أنوار التنزيل : ١٠/١ ، مدارك التنزيل : ٩/١ ، إرشاد العقل السليم : ٣٦ / ١ .

(٢) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٨٦ .

(٣) ينظر : مجمع البيان : ٢٣٣/٧ ، التفسير الكبير : ٧٤٨/٣٠ ، لسان العرب : ٤٢٣/٤ .

(٤) التفسير الكبير : ١٩٩/٢٥ .

(١) ينظر : مجمع البيان : ٢٣٣/٧ .

(٢) ينظر : الكشف : ١١٦٤ .

أمّا في سياق التسبيح فقد اختلف علماء العربية في (سبحان) ، فمنهم من يرى أنه مصدر ، ومنهم من ذهب إلى أنه اسم مصدر ، فيرى الخليل وسيبويه والفارابي (ت: ٣٥٠هـ) أنه مصدر ، قال الخليل : " سبحان الله تنزيهه لله عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به ونصب في موضع فعل على معنى : تسبيحا لله ، تريد : سبّحت تسبيحا لله " (٨١١).

وذكر سيبويه (سبحان) ضمن المصادر التي تنصب بإضمار الفعل المتروك إظهاره ، وقال عنه : " كأنه حين قال : سبحان الله ، قال تسبيحاً (...) فنصب هذا على أسبَح الله تسبيحا " (٨١٢).

وقال الفارابي : " يقال : سبحان الله وهو تنزيه له ﷻ ونصبه على المصدر كما نقول : معاذ الله " (٨١٣).

وذكر ابن جني (سبحان) في (باب في تعليق الأعلام على المعاني دون الأعيان) فقال: " فسبحان اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه بمنزلة عثمان وحران" (٨١٤). وهو ممنوع من الصرف للعلمية - فهو علم للتسبيح - ولزيادة الألف والنون (٨١٥) وتابع عدد من المفسرين الخليل وسيبويه والفارابي فرأوا في (سبحان) المصدرية فقط ، قال الخطيب التبريزي (ت: ٥٠٢هـ) " سبحان الله تنزيهه لله من السوء (...) وانتصب على المصدر كأنه وضع موضع : سبّحت الله تسبيحا" (٨١٦) وقال الطبرسي : " (سبحان) منصوب على المصدر على معنى : أسبَح الله تسبيحا" (٨١٧) وقال النسفي : " وانتصابه على المصدر تقديره : سبّحت الله تسبيحا" (٨١٨).

ومن المفسرين من يوفق بين ما ذهب إليه الخليل وسيبويه والفارابي وما ذكره ابن جني فيرون أنّ (سبحان) مصدر وعلم للتسبيح ، قال الزمخشري: " (سبحان) علم للتسبيح كعثمان وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره : أسبَح الله سبحان ، ثم نزل (سبحان) منزلة الفعل فسدّ مسده " (٨١٩).

-
- (٣) كتاب العين : ١٥١/٣ .
 - (٤) كتاب سيبويه : ٣٢٢/١ .
 - (٥) ديوان الأدب : ١٦/٢ .
 - (١) الخصائص : ١٩٩/٢ ، وينظر : الأشباه والنظائر في النحو ، جلال الدين السيوطي : ١٠٩/٢ .
 - (٢) ينظر : كتاب سيبويه : ٣٢٤/١ ، الخصائص : ٢٠٠/٢ ، الملخص في إعراب القرآن ، الخطيب التبريزي : ٢٢٧ ، أحكام القرآن ، أبو بكر محمد المعروف بابن العربي : ١٧٧/٣ ، إيجاز البيان عن معاني القرآن ، محمود بن أبي الحسن النيسابوري : ٤٩٣/٢ .
 - (٣) الملخص في إعراب القرآن : ٢٢٧ ، وينظر : الميزان : ٢٦٤/١ .
 - (٤) مجمع البيان : ٥١٠/٦ ، وينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ٤٤٠/١ .
 - (٥) مدارك التنزيل : ٦٠/١ ، وينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٢٢٥/٢ ، من بديع لغة التنزيل ، د. إبراهيم السامرائي : ٢٣٦ .
 - (٦) الكشف : ٥٨٩ ، وينظر : أنوار التنزيل : ٤٣٣/٢ ، الجديد في تفسير القرآن المجيد ، الشيخ محمد السبزواري : ٢٦٩/٤ ، دستور العلماء : ١١٦/٢ ، إعراب القرآن ، الشيخ محمد جعفر الكرباسي : ٣٩٧/٤ .

وذكر أبو البركات الأنباري (ت: ٥٧٧هـ) أن: " (سبحان) ينصب انتصاب المصادر وهو عند المحققين اسم أقيم مقام المصدر وليس بمصدر لأنَّ (سَبَّحَ) فَعَّلَ وفَعَّلَ يجيء مصدره على التفعيل والفعال لا على فُعْلان ، وزعم قوم أنه مصدر كقولهم : كَفَّرَ عن يمينه تكفيرا وكفرا ، والصحيح أنَّ سبحانا وكفرانا اسمان أقيما مقام مصدرين وليسا بمصدرين " (٨٢٠).

وثمره هذا الاختلاف هو أن الدلالة تختلف فيما إذا كان (سبحان) مصدرا أو اسم مصدر ، فمثلا في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ (البقرة : من الآية ٣٢) يدل (سبحان) مصدرا على أن المعنى نسبحك نحن عما لا يليق بشأنك الأقدس في حين يدل وهو اسم مصدر على أن المعنى تنزهت أنت عن ذلك تنزها ناشئا عن ذاتك^(٨٢١) ومرجع ذلك - فيما أحسب - إلى أن المصدر نائب عن الفعل الذي اشتق منه ، وهو دال على الحدث الذي نتج عن الملائكة وهو تسبيحه تعالى في حين يشير اسم المصدر إلى الحقيقة بعينها وهي تنزهه تعالى عما لا ينبغي له ؛ لأنَّ من وجوه بلاغة (سبحان) هو " العدول من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة ، لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن "^(٨٢٢) وتلمس صاحب تفسير المنار دقيقة أخرى في كون (سبحان) اسم مصدر هي أن " اسم المصدر يدل على تأكيد معنى المصدر وثباته وحقيقته ؛ لأنَّ مدلوله هو لفظ المصدر فانتقال الذهن منه إلى المصدر ومن المصدر إلى المعنى بمنزلة تكرار لفظ المصدر ، بل هو أبلغ وأدل على إرادة الحقيقة دون التجوُّز " (٨٢٣).

ومن دلالة استعمال اسم المصدر في سياق التسبيح ما جاء في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَنَهُ

وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء : ٤٣) فقد ورد (علوا) مع الفعل (تعالى) وهو ليس مصدره ؛ لأنه لم يشتمل على التاء وإنما هو مصدر الفعل (علا - يعلو) ولو جاء مع الفعل (تعالى) مصدره لكان التعبير : تعالى تعاليا ، غير أنَّ القرآن الكريم وضع العلو موضع التعالي^(٨٢٤).

(٧) البيان في غريب إعراب القرآن ، أبو البركات الأنباري : ١ / ٧٢ ، وينظر: المصدر نفسه : ١ / ٢٣٥ .

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١ / ١٧٣ .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٥٩٥ ، والوجه الأخرى لبلاغة (سبحان) هي : ١ - اشتقاقه من (السبح) بمعنى البعد والإيغال فهو مبالغة في تسبيحه . ٢ - النقل إلى التفعيل ، أي النقل من سبح يسبح سبحا إلى سَبَّحَ يسبَّحُ تسبيحا وما يتبع ذلك من دلالة في المعنى . ٣ - إقامته مقام المصدر مع الفعل وذلك أنه يقال : سَبَّحَ يسبَّحُ سبحان بإقامة (سبحان) مقام (تسبيحا) ، ينظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥٧٧ ، ٤ / ٤٠٠ ، ٥ / ٤٩٥ ، تفسير المنار : ٧ / ٢١٨ .

(٣) تفسير المنار : ٧ / ٢١٨ .

(٤) ينظر : التفسير الكبير : ٢٠ / ٣٤٦ ، مدارك التنزيل : ٢ / ٩٠٩ ، فتح القدير : ٣ / ٢٨٥ .

قال الطبرسي : " وإنما لم يقل : تعاليا كبيرا لأنه وضع مصدر مكان مصدر نحو قوله : ﴿ وَتَبَلَّ إِلَيْهِ نَبِيًّا ﴾ " (٨٢٥). فـ(علوا) مصدر مع الفعل (علا) واسم مصدر مع الفعل (تعالى) ودلالة ذلك أنّ التعبير القرآني قد "يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره ، بل يأتي بمصدر فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من أقرب طريق وأيسره " (٨٢٦) ، فاستعمال (علوا) يدل على أصل المعنى وهو علوه عز وجل عن كل ما لا ينبغي له وهو ما يبعد معنى التدرج الذي قد يفهم من صيغة (تفاعل) التي قد تُؤهم أنه عز وجل قد تدرّج في علوه ، فلم يستعمل القرآن الكريم المصدر (تعاليا) الذي قد يؤكد هذا المعنى فهو مأخوذ من (تعالى) ، وإنما استعمل (علوا) للإشارة إلى حقيقة علوه القديم الذي لا يشبه علو مخلوقاته وتعاليتها .

(٥) مجمع البيان : ٥٣٩/٦ ، والنص القرآني من سورة المزمل : من الآية ٨ .
(١) التعبير القرآني ، د. فاضل السامرائي : ٣٦ ، وينظر : التنوع في الخطاب القرآني (اطروحة) : ٧٠ ، ٧١ .

دلالة اسم الفاعل

اسم الفاعل هو " ما دل على الحدث والحدوث وفاعله " ^(٨٢٧) ويصاغ من الثلاثي على وزن (فاعل) غالبا ومن غير الثلاثي بإبدال حرف مضارعه ميما مضمومة وكسر ما قبل الآخر ^(٨٢٨).

ويدل اسم الفاعل على التجدد والحدوث ^(٨٢٩) ، غير أنه قد يجري مجرى الصفة المشبهة في الدلالة على الثبوت نحو : ضامر البطن ومؤدب الخدام ^(٨٣٠) ، والمراد منه في هذه الحالة إثبات الصفة للموصوف فقط ^(٨٣١) " وهو في هذه الأمثلة ونحوها يدل على الثبوت كالصفة المشبهة بل هو صفة مشبهة " ^(٨٣٢) ؛ وذلك لأن " صيغة (فاعل) وحدها لا تكفي للدلالة على أن الكلمة المعينة هي (فاعل) بل يجب ملاحظة الحدث الدالة عليه من حيث الثبوت أو عدمه ، فحين نقول : هذا إنسان حاضر البديهة لا نعني به (حاضر) صيغة فاعل وإنما أردنا الصفة المشبهة بدليل القرينة اللفظية وهي الإضافة التي أشعرتنا بدوام الحدث وثبوته و(مالك) أو (خالق) في قولنا : الله مالك يوم الدين وخالق الأكوان وصفان ليسا طارئين ولا محدودين بزمان معين لأن هذا لا يناسب الباري ولهذا كانت تلك الصيغ صفات مشبهات وليست صيغ فاعل " ^(٨٣٣). ويتضح من ذلك أثر المعنى في تحديد ما يدل عليه اسم الفاعل .

وقد جاء اسم الفاعل في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه دالاً على معنى الثبوت إذ استعمله القرآن الكريم للتعبير عن صفة الحمد والشكر والتسبيح في الموصوفين بهذه الصفات .

- (١) أوضح المسالك : ٢٤٨/٢ ، وينظر : النحو الوافي : عباس حسن : ١٨٧/٣ ، أبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٢٥٩ ، موجز التصريف : ٧٥ .
- (٢) ينظر : العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية ، عبد القاهر الجرجاني : ٢٩٤ ، إيجاز التعريف في علم التصريف ، ابن مالك : ٢٣ ، تصريف الأسماء في اللغة العربية ، د. شعبان صلاح : ٣٤ .
- (٣) ينظر : شرح الحدود النحوية ، عبد الله أحمد الفاكهي : ١٤١ ، معاني الأبنية الصرفية في مجمع البيان (رسالة) : ٤٠ .
- (٤) ينظر : المفصل في صنعة الإعراب : ٢٨٤ ، شرح الاشموني : ٢٣٠/٢ .
- (٥) ينظر : اسم الفاعل بين الاسمية والفعلية ، فاضل مصطفى الساقى : ٨٠ .
- (٦) معاني الأبنية في العربية ، د. فاضل السامرائي : ٥٢ .
- (٧) الصرف الوافي : ٩٠ ، وينظر : الصرف ، د. أسعد النجار : ٧٦ .

ومما ورد منه في سياق الحمد قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ

الْمَلَكَةِ رُسُلًا﴾ (فاطر: من الآية ١) .

ف(فاطر) و(جاعل) اسما فاعل دلّا على ثبوت هاتين الصفتين في الله جل وعلا ، ومعنى فاطر السماوات والأرض مبتدعهما وخالقهما مبتدئا على غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه^(٨٣٤) ، ودلالته في سياق الحمد " أنه من أسمائه تعالى أجري صفة لله والمراد بالوصف الاستمرار دون الماضي فقط ؛ لأن الإيجاد مستمر وفيض الوجود غير منقطع ولو انقطع لانعدمت الأشياء ، والإتيان بالوصف بعد الوصف للإشعار بأسباب انحصار الحمد فيه تعالى ، كأنه قيل : الحمد لله على ما أوجد السماوات والأرض وعلى ما جعل الملائكة رسلا أولي أجنحة فهو تعالى محمود ، ما أتى فيما أتى إلا الجميل " ^(٨٣٥).

وإذا ما علمنا أن الحمد ثابت لله تعالى وأن إثبات الجملة الاسمية (الحمد لله) في التعبير عن حمده جل وعلا إنما هو للدلالة على ثبوت الحمد ودوامه لله عز وجل^(٨٣٦) فإنه سيتضح أن هناك مقابلة في الدلالة على الثبوت (ثبوت الحمد وثبوت صفات الله) ، وكأن دلالة اسم الفاعل على الثبوت في سياق الحمد بمثابة التعليل لثبوت الحمد له تعالى فإن قال قائل : لم كان الحمد لله ثابتا ؟ فالجواب هو أنه لما كانت صفاته تعالى كخلقه السماوات والأرض وجعله الملائكة رسلا ثابتة له دالة على أنه المنعم الدائم الثابت إنعامه على خلقه كان حمده على ما هو ثابت من صفاته وإنعامه ثابتا أيضا .

ومن دلالة اسم الفاعل في سياق الحمد أيضا قوله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿التَّسْبُحُونَ

الْعَبْدُونَ الْحَمْدُونَ﴾ (التوبة : من الآية ١١٢) ف(الحامدون) اسم فاعل وهو يدل على الحدث

وهو حمد الله تعالى وعلى فاعله وهم المؤمنون وعلى ثبات هذه الصفة فيهم ؛ لأنهم " الذين يحمدون الله على كل حال ما امتحنهم به من خير أو شر " ^(٨٣٧).

(١) ينظر : الكشف : ٨٧٩ ، مجمع البيان : ٥١٦/٨ ، إرشاد العقل السليم : ٤٦١/٥ .

(٢) الميزان : ٣/١٧ ، وينظر : المعجزات القرآنية ، بديع الزمان النورسي : ١٣١ .

(٣) ينظر : كتاب سيبويه : ٣٢٩/١ ، معاني القرآن ، أبو جعفر النحاس : ٢٢/١ ، الكشف : ٢٧ ، التفسير الكبير :

١٩١/١ ، تفسير التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور : ١٥٧/١ ، تفسير القرآن الكريم ، صدر المتألهين الشيرازي :

٧٤ ، ٧٣/١ ، وينظر تفصيل هذا الموضوع في صفحة ١٩٤ من هذه الرسالة .

(١) جامع البيان : ٤٥/١١ ، وينظر : مجمع البيان : ٩٧/٥ .

وأشار بعض الباحثين إلى أنّ الثبوت الذي يدل عليه اسم الفاعل قد يكون بمعنى الاستمرار التجديدي^(٨٣٨) ، وهو ما يمكن أن يقال في اسم الفاعل (الحامدون) فهو دال على ثبوت الصفة في المؤمنين وعلى تجدد حمدهم لله تعالى فكلما أنعم الله جل وعلا عليهم بنعمة أو ابتلاهم ببلاء حمدوه ، وأحسب أنّ تجدد الحمد واستمراره من المؤمن هو ما يجعله يكتسب صفة (الحامد) الثابت الحمد لله تعالى لأنّ الإنسان لا يتصف بشيء اتصافاً ثابتاً ما لم يُجبل عليه .

وبهذا المعنى أيضاً ورد اسم الفاعل في سياق الشكر والتسبيح ففي سياق الشكر قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ قَتْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (الأنعام : ٥٣) . ف(الشاكرين) اسم فاعل يدل على الاستمرار التجديدي ، إذ يدل

على الحدث وهو الشكر وعلى فاعله وهم عباد الله الذين يشكرونه ويدل أيضاً على أنّ هؤلاء الشاكرين مجبولون على الشكر متصفون به اتصافاً ثابتاً قائمون به قولاً وعملاً واعتقاداً وإخلاصاً^(٨٣٩) ، وهو يتجدد منهم كلّ حين فهم " الذين استقرت فيهم صفة الشكر على الإطلاق فلا يمسون نعمة إلا بشكر ، أي بأن يستعملوها ويتصرفوا فيها قولاً أو فعلاً على نحو يظهرون به أنها من عند ربهم المنعم بها عليهم (...) فذكر ربهم على هذه الوتيرة ينسيهم ذكر غيره إلا بالله ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ فلو أعطي اللفظ حق معناه لكان الشاكرون هم المخلصين " ^(٨٤٠) .

ومن دلالة استعمال اسم الفاعل في سياق الشكر ما ورد في قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ

السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان : ٣) إذ استعمل في الشكر اسم الفاعل ولم يستعمل في الكفر بل استعمل فيه صيغة المبالغة فما دلالة ذلك ؟

إنّ دلالة هذا الاستعمال تتلخص في ثلاثة أمور :

الأوّل : أنّ القرآن الكريم " جمع بين الشاكر والكفور ولم يجمع بين الشكور والكفور - مع اجتماعهما في معنى المبالغة - نفيًا للمبالغة في الشكر وإثباتاً لها في الكفر ؛ لأنّ شكر الله

(٢) ينظر : الصبر ودلالاته في القرآن الكريم (رسالة) : ٤٦ .

(٣) ينظر : تفسير المنار : ٤٢٩/٨ .

(٤) الميزان : ٣١/٨ ، وينظر : ٣٠/٨ ، ٢١٠/٢٠ . والنص القرآني من سورة الأحزاب من الآية : ٤ .

تعالى لا يُؤدّي فانتفت عنه المبالغة ولم تنتف عن الكفر بالمبالغة فقلّ شكره لكثرة النعم عليه وكثر كفره وإن قل مع الإحسان إليه " (٨٤١) .

والثاني : أنّ في التعبير عن الكفر بالمبالغة دون الشكر إشعاراً بأنّ الإنسان قلماً يخلو من كفران ما لنعم الله تعالى وإنما المؤاخذ عليه هو التوغل في الكفر والإفراط فيه (٨٤٢) .

والثالث : أنّ العدول إلى صيغة (كفور) جاء مراعاة للفواصل (٨٤٣) وذلك لأنّ جميع الكلمات التي انتهت بها آيات سورة الإنسان يكون الحرف ما قبل الأخير فيها واوا أو ياءً مثل (مذكورا ، بصيرا ، كفورا ، سعيرا ، سلسبيل) فإن انتهت الآية بـ(كافرا) كان ذلك خروجاً على الفواصل المتناسقة في السورة مما يفقدها إيقاعها الصوتي الجميل .

وورد اسم الفاعل من الشكر وصفاً لله تعالى في موضعين من القرآن الكريم (٨٤٤) هما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : من الآية ١٥٨) وقوله تعالى :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (النساء : ١٤٧) . ولما كانت

صفاته جلّ وعلا ثابتة في حقه تعالى فإنّ اسم الفاعل في الآيتين يدل على الثبوت ، ويدل أيضاً على الاستمرار التجديدي لأنّ معناه أنه "لم يزل سبحانه مجازياً لكم على الشكر فسمي الجزاء باسم المجزيّ عليه " (٨٤٥) .

ويرى الرازي أنّ الشاكر في حقه تعالى مجاز ومعناه المُجازي على الطاعة لأنّ الشاكر في اللغة هو المظهر للإنعام عليه وهذا في حق الله عز وجل محال (٨٤٦) ولاشك في أنّ المجازاة على الطاعة أمر متجدد بتجدد الطاعة نفسها مما يدل على معنى الاستمرار التجديدي في اسم الفاعل ، ولهذا المعنى في سياق الشكر دلالاته على أنّ الله تعالى لا يضيع أجر المطيعين مادام متصفاً على جهة الثبات والاستمرار بمجازاتهم وشكرهم على مسعاهم مما يرغب العباد في الصالحات .

أمّا في سياق التسبيح فقد ورد اسم الفاعل من التسبيح في موضعين أيضاً من القرآن الكريم (٨٤٧) ، كلاهما في سورة الصافات . الأول في مقام الإخبار عن نبي الله يونس - عليه

(١) النكت والعيون : ١٦٤/٦ .

(٢) ينظر : أنوار التنزيل : ٣٥٦/٤ ، إرشاد العقل السليم : ٤٤٠/٦ .

(٣) ينظر : المصدران أنفسهما والصفحتان أنفسهما .

(٤) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٨٦ .

(١) مجمع البيان : ١٦٤/٣ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ١٣٩/٤ .

(٣) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٣٤٠ .

وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام - ، قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ

إِلَى يَوْمٍ يُعْعَوْنَ﴾ (الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤) والمعنى لولا أنه كان " من الذاكرين الله كثيرا

بالتسبيح والتقديس " (٨٤٨) لصار بطن الحوت قبرا له إلى قيام الساعة (٨٤٩) ، غير أن تسبيحه - ﷺ - كان سبب نجاته من هذه المحنة العظيمة (٨٥٠) ، فاسم الفاعل (المسبحين) دل على أن نبي الله يونس - ﷺ - من الذين صار التسبيح لهم سجيّة لا تفارقهم وفي ذلك إشارة إلى أن إكثار التسبيح لله تعالى والاستمرار عليه والاتصاف به على جهة الثبوت منجاة من الهلكة ومدعاة إلى رحمة الله عز وجل .

أمّا الموضع الثاني فهو قوله تعالى في مقام الإخبار عن صفات الملائكة التي منها أنهم دائمو التسبيح لله جل وعلا ، قال تعالى حكاية عنهم : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (الصافات :

١٦٦) ، ولاشك في أن اسم الفاعل (المسبحون) يدل على ثبوت صفة التسبيح في الملائكة وتجدد تسبيحهم حيناً بعد حين ، لاسيما أن التسبيح حرفة الملائكة ولذتهم ، فهم مواظبون عليه لا ينفكون عنه لحظة واحدة بل إنهم يتنفسون التسبيح (٨٥١) .

(٤) الكشف : ٩١٣ .

(٥) ينظر : مجمع البيان : ٥٩١/٨ .

(٦) ينظر : نفحات قرآنية ، علي محمد علي دخیل : ١٢٧ ، نهايات الآيات القرآنية بين إعجاز المعنى وروعة الموسيقى ، د. أحمد عبد المجيد محمد خليفة : ١٥٨ .

(١) ينظر : التفسير الكبير : ٢٧ / ٤٨١ ، ٥٦٧ .

دلالة صيغ المبالغة

إنَّ الغرض الذي تؤديه صيغ المبالغة هو تأكيد المعنى وتقويته والمبالغة فيه^(٨٥٢) وقد عدَّ الباقلاني (ت: ٤٠٣ هـ) المبالغة في القرآن الكريم من وجوه إعجازه، وهي عنده الدلالة على كثرة المعنى^(٨٥٣).

ولما كانت صيغة اسم الفاعل تحتمل القلة والكثرة في الدلالة على الحدث فإنها تحول إلى صيغ المبالغة للدلالة على تكثير الحدث والمبالغة فيه^(٨٥٤)، ولذلك يرى ابن عصفور (ت: ٦٦٩ هـ) أنَّ صيغ المبالغة بمنزلة (مُفَعَّل)؛ لأنَّ فعل المبالغة هو (فَعَّل) - يفعل^(٨٥٥) إذ لا شك في أنَّ (مُقَطَّعاً) مثلاً دالة على التقطيع في حين تدل (قاطع) على القطع لا التقطيع.

(١) ينظر: المقتضب: ١١٢/٢، المرجع في علم الصرف، د. سميح أبو مغلي: ٢٧.
 (٢) ينظر: إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني: ٢٦٨.
 (٣) ينظر: النحو الوافي: ٢٠٠/٣، ٢٠١، عمدة الصرف: ٩٤، المذهب في علم التصريف: ٢٦٢، الصرف الوافي: ٩٤.
 (٤) ينظر: المقرَّب، ابن عصفور الأشبيلي: ١٤٠/١.

ومن أمثلة ورود المبالغة في سياق الحمد قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ ﴿(الفاتحة : ٢، ٣) .

ذكر بعض الصرفيين أنَّ صيغة (فَعِيل) إذا اشتقت من فعل لازم فهي صفة مشبهة ، وإذا اشتقت من فعل متعدٍ فهي صيغة مبالغة نحو : رحيم ^(٨٥٦) .

أما صيغة (فَعْلان) نحو : رحمان ، فلم يذكر أكثر الصرفيين أنها من صيغ المبالغة ^(٨٥٧) ، غير أنَّ المفسرين ذكروا أنَّ (رحمن) جاءت على (فعلان) لإفادة معنى المبالغة من الرحمة فيرى الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ): " أنَّ قولنا (الرحمن) أبلغ في المعنى وأشد قوة من قولنا (الرحيم) ، وهذا المثال ممَّا وضعه أهل اللغة للمبالغة والقوة ، ألا ترى أنهم يقولون : سكران وغضبان وعطشان وجوعان لمن امتلأ سكرًا وغضبًا وعطشًا واشتد جوعه " ^(٨٥٨) ، أي إنَّ في (الرحمن) من المبالغة ما ليس في الرحيم ^(٨٥٩) . وقال الزركشي : " أمَّا (فعلان) فهي أبلغ من (فَعِيل) ومن ثَمَّ قيل : الرحمن أبلغ من الرحيم - وإن كانت صيغة فَعِيل - من جهة أنَّ (فعلان) من أبنية المبالغة كغضبان للممتلئ غضبًا " ^(٨٦٠) .

وقال السيد الطباطبائي : " الرحمن فعلان ، صيغة مبالغة تدل على الكثرة " ^(٨٦١) .

ويبدو أنَّ السيد الخوئي قد تنبّه إلى أنَّ من الصرفيين من لم يعدّ صيغة (فعلان) من صيغ المبالغة إذ يقول : " وقال غير واحد من المفسرين وبعض اللغويين إنَّ صيغة الرحمان مبالغة في الرحمة وهو كذلك في خصوص هذه الكلمة سواء أكانت هيئة (فعلان) مستعملة في المبالغة أم لم تكن فإنَّ كلمة الرحمن في جميع موارد استعمالها محذوفة المتعلق فيستفاد منها العموم وأنَّ رحمته وسعت كل شيء " ^(٨٦٢) .

وفصّل أحد المفسرين القول في هذه المسألة فهو يرى أننا إذا اعتبرنا في (رحمن) الأصل الاشتقاقي ، وهو أنها مشتقة من الرحم أو أنها صفة لازمة للذات فالرحمن على وزن (فعلان) صفة مشبهة ، أما إذا اعتبرنا فيها أنها مأخوذة من الرحمة حال تعديها فهي - بلا

-
- (٥) ينظر : الاشتقاق : ٣٦٥ ، دراسات في علم الصرف ، د. عبد الله درويش : ٥٢ .
 (٦) ينظر : مراح الأرواح في الصرف : ٧١ ، ٧٢ ، عمدة الصرف : ٩٤ ، ٩٥ ، موجز التصريف : ٧٧ ، ٧٨ ، التطبيق الصرفي : ٦٨ ، الصرف الوافي : ٩٤ - ٩٦ .
 (٧) أجوبة المسائل القرآنية ، الشريف المرتضى : ٤٤ .
 (٨) ينظر : الكشف : ٢٦ ، تفسير القرآن الكريم ، السيد عبد الله شبر : ٦٠٥ .
 (٩) البرهان في علوم القرآن : ٥٠٢/٢ .
 (٣) الميزان : ١٦/١ ، وينظر : منة المنان في الدفاع عن القرآن ، السيد محمد صادق الصدر : ٤٥ .
 (٤) البيان في تفسير القرآن : ٤٣٠ .

شك - صيغة مبالغة^(٨٦٣). ومن المفسرين من يرى أنّ (الرحيم) صفة مشبهة وليست صيغة مبالغة^(٨٦٤) غير أنّ السيد جعفر مرتضى العاملي ذكر أنّ اقتران كلمة (الرحيم) بصيغة المبالغة يشير إلى أنها صيغة مبالغة مثلها إذ ينبغي وجود تجانس فيما بين الصفتين سوغ للذوق أنّ يعقب إحداها بالأخرى، إذ لو كانت إحداها للمبالغة من دون الأخرى لضعف الانسجام ثم ذكر أنه لا يستبعد أنّ التعبير القرآني جاء بكلمة (رحيم) التي هي صيغة مبالغة على شكل الصفة المشبهة ليفيد المعنيين معا وهما تمامية الصفة في موصوفها ؛ لأنها صيغة مبالغة والدوام والثبات لهذه الصفة لأنها على شكل الصفة المشبهة^(٨٦٥).

ومما هو جدير بالذكر أنّه وإن كان بين صيغتي (الرحمن والرحيم) فرق من حيث الاستعمال القرآني^(٨٦٦) فإنهما دالتان على سعة رحمته تعالى وثباتها وكأنهما اسم واحد^(٨٦٧) ولعل في هذا وما تقدّم من أقوال ردّا على من يقول : " إنّ صيغة (فعالن) تفيد التجدد والحدوث وصيغة (فعليل) تفيد الثبوت ، فجمع الله سبحانه لذاته الوصفين إذ لو اقتصر على (رحمن) لظن ظان أنّ هذه صفة طارئة قد تزول كعطشان وريان " ^(٨٦٨).

ودلالة المبالغة بالرحمة في سياق الحمد هي " أنّ المعنى: وجب الحمد لله لأنه الرحمن الرحيم " ^(٨٦٩). بمعنى أنه تعالى لرحمته استحق الحمد ، فرحمته جلّ وعلا مصدر الألفاظ والنعم ، أي أنّ نعمه تعالى صادرة بموجب رحمته لا بموجب استحقاق العبد لها فالمبالغة بالرحمة هنا تُشعر بعظمة هذه النعمة التي هي مصدر كل نعمة مما يكشف عن العلة في اختصاص الحمد بالله تعالى وثبوته له ويبعث على المواظبة على حمده جلّ وعلا .

ومن أمثلة المبالغة في سياق الحمد أيضا أنه لم يأت في القرآن الكريم وصف الله تعالى من مادة الحمد إلا بالحميد^(٨٧٠) ، وهو على صيغة (فعليل) التي هي صيغة مبالغة ؛ لأنها مأخوذة من فعل متعدٍ كما ألمعنا قبل قليل ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ﴾ (البقرة : من الآية ٢٦٧) وقوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ

(٥) ينظر : مفتاح أحسن الخزائن الإلهية : ١٩٢/١ .

(٦) ينظر : الميزان : ١٦/١ .

(٧) ينظر : تفسير سورة الفاتحة : ٣٤ ، ٣٥ .

(١) ينظر في ذلك : البيان في روائع القرآن ، د. تمام حسان : ٢٩٤ - ٢٩٧ ، الإعجاز العددي في القرآن ، د. لبيب بيضون : ١٨ .

(٢) ينظر : منة المنان في الدفاع عن القرآن : ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) معاني الأبنية في العربية : ٩٢ .

(٤) أسرار التكرار في القرآن ، محمود بن حمزة الكرمانى : ٢٠ .

(٥) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٢١٨ .

الْحَمِيدُ ﴿ (لقمان : ٢٦) . ف " الحميد فعيل، صرف من مفعول إلى فعيل ومعناه المحمود بآلائه" (٨٧١) .

وذهب الرازي إلى أن (الحميد) يحتمل أن يكون بمعنى (محمود) أو (حامد) والمعنى أن الناس يحمدهونه تعالى على ما أنعم فهو محمود ، أو أن يحمد هو الناس على فعلهم الخيرات فهو حامد^(٨٧٢) غير أنه ذكر في موضع آخر ما يتعارض مع ما ذهب إليه فقال : " والله إذا قيل له (الحميد) لا يكون معناه إلا الواصف أي الذي وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة " (٨٧٣)

ومعنى هذا ألا يكون (الحميد) بمعنى المحمود الذي يحمده العباد بل هو بمعنى الحامد فحسب .

وأحسب أن قصر (الحميد) على معنى (الحامد) - زيادة على كونه يتعارض مع ما ذكره من قبل - ليس صحيحاً لأن (الحميد) مأخوذ من (حمد) المتعدي، فإن أخذ من : حمد الله العباد فهو (حميد) بمعنى (حامد) ، وإن أخذ من حمد العباد الله فهو (حميد) بمعنى (محمود) وهو مثل (حفيظ) في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ (ق : من الآية ٤) إذ يحتمل أن يكون بمعنى (حافظ) لما أودع فيه وكتب أو بمعنى (محفوظ) من الشياطين والتغيير والبلى^(٨٧٤) .

وتدل المبالغة في (الحميد) إذا كان بمعنى (الحامد) على التأكيد على فعل الخيرات والترغيب فيها ، إذ قد بالغ تعالى في أنه يحمد العباد عليها ، أما إذا كان (الحميد) بمعنى (المحمود) فتدل الصيغة على المبالغة في استحقاقه عز وجل للحمد وأن الحمد مختص به ثابت له تبارك وتعالى .

وفي سياق الشكر وردت صيغة (فعول) للدلالة على المبالغة في الشكر، سواء أكان في وصف الله تعالى أم في وصف العباد ، ومما جاء منها في وصفه عز وجل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (الشورى : من الآية ٢٣) . وقد ألمعنا من قبل إلى أن الشاكر في حقه تعالى مجاز^(٨٧٥) فالشكور كذلك وهو مبالغة في توفية ثواب الطاعة^(٨٧٦) بمعنى أنه تعالى " يعامل

(٦) جامع البيان : ٢١٣/١٣ ، وينظر : الميزان : ٣٩٦/١٤ .

(١) ينظر : التفسير الكبير : ٢٦٧/٧ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢٧/٢٥ .

(٣) ينظر : الكشف : ١٠٤٣ ، مجمع البيان : ١٧٩/٩ .

(٤) ينظر : ١٠٧ من هذه الرسالة.

عباده معاملة الشاكر في توفية الحق حتى كأنه ممن وصل إليه النفع فشكره " (٨٧٧). وفي ذلك مدعاة إلى عمل الطاعات ؛ إذ إنه تعالى قد بالغ في أنه يشكرها .

ومما جاء من صيغة (فعل) في وصف العباد بالشكر قوله تعالى في وصف نبيه نوح - عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام :- ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء : ٣) بمعنى إنه -عليه السلام- كان كثير الشكر إذ كان إذا لبس ثوبا أو أكل طعاما أو شرب ماء أو قضى عملا شكر الله تعالى (٨٧٨). وفي المبالغة بوصفه بالشكور " إيذان بأن إنجاء من معه كان ببركة شكره عليه الصلاة والسلام وحث على الاقتداء به " (٨٧٩) ، وفي ذلك إشارة إلى أهمية كثرة شكر الله عز وجل ؛ ولذلك وصف تعالى المكثرين من شكره بالقلّة فقال عز من قائل : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ : من الآية ١٣) والفرق بين الشاكر والشكور من ثلاثة أوجه :

الأول : أن الشاكر من لم يتكرر شكره ، والشكور من يتكرر شكره .

والثاني : أن الشاكر على النعم ، والشكور على البلوى .

والثالث : أن الشاكر خوفه أغلب ، والشكور رجاؤه أغلب (٨٨٠) .

فالشكور - إذن - هو " المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ، ومع ذلك لا يوفي حقه ؛ لأنّ توفيقه للشكر نعمة تستدعي شكرا آخر لا إلى نهايته ؛ ولذلك قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر " (٨٨١) .

وقد جاءت في سياق التسبيح صيغة (فعل) المأخوذة من الفعل المتعدي للدلالة على المبالغة ، وهي صيغة (عليم) (٨٨٢) في قوله تعالى حكاية عن الملائكة : ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ

لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة : من الآية ٣٢) فـ " العليم من صفات

(٥) ينظر : الكشف : ٩٧٨ .

(١) مجمع البيان : ٣٩/٩ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٥١٣/٦ ، التفسير الكبير : ٢٩٨/٢٠ .

(٣) إرشاد العقل السليم : ٤٠٤/٤ .

(٤) ينظر : النكت والعيون : ٤٤٠/٤ .

(٥) أنوار التنزيل : ٤٠١/٣ ، وينظر إرشاد العقل السليم : ٤٤٢/٥ ، فروق اللغات : ١٢٠ .

(٦) ينظر : تصريف الأسماء في اللغة العربية : ٤٢ ، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ٥٧ .

المبالغة التامة في العلم ، والمبالغة التامة لا تتحقق إلا عند الإحاطة بكل المعلومات وما ذاك إلا هو سبحانه وتعالى ، فلا جرم ليس العليم المطلق إلا هو " (٨٨٣).

ودلالة هذه المبالغة في سياق تسبيحه عز وجل هي أنّ جواب الملائكة بهذا يؤذن بأنهم رجعوا إلى ما كان يجب أن لا يغفل مثلهم عنه ، وهو التسليم لسعة علمه جل وعلا وحكمته (٨٨٤) أي أنهم عبروا عن علمه تعالى بصيغة المبالغة زيادة في تنزيهه عز وجل بإرجاع الأمور كلها إلى علمه تبارك وتعالى بعد أن : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

الدَّمَاءَ ﴾ (البقرة : من الآية ٣٠) .

ومن صيغ المبالغة صيغة (فَعَّال) (٨٨٥) ، وتأتي للدلالة على تكرار وقوع الفعل مرة بعد أخرى أي تكرير الفعل بمعنى أنه " إذا فعل الفعل وقتنا بعد وقت قليل : فَعَّالٌ مثل : علام وصَبَّار " (٨٨٦) . ومن ذلك ما ورد في سياق التسبيح في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ

يَسْبِخْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۖ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص : ١٨ ، ١٩) .

فـ (أَوَّاب) صيغة مبالغة على وزن (فَعَّال) وأفادت المبالغة في ترجيع الجبال والطير بالتسبيح مع داود - عليه وعلى نبينا وآله السلام - والمعنى كل ذلك مسبِّح لله تعالى (٨٨٧) ، وتدل المبالغة هنا على إكثار ذكر الله تعالى وإدامة تسبيحه وتقديسه (٨٨٨) . وإذا كان الملائكة

قد بالغوا في إثبات العلم لله تعالى فقالوا : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ زيادة في تنزيهه عز

وجل - كما مرّ بنا قبل قليل - فإنّ نبي الله عيسى - عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام - فعل الشيء نفسه فـ ﴿ قَالَ سُبْحَنكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ

مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَْلَمُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة : من الآية ١١٦) ، فنزّه

(١) التفسير الكبير : ٤٢٥/٢ ، وينظر : إرشاد العقل السليم : ١٧٤/١ .

(٢) ينظر : تفسير المنار : ٢١٩/١ .

(٣) ينظر : المقصود في علم الصرف ، المنسوب إلى أبي حنيفة النعمان : ١١٦ ، كتاب سيبويه : ٦٤٠/٣ المقتضب : ١١٢/٢ ، المخصص ، ابن سيدة : ٦٩/١٥ .

(٤) الفروق اللغوية : ٣٦ .

(٥) ينظر : جامع البيان : ٢٣ / ١٦١ ، البحر المحيط : ٣٧٤/٧ .

(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٥٥٨/٥ .

-عليه السلام- ربه من أن يكون قد قال هو شيئاً لم يعلمه عز وجل فبالغ في وصف علمه فعبر عن ذلك بصيغة المبالغة (علام) ، وذكر الماوردي وجهين للفرق بين العلم والعالم :

الأول : أن العلم الذي تقدم علمه ، والعالم الذي حدث علمه .

والثاني : أن العلم الذي يعلم ما كان وما يكون ، والعالم الذي يعلم ما كان ولا يعلم ما يكون (٨٨٩)

وهذان الوجهان لا يمكن أن يصحاً أبداً في حقه تعالى ؛ لأنه عز وجل وصف نفسه بأنه (عالم) في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن الكريم^(٨٩٠) فهل يصح أنه تعالى - بوصفه عالماً - قد حدث علمه أو أنه لا يعلم ما يكون ؟ ! سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

ومن لطائف الاستعمال القرآني هنا أنه جاءت كلمة (غيب) مفردة مع (عالم) في مواضع ورودها جميعاً نحو : عالم الغيب ، في حين جاءت كلمة (علام) في أربعة مواضع من القرآن الكريم^(٨٩١) ، وقد جاءت معها كلها كلمة (غيب) جمعاً نحو : علام الغيوب ومنها ، الآية التي نحن في مقام الحديث عنها ، وهذا تتناسق بدیع إذ قرن التعبير القرآني ما يدل على الكثرة والمبالغة (علام) بما هو كثير (غيب) .

ويبقى السؤال هنا : هل إذا قلنا : علام الغيوب ، دل ذلك على أنه تعالى يعلم أكثر مما لو قلنا : عالم الغيب ؟ .

الجواب من وجهين :

الأول : ذكر الزركشي أنه يستحيل عود المبالغة إلى نفس الوصف ؛ إذ العلم بالشيء - بالنسبة إليه تعالى - لا يصح التفاوت فيه فيجب صرف المبالغة فيه إلى المتعلق ، إما لعموم كل أفراد أو يكون المراد الشيء ولو اوحقه . فالمبالغة إذن بالنسبة إلى تكثير التعلق لا بالنسبة إلى تكثير الوصف^(٨٩٢) ، ولعل مما يعضد ذلك مجيء صيغة المبالغة (علام) مع الجمع (الغيوب) .

والثاني : هو أنه لا فرق بين التعبيرين من حيث الدلالة على حقيقة علم الله جل وعلا ، فعلمه أزلي واحد ، ولكن يبقى للسياق أثره في أي التعبيرين أكثر ملاءمة له ؟ كما أن السياق الذي وردت فيه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها يقتضي التعبير بالمبالغة والجمع (علام)

(١) ينظر : النكت والعيون : ٨٧/٢ .

(٢) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٤٧٥ ، والمواضع هي : الأنعام : ٧٣ ، التوبة : ٩٤ ، ١٠٥ ، الرعد : ٩ ، المؤمنون : ٩٢ ، السجدة : ٦ ، سبأ : ٣ ، فاطر : ٣٨ ، الزمر : ٤٦ ، الحشر : ٢٢ ، الجمعة : ٨ ، التغابن : ١٨ ، الجن : ٢٦ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ٤٧٨ ، والمواضع هي : المائدة : ١٠٩ ، ١١٦ ، التوبة : ٧٨ ، سبأ : ٤٨ .

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٥٠٨/٢ .

الغيوب) لأنه ورد في سياق تسبيح الله جل وعلا وتنزيهه عن أن يكون لا يعلم شيئا قد قاله أحد عباده ، فيكون وصفه تعالى بأنه علام الغيوب أبلغ في تنزيهه عز وجل عما لا ينبغي له .

ونختم دلالة صيغ المبالغة بقوله تعالى في سياق التسبيح أيضا : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ

وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الزمر : ٤) فقولته تعالى: (

هو الله الواحد القهار) استئناف مبين لتنزهه تعالى عن أن يتخذ ولدا فهو الواحد في ذاته المتعالية لا يشاركه فيها شيء ، ولا يماثله فيها أحد ^(٨٩٣) .

ودلالة صيغة المبالغة (القهار) في سياق التسبيح هي بيان أن " اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت [الغير] عرضة للفناء ليقوم ولده مقامه عند فناءه ، ومن هو مستحيل الفناء قهار لكل الكائنات كيف يتصور أن يتخذ من الأشياء الفانية ما يقوم مقامه ؟ " ^(٨٩٤) ، وكأن المبالغة في كونه تعالى قاهرا لكل ما سواه علة تنزهه جلّ وعلا عن أن يتخذ ولدا .

دلالة الجمع

الجمع : هو ما يدل على ما فوق الاثنين أو الاثنين وهو ضربان : جمع تصحيح ، وجمع تكسير ، وجمع التصحيح ضربان :

جمع مذكر سالم ، وجمع مؤنث سالم ^(٨٩٥) ، وسمي جمع تصحيح ؛ لأنه يصح فيه لفظ الواحد ويسلم بخلاف جمع التكسير الذي يتغير بناء الواحد منه عند جمعه ^(٨٩٦) .

ونقتصر هنا على دلالة جمع المذكر السالم وجمع التكسير .

يعرّف جمع المذكر السالم بأنه " ما لحق آخره واو مضموم ما قبلها ، أو ياء مكسور ما قبلها ونون مفتوحة " ^(٨٩٧) ، ويكون القياس في جمع صفات الذكور بالواو والنون أو الياء

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٥/٥٨٤ ، الميزان : ٢٤٩/١٧ .

(٣) إرشاد العقل السليم : ٥/٥٨٤ ، هكذا وردت في النص ، والصحيح : غيره ؛ لأنّ (ال التعريف) لا تدخل على (غير)

(١) ينظر : الاشتقاق : ٢٨٢ ، أبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٢٩٢ ، الصرف الحديث في بيان القرآن والحديث : ٧٣ ، معاني الأبنية في العربية : ١٢٩ .

(٢) ينظر : الصرف الوافي : ١٦٢ .

والنون^(٨٩٨) ولذلك لم يرد جمع المتصفين بالحمد أو الشكر أو التسبيح إلا جمع مذكر سالما .
 قال تعالى : ﴿ التَّسْبُؤْنَ الْعَبْدُونَ الْحَمْدُونَ السَّحُونَ ﴾ (التوبة : من الآية ١١٢) وقال عز
 وجل : ﴿ وَسَجَّزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران : من الآية ١٤٥) وقال جل وعلا في سياق
 الإخبار عن النبي يونس - عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام - : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ
 الْمُسَبِّحِينَ ﴾ (الصافات : ١٤٣) .

ودلالة جمع المذكر السالم في هذه الصفات هو أن فيه دلالة على الحدث^(٨٩٩) لمشابهة
 الصفات للأفعال ، قال الرضي الاسترأبادي : " اعلم أن الأصل في الصفات أن لا تكسر ،
 لمشابتها الأفعال وعملها عملها ، فيلحق للجمع بأواخرها ما يلحق بأواخر الفعل وهو الواو
 والنون " ^(٩٠٠) . ومعنى هذا أن (الحامدين) فيها دلالة على إتيانهم بالحمد وهو الحدث
 و(الشاكرين) فيها دلالة على إحداث الشكر لله جل وعلا و(المسبحين) تدل على إحداث
 التسبيح له تعالى وهذا ما يشعر باستمرار الحمد والشكر والتسبيح لله تبارك وتعالى ودوامه
 في جميع الأوقات .

ومن دلالة جمع المذكر السالم في سياق الحمد جمع (العالمين) في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاحة : ٢) فـ (العالمين) جمع (عالم) وهو ملحق بجمع المذكر السالم ؛
 لأن مفردة اسم جنس جامد^(٩٠١) .

قال الزمخشري : " فإن قلت : لم جمع ؟ قلت : ليشمل كل جنس مما سمّي فإن قلت : هو
 اسم ليس صفة وإنما تجمع بالواو والنون صفات العقلاء أو مما في حكمها من الأعلام ؟ قلت
 : ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه وهي الدلالة على معنى العلم " ^(٩٠٢) .

(٣) كتاب التعريفات : ٦٢ ، وينظر : النحو الوافي : ١٣١/١ .
 (٤) ينظر : شرح شافية ابن الحاجب : ١٢٤/٢ ، دراسات في علم الصرف : ١٣٧ ، أبنية الأسماء في اللغة العربية ،
 أحمد محمد الشيخ : ٢١٧ .
 (٥) ينظر : معاني الأبنية في العربية : ١٤٥ ، الصبر ودلالاته في القرآن الكريم (رسالة) : ٥٢ .
 (٦) شرح شافية ابن الحاجب : ١١٦/٢ .
 (١) ينظر : شرح ابن عقيل : ٦٣/١ ، المرجع في علم الصرف : ٣٨ .
 (٢) الكشف : ٢٧ ، ٢٨ ، وينظر : تفسير ابن عربي ، الشيخ محيي الدين ابن عربي : ٨/١ ، مدارك التنزيل : ١٩/١ .

ويرى المفسرون أنّ (العالم) جمع لا واحد له من لفظه ؛ لأنّ العالم هو كل موجود سوى الله تعالى^(٩٠٣) .

ودلالة جمع (العالمين) في سياق الحمد تتضح من جهتين :

الأولى : أنه يدل على العموم في ملك الله تعالى وقدرته حتى أنّ أبا السعود نزّله منزلة جمع الجمع فقال : " فكما أنّ الأقاويل تتناول كل واحد من آحاد الأقوال يتناول لفظ العالمين كل واحد من آحاد الأجناس التي لا تكاد تحصى " ^(٩٠٤) ، وهذا العموم مشعر باستحقاق الحمد لمن عمّ نواله كلّ هذه العوالم ، وهو الله ﷻ .

والجهة الثانية : هي أنّ في جمعه بالواو والنون " إشارة إلى أنّ نظر البلاغة يصور كل جزء من أجزاء العالم بصورة حي عاقل متكلم بلسان الحال ، إذ العالم اسم ما يعلم به الصانع ويشهد عليه ويشير إليه " ^(٩٠٥) . فكأنّ في ذلك دلالة على أنّ من يعلم به كل جزء من أجزاء العوالم ويشير إليه ويشهد بربوبيته حقيق بأن يكون له الحمد ، ولا حمد لغيره ، وكيف يكون لغيره حمد وهو - بلا شك - جزء من هذه العوالم التي هي ملك له جلّ وعلا .

أما جمع التفسير فحدّه أنه " ما دل على ثلاثة فأكثر مع تغيير ضروري يحدث لمفرده عند الجمع " ^(٩٠٦) ، وإنما سمّي بهذا الاسم تشبيها بتكسير الأنية ونحوها : " لأنّ تكسيرها إنما هو دلالة على إزالة التثام الأجزاء التي كان لها قبل فلما أزيل النظم وفُكّ النضد في هذا الجمع أيضا عما كان عليه واحده سمّوه تكسيرا " ^(٩٠٧) .

وجموع التكسير نوعان : جموع قلة ، وجموع كثرة^(٩٠٨) ، ولكل نوع صيغه التي يأتي عليها^(٩٠٩) .

ويستعمل جمع القلة للدلالة على ما لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد على عشرة في حين يستعمل جمع الكثرة للدلالة على ما يزيد على العشرة إلى ما لانهاية^(٩١٠) .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ٩٧/١ ، تفسير القرآن العظيم : ٢٣/١ ، فتح القدير : ٢٣/١ ، تفسير القرآن الكريم ، صدر المتألهين الشيرازي : ٧٨/١ .

(٤) إرشاد العقل السليم : ٣٧/١ .

(٥) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، بديع الزمان النورسي : ٣٦ .

(١) الصرف الوافي : ١٦٢ .

(٢) كتاب التكملة : ٣٩٨ .

(٣) ينظر : شرح ألفية ابن مالك / ابن الناظم : ٢٩٤ ، أبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، أبنية الأسماء في اللغة العربية : ٢١٧ .

(٤) تنظر هذه الصيغ في : موجز التصريف : ٥٤-٦٢ ، المذهب في علم التصريف : ١٨٣ - ٢٠٢ ، الإمام في الصرف العربي : ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٥) ينظر : الصرف الوافي : ١٦٢ .

ومن دلالة جمع القلة في سياق الشكر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا

اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران : من الآية ١٢٣) ، فـ (أذلة) جمع ذليل ، وهو جمع قلة

على وزن (أفعلة) " وإنما قال (أذلة) ولم يقل (ذلائل) تنبيهاً على قلتهم مع ذلتهم لضعف الحال وقلة المراكب والسلاح " (٩١١) ولا يعني جمع القلة هذه أن عددهم لا يزيد على العشرة ؛ لأن المسلمين في واقعة بدر كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً (٩١٢) ، غير أن إثارة جمع القلة هنا للإشعار بنعمة الله جل وعلا عليهم إذ نصرهم وهم على هذه الحال من القلة والذلة والضعف ، فهم قلة موازنة بكثرة المشركين ومعنى ذلتهم أنهم كانوا قليلي العدد والعدد قبال ما كان المشركون عليه من القوة والشوكة والزينة (٩١٣) ، ولا غضاضة في الذل إلا إذا كان عن قهر الطغاة والظالمين (٩١٤) .

وإذا كان جمع القلة في الآية يشعر بنعمة نصر الله المؤمنين فإنه يكون أدعى إلى شكره تعالى على ما أنعم عليه لأنه يذكرهم دائماً أنه تعالى نصرهم مع قلتهم وذلتهم .

ومن دلالة جمع القلة في سياق الشكر أيضاً ما جاء في قوله تعالى في إبراهيم - عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام - : ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: ١٢١) . فالأنعم جمع نعمة وهو جمع قلة على وزن (أفعل) ، ولو جمع جمع كثرة لقليل : نعم على وزن (فعل) .

وقد بين الرازي دلالة إثارة جمع القلة في سياق الشكر فقال : " فإن قيل : لفظ الأنعم جمع قلة ونعم الله تعالى على إبراهيم - عليه السلام - كانت كثيرة فلم قال (شاكراً لأنعمه) ؟

قلنا : المراد أنه كان شاكراً لجميع نعم الله عز وجل وإن كانت قليلة فكيف الكثيرة " (٩١٥) وفي ذلك إشعار بأن على الإنسان أن يشكر النعم القليلة أولاً فذلك مدعاة إلى زيادتها ونمائها .

وأحسب أن معنى القلة والكثرة في نعم الله أمر خاضع لمقتضى الظاهر أمّا من حيث الجوهر فإن كل ما عندنا من نعم الله هو مدّ الفيض الإلهي الذي لا يوصف بالقلة مهما رأيناه في الظاهر قليلاً وما أحسن قول الشاعر مخاطباً الله تعالى :

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل (٩١٦)

(٦) أنوار التنزيل : ٢٨٦/١ ، وينظر : إرشاد العقل السليم : ١٢٦/٢ .

(٧) ينظر : تفسير المنار : ٩٠/٤ .

(٨) ينظر : الميزان : ٦/٤ .

(٩) ينظر : تفسير المنار : ٩٠/٤ .

(١) التفسير الكبير : ٢٨٤/٢٠ ، وينظر : إرشاد العقل السليم : ٣٩٣/٤ .

ومن دلالة جمع الكثرة في سياق الشكر قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلاً

يَشْكُرُونَ﴾ (يس : ٧٣) .

فـ(منافع) جمع منفعة ومشارب " جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشرب " (٩١٧) والجمعان على وزن (مفاعل) وهو من جموع الكثرة ويسمى بشبه (فعالل) (٩١٨) " وهو وزن يشبه (فعالل) من حيث عدد الحروف ومن حيث الضبط وإن كان الميزان غير مشابه له ، وذلك مثل مساجد ، وزنها ليس (فعالل) وإنما يشبهه إذ هو (مفاعل) فعدد الحروف واحد والضبط واحد " (٩١٩) .

ودلالة هذين الجمعين في سياق الشكر أنهما يدلان على كثرة نعم الله جل وعلا الذي جعل لعباده في الأنعام منافع ومشارب كثيرة تستلزم شكره تعالى عليها ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿أَفْلاً يَشْكُرُونَ﴾ .

أما في سياق التسبيح فقد ورد جمع التكسير في أوقات التسبيح لله عز وجل التي ذكرها القرآن الكريم وقد احتمل المفسرون - كما سيتضح - أن يكون التسبيح في هذا السياق بمعنى الصلاة أو يكون بمعنى ذكر الله وتنزيهه ، وعلى أساس من ذلك ستختلف دلالة الجمع .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (طه: ١٣٠) فـ(أناء) جمع إنى (٩٢٠)

وهو على وزن (أفعال) الذي هو من جموع القلة ، وأناء الليل ساعاته (٩٢١) و(أطراف) جمع (طرف) وهو على وزن(أفعال) ، ودلالة هذين الجمعين إذا كان التسبيح بمعنى الصلاة هي أن (أناء الليل) بمعنى صلاة الليل، أو بمعنى صلاة المغرب والعشاء الآخرة (٩٢٢) و(أطراف النهار) بمعنى صلاة الظهر " وسمي وقت صلاة الظهر أطراف النهار ؛ لأن وقته عند

(٢) البيت موجود - بلا نسبة - في معترك الأقران في إعجاز القرآن ، جلال الدين السيوطي : ٤٧٣/٣ .

(٣) الكشف : ٨٩٩ ، وينظر : التفسير الكبير : ٣٠٦/٢٦ .

(٤) ينظر : المذهب في علم التصريف : ٢٠٢ ، الصرف ، النجار : ١٦٥ .

(١) التطبيق الصرفي : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٩٦ ، مجمع البيان : ٥٠/٧ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ١٧/٢ .

(٣) ينظر : مجمع البيان : ٥١/٧ ، تفسير القرآن العظيم : ١٧٥/٣ .

(٤) ينظر : مجمع البيان : ٥١/٧ .

الزوال وهو طرف النصف الأول وطرف النصف الثاني " (٩٢٣) ، أما إذا كان التسبيح بمعنى ذكر الله وتنزيهه فإن دلالة الجمعين هي المداومة على حمد الله تعالى وتسبيحه في جميع الأوقات (٩٢٤) .

ولإيثار الجمع في (أطراف) - مع أنّ للنهار طرفين - أسبابه ، قال الرازي " لقائل أنّ يقول : النهار له طرفان فكيف قال (وأطراف النهار) بل الأولى أن يقول كما قال : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ وجوابه : من الناس مَنْ قال : أقل الجمع اثنان فسقط السؤال ، ومنهم من قال : إنما جمع ؛ لأنه يتكرر في كل نهار ويعود " (٩٢٥) .

وجاء في (التسهيل لعلوم التنزيل) : " وسمّى الطرفين أطرافاً لأحد وجهين : إما على نحو ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ وإما على أن يجعل النهار للجنس فكل يوم طرف " (٩٢٦) .

ومن دلالة الجمع ما ورد في قوله تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿ (النور : ٣٦ ، ٣٧) .

ف " الآصال جمع : أصل ، وأصل جمع أصيل ، وهو العشي وقيل : أصل واحد كطنب " (٩٢٧) . ودلالة هذا الجمع إذا كان التسبيح بمعنى الصلاة أن العشي شامل لأوقات الصلاة ما عدا صلاة الفجر المؤداة بالغداة وهي أول النهار (٩٢٨) ، وإذا كان التسبيح بمعنى ذكر الله وتنزيهه تعالى فإن (الآصال) مع الغدو تدل على شمول تسبيحه عز وجل في جميع الأوقات

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٦) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(١) التفسير الكبير : ١١٤/٢٢ والنص القرآني من سورة هود من الآية : ١١٤ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل : ١٧/٢ ، والنص القرآني من سورة التحريم ، من الآية ٤ . والذي يقصده بقوله " على نحو (فقد صغت قلوبكما) " أحد الآراء التي قيلت في جمع (قلوب) مع أنهما قلبان لأن المخاطب في ذلك هما زوجتا النبي - ﷺ - عائشة وحفصة في سورة التحريم ، وما قيل هو أنّ التثنية جمع في المعنى فوضع الجمع موضع التثنية كما قال تعالى : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (الأنبياء : من الآية ٧٨) وإنما هما داود وسليمان - عليهما وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام - ينظر : مجمع البيان : ٣٩٧/٩ ، الدرس الصرفي والنحوي عند مكي بن أبي طالب القيسي (أطروحة) : ٤٧ ، ٤٨ .

ومعنى ذلك في الآية أنّ (أطراف) جمع وضع موضع التثنية لأن التثنية جمع في المعنى على ما قيل .

(٣) البيان في غريب إعراب القرآن : ٣٨٢/١ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٢٠/٥ .

، لاسيما أنّ " إفراد طرفي النهار بالذكر لقيامهما مقام كلها ؛ لكونهما العمدة فيها بكونهما مشهورين وكونهما أشهر ما يقع فيه المباشرة للأعمال والاشتغال بالأشغال " (٩٢٩).

ونختتم دلالة الجمع بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ (ق : ٣٩ ، ٤٠) .

فـ (أدبار) جمع دبر^(٩٣٠) ، وهو جمع قلة على وزن (أفعال) والمراد منه إذا كان التسبيح بمعنى الصلاة الركعتان بعد صلاة المغرب ، أو النوافل بعد المفروضات ، أو الوتر من آخر الليل^(٩٣١) وصرّح الطبري بأنه لولا إجماع أهل التأويل على أنّ المراد بـ(أدبار السجود) هو الركعتان بعد صلاة المغرب لاختار أنّ المراد به النوافل بعد المفروضات ؛ " لأنّ الله جل ثناؤه لم يخصص بذلك صلاة دون صلاة ، بل عمّ أدبار الصلوات كلها فقال (وأدبار السجود) ولم تقم بأنه معنيّ به دبر صلاة دون صلاة حجة " (٩٣٢) .

وهذا ما اختاره أبو السعود^(٩٣٣) أما إذا كان التسبيح بمعنى ذكر الله وتنزيهه فإنّ المراد من : (أدبار السجود) هو أن يسبّح المصلي بعد كل صلاة لله جل وعلا تسبيحا باللسان^(٩٣٤) ، وفي الجمع إشعار بأنه لا يكتفى في تسبيحه تعالى بدبر صلاة واحدة في كل يوم مثلاً بل تأكيد دوام تسبيحه جل وعلا بعد كل صلاة وهذا حث للعباد على أن لا ينفكوا عن ذكر الله عز وجل وتنزيهه .

المناسبة في فواتح السور وخواتمها

المناسبة في اللغة : المقاربة ، يقال : فلان يناسب فلاناً أي يقرب منه ويشاكله ومنها : النسب الذي هو القريب المتصل^(٩٣٥) .

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(١) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣٠٧ .

(٢) ينظر : جامع البيان : ٢٦١/٢٦ ، مجمع البيان : ١٩١/٩ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٣٠٥/٢ .

(٣) جامع البيان : ٢١٢/٢٦ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٩٨/٦ .

(٥) ينظر : مجمع البيان : ١٩١/٩ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٣٠٤/٢ .

(١) ينظر : الصحاح : ٢٢٤/١ ، لسان العرب : ٦/١ .

وتعني المناسبة في الاصطلاح " ترتيب المعاني المتأخية التي تتلاءم ولا تتنافر والقرآن الكريم كله متناسب لا تنافر فيه ولا تباين " (٩٣٦) وقال الزركشي : " اعلم أن المناسبة علم شريف ، تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول " (٩٣٧).

وذكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) أن " علم مناسبات القرآن علم تُعرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر البلاغة ؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها ؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو " (٩٣٨).

ويبدو أن مدار الأمر في ذلك أن لكل قول غاية ينتهي إليها ، ولا بد أن ينعقد أوله بآخره ، وأن يكون له في نفس القارئ والسماع تصوّر وتقرير ، ولا يتم ذلك إلا بارتباط الكلام بعضه ببعض (٩٣٩) وفائدة هذا العلم هي " جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء " (٩٤٠).

وأنواع المناسبة في القرآن الكريم كثيرة ، منها ما يكون في الآية الواحدة كالمناسبة بين صدر الآية وخاتمتها ، ومنها ما يكون بين الآيات كالمناسبة بين الآية وما قبلها ، ومنها ما يكون بين السور كالمناسبة بين السورتين في موضوعهما أو مناسبة فاتحة السورة لخاتمة السورة التي قبلها (٩٤١).

وما يعيننا في فواتح السور هو مناسبة فاتحة السورة لغرض السورة من جهة ؛ لأنّ أوائل السور ملخص لها ودليل إلى مقصدها (٩٤٢) ، ومناسبتها لخاتمة السورة التي قبلها. أمّا ما يعيننا في خواتم السور فهو المناسبة بين الآية التي هي الخاتمة وما قبلها من آيات ، إذ نتبين من خلالها دلالة ختم السورة بالحمد والتسبيح .

وقد ذكر الزركشي والسيوطي أنّ من الوهم أن لا تطلب المناسبة في القرآن الكريم بحجة أنه نزل على وفق الوقائع المتفرقة ، لأنّ المصحف على وفق الوقائع تنزيلاً وعلى وفق الحكمة ترتيباً وتأصيلاً ، فهو على وفق اللوح المحفوظ مرتبة سورته وآياته كلها بالتوقيف ،

(٢) كتاب الفوائد ، المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان : ٨٧ ، ٨٨ .

(٣) البرهان في علوم القرآن : ٣٥/١ .

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين البقاعي : ٥/١ ، وينظر : التناسب القرآني عند الإمام البقاعي ، مشهور موسى مشهور : ٥٢ .

(٥) ينظر: دلائل الإعجاز : ٢٧ .

(٦) البرهان في علوم القرآن : ٣٦/١ .

(٧) ينظر : جواهر البيان في تناسب سور القرآن ، أبو الفضل الغماري الحسني : ٢٠ ، مفهوم النص ، دراسة في علوم القرآن ، دراسة في علوم القرآن ، د. نصر حامد أبو زيد : ١٦٠ ، ١٦٨ ، التناسب القرآني عند الإمام البقاعي : ٨٨-١١٦ .

(٨) ينظر : التناسب القرآني عند الإمام البقاعي : ١٣٠ .

فلو استفتي حافظ القرآن في أحكام متعددة ، أو ناظر فيها ، أو أملاها ، لذكر آية كل حكم على ما سئل ، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى ، ولا كما نزل مفرقا ، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة^(٩٤٣) ، ومرجع ذلك إلى أن ترتيب الآيات والسور ترتيب توقيفي ، أمر

به النبي محمد - ﷺ - (عليه وآله وآله وصحبه وسلم) - (٩٤٤).

وإذا كان علم أسباب النزول يربط الآية أو السورة بسياقها التاريخي ، فإن علم المناسبة يبحث في أوجه الترابط بين الآيات والسور في الترتيب الحالي للنص^(٩٤٥) إذ يعدّ التحليل الدلالي السبيل الوحيدة التي تفضي إلى استكناه المقاصد القرآنية واستنطاقها ، وتبيان المناسبات الفنية واستجلائها ، إذ يتطلب ذلك حسا صائبا ونظرا ثاقبا^(٩٤٦).

المناسبة في فواتح السور

ذكر البلاغيون أن حسن الافتتاح في الكلام ركن من أركان البلاغة، وحقيقته ترجع إلى أن مُفْتَتِحَ الكلام ينبغي أن يكون ملائما لمقصده دالاً عليه^(٩٤٧) ؛ لذا " فإنك تجد الافتتاحات في القرآن الكريم على أحسن ما يكون وأبلغه لملاءمة المقصود " ^(٩٤٨) قال ابن الأثير (ت: ٦٢٩ هـ) : " وكيفك من هذا الباب الابتداءات الواردة في القرآن الكريم كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور " ^(٩٤٩).

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٧/١ ، معترك الأقران : ٤٤/١ .
(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٨/١ ، التعبير في علم التفسير ، جلال الدين السيوطي : ١٧٢ ، مباحث في علوم القرآن : ٧١ ، ١٥١ ، مفهوم النص : ١٥٩ ، لا خلاف في أن ترتيب الآيات توقيفي ، غير أن الخلاف وقع في ترتيب السور ، فمنهم من ذهب إلى أنه اجتهادي ، ومنهم من قال : إنه توقيفي ، لا يدخله الرأي والاجتهاد كترتيب الآيات ، ومنهم من فصل فقال : منه ما هو توقيفي ، ومنه ما هو اجتهادي . ينظر : مختصر علوم القرآن : ١٧٩ ، ١٨٠ ، والراجح عند الزركشي والسيوطي وصبحي الصالح وغيرهم - كما نقلناه عنهم - أن ترتيب السور توقيفي .

(٤) ينظر : مفهوم النص : ١٩٥ .
(٥) ينظر : البحث الدلالي في تفسير الميزان ، دراسة في تحليل النص ، د. مشكور كاظم العوادي : ١٩٢ .
(١) ينظر : المثل السائر : ٩٧/٣ ، ٩٨ ، البرهان في إعجاز القرآن ، أو بديع القرآن ، ابن أبي الأصبع المصري : ٩٨ ، كتاب الطراز : ٣٣٠ .
(٢) كتاب الطراز : ٥٦٨ .
(٣) المثل السائر : ٩٨/٣ .

ومفهوم حسن الافتتاح هو " أن يُتَأَقَّ في أول الكلام ؛ لأنه أول ما يقرع السمع فإن كان محرراً قِيلَ السامع قَبْلَ الكلام ووعاه ، وإلا أعرض عنه ، وإن كان في نهاية الحسن ، فينبغي أن يؤتى به بأعذب اللفظ وأرقه ، وأجزله وأسلسه ، وأحسنه نظماً وسبكاً ، وأصحَّ معنى وأوضحه ، وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير الملبس ، أو الذي لا يناسب . قالوا : وقد أتت فواتح السور على أحسن الوجوه وأكملها كالتحميدات وحروف النداء والهجاء وغير ذلك " (٩٥٠).

وجاءت فواتح السور القرآنية على عشرة أنواع ، فمن السور ما فُتِحَ بالثناء ومنها ما فتح بحروف التهجي ومنها بحروف النداء وغير ذلك (٩٥١) ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإنَّ من الخطأ الواضح أن يعرف بعض الباحثين فواتح السور بأنها الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن (٩٥٢).

والذي يعنينا من أنواع الفواتح العشرة هو النوع الأول ، وهو الافتتاح بالثناء لأنَّ هذا الثناء على قسمين :

الأول : إثبات لصفات المدح . والثاني : نفي وتنزيه من صفات النقص (٩٥٣) ، والمراد بالأول الافتتاح بالحمد وبالثاني الافتتاح بالتسبيح .

وذكر الزركشي أنَّ من الأول الافتتاح بـ(الحمد لله) في خمس سور وبـ(تبارك) في سورتين ومن الثاني الافتتاح بالتنزيه في سبع سور ، فهذه أربع عشرة سورة افتتحت بالثناء على الله تعالى ، نصفها لإثبات صفات الكمال فيه عز وجل ، ونصفها الآخر لسلب النقائص عنه جل وعلا ، وهذا سر عظيم من أسرار الألوهية (٩٥٤) .

أولاً : الافتتاح بالحمد :

-
- (٤) معترك الأقران : ٥٨/١ .
 (٥) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٦٤/١ - ١٧٨ ، معترك الأقران : ٥٨/١ - ٦٤ وباقي أنواع الفواتح هي : الافتتاح بالجملة الخبرية ، الافتتاح بالقسم ، الافتتاح بالشرط ، الافتتاح بالأمر ، الافتتاح بالاستفهام ، الافتتاح بالدعاء ، الافتتاح بالتعليل . ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٧٩ - ١٨١ ، جواهر البيان : ١٥٢ - ١٥٤ .
 (٦) ينظر : البيان في إعجاز القرآن ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي : ١٥٤ ، مدخل الدراسات القرآنية ، د. السائح علي حسين : ٣٥٣ .
 (٧) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٦٤/١ .
 (٨) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٦٤/١ ، ١٦٥ ، والسور المفتتحة بالحمد هي : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ وفاطر ، والسورتان المفتحتان بـ(تبارك) هما : الفرقان ، والملك .
 أما السور المفتتحة بالتنزيه (أي : التسبيح) فهي : الإسراء ، والحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن والأعلى .

السور المفتحة بالحمد خمس ، هي سورة الفاتحة ، وسورة الأنعام ، وسورة الكهف ، وسورة سبأ ، وسورة فاطر ، وقد قسّم الرازي هذه السور بحسب ورودها في المصحف الشريف على ثلاث مجموعات ، إذ ذكر أنّ سورتين منها في النصف الأول من المصحف ، وهما سورة الأنعام وسورة الكهف ، وسورتين منها في النصف الأخير منه وهما سورة سبأ وسورة فاطر . والسورة الخامسة هي فاتحة الكتاب ، تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير^(١٥٥) . وعلى أساس هذا التقسيم شرع الرازي في ذكر المناسبة بين هذه الافتتاحات الخمسة .

وملخص ما ذكره أنّ الحكمة في هذا الترتيب أنّ نعم الله تعالى مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين هما : نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء ، وهاتان النعمتان حاصلتان في كلتا النسأتين الدنيا والآخرة ، فقال تعالى في النصف الأول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام : من الآية ١) إشارة إلى حمده جل

وعلا على نعمة الإيجاد في الحياة الدنيا ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ

﴾ (الأنعام : من الآية ٢) ، وقال في السورة الثانية من النصف الأول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ

عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (الكهف : ١) إشارة إلى الحمد على نعمة الإبقاء في

الحياة الدنيا ؛ لأنّ البقاء يكون بالشرائع فلولا شرع ينقاد له الخلق لاتباع كل واحد هواه ، ولوقعت المنازعات وأدى ذلك إلى التقاتل والتفاني ثم قال تعالى في سورة سبأ ، وهي السورة الأولى من النصف الثاني : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ

الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (سبأ : ١) إشارة إلى نعمة الإيجاد في الحياة الآخرة

ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ ، وقال في السورة الثانية من النصف

الثاني : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثَلَاثَ

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٢٥ / ١٩٠ ، ٢٢١/٢٦ .

وَرَبَّ ﴿ (فاطر : من الآية ١) إشارة إلى نعمة الإبقاء في الحياة الآخرة ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ ؛ لأنَّ الملائكة لا يكونون رسلاً إلا يوم القيامة ، يرسلهم الله عز وجل مسلمين على عبادته كما قال تعالى: ﴿ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ (الأنبياء : من الآية ١٠٣) وقوله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبِّئْتُ فَأَدْخُلُوهَا خِلْدِينَ ﴾ (الزمر : من الآية ٧٣) ، أما سورة الفاتحة فإنها لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة : ٢) إشارة إلى النعمة في الحياة الدنيا وقوله تعالى ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة : ٣) إشارة إلى النعمة في الحياة الآخرة قرئت في الافتتاح والاختتام^(٩٥٦) .

وقد ذكر كلام الرازي هذا أبو حفص الدمشقي(ت: ٨٨٠هـ) ، وزاد عليه أنه لو قيل : قد ذكرت أن في فاتحة سورة سبأ إشارة إلى النعم التي في الآخرة فلماذا ذكر الله تعالى السماوات والأرض ؟ فالجواب أن نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله جل وعلا النعم المرئية وهي ما في السماوات وما في الأرض ثم قال : (وله الحمد في الآخرة) لتتناسل نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها^(٩٥٧) .

وليس يخفى ما في الذي ذكره الرازي وتابعه فيه أبو حفص الدمشقي من اعتماد على بعض الآية من جهة ، ومن تأويل من جهة أخرى بحثاً عن المناسبة بين السور الخمس المفتحة بالحمد ، ومثال الأول الاعتماد على قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ (سبأ : من الآية ١) في الدلالة على أن الحمد في الآية على نعمة الإيجاد في الحياة الآخرة ، والحال أن باقي الآية يمكن أن يدل دلالة واضحة على أن الحمد في الآية يكون على نعم الدنيا أيضاً وهو قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (سبأ : من الآية ١)

(١) التفسير الكبير : ١٩٠/٢٥ ، ٢٢١/٢٦ .

(٢) ينظر : اللباب في علوم الكتاب : ٤/١٦ .

فتكون الآية جامعة للحمد على النعم في الدارين الدنيا ودار الآخرة وهذا ما ذكره بعض المفسرين^(٩٥٨).

ومن ذلك أيضا الاعتماد على قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا﴾ (فاطر: من الآية

(١) في الدلالة على أن الحمد في الآية على نعم الآخرة ، والحال أن في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ

لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر: من الآية ١) دلالة على أن الحمد على نعم الدنيا ومنها خلق السماوات والأرض .

ومثال الثاني وهو التأويل ما ذكره الرازي في قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

فلما ذكر أن الحمد في الآية إنما يكون على نعم الآخرة احتاج إلى أن يؤول جملة (فاطر السماوات والأرض) بأن المعنى : شاقفهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض^(٩٥٩).

ومن التأويل ما ذكره أبو حفص الدمشقي من أن المراد من ذكر السماوات والأرض في فاتحة سورة سبأ هو أن نعم الآخرة غير مرئية ، فذكر تعالى النعم المرئية وهي ما في السماوات وما في الأرض لتتنقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ، وما هذا التأويل إلا لأنه تابع الرازي على أن النعم التي حُمد الله عز وجل عليها في هذه الآية هي نعم الآخرة . ثم لو أننا سلمنا لهذا التأويل فإن الآية تبقى دالة على نعم الدنيا أيضا وهي - حسب التأويل المذكور - النعم المرئية التي في السماوات والأرض فلماذا يُقصر الحمد فيها إذاً على أنه حمد على نعم الحياة الآخرة فقط؟! ومن التأويل أيضًا - بحثًا عن المناسبة - أن تقصر دلالة قوله تعالى ﴿

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على نعم الدنيا ، والحق أن دلالتها مطلقة تشمل نعم الدنيا والآخرة ؛

لأنه لا يفهم من لفظ (العالمين) أنها الحياة الدنيا فقط ؛ لاسيما أن أهل الجنة يحمدون الله تعالى على نعمه بهذه العبارة ، قال تعالى مخبرًا عنهم : ﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ

وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس : ١٠) .

(١) ينظر : الكشف : ٨٦٧ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ١٦١/٢ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٢٦ / ٢٢١ .

وهناك مناسبة أخرى بين فواتح السور المفتحة بالحمد ، مفادها أنّ سورة الفاتحة افتتحت بقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة : ٢) فوصف الله جل وعلا بأنه مالك جميع المخلوقين ، ولم يوصف تعالى في فاتحة سورة الأنعام والكهف وسبأ وفاطر بذلك ، بل بفرد من أفراد صفاته ، فوصف بخلقه السماوات والأرض والظلمات والنور في الأنعام ، وإنزاله الكتاب في الكهف وأنه مالك ما في السماوات وما في الأرض في سبأ وخالقهما في فاطر ؛ وذلك لأنّ الفاتحة أمّ القرآن ومطلعه فناسب الإتيان فيها بأبلغ الصفات وأعمها وأشملها^(٩٦٠)

وسنتبين - فيما يأتي - المناسبة في فاتحة كل سورة من السور المفتحة بالحمد:

١- فاتحة سورة الفاتحة :

افتتح الله تعالى كتابه الكريم بسورة الفاتحة ؛ ولذلك سميت بهذا الاسم^(٩٦١) . وأوضح السيوطي دلالة افتتاح القرآن الكريم بسورة الفاتحة فقال : " ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه ، يسمى براعة الاستهلال ، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله ، والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن ؛ فإنها مشتملة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة " ^(٩٦٢).

وقد افتتحت هذه الفاتحة بالحمد وذلك في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة : ٢)^(٩٦٣) ، ومناسبة افتتاحها بالحمد أن الله تعالى أرشد عباده بذلك إلى أن يبتدئوا بحمده جل وعلا على ما أنعم عليهم^(٩٦٤) ؛ إذ إنّ كلمة الحمد كبيرة جداً ، فهي بحجم الفيوضات الإلهية على الموجودات كلها ، فليس من المصادفة أن تكون أول كلمة بعد البسملة في سورة الفاتحة - التي تقرأ مرات في الصلاة كل يوم - هي كلمة الحمد^(٩٦٥) والصلاة هي عبادة يراد منها تعظيم الله تعالى ، والحمد هو أظهر مصاديق ذلك التعظيم ، لذلك بدأت به السورة^(٩٦٦) .

(١) ينظر : معترك الأقران : ٦٣/١ .

(٢) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٦٢١ ، مفتاح أحسن الخزان الإلهية : ٢١/١ .

(٣) معترك الأقران : ٥٨/١ .

(١) قد يقال : إنّ سورة الفاتحة افتتحت بالبسملة ، وهي أول آية منها ، هذا صحيح ، غير أنّ المفسرين ذكروا أنّ سورة الفاتحة افتتحت بالحمد وأنّ القرآن الكريم افتتح بالحمد، ولعل مرجع ذلك إلى أنّ البسملة جاءت في بداية كل سورة من سور المصحف الشريف فصار ما بعدها افتتاحاً للسورة .

(٢) ينظر : البرهان في تناسب سور القرآن ، أحمد بن الزبير الثقفى : ٧٨ .

(٣) ينظر : تفسير سورة الفاتحة ، العاملي : ٤٤ .

(٤) ينظر : دراسات عن سور القرآن ، الشيخ محمد جواد المحنصر : ٢٠٦/١ .

وجرياً على سنة القرآن الكريم في الافتتاح بالحمد صار افتتاح كل كلام بالتحميد سنة أيضاً مثل خطبة الجمعة وخطبة العيدين وافتتاح المؤلفات العلمية^(٩٦٧).

أما مناسبة فاتحة سورة الفاتحة بالحمد للبسملة فقد قال عنها البقاعي : " ولما كانت البسملة نوعاً من الحمد ، ناسب كل المناسبة تعقيبها باسم الحمد الكلي الجامع لجميع أفرادها ، فكأنه قيل : احمده ؛ لأنه المستحق لجميع المحامد " ^(٩٦٨) ، ولعله يقصد بكون البسملة نوعاً من الحمد أنها تدل على ذكر الله تعالى في بداية كل عمل ، فهي بمثابة الحمد له جل وعلا على ما أنعم ويسر .

ويرى بديع الزمان النورسي أنّ المناسبة بين الحمد والبسملة تكمن في أنّ صفتي الرحمن والرحيم لمّا دلتا على النعم استوجبنا التعقيب بالحمد^(٩٦٩) ومعنى دلالة صفتي الرحمن والرحيم على النعم أنّ رحمة الله تعالى هي مصدر الإنعام على الموجودات .

٢- فاتحة سورة الأنعام :

افتتحت هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ

الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام : ١) .

ومناسبة افتتاحها بالحمد هي أنّ غرضها هو توحيد الله تعالى ، بمعنى أنّ للإنسان ربّاً هو رب العالمين جميعاً ، منه يبدأ كل شيء ، وإليه ينتهي ويعود كل شيء ، أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين ، يهدي بهم عباده إلى دينه ، فافتتحت بالحمد لله تعالى ليكون كالمقدمة لما يراد بيانه من معنى التوحيد ، وذلك بتضمين الحمد ما هو محصل غرض السورة ؛ ليتوصل بذلك إلى الاحتجاج عليه تفصيلاً وتضمينه العجب منهم ولومهم على أن عدلوا بالله جل وعلا غيره ؛ ليكون ذلك كالتمهيد على ما سيرد من جمل الوعظ والإنذار والتخويف^(٩٧٠) ، وقيل : إنما افتتحت هذه السورة بالحمد ؛ لعظيم ما تضمنته من الموضوعات المهمة ، والخوارق

(٥) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ١٥٢/١ ، جواهر البيان : ٢٢ ، ٢٣ .

(٦) نظم الدرر : ١٤/١ .

(٧) ينظر : إشارات الإعجاز : ٣٣ .

(٨) ينظر : الميزان : ٣ ، ٢ / ٧ .

للعادة ، مثل : خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وخلق الإنسان من طين ، وذكر المراحل التي يمر بها منذ النشأة حتى يصير إنساناً عاقلاً ، ثم انقضاء الأجل بانتهاه حياته في الدنيا ثم الانتقال إلى عالم الآخرة ، ثم الإعادة للبعث لأجل الجزاء ، وغير ذلك من التفصيلات^(٩٧١) إذ لاشك في أن ما تضمنته السورة يشير إلى عظيم قدرته تعالى ونعمته فناسب ذلك أن تبدأ ببيان أنه جل وعلا وحده المستحق للحمد على هذه الصنائع العجيبة .

أما مناسبة فاتحة هذه السورة لخاتمة السورة التي قبلها ، فقد ذكر البقاعي أنه لما خُتمت سورة المائدة بتحميد عيسى - عليه السلام - ثم حمد الله نفسه بشمول الملك والقدرة إذ الحمد هو الوصف بالجميل ، افتتح تعالى هذه السورة بالإخبار بأن ذلك الحمد وغيره من المحامد مستحق له جل وعلا استحقاقاً ثابتاً دائماً قبل إيجاد الخلق وبعده سواء حمده العباد أم لم يحمده^(٩٧٢) .

والذي يقصده بتحميد عيسى - عليه السلام - هو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَْلَمُ الْغُيُوبِ ﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المائدة : ١١٦ ، ١١٧) وما يقصده بحمد الله نفسه بشمول الملك والقدرة هو ما جاء في آخر آية من سورة المائدة وهي قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة : ١٢٠) .

وأورد الزركشي مناسبة أخرى بين فاتحة الأنعام وخاتمة المائدة من وجه آخر فقال : " وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، ثم هو يخفى تارة ، ويظهر أخرى ، كافتتاح سورة الأنعام بالحمد فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ "

(٢) ينظر : دراسات عن سور القرآن : ٢٠٦/١ .

(٣) ينظر : نظم الدرر : ٥٧٨/٢ ، تفسير حقائق الروح والريحان : ١٩٠/٨ .

(٩٧٣)، والمراد من فصل القضاء الوارد في ختام سورة المائدة هو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٩ ، ١٢٠] (٩٧٤).

٣- فاتحة سورة الكهف :

قال تعالى في فاتحة سورة الكهف : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ (الكهف : ١)

ذكر الطبري في بيان مناسبة هذه الفاتحة لغرض السورة أن الله جل ثناؤه افتتحها بذكر ما هو له أهل وهو الحمد إخباراً منه للمشركين من أهل مكة بأن محمداً - ﷺ - رسول الله - إذ إن الحمد فيها كان على إنزال الكتاب عليه - عليه الصلاة والسلام - ؛ وذلك لأن المشركين سألوا رسول الله - ﷺ - عن أشياء علمهم إياها اليهود من قريظة والنضير ، وأمرهم بأن يسألوه عنها ، وقالوا : إن أخبركم بها فهو نبي وإن لم يخبركم فهو متقول ، فوعدهم - ﷺ - للجواب عنها فأبطل الوحي عنه بعض الإبطاء ،

(١) البرهان في علوم القرآن : ٣٨/١ ، وينظر : معترك الأقران : ٥١/١ ، تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي : ٦٩/٧ ، والنص القرآني من الزمر ، من الآية : ٦٩ .
(٢) ينظر : الجمان في علوم القرآن ، محيي الدين عبد الرحمن : ٤٧ .

فتحدث المشركون بأنه أخلفهم مواعده وأنه متقول ، فأنزل الله تعالى هذه السورة جواباً عن مسائلهم ، وافتتح أولها بحمده وتكذيب المشركين في أحوثهم التي تحدثوها بينهم^(٩٧٥) .

وبيان مناسبة افتتاحها بالحمد لما تقدم أنه لما أبطأ الوحي وطعن المشركون بصدق النبي - ﷺ - أنزل الله عز وجل هذه السورة ردّاً عليهم ، ودلالة على أنه لم يقطع نعمه عن نبيه فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة^(٩٧٦) .

وقيل : لما ذكر تعالى في هذه السورة نعمة إنزال الكتاب وما نزل بقريش وكفار العرب يوم بدر وعام الفتح ، وبشارة المؤمنين بذلك ، وبما منحهم من النعيم الدائم ناسب أن تفتتح بالحمد له عز وجل على هذه النعم^(٩٧٧) .

ومناسبة فاتحة سورة الكهف لخاتمة السورة التي قبلها هي أنّ الله تعالى لما ختم سورة الإسراء بأمر النبي محمد - ﷺ - بالحمد له على تنزهه عما لا يليق له ؛ لكونه أعلم الخلق بذلك وذلك في قوله تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ

فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيراً ﴾ (الإسراء : ١١١) بدأت سورة الكهف

بالإخبار عن استحقاقه تعالى للحمد على صفاته التي منها البراءة مما لا ينبغي له ، وفي ذلك تنبيه على وجوب حمده جل وعلا لما شرع من الدين على هذا الوجه الأحكم بهذا الكتاب العظيم^(٩٧٨) ، وإذا كانت هناك مناسبة بين فاتحة الكهف وخاتمة الإسراء فإن هناك مناسبة أخرى بين ما افتتحت به السورتان ، مفادها أنّ سورة الإسراء افتتحت بالتسبيح ، وذلك بقوله تعالى ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ

﴾ (الإسراء : من الآية ١) في حين افتتحت سورة الكهف التي تأتي بعدها بالتحميد ؛ وذلك لأنّ التسبيح أينما جاء فهو مقدّم على التحميد ، ألا ترى أنه يقال : سبحان الله والحمد لله^(٩٧٩) وفي ذلك إثبات للكمال بعد نفي النقص ، فهو ترقّي في وصف الله تعالى والثناء عليه^(٩٨٠) وتوضيح ذلك أنّ التسبيح تنزيه لله جل وعلا عما لا يليق به من صفات النقص ، والحمد

(١) ينظر : جامع البيان : ٢٢٠/١٥ .

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٩/١ .

(٣) ينظر : البرهان في تناسب سور القرآن : ١٢٧ ، الجديد في تفسير القرآن المجيد : ٧/٣ .

(١) ينظر : نظم الدرر : ٤٤١/٤ ، جواهر البيان : ٥٧ ، تفسير المراغي : ١١٣/١٥ ، تفسير حقائق الروح والريحان : ٢٨٠/١٦ ، ٢٨١ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٢١/٤٢١ ، البرهان في علوم القرآن : ٣٩/١ ، روح المعاني : ١٨٩/٨ ، علوم القرآن ، د. عبد الفتاح أبو سنة : ٣٤ .

(٣) ينظر : جواهر البيان : ٥٧ .

تعظيم له على ما أنعم به على خلقه ، فالأول نفي للنقص عنه تعالى ، والثاني إثبات للكمال له عز وجل . وذكر الرازي في ذلك أن التسبيح هو أول الأمر لأنه تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي له ، فهو إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته ، ونهاية الأمر كونه تعالى مكملاً لغيره فلا جرم إذاً أن يقع الابتداء بقولنا : سبحان الله ثم بقولنا : الحمد لله ، تنبيهاً على أن مقام التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية ، وعلى أساس ذلك ذكر لفظ التسبيح عند الإسراء ولفظ التحميد عند إنزال الكتاب ؛ لأن فيه تنبيهاً على أن الإسراء بالنبي ﷺ (الذي عليه وآله وآله وصحبه وسلم) يقتضي حصول الكمال له ، وأن إنزال الكتاب عليه يقتضي كونه مكملاً لبني البشر^(٩٨١) .

٤- فاتحة سورة سبأ :

افتتحت هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (سبأ : ١) ، ومناسبة افتتاحها بالحمد هي أنه تعالى لما ذكر أنه مصدر النعم فهو الذي له لا لغيره ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات وكائنات ، ابتداء السورة بالحمد له على نعمه ، وخص الحمد في الآخرة بالذكر تفضيلاً لها على الدنيا الزائلة^(٩٨٢) . ويرى سيد قطب أن غرض السورة إثبات التوحيد لله تعالى وقد تحدت المشركين مرات في شأن الشركاء الذين يدعونهم من دون الله ، ومن ذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ ﴾ (سبأ : ٢٢) وفي موضوع التوحيد تبدأ السورة إذ افتتحت بالحمد لله جل وعلا^(٩٨٣) .

أما مناسبة هذه الفاتحة لما تضمنته السورة التي قبلها فهي أن الله تعالى افتتحتها بالحمد بعد أن ذكر ما انطوت عليه سورة الأحزاب التي قبلها من عظيم الآلاء وجليل النعماء^(٩٨٤)

(٤) ينظر : التفسير الكبير : ٤٢١ / ٢١ .

(١) ينظر : الجديد في تفسير القرآن المجيد : ٥٤٩/٥ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٢٨٨٨/٥ .

(٣) ينظر : البرهان في تناسب سور القرآن : ١٥٧ .

ومعنى ذلك أنه تعالى افتتح هذه السورة بالحمد على النعم التي تقدم ذكرها في السورة التي سبقتها .

٥- فاتحة سورة فاطر :

قال تعالى في افتتاح هذه السورة التي هي آخر السور المفتحة بالحمد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر : ١) ولا تختلف مناسبة افتتاحها كثيرا عن مناسبة افتتاح سابقتها ، فلما ذكر تعالى في سورة سبأ أنه مالك ما في السماوات وما في الأرض وأنه المستحق للحمد في الدنيا والآخرة . ذكر في هذه السورة أنه خالق السماوات والأرض وأنه المستحق للحمد على ذلك ، فالكل ملكه وخلقه وهو أهل الحمد ومستحقه^(٩٨٥) .

أما مناسبة هذه الفاتحة لما ختمت به السورة التي قبلها فهي أنه تعالى لما ذكر في آخر سورة سبأ هلاك المشركين - أعداء المؤمنين - وإنزالهم منازل العذاب - وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ (سبأ : ٥٤) - تعيين على المؤمنين حمد الله عز وجل فافتتح السورة التي تلت ذلك بإثبات الحمد له جل وعلا^(٩٨٦) .

وهناك من جعل هذه المناسبة كالمناسبة في ذكر الحمد بعد هلاك الظالمين في قوله تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام : ٤٥)^(٩٨٧) .

(١) ينظر : البرهان في تناسب سور القرآن : ١٥٩ ، جواهر البيان : ٨٠ ، ٨١ .
(٢) ينظر : البحر المحيط : ٢٨٤/٧ ، روح المعاني : ١١ / ٣٣٤ ، تفسير المراغي : ١٠٣/٢٢ ، تفسير حدائق الروح والريحان : ٢٣ / ٣٣٤ ..
(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٨/١ ، معترك الأقران : ٥١/١ ، جواهر البيان : ٨١ ، فواتح السور القرآنية ، دراسة بلاغية (رسالة) ، طالب عويد نايف : ٢٧ ، ٢٨ .

ثانياً : الافتتاح بالتسبيح

افتتحت بالتسبيح سبع سور من القرآن الكريم ، هي الإسراء ، والحديد ، والحشر والصف ، والجمعة ، والتغابن ، والأعلى . وفيما بين فواتح هذه السور مناسبة لطيفة مفادها أنّ الله تعالى بدأ تسبيحه بالمصدر في سورة الإسراء وذلك في قوله تعالى في فاتحتها : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (الإسراء : من الآية ١) ؛ لأنه الأصل ثم بالماضي في سورة الحديد وسورة الحشر وسورة الصف وذلك في قوله تعالى في الأولى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحديد : ١) وفي الثانية : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر : ١) وفي الثالثة : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الصف : ١) ؛ وذلك لأنّ الماضي أسبق الزمانين ، ثم بالمضارع في سورة الجمعة وسورة التغابن ، وذلك في قوله تعالى في الأولى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الجمعة : ١) ، وفي الثانية : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التغابن : ١) ، ثم بالأمر في سورة الأعلى وذلك في قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (الأعلى : ١) استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها وهذه أعجوبة وبرهان^(٩٨٨) وفيها دلالة على أنّ الموجودات منذ أن أخرجها الله تعالى من العدم إلى الوجود مسبحة له في جميع الأزمنة ولا يختص تسبيحها بوقت دون وقت وفي ذلك تعليم العباد استمرار تسبيح الله جل وعلا ودوامه^(٩٨٩) .

ونتعرف الآن مناسبة الافتتاح بالتسبيح في كل سورة من هذه السور :

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٦٥/١ ، معترك الأقران : ٦١/١ ، ٦٢ ، وجعل المصدر أصلاً جارٍ على ما يراه البصريون لأنّ الكوفيين يرون أنّ الأصل هو الفعل وليس المصدر .
(٢) ينظر : أنوار التنزيل : ٢٤١/٤ ، نظم الدرر : ٤٣/٩ ، مقتنيات الدرر : ٤١ / ١١ .

١- فاتحة سورة الإسراء :

افتتحت هذه السورة بقوله تعالى ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وافتتاحها بالتسبيح

للدلالة على أن الإسراء بالنبي محمد - ﷺ - من المعجزات العظيمة التي تنير دهشة السامع واستغرابه ، فلا يملك إلا أن يسبح الله تعالى تنزيهاً له وفي هذا دليل على أن الإسراء في حال اليقظة ، وهو إسراء بالجسم والروح لا أنه حدث في المنام ؛ لأن التسبيح إنما يكون عند الأمور العظام ، فلو كان الإسراء في المنام لم يكن أمراً كبيراً ولم يكن مستعظماً حتى يسبح الله جل وعلا عند ذكره^(٩٩٠) .

وذكر السيد الطباطبائي أن السورة تتعرض لأمر توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك مطلقاً فغلب فيها جانب التسبيح على جانب التحميد ، فبدئت بالتسبيح وكرر فيها مرة بعد مرة كقوله تعالى : ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء : ٤٣) وقوله تعالى : ﴿قُلْ

سُبْحَنَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء : من الآية ٩٣) وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ

سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (الإسراء : ١٠٨) حتى أن الآية الخاتمة للسورة -

وهي قوله تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

وَلِيُّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء : ١١١) - تحمد الله جل وعلا على تنزهه عن الشريك

والولي واتخاذ الولد^(٩٩١) .

أما مناسبة افتتاح السورة لما تضمنته السورة التي قبلها وهي سورة النحل فملخصها أنه لما كان مقصود سورة النحل بيان تنزه الله تعالى عن الاستعجال وغيره من صفات النقص ، وبيان اتصافه بصفات الكمال ، وأنه قادر على الأمور العظيمة ومنها جعل الساعة كلمح البصر أو أقرب ، وذكر إبراهيم - عليه السلام - والأمر باتباعه بالإشارة إلى نصر أوليائه مع

(١) ينظر : جواهر البيان : ٥٣ ، في التذوق الجمالي للآيات العشر الأولى مفتتح سورة الإسراء ، محمد علي أبو حمدة :

(٢) ينظر : الميزان : ٢ / ١٣ .

ضعفهم في ذلك الزمان وقلتهم على أعدائهم مع كثرتهم وقوتهم وكان ذلك من خوارق العادات، افتتح سورة الإسراء بما هو خرق العادات وهو الإسراء ، ونزّه نفسه عن توهم استبعاد ذلك تنبيهاً على أنه قادر على أن يفعل الأمور التي تبدو للناس عظيمة وهائلة^(٩٩٢).

٢- فاتحة سورة الحديد :

إنّ افتتاح هذه السورة بالتسبيح في قوله عز وجل ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ واضح التناسب مع ما ختمت به السورة التي قبلها وهي سورة الواقعة من الأمر به ، وذلك في قوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة : ٩٦) ، أي : إنّ الله تعالى أمر بالتسبيح ثم أخبر بأنّ هذا التسبيح المأمور به قد فعله والتزمه كل ما في السماوات وما في الأرض^(٩٩٣) ، فكان افتتاح سورة الحديد تعليل لخاتمة سورة الواقعة ، كأنه قيل : سَبِّحْ باسم ربك العظيم ؛ لأنه قد سبّح له ما في السماوات وما في الأرض^(٩٩٤).

٣- فاتحة سورة الحشر :

قال تعالى في فاتحة هذه السورة : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وقد ذكر البقاعي في بيان مناسبة افتتاح هذه السورة بالتسبيح بخاتمة السورة التي قبلها وهي سورة المجادلة أنه تعالى لما ذكر في المجادلة غضبه على اليهود في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (المجادلة : ١٤) ثم قال في خاتمة السورة : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١) ينظر : نظم الدرر : ٣٢٨/٤ ، في ظلال القرآن : ٢٢١١/٤ .

(٢) ينظر : البحر المحيط : ٢١٦ / ٨ ، معترك الأقران : ٥١/١ ، علوم القرآن : ٣٣ .

(٣) ينظر : نظم الدرر : ٤٣٢ / ٧ ، تفسير المراغي : ١٥٧ / ٢٧ ، تفسير حدائق الروح والريحان : ٤٢٨ / ٢٨ فواتح السور القرآنية (رسالة) : ٣٦ .

يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴿ (المجادلة : من

الآية ٢٢) وحصل من ذلك تنفير المؤمنين عنهم ، وكان الغضب مشيراً إلى ما ذكر من عظيم الشرك ، أتبعه بتنزيه نفسه فافتتح سورة الحشر بالتسبيح ، وإنما يرد مثل ذلك إثر ذكر جريمة تقع من العباد أو عزيمة يرتكبونها^(٩٥) ولا شك في أن الشرك بالله تعالى من أشنع الجرائم وأكبر العظائم ، فكان ذكر التسبيح بعد ذلك ، مناسباً لتنزيهه جل وعلا عن الشريك .

ويرى السيد الطباطبائي أن السورة افتتحت بالتسبيح ؛ لما وقع فيها من الإشارة إلى خيانة اليهود ونقضهم العهد ، وما أذاقهم الله تعالى من وبال أمرهم^(٩٦) . وقد جاء ذلك في

الآية الثانية من هذه السورة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ

دِيرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعُُهُمْ خُصُوفُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَاتَّهَمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ

يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿

(الحشر : ٢) ، ويبدو أن مناسبة ذكر التسبيح هي الإشارة إلى تنزهه الله تعالى عن القبائح والنقائص في مقام ذكر قبائح اليهود وجرائمهم وتنزهه جل وعلا عن الظلم في مقام ذكر تعذيب الكافرين به .

٤- فاتحة سورة الصف :

ورد في فاتحة هذه السورة قوله تعالى: ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إن مناسبة افتتاح هذه السورة لخاتمة السورة التي قبلها وهي سورة الحشر

قريبة من مناسبة افتتاح سورة الحشر لخاتمة السورة التي قبلها ؛ لأن سورة الممتحنة قد ختمت أيضاً بذكر غضب الله تعالى على اليهود ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

لَا تَتْلُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَلُ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾

(١) ينظر : نظم الدرر : ٥١٠ / ٧ .

(٢) ينظر : الميزان : ٢٣١ / ١٩ ، ٢٣٢ .

(المتحنة : ١٣) ، وما استحقوا غضب الله جل وعلا إلا بجرائمهم وقبائحهم وشركهم به تعالى فافتحت سورة الصف بالتنزيه الذي يُعَقَّب به ذكر الجرائم والقبائح ^(٩٩٧).

والمناسبة عند البقاعي هي أنّ سورة المتحنة لما ختمت بالأمر بتنزيهه تعالى عن تولى من يخالف أمره بالبراءة منهم وعدم توليهم افتتحت سورة الصف بما هو كالعلة لذلك فقال : سَبِّحَ لِلَّهِ ^(٩٩٨) . ويبدو أنّ البقاعي رأى في خاتمة سورة المتحنة تنزيهاً لله تعالى عن الشريك ؛ لأنها تذكر غضب الله جل وعلا على اليهود الذين ادّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ ﴾ (المائدة : من الآية ١٨) ففي ذكر غضبه

تعالى على من ادّعى أنه شريك له إشارة إلى تنزيهه عن ذلك ، فلما ختمت المتحنة بالتنزيه افتتحت الصف بالتنزيه أيضاً الذي هو كالعلة لما سبقه ، وأحسب أنّ هذا من الربط الخفي في المناسبة بين فاتحة السورة وما ختمت به السورة التي قبلها، لاسيما أنّ هذا النوع من المناسبات يظهر تارة ويخفى تارة أخرى ^(٩٩٩).

٥- فاتحة سورة الجمعة :

ذكر السيد الطباطبائي نكتة افتتاح هذه السورة بالتسبيح في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ، إذ يرى أنّ افتتاحها بالتسبيح توطئة وتمهيد برهاني لما يتضمنه قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الجمعة : ٢) ^(١٠٠٠)

وبيان ذلك : " أنه تعالى يسبّحه وينزّهه الموجودات السماوية والأرضية بما عندهم من النقص الذي هو متممه والحاجة التي هو قاضياها ، فما من نقیصة أو حاجة إلا وهو المرجو في تمامها وقضاءها ، فهو المسبّح والمنزّه عن كل نقص وحاجة فله أن يحكم في نظام التكوين بين خلقه بما شاء ، وفي نظام التشريع في عبادته بما أراد ، كيف لا ؟ وهو ملك له أن

(١) ينظر : البيان في تناسب سور القرآن : ٢٠١ .

(٢) ينظر : نظم الدرر : ٥٧٠/٧ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٨/١ ، معترك الأقران : ٥٢/١ .

(٤) ينظر : الميزان : ٣٠٤/ ١٩ .

يحكم في أهل مملكته وعليهم أن يطيعوه وإذا حكم وشرع بينهم ديناً لم يكن ذلك منه حاجة إلى تعبيدهم ونقص فيه يتممه بعبادتهم ؛ لأنه قدوس منزّه عن كل نقص وحاجة " (١٠١)

أما وجه تعلق افتتاح السورة بخاتمة السورة التي قبلها فيرى الرازي وأبو حفص الدمشقي أنه تعالى لما ذكر في خاتمة سورة الصف أنه يؤيد أهل الإيمان حتى صاروا عالين على الكفار- وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (الصف : من الآية ١٤) وكان ذلك على وفق الحكمة لا للحاجة إليه ، إذ هو الغني المطلق والمنزه عن أن يفتقر إلى غيره ، ذكر في أول سورة الجمعة ما يدل على كونه مقدساً ومنزهاً عما لا يليق به فإذا كان ما في السماوات وما في الأرض بأجمعهم يسبح لله تعالى وله الملك كله ، فهو منزّه عن أن تكون به حاجة إلى غيره (١٠٢).

ولأحمد بن الزبير الثقفي (ت ٧٠٨هـ) رأي آخر في المناسبة بين السورتين ، فهو يرى أنه تعالى لما ذكر في آخر سورة الصف أن طائفة من بني إسرائيل ارتكبوا العظيمة وهي الكفر به المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ افتتح سورة الجمعة بتنزيهه جل وعلا عن ذلك (١٠٣).

٦- فاتحة سورة التغابن :

افتتحت هذه السورة بتسبيح الله تعالى في قوله تعالى ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وأشارت إلى أنه عز وجل له الملك وله الحمد وأنه على كل شيء قدير ، وفي ذلك بيان أن أسماءه الحسنى وصفاته العليا تقضي بالمعاد ورجوع الكل إليه تعالى رجوعاً يساق فيه أهل الإيمان والعمل الصالح إلى جنة خالدة وأهل الكفر والتكذيب إلى نار مؤبدة ، وهذا ما يناسب غرض السورة من الأمر بطاعة الله

(١) ينظر : الميزان : ٣٠٤/ ١٩ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٥٣٧/٣٠ ، اللباب في علوم الكتاب : ٦٩/١٩ .

(٣) ينظر : البرهان في تناسب سور القرآن : ٢٠٢ .

ورسوله - ﷺ (الذين آمنوا وآمنوا) - والتحريض على الإنفاق في سبيل الله تعالى وتحمل المصائب (١٠٠٤).

ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها - كما يرى الرازي - أنه لما جاء في سورة المنافقون التنبيه على الذكر والشكر - وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ (المنافقون: ٩) افتتح سورة التغابن بالإشارة إلى أنهم إذا أعرضوا عن الذكر والشكر فإن من الخلق من يواظب على ذكر الله تعالى وشكره ، وهم الذين يسبحونه ويشكرونه فقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التغابن: ١) (١٠٠٥).

ويرى البقاعي أن سورة (المنافقون) لما ختمت بإثبات القهر بنفوذ الأمر وإحاطة العلم - وهذا ما أشار إليه بقوله تعالى ﴿وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: ١٠، ١١) - افتتحت سورة التغابن بإحاطة الملك والحمد والتنزه عن كل شائبة نقص إرشادًا إلى النظر في أفعاله تعالى والتفكير في صنائعه؛ لأنه الطريق إلى معرفته جل وعلا (١٠٠٦).

٧. فاتحة سورة الأعلى :

هذه السورة آخر السور المفتحة بالتسبيح ، وقد جاء في فاتحتها قوله عز وجل: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ، ووجه مناسبة هذا الافتتاح لما تضمنته السورة التي قبلها وهي سورة

(١) ينظر : الميزان : ٣٤١ / ١٩ .
(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٥٥١ / ٣٠ .
(٣) ينظر : نظم الدرر : ٣ / ٨ .

الطارق أنه تعالى لما قال في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق: ٥)، كأنَّ قائلاً قال: من خلقه على هذا المثال؟ فقيل: سبح اسم ربك الأعلى^(١٠٧).

المناسبة في خواتم السور

مثلما كان حسن الافتتاح ضرباً من ضروب البلاغة ، فإنّ حسن الاختتام من ضروبها أيضاً ، إذ " يجب على المتكلم شاعراً كان أو ناثرًا أن يختتم كلامه بأحسن خاتمة ، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع ؛ ولأنها ربّما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال ، فيجب أن يُجْتَهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها " (١٠٢).

وحسن الاختتام هو " عبارة عن توخي المتكلم ختم كلامه بما يشعر بالنجاح والتمام لغرضه ، وهذا تجده في القرآن على أحسن شيء وأعجبه " (١٠٣).

وخواتم السور مثل الفواتح في الحسن ، فقد جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيدان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه للنفوس تشوق إلى ما يذكر بعدها ، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ ووعد ووعيد وغير ذلك (١٠٤).

وليس المراد من أنها لا يبقى معها تشوق إلى ما يذكر بعدها أنها تكفّ النفوس عن تلاوة السور التي تأتي بعدها وتنفرها عن تعرف معانيها ، وإنما المراد أنها تبلغ بالنفوس مبتغاهما في تعقب مآل المعنى الذي عبّرت عنه السورة ، وهنا تكمن مناسبة خاتمة السورة لغرضها ومقصدها وما تضمنته من معاني .

وقد تقدم أنّ عدد السور المفتحة بإثبات صفات المدح لله تعالى وهو الافتتاح بالحمد في خمس سور وبـ (تبارك) في سورتين مساوٍ لعدد السور المفتحة بنفي صفات النقص عنه جل وعلا وهو الافتتاح بالتسبيح في سبع سور ، وأن الزركشي قد عبّر عن ذلك بأنه سر عظيم من أسرار الألوهية (١٠٥) ، وإذا أنعمنا النظر في خواتم السور وجدنا أنّ خمساً منها قد ختمت بالحمد، وهي : الإسراء والنمل والصفاء والزمر والجاثية ، وخمساً قد ختمت بالتسبيح وهي : يس والطور والواقعة والحشر والهاقة ، وهذا ما يدل على أنّ السر المتحقق في فواتح السور بالحمد والتسبيح متحقق أيضاً في خواتم السور بها ، غير أن سورتي الصفات والزمر قد ذكر في خاتمتها التسبيح قبل الحمد مما جعلنا نعدّهما نوعاً ثالثاً في الاختتام، هو الاختتام بالتسبيح والحمد .

أولاً : الاختتام بالحمد

- (١) البرهان في إعجاز القرآن أو بديع القرآن : ٤٣٩ .
- (٢) كتاب الطراز : ٥٦٨ .
- (٣) ينظر : معترك الأقران : ٥٨/١ ، التعبير الفني في القرآن الكريم : ٢١ .
- (٤) ينظر : ٢١٧ من هذه الرسالة .

١- خاتمة سورة الإسراء :

ذكرنا في الحديث عن افتتاح هذه السورة ما يراه السيد الطباطبائي من أن السورة تتعرض لأمر توحيد الله تعالى عن الشريك مطلقاً ، فغلب فيها جانب التسبيح على جانب التحميد ، حتى إن الآية الخاتمة للسورة وهي قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء : ١١١) تحمد الله جل وعلا على تنزهه عن الشريك والولي واتخاذ الولد^(١٠١٦) .

وقد بيّن السيد الطباطبائي في موضع آخر مناسبة هذه الخاتمة لما قبلها فذكر أنها معطوفة على قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (الإسراء : من الآية ١١٠) والمعنى : قل لهم إن ما تدعون من الأسماء وتزعمون أنها آلهة معبودة غيره ، إنما هي أسماؤه تعالى وهي مملوكة له ، لا تملك لأنفسها شيئاً ، فدعائها دعائه ، فهو المعبود على كل حال ، ثم احمده بما يتفرع عليه إطلاق ملكه ، فإنه لا يماثله شيء في ذات ولا صفة حتى يكون له ولداً أو شريكاً أو ولياً ، فالآية في الحقيقة ثناء عليه تعالى بما له من إطلاق الملك ، ولذلك أمره بالتحميد دون التسبيح مع أن ما ذكر من نفي الولد والشريك والولي إنما يناسبه التسبيح وليس التحميد^(١٠١٧)

٢- خاتمة سورة النمل :

ختمت هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل : ٩٣) .

قال الرازي : " ثم إنه سبحانه ختم هذه السورة بخاتمة في نهاية الحسن وهي قوله : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على ما أعطاني من نعمة العلم والحكمة والنبوة ، أو على ما وفقني من القيام بأداء الرسالة بالإنذار " ^(١٠١٨) وهذا ما يدل على أن مناسبة فاتحة هذه السورة لما قبلها من

(١) ينظر : ٢٢٩ من هذه الرسالة .

(٢) ينظر : الميزان : ٢٤١/١٣ ، ٢٤٢ .

(١) التفسير الكبير : ٥٧٦/٢٤ ، وينظر : روح المعاني : ٢٤٩/١٠ .

آيات أنه تعالى لما قال : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (النمل : ٩١ ، ٩٢) فتضمن ذلك ذكر ما أفاض الله تعالى على نبيه - ﷺ

ﷺ من نعم ، ومن أعظمها نعمة النبوة أمره أن يحمده على ذلك فختم السورة بالحمد ، ومما يبين مناسبة خاتمة السورة لما قبلها أن " محصل المعنى : وقل الثناء لله تعالى فيما يجريه في ملكه حيث دعا الناس إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، وهدى الذين آمنوا بآياته وأسلموا له وأما المكذبون فأما قلوبهم وأصم آذانهم وأعمى أبصارهم فضلوا وكذبوا بآياته " (١٠١٩) .

٣- خاتمة سورة الجاثية :

ذكرت هذه السورة أن الله تعالى خالق السماوات والأرض وما بينهما وأنه جعل الشرائع التي سنّها لعباده واشتملت على ذكر آلاء الله تعالى وأفضاله ، وذكرت أيضاً يوم الجزاء الذي لا ريب فيه ، ثم جاء في خاتمتها قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الجاثية : ٣٦) ، وهذا تقريع على ما احتوت عليه السورة ، بمعنى : احمدا الله الذي هو خالق السماوات والأرضين ، بل خالق كل العالمين ، فإن هذه الربوبية توجب الحمد على كل المخلوقين والمربوبين (١٠٢٠) ؛ لذلك "ينطلق صوت التحميد يعلن وحدة الربوبية في هذا الوجود ، سمائه وأرضه وإنسه ووحشه وسائر ما فيه ومن فيه ، فكلهم في رعاية رب واحد يدبرهم ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير " (١٠٢١) .

ومن ذلك تظهر مناسبة خاتمة هذه السورة لما تضمنته إذ إن هذه الخاتمة " تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدم في السورة من كونه خالق السماوات والأرض وما بينهما والمدير لأمر الجميع ، ومن بديع تدبيره خلق الجميع بالحق المستتب ليوم الرجوع إليه والجزاء بالإعمال ، وهو المستدعي لجعل الشرائع التي تسوق إلى السعادة والثواب (...) ثم

(٢) الميزان : ٤٤٤/١٥ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٦٨٢/٢٧ ، اللباب في علوم الكتاب : ٧٦/١٧ ، روح المعاني : ١٦٠/١٣ .

(١) في ظلال القرآن : ٣٢٣٤/٥ .

الجزاء واستقرار الجميع على الرحمة والعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه ، فلم يدبر إلا تدبيراً جميلاً ولم يفعل إلا فعلاً محموداً ، فله الحمد كله" (١٠٢٢).

ثانياً: الاختتام بالتسبيح :

١- خاتمة سورة يس :

خُتِمت هذه السورة بقوله تعالى : ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(يس : ٨٣) ذكر الألوسي أنّ الفاء في الآية قد تكون جزائية والمعنى : إذا عُلِمَ ذلك فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ، وقد تكون سببية ؛ لأنّ ما قبلها سبب لتنزيهه تعالى (١٠٢٣) ، ومما جاء في نهاية هذه السورة الإخبار عن اتخاذ المشركين آلهة وذلك في قوله تعالى : ﴿وَآتَخَذُوا

مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (يس : ٧٤) والإخبار عن قدرة الله تعالى في خلق الأشياء ،

(٢) الميزان : ١٩٥/١٨ .
(١) ينظر : روح المعاني : ٥٥/١٢ .

وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس : ٨١ ، ٨٢)

ومناسبة خاتمة السورة لما تقدمها - إن كانت الفاء جزائية - هي أنّ المعنى : إذا عُلِمَ اتخاذ المشركين آلهة من دون الله ، وعلم أنه تعالى خالق السماوات والأرض وليس أحداً سواه وهو الخلاق العليم فنزله عن الشريك ، وإن كانت الفاء سببية فإن ما ذكر من الشرك بالله تعالى وما اتضح من أنه الخلاق العليم سبب في تنزيهه جل وعلا عما لا ينبغي له ولا يليق به .

ويرى السيد الطباطبائي أنّ المراد من خاتمة السورة بيان تنزيهه تعالى عما أنكره المشركون من أمر المعاد لغفلتهم عن أن ملكوت كل شيء بيده وفي قبضته^(١٠٢٤)، ويبدو أنّ إنكار المعاد قد ذكر في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (يس : ٧٨) ولعل في قوله تعالى في نهاية الآية التي ختمت بها السورة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى .

٢- خاتمة سورة الطور :

قال تعالى في خاتمة هذه السورة : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

حِينَ تَقُومُ ﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴾ (الطور : ٤٨ ، ٤٩) .

ويبدو أنّ وجه تعلقها بما قبلها من آيات أنه تعالى لما ذكر وعيده الظالمين بالعذاب في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الطور : ٤٧) أمر

نبيه - ﷺ - أن يصبر لحكم ربه إلى أن يقع عليهم العذاب الذي أوعدهم به ،

وأمره أيضاً أن ينزله تعالى عما لا يليق به حامداً له على إنعامه^(١٠٢٥) ، ولعل في تعقيب ذكر العذاب بالتسبيح إشارة إلى تنزهه تعالى عن أن يظلم من يعذبه ، وإنما استحق الظالمون العذاب بسوء عقائدهم وأعمالهم .

٣- خاتمة سورة الواقعة :

خُتِمَت هذه السورة بتسبيح الله عز وجل وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة : ٩٦) ومناسبة هذه الخاتمة للآيات التي قبلها - كما يرى الرازي - أن الله تعالى لما بين الحق وامتنع الكفار عن إتباعه قال لنبيه - ﷺ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّ هَذَا لَهَوٌ حَقٌّ الْيَقِينِ ﴾ (الواقعة : ٩٥) فإن امتنعوا فلا تتركهم ولا تعرض عنهم وسبِّح ربك في نفسك ، وما عليك من قومك سواء صدقوك أم كذبوك^(١٠٢٦) . والمناسبة - كما يراها أحمد بن الزبير الثقفي - أن الله تعالى لما وبَّخ الكفار على سوء جهلهم وقبح ضلالتهم في قوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿ فُلُولًا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ فُلُولًا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الواقعة : ٨١- ٨٧) أعقب ذلك بتنزيهه عز وجل عن سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه فختم السورة بقوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾^(١٠٢٧) .

وقال الألوسي في بيان ختم السورة بالتسبيح : " والفاء في قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ لترتيب التسبيح أو الأمر به ، فإن حقيقة ما فُصِّل في تضاعيف السورة الكريمة مما يوجب التسبيح عما لا يليق مما ينسبه الكفرة إليه سبحانه قالاً أو حالاً ، تعالى عن ذلك

(١) ينظر : مدارك التنزيل : ١٧١٢/٣ ، فتح القدير : ١٢٧/٥ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٤٤٠/٢٩ .

(١) ينظر : البرهان في تناسب سور القرآن : ١٩٦ .

علواً كبيراً" (١٠٢٨) في حين يرى السيد الطباطبائي أنّ " المعنى : فإذا كان القرآن على هذه الصفات وصادقاً فيما ينبئ به من حال الناس بعد الموت فنزّه ربك العظيم مستعيناً أو ملابساً باسمه ، وانف ما يراه ويدّعيه هؤلاء المكذبون" (١٠٢٩).

٤ - خاتمة سورة الحشر :

قال تعالى في خاتمة هذه السورة : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر : ٢٣ ، ٢٤) ، ويبدو أنّ هذه الخاتمة مناسبة لما تضمنته السورة من الحكم والمصالح التي يضيق عن حصرها نطاق البيان (١٠٣٠) ، بمعنى أنّ ما تضمنته السورة من نبىء عن وجود الله تعالى المدبر الحكيم الواحد الذي لا شريك له فناسب ذلك أنّ تختتم السورة بتسبيحه عز وجل وإيكال الأمر إليه وحده ، وفي ختم السورة بالتسبيح مناسبة أخرى ، وهي أنّ هذه السورة قد فتحت بتسبيح الله جل وعلا وختمت به فتناسبت فاتحتها وخاتمتها (١٠٣١).

٥ - خاتمة سورة الحاقة :

هذه آخر السور المختتمة بالتسبيح وقد ختمت بما ختمت به سورة الواقعة وهو قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة : ٥٢) ، وقد جاء قبل هذه الخاتمة قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ إشارة إلى القرآن الكريم كما جاء قبل خاتمة الواقعة قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (الواقعة : ٩٥) ، وهذا ما يكشف عن التناسب بين خاتمة السورتين لاسيما أنّ السورتين " متحدتان في الغرض ، وهو وصف يوم القيامة ومتحدثان في سياق خاتمتها ، وهي الإقسام على حقية القرآن المنبئ عن يوم القيامة وقد ختمت السورتان بكون

(٢) روح المعاني : ١٦١/١٤ .

(٣) الميزان : ١٦٠/١٩ ، ومعنى (مستعينا) أنّ الباء في (باسم) للاستعانة ، ومعنى (ملايسا) أنّ الباء للملايسة وقد مرّ الكلام على دلالة الباء في كلا المعنيين في دلالة حروف الجر في المستوى النحوي ، ينظر : ١٣٩ من هذا الرسالة .

(٤) ينظر : روح المعاني : ٢٥٧/١٤ .

(١) ينظر : مدارك التنزيل : ١٧٨٩/٣ ، جواهر البيان : ١١١ ، الميزان : ٢٣١/١٩ .

القرآن وما أنبأ به من وقوع الواقعة حق اليقين ، ثم الأمر بتسبيح اسم الرب العظيم المنزه عن خلق العالم باطلاً لا معاد فيه وعن أن يبطل المعارف الحقة التي يعطيها القرآن في أمر المبدأ والمعاد " (١٠٣٢) وذكر الرازي والألوسي أن معنى قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ

الْعَظِيمِ ﴾ الذي ختمت به سورة الحاقة : سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا جَعَلَكَ أَهْلًا لِإِحَابَةِ إِلَيْكَ كتابه الجليل وتنزيهاً له من الرضا بالتقوّل عليه (١٠٣٣) ، وبيان ذلك أنه تعالى قال قبل أن يختم السورة بالأمر بالتسبيح : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة : ٤٠ - ٥٢) . فهذه الآيات تذكر أمرين مهمين :

أولهما : نعمة إنزال القرآن الكريم واختيار النبي محمد - ﷺ - لتبليغ هذا القرآن عن الله تعالى .

وثانيهما : تأكيد صدق النبي - ﷺ - فيما يخبر به من الوحي فلا غرو أن يكون أمره - ﷺ - بالتسبيح المختتم به السورة شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَتَنْزِيهًا لَهُ تَعَالَى عَنِ الرِّضَا بِأَنْ يَنْسَبَ إِلَيْهِ أَحَدٌ مَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ .

(٢) الميزان : ٧١/٢٠ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٦٣٦/٣٠ ، روح المعاني : ٦١/١٥ .

الاختتام بالتسبيح والحمد

١- خاتمة سورة الصافات :

قال تعالى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ (الصافات : ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢) ذكر الرازي أن الله تعالى لما ختم هذه السورة

بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية التي منها تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفاته تعالى ، وذلك بقوله (سبحان) ، ومنها أيضا وصفه بكل ما يليق به ، وذلك بقوله (رب العزة) ؛ فإن الربوبية إشارة إلى التبرية وهي دالة على كمال الحكمة والرحمة وإن العزة إشارة إلى كمال القدرة ، ومن تلك المطالب أيضا أنه جل وعلا غني رحيم ، ونبيه على ذلك بقوله (والحمد لله رب العالمين) ، وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم فبين بذلك كونه تعالى منعمًا على العالمين غنيًا عنهم ، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم ، فظهر بما تقدم أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من دراري الكواكب^(١٠٣٤) .

ومناسبة هذه الخاتمة لما تضمنته السورة أن الله تبارك وتعالى نزه نفسه عن كل ما يصفه

به المشركون المخالفون للنبي - ﷺ - مما لا يليق به مما حكي عنهم في السورة ، ويدل على ذلك إضافة التنزيه إلى قوله (ربك) أي : الرب الذي تعبدوه وتدعو إليه ،

(١) ينظر : التفسير الكبير: ٣٦٤/٢٦ .

وإضافة الرب ثانيًا إلى (العزة) المفيدة اختصاصه تعالى بالعزة الدالة على أنه جل وعلا منيع الجانب على الإطلاق ، فلا يذله مذل ولا يغلبه غالب ولا يفوته هارب (١٠٣٥) .

وقوله تعالى ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ "تشریف لهم - عليهم السلام - بعد تنزيهه تعالى

عمّا ذكر وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره ، فائزون بجميع المآرب ، وقوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) إشارة إلى وصفه عز وجل بجميع صفاته السلبية وإيذان باستتباعها للأفعال الجميلة التي من جملتها إفاضته عليهم من فنون الكرامات السنية ، والكمالات الدينية والدنيوية وإسباغه عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمدته تعالى ، وإشعار بأنّ وعوده - عليه الصلاة والسلام - من النصر والغلبة قد تحققت ، والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه تعالى وتحميده والتسليم على رسله الذين هم وسائط بينهم وبينه عز وعلا في فيضان الكمالات الدينية والدنيوية عليهم . ولعلّ توسط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده ؛ لختام السورة الكريمة بحمده تعالى مع ما فيه من الإشعار بأنّ توفيقه تعالى للتسليم عليهم من جملة نعمه الموجبة للحمد " (١٠٣٦) . ويتضح من ذلك أنّ ختام السورة بتنزيه الله تعالى واختصاصه بالعزة وبالسلام على رسله ، وبإعلان الحمد له جل وعلا هو الختام المناسب لموضوعاتها ، الملخص للقضايا التي عالجتها (١٠٣٧) .

٢- خاتمة سورة الزمر :

جاء في ختام هذه السورة قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الزمر : ٧٥) .

(٢) ينظر : روح المعاني : ١٥٠/١٢ ، الميزان : ١٨٧/١٧ .
(١) إرشاد العقل السليم : ٥٤٦/٥ ، وينظر : روح المعاني : ١٢، ١٥٠ ، والمراد بالصفات الثبوتية لله تعالى أنها الصفات التي يجب أن يتصف بها عز وجل ، وبالصفات السلبية أنها الصفات التي لا ينبغي له تعالى أن يتصف بها ، فيجب سلبها ونفيها عنه جل وعلا ، ينظر : الباب الحادي عشر ، العلامة حسن بن المطهر الحلي : ٤٩ ، ٥٠ شرح المصطلحات الكلامية : ١٨٨ ، ومعنى قول أبي السعود : (اتصافه بجميع صفاته السلبية) أنّ الله تعالى متصف بسلب هذه الصفات عنه ، ومثال ذلك أنّ يقال : الله تعالى ليس بجسم ، والجسمية صفة سلبية لله ، أي : ان الجسمية لا تجوز على الله جل وعلا فهي مسلوبة عنه ، وهو متصف بسلبها عنه ؛ لأنه ليس بجسم .
(٢) ينظر : في ظلال القرآن : ٣٠٠/٥ .

ومناسبة هذه الخاتمة لما قبلها أن الله تعالى لما ذكر حمد المتقين في الجنة وذلك بقوله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ تَتْبَوُا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ

أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ (الزمر : ٧٤) ، فظهر من ذلك أن حرفة المتقين في الجنة الاشتغال بحمد الله تعالى ، بيّن في خاتمة السورة أن حرفة الملائكة الذين هم حافون من حول العرش الاشتغال بالتسبيح والتحميد وحينئذ يظهر أن المتقين والملائكة المقربين متوافقون في تسبيح الله عز وجل وتحميده ، فكان ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بذلك التسبيح والتحميد^(١٠٣٨) .

وقال سيد قطب في ختامه هذه السورة : " ثم يُختم المشهد بما يغمر النفس بالروعة والرهبة والجلال ، وما يتسق مع جو المشهد كله وظله ، وما يختم سورة التوحيد أنسب ختام ، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد في خشوع واستسلام ، وكلمة الحمد ينطق بها كل حي وكل موجود في استسلام " (١٠٣٩) .

وقد ذكرنا من قبل أن قائل الحمد في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قد يكون الملائكة أو المؤمنين^(١٠٤٠) ، وأياً كان القائل فإن في الآية الواردة نكتة لطيفة هي أن الآية لم تقل : وقيل الحمد لله على قضاؤه ، وإنما قالت : ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فدللت على أن الحامدين لله تعالى " حمدوه بصفته الواجبة ، وهي كونه رباً للعالمين ، فإن من حمد المنعم لأجل إنعام وصل إليه ، فهو في الحقيقة ما حمد المنعم وإنما حمد الإنعام ، وأما من حمد المنعم لا لأنه وصل إليه النعمة فهنا قد وصل إلى لجة بحر التوحيد " (١٠٤١) .

وفي هذا الحمد الذي جاء بعد ذكر قضاء الله تعالى بالحق ذكر المفسرون عن ابن عباس وقتادة أن الله عز وجل افتتح الخلق بالحمد فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (الأنعام : من الآية ١) واختتمه بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(١) ينظر : التفسير الكبير : ٤٨١/٢٧ .

(٢) في ظلال القرآن : ٣٠٦٣/٥ .

(٣) ينظر : ٩٤ من هذه الرسالة .

(٤) التفسير الكبير : ٤٨١ / ٢٧ .

﴿ (الزمر : من الآية ٧٥) فلزم الإقتداء بذلك والأخذ بهديه في ابتداء كل أمر بحمد الله جل وعلا وختمه بحمده (١٠٤٢)، والحمد لله أولاً وآخراً .

الوجوه والنظائر

يعدّ البحث في دلالة الألفاظ من القضايا الدلالية ذات الأهمية البالغة في البحث اللغوي ؛ لما تؤديه دلالة الألفاظ من وظيفة كبيرة في فهم النصوص فهماً صحيحاً^(١٠٤٣)، ولا شك في أنّ البحث في وجوه اللفظة ونظائرها في القرآن الكريم ينضوي تحت عنوان البحث في دلالتها .

والوجوه في اللغة جمعُ وجه ، والوجه هو مستقبل كلِّ شيء^(١٠٤٤) ، ووجه الكلام : السبيل الذي تقصده به^(١٠٤٥) .

والنظائر جمع نظير " ونظير الشيء : مثله ؛ لأنه إذا نُظِرَ إليهما كأنهما سواء في المنظر ، وفي التأنيث : نظيرة ، وجمعه : نظائر ، تقول : ما كان هذا نظيراً لهذا"^(١٠٤٦) .

أمّا الوجوه والنظائر في الاصطلاح فهي - كما يرى ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) : " أن تكون الكلمة الواحدة ، ذكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد وحركة واحدة ، وأريد بكلِّ مكان معنى غير الآخر ، فلفظ كلِّ كلمةٍ ذكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر ، وتفسير كلِّ كلمة بمعنى غير معنى الآخر هو الوجوه ، فإذا : النظائر : اسم الألفاظ ، والوجوه اسم المعاني ، فهذا هو الأصل في وضع كتب الوجوه والنظائر "^(١٠٤٧) .

وذكر الزركشي أنّ الوجوه هي : اللفظ المشترك الذي يستعمل في معاني عدّة والنظائر كالألفاظ المتواطئة^(١٠٤٨) ، أي المترادفة^(١٠٤٩) . وتوضيح تعريف الزركشي هو أنّ لفظة

(٥) ينظر : النكت والعيون : ١٣٩/٥ ، معالم التنزيل : ٦٨/٢ ، اللباب في علوم الكتاب : ٤/٨ ، نظم الدرر : ٤٨١/٦ ، تفسير المراغي : ٣٩ / ٢٤ .

(١) ينظر : العربية والنص القرآني (دراسة للقضايا اللغوية في كتب إعراب القرآن ومعانيه في أوائل القرن الثالث الهجري) ، د. عيسى شحاتة عيسى : ٤٠٧ .

(٢) ينظر : كتاب العين : ٦٦/٤ .

(٣) ينظر : لسان العرب : ٥٥٦/١٣ .

(٤) كتاب العين : ١٥٦/٨ .

(٥) نزهة الأعين الناظر في علم الوجوه والنظائر ، ابن الجوزي : ٨٣ .

(٦) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٠٢/١ ، الإتقان في علوم القرآن : ١٤٤/٢ .

(٧) ينظر : علم الدلالة ، أحمد مختار عمر : ١٤٩ .

(الهدى) - مثلاً- في القرآن الكريم تأتي على وجوه منها : الدين ، والبيان والإيمان ، والرشاد^(١٠٠) ، فتكرار لفظة (الهدى) للدلالة في كل مرة على معنى معين هو الوجوه ، وهذه المعاني أنفسها هي النظائر ؛ لأنها لما دُلَّ عليها بلفظ واحد وهو (الهدى) فهي متواطئة (مترادفة) وواضح أنّ هذا التعريف هو عكس ما ذهب إليه ابن الجوزي من أنّ الوجوه اسم للمعاني والنظائر اسم للألفاظ.

وأحسب أنّ تعريف ابن الجوزي أوضح دلالة وأكثر ارتباطاً بالمعنى اللغوي للوجوه والنظائر ؛ لأنّ جعل النظائر اسماً للألفاظ يتفق مع ما ذكره الخليل من أنّ نظير الشيء مثله وكأنهما في المنظر شيء واحد ، فلفظ (الهدى) - مثلاً - واحد وقد تكرر أكثر من مرة للدلالة على معاني متعددة فتكراره مرات عديدة وهو لفظ واحد نظائر وهذه المعاني المتعددة له وجوه ، وذلك يتفق مع أنّ وجه الكلام هو معناه المراد منه .

وعلم الوجوه والنظائر علم شريف ، وهو فرع من علوم التفسير^(١٠١) . وقد جعله بعضهم من معجزات القرآن الكريم ؛ إذ إنّ الكلمة الواحدة قد تتصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقل ولا يوجد ذلك في كلام البشر^(١٠٢) .

وذكر السيوطي أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب - عليه السلام - أشار إلى أنّ للقرآن الكريم وجوهاً عندما أرسل ابن عباس إلى الخوارج وقال له : لا تحاجّهم بالقرآن فإنه ذو وجوه ، ولكن خاصمهم بالسنة ، وفي رواية أخرى أنّ ابن عباس قال له : يا أمير المؤمنين أنا أعلم بكتاب الله منهم؛ ففي بيوتنا نزل . فقال له - عليه السلام - صدقت ولكن القرآن حمّال ذو وجوه تقول ويقولون ، ولكن خاصمهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً^(١٠٣) .

وقد أُلّف في هذا العلم علماء كثيرون^(١٠٤) ، ولعل أقدم ما وصل إلينا من كتب الوجوه والنظائر في القرآن الكريم هو كتاب الأشباه والنظائر في القرآن الكريم لمقاتل بن سليمان البلخي (ت: ١٥٠ هـ) وكتاب الوجوه والنظائر في القرآن الكريم لهارون بن موسى القارئ (ت: ١٧٠ هـ)^(١٠٥) ، وكتاب التصارييف ، تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه ليحيى بن سلام (ت: ٢٠٠ هـ) ، وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد لأبي العباس المبرد (ت: ٢٨٥ هـ) والذي أراده واضعو كتب الوجوه والنظائر بوضعها هو

(٨) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٠٢/١ - ١٠٣ .

(١) ينظر : التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن : ٣٨ .

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١٠٢/١ ، الإتيان في علوم القرآن : ١٤٤/٢ .

(٣) ينظر : الإتيان في علوم القرآن : ١٤٥/٢ ، وجوه القرآن ، أبو عبد الرحمن الحيري النيسابوري : ٥ (مقدمة المحقق) .

(٤) للإطلاع على هذه المؤلفات ، ينظر : المشترك اللفظي في الحقل القرآني ، د. عبد العال سالم مكرم : ٤٩ - ٢٢٣ ، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، دراسة دلالية (رسالة) ، شيماء محيي رباط العوادي : ٦ ، ٧ .

(٥) ينظر : علم الدلالة ، أحمد مختار عمر : ١٤٧ .

أن يعرفوا السامع لهذه النظائر أنّ معانيها تختلف وأن ليس المراد بهذه اللفظة ما أريد بالأخرى^(١٠٥٦).

وقد أطلق المحدثون على ما درسته هذه الكتب مصطلح المشترك اللفظي وعدّوه ظاهرة لغوية بحثوا أسبابها ، وذكروا نتائجها في البحث اللغوي ودرسوا آراء منكريها ومؤيديها^(١٠٥٧)، وذكروا أنّ سيبويه أول من أشار إلى المشترك اللفظي بقوله : " اعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين واختلاف اللفظين والمعنى واحد واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين (...) واتفاق اللفظين والمعنى مختلف " ^(١٠٥٨) فاتفاق اللفظين والمعنى مختلف هو المشترك اللفظي^(١٠٥٩) ومفهومه عند القدماء عموماً يقوم على اتحاد اللفظ وتعدد المعاني^(١٠٦٠).

ومن المحدثين من خصّ هذه الظاهرة في القرآن الكريم بكتاب ، ومن هؤلاء : الدكتور عبد العال سالم مكرم في كتابه (المشترك اللفظي في الحقل القرآني) والدكتور محمد نور الدين المنجد في كتابه (الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق) .

وللسياق الأثر الكبير في تحديد وجوه المفردة القرآنية ، ويبدو أنّ كتب الوجوه والنظائر اعتمدت السياق في ذكر وجوه كثيرة للفظ واحدة ؛ إذ إنّ " المعول فيها كان على دلالة اللفظ في سياقه وإن لم تكن تشهد لها استعمالات لغوية أخرى خارج هذا السياق " ^(١٠٦١).

ويرى د. عبد العال سالم مكرم أنّ السياق هو محور الاشتراك اللفظي ، وهو علاقة الكلمة مع ما قبلها وما بعدها من كلمات الجملة^(١٠٦٢).

وبدل اعتماد واضعي كتب الوجوه والنظائر على السياق في تحديد معنى الكلمة على فهم عميق وبعد نظر في التحليل اللغوي ، لاسيما أنّ أثر السياق في دلالة الألفاظ أصبح أمراً ذا شأن كبير في الدراسات اللغوية الحديثة^(١٠٦٣) حتى غدا تحديد دلالة كلمة ما يحتاج إلى تحديد مجموع السياقات التي ترد فيها هذه الكلمة^(١٠٦٤).

(١) ينظر : نزهة الأعين النواظر : ٨٣ .

(٢) ينظر : علم الدلالة ، أحمد مختار عمر : ١٤٧ ، ١٥٩ ، الاشتراك والتضاد في القرآن الكريم (دراسة إحصائية) ، د. أحمد مختار عمر : ٨١ ، علم الدلالة دراسة وتطبيقاً : ١٠٥ ، ١٠٦ ، الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق ، د. محمد نور الدين المنجد : ٢١ - ٥٠ .

(٣) كتاب سيبويه : ٨ ، ٧/١ ، وينظر : كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد ، أبو العباس المبرد : ١ - ٣ .

(٤) ينظر : التعبير في علم التفسير : ٩٩ .

(٥) ينظر : الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم : ٣٠ .

(٦) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، سلوى محمد العوا : ١٨ ، نقلاً عن : الاشتراك والتضاد في القرآن الكريم : ١٢ .

(٧) ينظر : المشترك اللفظي في الحقل القرآني : ٢٣ .

(١) ينظر : الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم : ٣٥ ، فصول في علم الدلالة ، د. فريد عوض حيدر : ١١٩ .

(٢) ينظر : علم الدلالة ، أصوله ومباحثه في التراث العربي ، د. منقور عبد الجليل : ٨٨ .

إنَّ المعاني التي تذكر للفظه الواحدة تستمد وجودها من المعنى الأصلي أو الأساسي لتلك اللفظة^(١٠٦٥) ؛ لذا يرى السيد كمال الحيدري أنه لا بدَّ من أن يبقى المعنى اللغوي للمفردة القرآنية محفوظًا ، وإنَّ أضاف لها الاستعمال القرآني معنى جديدًا أو مصداقًا جديدًا ، أي لا بدَّ أولاً من المحافظة على الجذر اللغوي للكلمة ثم نرى هل أضاف لها الاستعمال القرآني معنى جديدًا؟^(١٠٦٦) و " لعل المتأمل قليلاً فيما ورد في كتب الوجوه والنظائر يلاحظ أنَّ المعاني الواردة للفظه الواحدة لا يبتعد بعضها عن بعض كثيراً وأحياناً يكون القرب فيها واضحاً جلياً " (١٠٦٧)

وهذا ما سنلاحظه - إنَّ شاء الله تعالى - عند ذكر وجوه الحمد والشكر والتسبيح في القرآن الكريم ونرى ارتباط هذه الوجوه بالمعنى اللغوي الأصلي للمفردة وسنذكر الوجوه التي ذكرت للمفردة كلها ونشير في الهامش إلى كتب الوجوه والنظائر التي ذكرت الوجه الذي نذكره .

وجوه الحمد

١- الحمد بمعنى الشكر :

مما ورد من ذلك قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاحة : ٢) وقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (الأنعام : ١) وقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (الأعراف : من الآية ٤٣) ، وقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (إبراهيم : من الآية ٣٩) (١٠٦٨) .

وأحسب أنَّ الذي دعا أصحاب الوجوه والنظائر إلى أن يجعلوا الحمد في هذه الآيات بمعنى الشكر هو أنَّ كل آية من هذه الآيات ذكرت نعمة من نعم الله تعالى وقد حمد الله جل وعلا عليها ؛ فله الحمد على نعمة تربية العالمين ، وله الحمد على نعمة خلقه السماوات

(٣) ينظر : الاشتراك والتضاد في القرآن الكريم : ٨٢ .
(٤) أفدت ذلك من كلام السيد كمال الحيدري في برنامج عرضته قناة الكوثر الفضائية ، بتاريخ : ١٨ / ١٠ / ٢٠٠٦ م ، عنوانه : مطارحات في العقيدة ، وكان عنوان الحلقة : الشفاعة في القرآن .
(٥) التصاريف ، تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه ، يحيى بن سلام : ١٣ (مقدمة المحقق) .
(١) ينظر : وجوه القرآن : ١٨٤ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٢٦٤ / ١ ، نزهة الأعين النواظر : ٢٥٣ ، الإنباء بما في كلمات الرحمن من أضواء ، الشيخ محمد جعفر الكرباسي : ١٩٠ / ٢ .

والأرض وجعله الظلمات والنور ، وله الحمد على هدايته أهل الجنة إلى نعيم لا يزول وله الحمد على ما وهبه لإبراهيم - عليه السلام - من الذرية ، وقد عرفنا في التمهيد أنّ الشكر هو تصور النعمة وإظهارها وأنّ القرآن الكريم لا يذكر الشكر إلا في سياق ذكر النعم^(١٠٦٩)، فحمده تعالى على هذه النعم سوّغ أن يكون الحمد هنا بمعنى الشكر .

٢- الحمد بمعنى الثناء :

مما ورد من ذلك قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (سبأ : من الآية ١) وقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا ﴾ (فاطر : من الآية ١) قوله تعالى : ﴿ وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ (آل عمران : من الآية ١٨٨) (١٠٧٠).

ومعنى الثناء : هو أن يثنى ذكر الشيء حالاً فحالاً^(١٠٧١) . أي يتكرّر حمده وقد ذكرت الآيتان الأولى والثانية بعض صفات الله ﷻ ، فبينت الأولى مالكيته تعالى لما في السماوات وما في الأرض ، ونصّت الثانية على أنه فاطر السماوات والأرض وجاعل الملائكة رسلاً ، فحمده تعالى بهذه الصفات هو ثناء عليه وذكر له ﷻ ، وفي ذلك إشارة إلى أن نُدِيم ذكره تعالى بصفاته الدالة على عظّمته وكبريائه .

أما الآية الثالثة فهي في سياق ذكر صفات اليهود أو المنافقين ، فمن صفاتهم أنهم يحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا^(١٠٧٢) ، فمعنى أنّ المنافقين يحبّون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا أنهم يحبون أن يثنى عليهم ويذكروا بالجميل على ما لم يفعلوا من فعل يستحق أن يحمّد فاعله عليه ، فالحمد في الآية إذاً بمعنى الثناء .

٣- الحمد بمعنى المدح :

لم يذكر هذا الوجه سوى الحيري النيسابوري (ت: ٤٣١ هـ) وذكر له مثلاً واحداً هو قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ

(٢) ينظر : ٣ ، ٨ من هذه الرسالة .

(٣) ينظر : وجوه القرآن : ١٨٤ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٢٦٣/١ .

(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ١٧٩ .

(١) ينظر : الكشف : ٢١١ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ١٧٤/١ .

وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴿ (الإسراء : ١١١) ^(١٠٧٣) ولعل ما جعله يرى في الحمد في هذه الآية معنى

المدح هو أنها الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي يذكر فيها الحمد لله تعالى على كونه لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن بـمعنى حمده تعالى على تنزهه عن الشريك لا سيما أن المدح هو : "القول المنبئ عن عظم حال الممدوح مع القصد إليه" ^(١٠٧٤) ولذلك قال الزمخشري : "فإن قلت : كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد ؟ قلت : لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة فهو الذي يستحق جنس الحمد" ^(١٠٧٥) فحمده تعالى بأنه المنزه عما لا ينبغي له تعظيم له جل وعلا ولا شك في أن المدح يدخل ضمن ما ذكرنا من معنى تعظيمه .

٤- الحمد بمعنى الأمر :

مما ورد من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة : من الآية

٣٠) ، وقوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الحجر من الآية ٩٨) وقوله

تعالى ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ (الإسراء : من الآية ٥٢) ، والمعنى : ونحن نسبح

بأمرك ، وسبح بأمر ربك وكن من الساجدين ، ويوم يدعوكم فتستجيبون بأمره ^(١٠٧٦) . وقد سبق أن ذكرنا في الحديث عن دلالة الباء في سياق الحمد أن الباء في هذه الآيات يحتمل كونها باء الحال فيكون المعنى نسبحك حامدين لك ، وسبح ربك حامداً له ، وتستجيبون حامدين له ، أو أنها باء الاستعانة والمعنى : نسبح مستعينين بحمدك ، وسبح مستعيناً بحمد ربك أو أن الباء تفيد السببية والمعنى نسبح بسبب حمدك وسبح بسبب حمد ربك ، وتستجيبون بسبب حمده ^(١٠٧٧) وقد صرح بعض المفسرين بأن المعنى في الآية الثالثة : تستجيبون بأمره ^(١٠٧٨) . ويتضح مما تقدم أن الحمد في هذه الآيات إذا كان بمعنى الأمر فإن الباء فيها لا تحتمل سوى السببية وفي ذلك معنى لطيف ، وهو أن فيه إشارة إلى أن استحقاق الحمد لله تعالى وثباته له بمثابة الأمر في تسبيحه تعالى ، وأن حمده تعالى بمثابة الأمر في

(٢) ينظر : وجوه القرآن : ١٨٤ .

(٣) مجمع البيان : ٢٣/١ .

(٤) الكشف : ٦١١ .

(١) ينظر : وجوه القرآن : ١٨٤ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٢٦٣/١ ، نزهة الأعين النواظر : ٢٥٢ الإنبياء بما في كلمات الرحمن من أضواء : ١٩٠/٢ .

(٢) ينظر : ١٣٤ من هذه الرسالة .

(٣) ينظر : جامع البيان : ١١٧/١٥ ، زاد المسير : ٧٤٧ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٤٤٨/١ .

الاستجابة لداعي الحق يوم القيامة بمعنى ما دام قد ثبت له الحمد فإنّ تسبيحه والاستجابة له واجب لا حيدة عنه وكأنه مما أمر بفعله لوجوبه .

٥- الحمد بمعنى الذكر :

انفرد بذكر هذا الوجه الحيري النيسابوري وجعل مثاله قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ (النصر : من الآية ٣) ^(١٠٧٩) ، ولا يكون الحمد في الآية بهذا المعنى إلا إذا كانت الباء للاستعانة والمعنى : استعن بذكر ربك في تسبيحه أي : اذكره حامداً كي تسبحه ، ولا يقتصر هذا المعنى على هذه الآية فقط بل يشمل الآيات التي ذكرناها في الوجه السابق ، والتي ذكرت تسبيح الله تعالى بحمده ولكن على أن نجعل الباء فيها للاستعانة ليس غير .

٦- الحمد بمعنى القول :

لم يذكر هذا الوجه إلا الحيري النيسابوري أيضاً وجعل مثاله قوله تعالى : ﴿ وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ (آل عمران : من الآية ١٨٨) ، وقال : " أي يحبون أن يقال ما لم يكن " ^(١٠٨٠) وليس يخفى أنّ هذا الوجه يدخل ضمن الوجه الثاني وهو الحمد بمعنى الثناء ؛ لأنّ الثناء - كما مرّ - أن يثنى ذكر الشيء حالاً فحالاً فهو يحمل معنى القول ؛ لأنّ ذكر الشيء أن تنطق قائلًا بما هو ذكر له فاليهود أو المنافقون يحبون أن يثنى عليهم فيقال فيهم ما يرضونه من المحامد مما لا يستحقونه لأنهم لم يفعلوا ما يستدعي ذلك الحمد.

٧- الحمد بمعنى الاستجابة :

(٤) ينظر : وجوه القرآن : ١٨٤ .

(١) وجوه القرآن : ١٨٥ .

هذا الوجه أيضاً لم يذكره سوى الحيري النيسابوري ومثل له بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ

فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء : من الآية ٥٢)^(١٠٨١) وقد ذكرت هذه الآية من قبل مثلاً على

كون الحمد بمعنى الأمر ، والذي دفع الحيري النيسابوري لأن يجعل الحمد في هذه الآية بمعنى الاستجابة هو كلمة (فتستجيبون) إذ يبدو أن هذه الكلمة ألفت بظلالها على كلمة الحمد التي بعدها حتى قيل إن الحمد هنا بمعنى الاستجابة ، وأحسب أنني لا أجنب الصواب إذا قلت : إن في ذكر هذا الوجه للحمد تكلفاً ليس يخفى ودليل ذلك أننا إذا وضعنا مكان الحمد ما هو بمعناه على ما يراه الحيري النيسابوري وقلنا : يوم تستجيبون باستجابته فسد المعنى .

٨- الحمد بمعنى الصلاة :

وهذا الوجه من الوجوه التي ذكرها الحيري النيسابوري والماوردي ، ومثال ذلك عندهما قوله تعالى : ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الروم : ١٧ ، ١٨)^(١٠٨٢) وذكر هذا الوجه أيضاً الدامغاني وابن الجوزي والكرباسي غير أنهم صرحوا بأن المراد من الحمد هنا الصلوات الخمس^(١٠٨٣) .

والذي يبدو - إذا أنعمنا النظر في سياق الآية - أن جعل الحمد فيها بمعنى الصلاة أو الصلوات الخمس أمر بعيد وذلك لسببين :

الأول : أننا سنعرف عند بحثنا وجوه التسبيح - إن شاء الله تعالى - أن كتب الوجوه والنظائر وكتب التفسير وكتب أحكام القرآن ذكرت هاتين الآيتين ضمن الآيات التي يكون التسبيح فيها بمعنى الصلاة^(١٠٨٤) فقله تعالى (فسبحان الله) : أي سبحوا الله ومعناه صلوا لله تعالى حين تمسون وأراد بذلك صلاة المغرب والعشاء (وحين تصبحون) أراد به صلاة الصبح و(عشياً) أراد به صلاة العصر و(حين تظهرون) هي صلاة الظهر^(١٠٨٥) ، وإذا كان التسبيح بمعنى الصلاة وقد دل كل وقت في الآيتين على صلاة معينة فما الصلاة التي دل عليها قوله تعالى ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكيف يدل الحمد فيها على الصلوات الخمس ؟!

(٢) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٣) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، النكت والعيون : ٣٠٣/٤ .

(١) ينظر : الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٢٦٣/١ ، نزهة الأعين النواظر : ٢٥٣ ، الإنباء بما في كلمات الرحمن من أضواء : ١٨٩/٢ ، ١٩٠ .

(٢) ينظر : ٢٦٣ من هذه الرسالة .

(٣) ينظر : ٢٦٣-٢٦٤ من هذه الرسالة .

والثاني : أننا عرفنا في دلالة الجملة المعترضة أنّ جملة الحمد هذه جاءت معترضة بين أوقات التسبيح^(١٠٨٦) فهي بمعناها الأصلي من الحمد والنكته فيها أنّ الله تعالى لما أمر العباد أن يسبحوه كأنه بيّن لهم أن تسبيحهم له إنما هو لنفعهم لا لنفع يعود عليه تعالى فعليهم لذلك أن يحمده إذا سبّحوه^(١٠٨٧).

وذهب البيضاوي إلى أنّ " تخصيص الحمد بالعشي الذي هو آخر النهار من عشت العين إذا نقص نورها والظهير التي هي وسطه ؛ لأنّ تجدد النعم فيها أكثر"^(١٠٨٨). فالحمد في الآية على كلا التوجيهين بمعناه الأصلي وليس هو دالاً في حال من الأحوال على الصلاة أو الصلوات الخمس .

٩- الحمد بمعنى المنّة :-

مما ورد من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ (فاطر : من

الآية : ٣٤) أي المنّة لله وحده ، وقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ (الزمر: من الآية ٧٤) أي المنّة لله الذي صدقنا وعده^(١٠٨٩) . وليس هذا الوجه ببعيد عن الوجه الأول ، وهو الحمد بمعنى الشكر ؛ لأنه وارد في سياق ذكر النعم التي تكون بها المنّة لله تعالى على عباده ، لاسيما أنّ المنّة هي النعمة الثقيلة ، يقال : مَنْ فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة ، وذلك على الحقيقة لا يكون إلا لله تبارك وتعالى^(١٠٩٠) ، وقد جاءت الآيتان اللتان ذكرناهما في سياق حمد أهل الجنة لله عز وجل ، فهم معترفون بأنّ دخولهم الجنة منّة عظيمة من الله تعالى بها عليهم .

(٤) ينظر : ٢٠١ من هذه الرسالة.

(٥) ينظر : التفسير الكبير : ٨٨/٢٥ ، الفتوحات الإلهية : ٣٨٨/٣ .

(٦) أنوار التنزيل : ٣٤١/٣ .

(١) ينظر : الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٢٦٣/١ ، نزهة الأعين النواظر : ٢٥٢ ، الإنباء بما في كلمات الرحمن من أضواء : ١٩٠/٢ .

(٢) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٧٧٧ .

وجوه الشكر :

١- شكر النعمة :

مما ورد من قوله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة : ١٥٢)

بمعنى : اشكروا النعمة ولا تكفروها^(١٠٩١) ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة : ٥٢)^(١٠٩٢) وقوله تعالى مخبراً عن سليمان - عليه السلام - : ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ﴾ (النمل : ٤٠)^(١٠٩٣) ، فالشكر في هذه الآيات هو شكر النعم وهو المعنى الأساسي لهذه اللفظة ؛ لأننا قد عرفنا من قبل أن الشكر هو إظهار النعمة والثناء على المنعم بما أولى من

(١) ينظر : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ، مقاتل بن سليمان البلخي : ١٣٦ ، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، عن هارون بن موسى القارئ : ١٢٤ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٤٥٩/١ ، الإنباء بما في كلمات الرحمن من أضواء : ٣٠٧/٣ .

(٢) ينظر : وجوه القرآن : ٣٣٤ .

(٣) ينظر : الوجوه والنظائر ، عن هارون بن موسى القارئ : ١٢٤ ، وجوه القرآن : ٣٣٥ ، الوجوه والنظائر الدامغاني : ٤٥٩/١ ، الإنباء بما في كلمات الرحمن من أضواء : ٣٠٧/٣ .

النعم^(١٠٩٤) وإنما ينتفع من شكر نعم الله تعالى الشاكر نفسه ؛ " لأنه يحط به عنها عبء الواجب ، ويصونها عن سمة الكفران ، وترتبط به النعمة ويستمد المزيد ، وقيل : الشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة " ^(١٠٩٥).

٢- الشكر بمعنى التوحيد :

مما ورد من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٤) ، يعني الموحدين ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (الأنعام : ٥٣) والمعنى : أليس الله بأعلم بالموحدين^(١٠٩٦) .

وواضح في هاتين الآيتين ما للسياق من أثر في تحديد الوجه المراد من اللفظة فالآية الأولى تتحدث عن ارتد عن توحيده إلى الشرك بعد موت النبي محمد - ﷺ - وختمت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي الموحدين بدلالة الحديث عن أشرك ، فالشاكرون في الآية هم من بقي على توحيده بعد موت النبي - عليه وعلى آله الصلاة والسلام - ولم يرتد عنه إلى الشرك ، وقد بينت الآية في خاتمتها أن هؤلاء سيجزيهم الله تعالى على بقائهم موحدين ؛ ولذلك قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : " (وسيجزي الله الشاكرين) الذين لم ينقلبوا (...) وسمّاهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا " ^(١٠٩٧) لاسيما " أن حقيقة كون العبد شاكرًا لله كونه مخلصًا لربه " ^(١٠٩٨) وفي ذلك إشارة إلى أن توحيد الله عز وجل شكر له على نعمه^(١٠٩٩) .

(٤) ينظر : ٣ من هذه الرسالة .

(٥) الكشف : ٧٨٤ ، ومعنى (يحط به عنها عبء الواجب) أن الشاكر يحط بالشكر عن نفسه عبء الواجب .

(١) ينظر : الأشباه والنظائر : ١٣٦ ، الوجوه والنظائر ، عن هارون بن موسى القارئ : ١٢٤ ، وجوه القرآن : ٣٣٥ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٥٨/١ ، الإنبياء بما في كلمات الرحمن من أضواء : ٣٠٧/٣ .

(٢) الكشف : ١٩٨ .

(٣) الميزان : ٢١٠/٢٠ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١٤١/٤ .

أما الآية الثانية فإنها في سياق الحديث عن الكفار والمؤمنين ، ومعناها : كذلك ابتلينا الكفار بالمؤمنين ، إذ إنَّ الكفار كانوا يقولون استهزاء وسخرية : أهؤلاء العبيد والفقراء مَنْ الله عليهم بالتوفيق للحق والسعادة من دوننا ، ونحن أشرف أغنياء^(١١٠) ولذلك بيّنت الآية أنَّ " الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان ، وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق " ^(١١١) .

وفي الآية أيضاً إشارة إلى أنَّ مدار استحقاق الإنعام هو معرفة شأن النعمة والاعتراف بحق المنعم بها^(١١٢) ، ولا شك في أنَّ من حقه تعالى على عباده أن يوحده ولا يشركوا به أحداً ، فالسياق الذي وردت فيه لفظة (الشاكرين) قد دل على أن المراد بالشاكرين الموحّدون.

٣- الشكر بمعنى الإيمان :

ورد من ذلك قوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ (إبراهيم

: من الآية ٧) وقوله تعالى : ﴿ إنا هدينه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ (الإنسان : ٣)^(١١٣)

، وليس يخفى أنَّ جعل الشكر في الآيتين بمعنى الإيمان إنما هو بقرينة ذكر الكفر ؛ لأنَّ الشكر نقيض الكفر^(١١٤) ، وغالباً ما يعرف الشيء بنقيضه ، غير أنَّ للشكر والكفر هنا معنيين :

الأول : أن يراد بالشكر شكر الله تعالى وهو الإيمان به وبالكفر الكفر بالله عز وجل باتخاذ الشريك .

والثاني : أن يراد بالشكر شكر النعمة وبالكفر كفر النعمة وهو سترها وتغطيتها^(١١٥) . فعلى المعنى الأول يلزم أن يلحق هذا الوجه - وهو الشكر بمعنى الإيمان - بالوجه الثاني وهو الشكر بمعنى التوحيد ، وعلى المعنى الثاني يلزم أن يحلق هذا الوجه بالوجه الأول وهو شكر النعمة .

(٥) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ٢٦٢/١ ، الميزان : ١٠٥/٧ .

(٦) الكشف : ٣٢٩ .

(٧) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٥٦/٣ .

(١) ينظر : وجوه القرآن : ٣٣٥ .

(٢) ينظر : ديوان الأدب : ١١٠/٢ .

(٣) ينظر : النكت والعيون : ١٦٤/٦ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٢٠٨/١ .

٤- الشكر بمعنى الطاعة :

لم يذكر هذا الوجه إلا الحيري النيسابوري وجعل مثاله قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَدِّهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلَوْلَدَيْكَ إِلَهِيَ الْمَصِيرُ ﴾ (لقمان :

١٤) (١١٠٦) ، وأحسب أنه استوحى معنى الطاعة في الشكر في هذه الآية بقريضة ذكر الوالدين فيها واقتران شكرهما بشكر الله تعالى فلما كان الواجب أن يطاع الوالدان طاعة قال : إنَّ الشكر هنا بمعنى الطاعة ، ولا شك في أنَّ الطاعة واجبة لله عز وجل ، فشكره ، وشكر الوالدين - على هذا الوجه - هو طاعته وطاعة الوالدين ، وقد قيل إنَّ " الشكر هو الطاعة لجميع الجوارح في السر والعلانية " (١١٠٧).

٥- الشاكر والشكور بمعنى المُجَازي :

ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : من الآية ١٥٨) وقوله تعالى

: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (النساء : من الآية ١٤٧) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

﴿ (فاطر : من الآية ٣٤) (١١٠٨) وإنما جعل الشاكر والشكور في هذه الآيات بمعنى المُجَازي ؛ لأنَّ هذين الوصفين في حق الله تعالى ، والشاكر - والشكور مبالغة فيه - في اللغة هو المظهر للإنعام عليه ، وذلك المعنى في حقه جل وعلا محال ، فالشاكر والشكور في حقه تعالى مجاز ، ومعناه المجازي على الطاعة (١١٠٩) بمعنى أنه عز وجل " يعامل عباده معاملة الشاكر في توفية الحق حتى كأنه ممن وصل إليه النفع فشكره " (١١١٠) ، وسميت المجازاة على الطاعة شكرًا لوجوه :

الأول : أنَّ اللفظ خرج مخرج التلطف بالعباد ومبالغة في الإحسان إليهم .

والثاني : أنَّ الشكر لما كان مقابلًا للإنعام أو الجزاء عليه ، سمي كلَّ ما كان جزاء شكرًا على سبيل التشبيه .

(٤) ينظر : وجوه القرآن : ٣٣٥ .

(١) معالم التنزيل : ٤١/١ .

(٢) ينظر : وجوه القرآن : ٣٣٥ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ١٣٩/٤ ، اللباب في علوم القرآن : ١٠٢/٣ .

(٤) مجمع البيان : ٣٩/٩ .

والثالث : أنَّ الشكر اسم لما يجازى به ، والله جل وعلا هو المجازي فسمي شاكراً لعلاقة المجازاة^(١١١).

وقيل : إنَّ الشاكر والشكور في حقه تعالى حقيقة وليس مجازاً ؛ لأنَّ الشكر في اللغة هو الإظهار ، والله عز وجل يُظهر ما خفي من أعمال العبد من الطاعة ويجازيه عليه^(١١٢) ، وقد يكون المعنى أنه تعالى مظهر لجزاء شكر النعمة وهو زيادتها كما قال سبحانه : ﴿لِنُشْكِرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم : من الآية ٧) فإذا شكر العبد نِعَمَ الله تعالى فإنه عز وجل يشكره بمعنى يظهر الزيادة فيها .

٦- الشكر بمعنى القبول :

انفرد بذكر هذا الوجه الحيري النيسابوري أيضاً ، وجعل مثاله قوله تعالى : ﴿فَأُولَئِكَ

كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإسراء : من الآية ١٩) وإنما جعل الشكر هنا بمعنى القبول ؛ لأننا قد ذكرنا في الوجه السابق أنَّ الشاكر إنما جُعِلَ بمعنى المُجَازِي ؛ لأنَّ هذا الوصف في حقه تعالى محال ، ولما كان كون سعي العبد مشكوراً يقتضي كون الله شاكراً^(١١٣) قيل : إنَّ الشكر في هذه الآية بمعنى القبول ، بمعنى " أن يكون شكر الله لعباده هو رضاه عنهم بالقليل من الطاعات واعطاءه إياهم عليه ثواباً كثيراً " ^(١١٤) ولا ريب في أنَّ الله تعالى إذا رضي عمل العبد وأثابه عليه فإنه قد قبله .

(٥) ينظر : اللباب في علوم الكتاب : ١٠٢/٣ .

(٦) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، الميزان : ٣٩١/١ .

(١) ينظر : التفسير الكبير : ٧٥٦/٣٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٥٧ / ٣٠ .

وجوه التسبيح :

١- التسبيح بمعنى تنزيه الله تعالى :

مما ورد بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قَانُونٌ ﴾ (البقرة : ١١٦) وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (الأنعام : ١٠٠) وقوله تعالى : ﴿
فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس : ٨٣) ، وقوله تعالى : ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحديد : ١) ^(١١٥) .

والتنزيه هو المعنى الأساسي للتسبيح ، قال الخليل : " سبحان الله تنزيه لله عن كل ما لا
ينبغي أن يوصف به " ^(١١٦) وقال الطبري : " وأصل التسبيح لله عند العرب التنزيه له من
إضافة ما ليس من صفاته والتبرئة له من ذلك " ^(١١٧) ، فالآيات التي ذكرناها تنزه الله عز

(١) ينظر : وجوه القرآن : ٢٩٨ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٤٤٧/١ ، بصائر ذوي التمييز : ١٧٨ / ٣ الإنبياء بما
في كلمات الرحمن من أضواء : ١٥٩/٣ ، ١٦٠ .

(٢) كتاب العين : ١٥١/٣ .

(٣) جامع البيان : ١ / ٢٤١ ، ينظر : مجمل اللغة : ٤٨٢/٢ ، الصحاح : ٣٧٢/١

وجل عن كل ما لا ينبغي له لاسيما في سياق الإخبار عما اتخذ له تعالى شريكاً ؛ لأنّ التسبيح ينزه الله جل وعلا ويبرؤه عن أن يكون له شريك سبحانه وتعالى عما يشركون .

٢- التسبيح بمعنى الصلاة :

ورد من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (الروم : ١٧ ، ١٨) ^(١١٨).

ذكرت كتب التفسير وكتب أحكام القرآن هذه الآية ضمن الآيات التي حددت أوقات الصلاة ، ومعناها : صلوا لله تعالى (حين تمسون) وذلك صلاة المغرب والعشاء ، (وحين تصبحون) وذلك صلاة الصبح ، (وعشيّاً) وذلك صلاة العصر (وحين تظهرون) وذلك صلاة الظهر ^(١١٩).

وذكر الزمخشري والبيضاوي والفاضل المقداد (ت: ٨٢٦هـ) أنه قيل لابن عباس : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ فقال : نعم وتلا هذه الآية ^(١٢٠). وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان : الأول لما تضمنته الصلاة من ذكر التسبيح في الركوع والسجود . والثاني : أن التسبيح مأخوذ من السُّبْحَة ، والسُّبْحَة هي الصلاة ^(١٢١).

وذهب بعض المفسرين إلى أنّ التسبيح في الآية يحتمل أن يكون بمعناه الأساسي وهو تنزيه الله تعالى عن السوء ، وتخصيص التسبيح والحمد بهذه الأوقات " للدلالة على أن ما يحدث فيها من آيات قدرته وأحكام رحمته ونعمته شواهد ناطقة بتنزيهه تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة لتسبيحه وتحميده حتماً " ^(١٢٢) وقيل : المعنى أن الله جل وعلا منزّه عما لا ينبغي له كلما دخلتم أنتم معاشر البشر في مساء وفي صباح وفي عشي وفي ظهيرة وله الثناء الجميل في السماوات والأرض ^(١٢٣).

-
- (٤) ينظر : وجوه القرآن ، ٢٩٩ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٤٤٦/١ ، بصائر ذوي التمييز : ١٧٧/٣ .
 (١) ينظر : جامع البيان ٣٥/ ٢١ ، أحكام القرآن ، أبو بكر الجصاص : ٣٣٦/٢ ، ٣٤٢ ، النكت والعيون : ٣٠٣/٤ ، مجمع البيان : ٣٨٦/٨ ، فقه القرآن ، قطب الدين الراوندي : ٤٦/١ ، التفسير الكبير : ٤٨٢/٦ .
 (٢) ينظر : الكشف : ٨٢٧ ، أنوار التنزيل : ٣٤١/٣ ، كنز العرفان في فقه القرآن ، الفاضل المقداد : ٧٩ .
 (٣) ينظر : النكت والعيون : ٣٠٣/٤ ، منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، ابن الجوزي : ١٤٢ .
 (٤) إرشاد العقل السليم : ٣٤٧/٥ .
 (٥) ينظر : الميزان : ١٦٩/١٦ .

ويبدو أنّ من ذهب إلى أنّ التسبيح في هذه الآية بمعنى الصلاة قد اعتمد في ذلك على قرينة لفظية وردت في الآية هي ذكر الأوقات ؛ لأنّ الله تبارك وتعالى جعل للصلاة المفروضة أوقاتاً محددة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (النساء : من الآية : ١٠٣) ، فلما جاءت هذه الأوقات مع التسبيح قيل : إنّ المراد بالتسبيح إذا الصلاة ؛ لذلك قال الطبرسي في ذلك : " وهو الأحسن ؛ لأنه خصّ هذه الأوقات بالذكر " (١١٢٤) .

وبقرينة ذكر الأوقات ذكر المفسرون أنّ التسبيح بمعنى الصلاة أيضاً في قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ (طه : ١٣٠) .

قال ابن العربي (ت: ٥٤٣هـ) في الآية : " لا خلاف في أنّ المراد بقوله تعالى ههنا (سَبِّحْ) صَلِّ ؛ لأنه غاية التسبيح وأشرفه " (١١٢٥) ولم يختلف المفسرون في أنّ المراد بـ (قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح ، غير أنهم اختلفوا في الصلوات الأخرى فمنهم من يرى أنّ المراد بـ (قبل غروبها) صلاة العصر وبـ (إناء الليل) صلاة العشاء الآخرة وبـ (أطراف النهار) صلاتا الظهر والمغرب (١١٢٦) .

ومنهم من يرى أنّ المراد بـ (قبل غروبها) صلاة العصر وبـ (من آناء الليل) صلاتا المغرب والعشاء وبـ (أطراف النهار) صلاة الظهر (١١٢٧) ، ومن المفسرين من ذكر في الآية ثلاثة أوجه :

الأول : أن الآية تدل على الصلوات الخمس (قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح و(قبل غروبها) صلاتا الظهر والعصر ؛ لأنهما جميعاً قبل الغروب ، و(من آناء الليل) صلاتا المغرب والعشاء ، ويكون قوله تعالى (وأطراف النهار) بمثابة التوكيد للصلاة التي تكون في طرفي النهار ، وهي صلاة الفجر وصلاة المغرب كما اختصت الصلاة الوسطى بالتوكيد في قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ (البقرة : من الآية ٢٣٨) .

(٦) مجمع البيان : ٣٨٦/٨ .

(١) أحكام القرآن ، ابن العربي : ٢٦٠/٣ .

(٢) ينظر : جامع البيان : ٢٧١/١٦ ، فتح القدير : ٤٨٧/٣ .

(٣) ينظر : مجمع البيان : ٥٠/٧ ، فقه القرآن ، الراوندي : ١٤٧/١ .

والثاني : أنَّ المراد بالآية الصلوات الخمس وزيادة وهي النوافل ؛ لأنَّ الزمان أما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها ، فالليل والنهار داخلان في هاتين العبادتين المشتملتين على أوقات الصلاة الواجبة ، بقي قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَمَانِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ فالمراد منه النوافل .

والثالث : أنَّ الآية ذكرت أربع صلوات فر (قبل طلوع الشمس) صلاة الفجر ، (وقبل غروبها) صلاة العصر ، و(من آناء الليل) صلاتا المغرب والعشاء ، وبقيت صلاة الظهر خارجاً (١١٢٨).

ومع ما تقدم من أنَّ التسبيح في الآية بمعنى الصلاة فإنه لا يبعد أن يكون بمعنى التنزيه ، بل هو الأقرب عند بعض المفسرين ؛ " وذلك لأنه تعالى صبره أولاً على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر ، والذي يليق بذلك أن يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائماً مظهرًا لذلك وداعيًا إليه فلذلك قال ما يجمع كل الأوقات " (١١٢٩).

وقال السيد الطباطبائي : " وما ذكر في الآية من التسبيح مطلق ، لا دلالة فيها من جهة اللفظ على أنَّ المراد به الفرائض اليومية من الصلوات ، وإليه مال بعض المفسرين ، لكن أصرَّ أكثرهم على أنَّ المراد بالتسبيح الصلاة تبعًا لما روي عن بعض القدماء كقتادة وغيره " (١١٣٠).

ومن الآيات التي قيل : إنَّ التسبيح فيها بمعنى الصلاة بقرينة ذكر الأوقات أيضًا قوله تعالى مخبرًا عن زكريا - عليه السلام - : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (مريم : من الآية

١١) إذ قيل : إنه - عليه السلام - أمرهم بالصلاة (١١٣١). وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ

بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴾ (ق : ٣٩ ، ٤٠) (١١٣٢).

(١) ينظر : التفسير الكبير : ١١٣/٢٢ ، اللباب في علوم الكتاب : ٤٢٣/١٣ ، ٤٢٤ .

(٢) التفسير الكبير : ١١٣/ ٢٢ .

(٣) الميزان : ٢٥٥/١٤ .

(٤) ينظر : الكشف : ٦٣٣ ، مجمع البيان : ٦٥٣/٦ ، التفسير الكبير : ٥١٦/ ٢١ ، إرشاد العقل السليم : ٥٥١/٤ ، فتح القدير : ٤٠/٣ .

(٥) ينظر : جامع البيان : ٢٦ / ٢٠٨- ٢١٢ ، أحكام القرآن ، عماد الدين بن محمد المعروف بالكيا الهراسي : ٣٨٧/٤ .

ومما ذكر من التسبيح بمعنى الصلاة من دون ذكر الأوقات قوله تعالى مخبراً عن يونس
 - ﷺ - : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ لَلْبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (الصفافات : ١٤٣ ،
 ١٤٤) فذهب الخليل إلى أَنَّ المعنى : فلولا أنه كان من المصلين واستشهد لذلك بقول
 الأعشى :

وسبّح على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا (١١٣٣)

إذ قد عني بذلك الصلاة (١١٣٤) .

وذكر المفسرون أنه يُحتمل أن يكون المعنى : فلولا أنه كان من الذاكرين الله تعالى كثيراً
 بالتسبيح ، وهو قوله في بطن الحوت - كما حكاه عنه القرآن بقوله تعالى - : ﴿ فَنَادَى فِي
 الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنبياء : من الآية ٨٧) أو أن
 يكون المراد بتسبيحه صلاته قبل دخوله بطن الحوت ، أي قبل البلاء أو صلاته في بطن
 الحوت (١١٣٥) .

٣- التسبيح بمعنى التعجب :

جاء من ذلك قوله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ
 الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (الإسراء : من الآية ١) (١١٣٦) وإنما جعل التسبيح في هذه الآية
 بمعنى التعجب ؛ لأنَّ الإسراء بالنبى محمد - ﷺ - أمر عظيم يُتعجب منه ، قال
 الإمام الصادق - ﷺ - : " أما ترى الرجل إذا عجب من الشيء قال : سبحان الله " (١١٣٧) ،

(١) ما ورد في الديوان قوله :

وذا النصب المنسوب لا تنسكنه ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

وصل على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

ينظر : ديوان الأعشى : ١٠٦ ، وورود ما يدل على التوحيد في الشعر الجاهلي قضية أثارت جدلاً كبيراً بين النقاد
 قديماً وحديثاً ، وكانت أهم مقومات ادعاء أنَّ الشعر الجاهلي منحول ، وقد عزا أحد الباحثين وجود التوحيد عند شعراء ما
 قبل الإسلام إلى أنَّ الحياة العربية قبل الإسلام كانت تعرف التوحيد وكان بعض العرب من الأحناف وهم أتباع إبراهيم -
 ﷺ - قد ظلوا يوحدون الله تعالى ولا يشركون به أحداً حتى ظهور الإسلام ، ينظر : التوحيد في الشعر العربي قبل
 الإسلام (رسالة) علاء جاسم جابر : ٩٥ - ١٠٣ .

(٢) ينظر : كتاب العين : ١٥٢/٣ .

(٣) ينظر : جامع البيان : ٢٣ / ١١٨ ، ١٢٠ ، الكشف : ٩١٣ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ١٩٧/٢ .

(٤) ينظر : وجوه القرآن : ٢٩٩ ، الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٤٤٦/١ ، بصائر ذوي التمييز : ١٧٧/٣ .

(٥) تفسير الصافي ، الفيض الكاشاني : ٥٤/٣ .

وأصل معنى التعجب في التسبيح أن يسبح الله تعالى عند معاينة العجيب من صنائعه تنزيهاً له جل وعلا عن أن يصعب عليه أمثاله ، ثم كثر حتى استعمل في كل ما يُتعجب منه^(١١٣٨).

وقد ربط السيد محمد تقي المدرسي بين معنى التسبيح ومعنى التعجب ربطاً لطيفاً فقال : " قال بعض المفسرين : إنّ التسبيح هنا بمعنى التعجب ، أي : عجباً كيف أسرى الله بعبده من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السماء ، هذا صحيح ، ولكن يبقى السؤال : ما هي العلاقة بين التسبيح والتعجب؟ الواقع أننا حين نتعجب من شيء ، فإنّ الشيطان والنفس الأمارّة بالسوء يوسوسان لنا بأن ذلك الشيء هو عظيم إلى حدّ الألوهية ، ومن أجل أن نبتعد عن هذا الشرك علينا أن نسبح الله وننزهه لننذكر بأنه أكبر من أي شيء عجيب قد يبهرنّا " ^(١١٣٩) ويرى أحد الباحثين أن معنى التعجب قد تفرع عن المعنى الأساسي للتسبيح - وهو التنزيه - في الاستعمال الاجتماعي ، ومثاله : أننا إذا سمعنا رجلاً مشهوراً بالتدليس والمكر والخداع ينصح رجلاً آخر بالصدق والاستقامة والأمانة ، نقول : سبحان الله ، كأنما ننزه أسمعنا عما سمعنا ونبرّئ ألسنتنا عما تكلم به ^(١١٤٠).

ولا أوافقه فيما ذهب إليه ؛ لأنّنا بقولنا : سبحان الله ، إنما ننزه الله تعالى لا أسمعنا أو ألسنتنا ، وأحسب أننا عندما نقول : سبحان الله عند سماع القبيح كالمثال الذي ذكره فإننا نتعجب من ذلك ونستأنس بتسبيح الله جل وعلا الذي يذكرنا بأنه عز وجل المنزه المطلق عن كل قبيح كما أننا إذا أفصحنا عن رفضنا للظلم مثلاً رددنا : الله أكبر الله أكبر للاستئناس بأنّ الله تعالى أكبر من الظلم والظالمين وهو حسبنا على من ظلمنا ، أما قولنا : سبحان الله عند رؤية الجميل أو سماعه كقولنا : سبحان الله تعبيراً عن العجب الذي يدخلنا عند رؤية حقيقة غناء مثلاً ، فإنه يرجع - فيما أحسب - إلى ما ذكره المفسرون من أنّ أصل معنى التعجب في التسبيح أن يسبح الله تعالى عند معاينة العجيب من صنائعه ، وفيه إشعار بأنه تبارك وتعالى جميل منزّه عن كل قبيح .

ومن الآيات التي ذكر المفسرون أنّ التسبيح فيها بمعنى التعجب قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا إِذْ

سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ (النور : ١٦)^(١١٤١) ففي

الآية قرينة لفظية تدل على أنّ التسبيح جاء في سياق ذكر أمر عظيم وهي قوله تعالى (هذا

(٦) ينظر : الكشف : ٧٢٢ ، التسهيل لعلوم التنزيل : ٦٤/٢ ، إرشاد العقل السليم : ٩٩/٥ .
(١) من هدي القرآن ، السيد محمد تقي المدرسي : ١٧٦/٦ ، ١٧٧ ، ويبدو أنّ قوله (ما هي العلاقة) خطأ منشؤه السهو والصحيح : ما العلاقة .

(٢) ينظر : التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن : ١١١ .
(١) ينظر : التفسير الكبير : ٣٤٣/ ٢٣ ، أنوار التنزيل : ١٩٠/٣ ، مدارك التنزيل : ١١٢٤/٢ ، إرشاد العقل السليم : ١٩٩/٥ .

بهتان عظيم) ، فالقائلون : سبحانك نزهوا الله تعالى متعجبين من سماع ذلك الأمر العظيم وهو حديث الإفك ، وقد استعمل هذا المعنى الأعشى بقوله:

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر (١١٤٢)

إذ إنه تعجب مما سمع بقوله : (سبحان) ؛ ولذلك قال الزمخشري في الآية : "و(سبحانك) للتعجب من عظم الأمر " (١١٤٣).

ومن التسبيح بمعنى التعجب ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَنَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (الإسراء : ٩٠ - ٩٣)

ف " (سبحان ربي) تعجب من اقتراحاتهم عليه " (١١٤٤) ، وجواب النبي محمد - ﷺ

ﷺ - بقوله في صورة الاستفهام : (هل كنت إلا بشراً رسولاً) يؤكد كون قوله - عليه الصلاة والسلام - : (سبحان ربي) واقعاً موقع التعجب (١١٤٥) أي : إن في الآية قرينة لفظية دلت على أن المراد بالتسبيح فيها التعجب ، لاسيما أن الاستفهام هنا خرج عن غرضه الأصلي إلى معنى مجازي وهو التعجب أيضاً ، وقيل : إن التسبيح في الآية " تنزيه لله عن قولهم : تأتي بالله ، وعن أن يُطلب من هذه الأشياء التي طلبها الكفار ؛ لأن ذلك سوء أدب " (١١٤٦).

٤- التسبيح بمعنى الاستثناء :

- (٢) ورواية الديوان : أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر
ينظر : ديوان الأعشى : ١٩٠ ، ومعنى (فخره) : فجوره أي ذنبه ومخالفته .
(٣) الكشف : ٧٢٢ .
(٤) المصدر نفسه : ٦٠٨ .
(٥) ينظر : الميزان : ٢١٧/٣ .
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل : ٤٥٤/١ ، ٤٥٥ .

مثال هذا الوجه قوله تعالى : ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبَّنَا

إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (القلم : ٢٨ ، ٢٩) بمعنى (لولا تسبحون) لولا تستثنون^(١١٤٧) .

وقد ذكرنا من قبل أنّ هذا الكلام جارٍ على لسان الأخ الأوسط لأصحاب البستان المثمرة الذين أقسموا أنهم سيجنون ثمارها عند الصباح ولا يستثنون ، أي أنهم لا يقولون : إنّ شاء الله ؛ لأنّ القائل إذا قال : لأفعلنّ كذا إلا أنّ يشاء الله فقد استثنى ومعناه : إلا أنّ يشاء الله منعي ، فلما جاؤوا ببستانهم ووجدوها قد احترقت قال لهم أخوهم الأوسط : (ألم أقل لكم لولا تسبحون)^(١١٤٨) بمعنى : ألم أقل لكم لولا تستثنون بقولكم : إنّ شاء الله^(١١٤٩) .

وليس بعيداً معنى الاستثناء من التسبيح فهما يلتقيان " في معنى التعظيم لله ؛ لأنّ الاستثناء تفويض إليه والتسبيح تنزيه له وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم " ^(١١٥٠) وقال الزبيدي (ت : ١٢٠٥ هـ) : " وفي الاستثناء تعظيم الله تعالى والإقرار بأنه لا يشاء أحد إلا أنّ يشاء الله " ^(١١٥١) .

ويبدو أنّ الذي دل على أنّ التسبيح في الآية بمعنى الاستثناء قوله تعالى في سياق الإخبار عن قصة أصحاب البستان : ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا

مُصْبِحِينَ﴾ ﴿وَلَا يَسْتَتِنُونَ﴾ (القلم : ١٧ - ١٨) فالقرينة اللفظية (يستثنون) دلت على أنّ

المراد من التسبيح في (لولا تسبحون) الاستثناء أما قوله تعالى : ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا

ظَالِمِينَ﴾ (القلم : ٢٩) فإنّ للتسبيح فيه - كما يقول الحيري النيسابوري - وجهاً آخر وهو ما سنذكره في الوجه الآتي .

٥- التسبيح بمعنى الاستغفار :

(١) ينظر : الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٤٤٧/١ ، بصائر ذوي التمييز : ١٧٨/٣ .

(٢) ينظر : ٨٩ من هذه الرسالة .

(٣) ينظر : جامع البيان : ٥/١٥ ، النكت والعيون : ٢٢٤/٣ ، التفسير الكبير : ٦٠٩/٣٠ ، إرشاد العقل السليم : ٣٧٩/٦ .

(٤) الكشف : ١١٣١ ، وينظر : مجمع البيان : ٤٢٦/١٠ .

(٥) تاج العروس : ٨٠/٤ .

ذكر هذا الوجه الحيري النيسابوري وجعل مثاله قوله تعالى في سياق قصة أصحاب البستان التي تقدم ذكرها : ﴿ قَالُوا سُبْحَنَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (القلم : ٢٩) بمعنى أنهم بقولهم هذا قد استغفروا ربهم وتابوا إليه ؛ لأنهم نووا أن يصرموا بستانهم ويحرموا المساكين منها^(١١٢) . ويحتمل أنهم أرادوا بقولهم : (سبحان ربنا) تنزيهه تعالى عن أن يكون ظلمهم بإحراق بستانهم فاعترفوا بأنه السبب في ما حلّ بها فنسبوا إليهم الظلم فقالوا : (إننا كنا ظالمين)^(١١٣) .

ويرى السيد الطباطبائي أنّ " المراد بتسبيحهم له تعالى تنزيههم له من الشركاء حيث اعتمدوا على أنفسهم وعلى سائر الأسباب الظاهرية ، فاقسموا ليصرمنها مصبحين ولم يستثنوا لله مشيئة ، فعزلوه تعالى عن السببية والتأثير ونسبوا التأثير إلى أنفسهم وسائر الأسباب الظاهرية ، وهو إثبات للشريك ، ولو قالوا : لنصرمنها مصبحين إلا أن يشاء الله، كان معنى ذلك نفي الشركاء وأنهم إن لم يصرموا كان لمشئته من الله ، وإن صرموا كان ذلك بإذن الله فله الأمر وحده لا شريك له " ^(١١٤) . وعلى هذا الرأي تكون الآية مثالا للوجه الأول من وجوه التسبيح وهو التسبيح بمعنى تنزيه الله تعالى .

٦- التسبيح بمعنى التوبة :

ذكر هذا الوجه الدامغاني ومجد الدين الفيروزآبادي وجعلا مثاله قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف : ١٤٣) ^(١١٥) وليس يخفى أن جعل التسبيح في الآية بمعنى التوبة إنما هو بقريضة ذكر التوبة في قوله تعالى (تبت) فموسى - ﷺ - سبّح الله جل وعلا معلنا توبته من إجراء تلك المقالة العظيمة على لسانه وهي طلب رؤيته عز وجل مع

(١) ينظر : وجوه القرآن : ٢٩٩ .

(٢) ينظر : الكشف : ١١٣١ ، مجمع البيان : ٤٢٧/١٠ .

(٣) الميزان : ٣٤/٢٠ .

(٤) ينظر : الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٤٤٧/١ ، بصائر ذوي التمييز : ١٧٦/٣ .

أنه أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز له وما لا يجوز وبتعالیه تعالى عن الرؤية^(١١٦) وقد ذكرنا من قبل أن من معاني التوبة الرجوع عن الذنب وترك المعاودة له ، وأن التسبيح يحمل معنى الرجوع إلى الله تعالى وترك ما يُبعد عنه^(١١٧) وقال الشريف المرتضى (ت: ٤٣٦ هـ) في توبة موسى - عليه السلام - : "والذي يجب أن يقال في تلفظه بذكر التوبة أنه وقع على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والرجوع إليه والتقرب منه " ^(١١٨) فبين التسبيح والتوبة تقارب من وجه وهو أنهما يحملان معنى الرجوع ، ولعل هذا التقارب في ما بينهما هو ما جعل التوبة وجهًا من وجوه التسبيح في القرآن الكريم ، لاسيما الآية التي ذكرناها إذ ذكرت فيها التوبة صراحة ، ولا يبعد هذا الوجه عن الوجه الذي سبقه وهو التسبيح بمعنى الاستغفار؛ لأن من يستغفر الله تعالى عن ذنوبه فإنه يتوب إليه منها .

٧- التسبيح بمعنى الذكر :

ذكر هذا الوجه الدامغاني ومجد الدين الفيروز آبادي أيضًا ، ومما جعله مثلاً لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (الرعد : من الآية ١٣) وقوله تعالى في سياق الإخبار عن الملائكة : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء : ٢٠) والمعنى : يذكر الرعد والملائكة الله تعالى^(١١٩) ، ولا شك في أن التسبيح أحد أنواع ذكر الله جل وعلا ، فالأدكار كثيرة منها : الحمد والاستغفار والتهليل ومنها التسبيح ، ولعل جعل التسبيح بمعنى الذكر من باب تسمية الجزء باسم الكل ، ولا يختص هذا الوجه بمواضع محددة للتسبيح في القرآن الكريم دون مواضع أخرى له بل يصح أن يسمى كل تسبيح ذكرًا ما دام المسبح لله تعالى ذاكرًا له ، أو ما دام التسبيح جزءًا من الذكر .

٨- التسبيح بمعنى براءة الله من السوء :

ذكر هذا الوجه الدامغاني ، ولعل مجد الدين الفيروز آبادي قصده عندما ذكر أن التسبيح يأتي بمعنى " تنزه الحق تعالى من العيوب والآفات " ^(١٢٠) لاسيما أنهما اتفقا على أن مثاله في القرآن الكريم هو قوله تعالى : ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(١) ينظر : الكشف : ٣٨٥ ، رؤية الله بين التنزيه والتشبيه : ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) ينظر : ٧٦ من هذا الرسالة .

(٣) تنزيه الأنبياء ، الشريف المرتضى : ١١٥ .

(٤) ينظر : الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٤٤٦/١ ، بصائر ذوي التمييز : ١٧٨/٣ .

(١) بصائر ذوي التمييز : ١٧٨/٣ .

(يس : ٨٣) (١١٦١). وما ذكرناه داخل ضمن الوجه الأول وهو التسبيح بمعنى تنزيه الله تعالى ؛ إذ لا ريب في أنّ معنى تنزيه الله جلّ وعلا يشمل براءته من السوء وتنزهه عن العيوب والآفات ؛ لأنّ التنزيه معنى عام مفاده أنه تعالى منزّه عن كل ما لا يليق به ولا ينبغي له .

التقديم والتأخير

ذكرنا من قبل أن التقديم والتأخير من سنن العرب في كلامهم وأنه من مظاهر التعبير في لغتهم ، وأشرنا إلى أنه نوعان :

(٢) ينظر : الوجوه والنظائر ، الدامغاني : ٤٤٧/١ ، بصائر ذوي التمييز : ١٧٨/٣ .

الأول : تقديم اللفظ على عامله ، كتقديم الخبر على المبتدأ مثلاً ، وهذا ما درسناه في المستوى النحوي^(١١٦٢) .

والثاني : تقديم الألفاظ بعضها على بعض ، وهو ما ندرسه هنا إن شاء الله تعالى .

يدخل هذا النوع من التقديم والتأخير في إطار بناء الجملة القرآنية الذي " أحكمت لبناته ، ونسقت أدق تنسيق ، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها أو تنبو عن موضعها أو لا تعيش مع أخواتها حتى صار من العسير ، بل من المستحيل أن تغير في الجملة كلمة بكلمة ، أو أن تستغني فيها عن لفظ ، أو أن تزيد فيها شيئاً ، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة من القرآن أن ترجع بعد طول المطاف إليها ، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني غير هذه الألفاظ ، وكأنما ضاقت اللغة فلم تجد فيها - وهي بحر خضم - ما تؤدي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء " ^(١١٦٣)؛ إذ بلغ التعبير القرآني الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه ، بحيث تستقر في مكانها المناسب ، فبدا متسقاً متناسقاً كأنه لوحة فنية متكاملة ^(١١٦٤) .

ويبدو أن تقديم لفظة على أخرى في النظام القرآني يخضع لما يقتضيه المقام ويتطلبه السياق من أغراض^(١١٦٥) ؛ وذلك لأن " الجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي فتصوره بألفاظها لتلقيه في النفس ، حتى إذا استكملت الجملة أركانها برز المعنى ظاهراً فيه المهم والأهم ، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب ، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنها وإلا اختل وانهار " ^(١١٦٦) فيتحقق بذلك الإعجاز البياني الرفيع ، ويتضح المعنى القرآني المراد^(١١٦٧) .

وسنحاول أن نتعرف ما يضيفه التقديم والتأخير من دلالة في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه .

التقديم والتأخير في سياق الحمد

١- تقديم الحمد على التكبير :

- (١) ينظر : ١٨٧ من هذه الرسالة .
- (٢) من بلاغة القرآن : ١٠٥ ، وينظر : إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي : ٢٦١ .
- (٣) ينظر : التعبير القرآني : ٥١ .
- (٤) ينظر : المصدر نفسه : ٥٠ ، من بلاغة النظم القرآني ، د. بسبوني عبد الفتاح فيود : ٧٥ .
- (٥) من بلاغة القرآن : ١٠٥ ، وينظر : البحث الدلالي في تفسير الميزان : ٢٢٩ .
- (٦) ينظر : إعجاز القرآن البياني : ٢٦٢ .

تقدم حمد الله تعالى على تكبيره في قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء : ١١١) ودلالة ذلك

التنبيه على أن العبد - وإن بالغ واجتهد في تنزيه الله جل وعلا وتحميده - ينبغي أن يعترف بالقصور في ذلك^(١١٦٨) فيكبر الله تعالى بعد أن يحمده ، وفي ذلك إشارة إلى أن الله عز وجل أكبر مما يحمده به الحامدون واحتراز من أن يتوهم أحد أنه وقاه حقه بالحمد ، إذ على الحامد أن يكبره تعالى بعد حمده ليعترف أنه أكبر مما حمده به .

وقريب من ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الجاثية : ٣٦-٣٧) إذ تقدم

إثبات الحمد لله عز وجل على إثبات الكبرياء له ودلالة ذلك " الإشارة إلى أن الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من أن يكون الحمد الذي ذكروه لائقًا بإنعامه ، بل هو أكبر من حمد الحامدين وأياديه أعلى وأجلّ من شكر الشاكرين "^(١١٦٩).

٢- تقديم الحمد على السلام على الأنبياء - عليهم السلام - وتأخير عنه :

ذكر تعالى في سورة النمل قصص بعض الأنبياء وأقوالهم وبين سنته الجارية في الأمم الماضية وما فعل بالمؤمنين منهم من الاصطفاء ومزيد الإحسان ، وما فعل بالكافرين من التدمير والعذاب^(١١٧٠) ثم قال في خاتمة ما قصّه من أخبار الأنبياء وأقوامهم : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ (النمل : من الآية ٥٩) .

فتقدم أمر النبي محمد - ﷺ - بالحمد على أمره بالسلام على الأنبياء الذين سبقوه ، ويدل ذلك على أنه - عليه الصلاة والسلام - أمر بأن يحمد الله عز وجل على هلاك

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٤٦٩ : ٤ .

(٢) التفسير الكبير : ٦٨٣/٢٧ .

(١) ينظر : الميزان : ٤١٥/١٥ .

كفار الأمم الخالية وعلى ما خصّه به من النعم التي منها رفع عذاب الاستئصال عن أمته ، ثم أمر بأن يسلم على الأنبياء الذين صبروا على مشاق الرسالة^(١١٧).

أما تأخير الحمد عن السلام على الأنبياء - عليهم السلام - فقد جاء في قوله تعالى :
 ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾
 (الصفات : ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢) وذلك للإشارة إلى أنّ الحمد لله تعالى إنما كان على ما أفاض على الأنبياء - عليهم السلام - ومن اتبعهم من النعم وحسن العاقبة لذلك أخره عن التسليم^(١١٨).

ويظهر من ذلك أثر السياق في ترتيب ألفاظ الجملة القرآنية ، فلمّا تقدّم في سورة النمل ذكر أخبار الأنبياء وأقوالهم تقدّم الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية على ذكر السلام على الأنبياء لما تحملوه من مشاق الرسالة، ولما ذكر الأنبياء وحدهم في سورة الصفات من دون ذكر أقوامهم تقدم السلام عليهم على ذكر الحمد لله على ما أنعمه عليهم وعلى من اتبعهم .

٣- تأخير الحمد عن ذكر هلاك الظالمين :

قال تعالى : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأنعام : ٤٥) فذكر هلاك الظالمين ثم أعقبه بالحمد له جل وعلا ؛ لأنّ قطع دابر الظالمين نعمة منه تعالى على الرسل ، فذكر الحمد تعليمًا لهم ولمن آمن بهم أن يحمده على أن كفاهم شر الظالمين ، ودلّ ذلك على وجوب ترك الظلم ؛ لما ذكر من استحقاق القاطع لدابر الظالمين للحمد من كل حامد^(١١٩)، ومن هنا " تتحصل الدلالة على أنّ اللوم والسوء في جميع ما حلّ بهم من عذاب الاستئصال يرجع إليهم ؛ لأنهم القوم الذين ظلموا وأنه لا يعود إليه تعالى إلا الثناء الجميل ؛ لأنه لم يأت في تدبير أمرهم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة ، ولم يسقهم في سبيل ما انتهوا إليه إلا إلى ما ارتضوه بسوء اختيارهم ، فقد تحقق أنّ الخزي والسوء على الكافرين وأنّ الحمد لله ربّ العالمين " ^(١٢٠).

(٢) ينظر : الباب في علوم الكتاب : ١٨٤/١٥ .

(٣) ينظر : أنوار التنزيل : ٤٧٦/٣ .

(١) ينظر : الباب في علوم الكتاب : ١٥٢/٨ .

(٢) الميزان : ٩٣/٧ .

٤- تأخير الحمد عن ضرب المثل :

جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل : ٧٥)

، ذكر الطبرسي أنَّ المعنى : الحمد لله على نعمه ، وفيه إشارة إلى أنَّ النعم كلها منه تعالى أو : الحمد لله على توحيده ومعرفته^(١١٧٥) ، ويدل ذلك على أنَّ ضرب المثل بيِّن نعم الله على عباده أو أشار إلى توحيده ومعرفته فأعقبه بذكر الحمد على ذلك ، غير أنَّ بعض المفسرين احتمل " أنَّ يكون المراد أنه تعالى لما ذكر هذا المثل ، وكان مثلاً مطابقاً للغرض كاشفاً عن المقصود قال بعده : (الحمد لله) ، يعني الحمد لله على قوة هذه الحجة وظهور هذه البينة ثم قال : (بل أكثرهم لا يعلمون) يعني أنها مع غاية ظهورها ونهاية وضوحها لا يعلمها ولا يفهمها هؤلاء الضُّلَّال " ^(١١٧٦) وهذا يعني أنَّ الحمد جاء على مطابقة المثل للغرض لا على ما تضمنه هذا المثل من ذكر النعم كما ذكرنا في الرأي الأول في الآية على أنَّ في ذلك نعمة من نوع آخر تتمثل بقوة الحجة على المشركين ودحض معتقداتهم وبيان زيفها .

٥- تأخير وصفه تعالى بالحميد عن ذكر البخل :

ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الحديد : ٢٤) ففي تعقيب ذكر البخل بوصف الله تعالى بأنه الحميد نكتة لطيفة أوضحها الرازي بقوله : " وقوله (الحميد) كأنه جواب عن سؤال يذكر ههنا ، فإنه يقال : لما كان تعالى عالماً بأنه يبخل بذلك المال ، ولا يصرفه إلى وجوه الطاعات فلم أعطاه ذلك المال؟ فأجاب بأنه تعالى (حميد) في ذلك العطاء ومستحق للحمد حيث فتح عليه أبواب رحمته ونعمته ، فإنَّ قَصْرَ العبد في الطاعة فإنَّ وباله عائد عليه " ^(١١٧٧) . وفي ذلك دلالة على استحقاقه تعالى للحمد سواء حمده أحد أم لم يحمده .

(٣) ينظر : مجمع البيان : ٤٨٥/٦ .

(٤) التفسير الكبير : ٢٤٨/٢٠ ، وينظر : اللباب في علوم الكتاب : ١٢٤/١٢ ، فتح القدير : ٢٢٤/٣ .

(١) التفسير الكبير : ٤٦٩/٢٩ .

٦- تأخير وصفه تعالى بالحميد عن وصفه بالعزیز :

جاء وصفه تعالى بالحميد مؤخرًا على وصفه بالعزیز في قوله عز وجل : ﴿الرَّكَبُ
أُنْزِلَتْهُ إِلَيْكَ لِخُرْجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم:
١) وقوله تعالى : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سبأ : ٦) .

قال الرازي في الآية الأولى : " وإنما قدّم ذكر العزیز على ذكر الحميد ؛ لأنّ الصحيح
أنّ أوّل العلم بالله العلم بكونه تعالى قادرًا ثم بعد ذلك العلم بكونه عالمًا ثم بعد ذلك العلم بكونه
غنيًا عن الحاجات ، والعزیز هو القادر ، والحميد هو العالم الغني فلمّا كان العلم بكونه
تعالى قادرًا مقدّمًا على العلم بكونه عالمًا بالكل غنيًا عن الكل ، لا جرم قدّم ذكر العزیز على
ذكر الحميد " (١١٧٨) وذكر السيد الطباطبائي هذا الكلام ووصفه بأنّه مجازفة عجيبة ، ويرى
هو أنّ الوجه في ذكر هاتين الصفتين الكريمتين هو أنّهما مبدآن لما سيرد في السورة من
الكلام الموجّه إلى الناس ، إذ أنّ عمدة الكلام فيها تذكيرهم بأنّ الله تعالى أنعم عليهم بكل
نعمة عظيمة فوجب أن يحمده ولا يكفروه ووعدهم أنهم إن آمنوا أدخلهم الجنة وإن كفروا
انتقم منهم وأوردتهم مورد الشقاء والعذاب فليخافوا ربهم وليحذروا كفران نعمته ؛ لأنّه عزیز
لا يمنعه من إنزال العذاب عليهم شيء ، حميد لا يذم في إثابته المؤمنين ولا في تعذيبه
الكافرين (١١٧٩) ، وقال الرازي في الآية الثانية : " إنّ قوله (العزیز الحميد) يفيد رغبة ورهبة
فإنّه إذا كان عزيزًا يكون ذا انتقام فينتقم من الذي يسعى إلى التكذيب ، وإذا كان حميدًا يشكر
سعي من يصدّق ويعمل صالحًا . فإن قيل : كيف قدّم الصفة التي للهيبة على الصفة التي
للرحمة مع أنك أبدأ تسعى في بيان تقديم جانب الرحمة ؟ نقول : كونه عزيزًا تام الهيبة شديد
الانتقام يقوي جانب الرغبة ؛ لأنّ رضا الجبار العزیز أعز وأكرم من رضا من لا يكون
كذلك فالعزة كما تخوّف ترجّي أيضًا ، وكما ترغّب عن التكذيب ترغّب في التصديق
ليحصل القرب من العزیز " (١١٨٠) .

وربّما يتضح الأمر أكثر إذا قلنا : إنّ في تأخير صفة الحميد عن صفة العزیز إشارة إلى
أنّه تعالى يستحق الحمد على كونه عزيزًا ، فإذا سبق أن عرفنا وجوب الحمد له تعالى على

(٢) المصدر نفسه : ٥٨/١٩ ، وينظر : الباب في علوم الكتاب : ٣٣١/١١ .

(١) ينظر : الميزان : ٨ / ١٣ .

(٢) التفسير الكبير : ١٩٤/٢٥ .

أنه قطع دابر الظالمين فلا غرو أن يحمد عز وجل على عزته التي يُذل بها الظالمين ويعزّ المؤمنين ، علماً أنّ صفة الحميد لم ترد إلا متأخرة عن صفات الله الأخرى ، إذ تأخرت عن صفة الحكمة في قوله تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت : ٤٢) وعن وصفه بالولي في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ

مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (الشورى : ٢٨) فمعنى الآية الأولى أنّ الله تعالى

محكم لمعاني القرآن الكريم محمود على ما أسدى لعباده من نعمة تنزيله وغيرها من النعم^(١١٨١) ومعنى الآية الثانية أنه عز وجل المتولي عباده بالإحسان ، المحمود على ذلك من أهل طاعته^(١١٨٢). ويظهر من ذلك أنّ هذه الصفات تشير إلى ما تقتضيه من نعم على العباد فيستحق تعالى بعدها أن يوصف بأنه محمود عليها .

٧- تأخير وصفه تعالى بالحميد عن وصفه بالغني :

من صفاته تعالى التي تأخرت عن صفة الحميد وصفه بالغني ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغِنَى الْحَمِيدُ ﴾ (الحج : ٦٤)^(١١٨٣).

ودلالة ذكر غناه عز وجل قبل ذكر استحقاقه للحمد هي التنبيه على أنه تعالى غني عن كل شيء وغير محتاج إلى شيء وغير منتفع بشيء ، فإنعامه على خلقه خالٍ عن أي غرض يعود إليه ، وإذا كان كذلك كان مستحقاً للحمد على ما ينعم به فكأنه قيل : إنه تعالى لكونه غنياً فإنه لم يفعل ما يفعله إلا للإحسان، ومن كان كذلك كان مستحقاً للحمد فوجب أن يكون حميداً^(١١٨٤).

(٣) ينظر : البحر المحيط : ٤٧٩/٧ ، روح المعاني : ٣٧٩/١٢ .

(٤) ينظر : الكشف : ٩٧٩ .

(١) ينظر غير هذه الآية : البقرة : ٢٦٧ ، النساء : ١٣١ ، إبراهيم : ٨ ، لقمان : ١٢ ، ١٦ ، فاطر : ١٥ ، الحديد : ٢٤ ، الممتحنة : ٦ ، التغابن : ٦ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ١٢٧/٢٥ ، اللباب في علوم الكتاب : ١٤٠/١٤ .

التقديم والتأخير في سياق الشكر

١- تقديم الشكر على الإيمان :

تقدم الشكر على الإيمان في قوله تعالى : ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾

(النساء : من الآية ١٤٧) .

قال الزمخشري في بيان سبب هذا التقديم : " فَإِنْ قُلْتَ : لِمَ قَدَّمَ الشكر على الإيمان ؟ قلت : لأنَّ العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكرًا مبهمًا ، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكرًا مفصلاً ، فكان الشكر متقدماً على الإيمان ، وكأنه أصل التكليف ومداره " (١١٨٥) وقال البقاعي في بيان ذلك : "ولما كان الشكر هو الحامل على الإيمان قدّمه عليه ولمّا كان لا يُقبل إلا به قال (وَأَمَنْتُمْ) أي به إيماناً خالصاً موافقاً فيه القلب ما أظهره اللسان " (١١٨٦) وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الشكر يؤدي إلى الإيمان ويدل عليه ، وكأنَّ الآية أشارت أولاً إلى السبيل الموصلة إلى الإيمان بالله تعالى ، وليس من شك في أنَّ سلوك السبيل الموصلة إلى غاية ما مقدم على الغاية نفسها ، ولعل في ذلك تفسيراً لما أراده الحكيم الترمذي (ت: ٣٢٠هـ) فيما ذكره من أنَّ الشكر هو انفتاح عيني الفؤاد وأنه مقدم على الإيمان ؛ لأنَّ عيني الفؤاد من المؤمن إذا استنارتا بنور

(١) الكشف : ٢٦٧ ، ٣٦٨ ، وينظر : التفسير الكبير : ٢٥٢/١١ ، ٢٥٣ ، أنوار التنزيل : ٣٩٥/١ ، اللباب في علوم الكتاب : ٩٤/٧ .
(٢) نظم الدرر : ٣٤١/٢ .

الهداية اطمأن إلى ربه ، أما الكافر فهو أعمى ؛ لأنه ميت القلب ، فبالافتتاح يسمّى الإنسان شاكراً وبالطمأنينة يسمّى مؤمناً (١١٨٧).

٢- تقديم ذكر الشكر على ذكر الكفر:

ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان : ١٢) .

وقد ذكر الرازي - وتابعه في ذلك أبو حفص الدمشقي - أنّ الشكر تقدم على الكفر في هذه الآية للترغيب ؛ لأنّ وعظ الأب لابن يكون بطريق اللطف والوعد (١١٨٨) ، ومعنى ذلك أنّ الآية من جملة ما وعظ به لقمان الحكيم - عليه السلام - ابنه والحال أنّ هذه الآية إخبار من الله تعالى بأنه أتى لقمان الحكمة وطلب منه أن يشكر لأنّ من يشكر - أيّا كان - فإنما يشكر لنفسه ومن يكفر فإنه عز وجل غني عن شكره مستحق للحمد وإن لم يحمده أحد ، وإنما بدأ القرآن الكريم بذكر مواعظ لقمان - عليه السلام - لابنه بعد هذه الآية فقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ

يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان : ١٣) ، لذا فإنّ الأسلم أن يقال : إنما

تقدم الشكر على الكفر في خطاب الله جل وعلا للعباد لترغيبهم في الشكر وترك الكفر ، ولا غرو أن يكون وعظه تعالى لعباده بطريق اللطف والوعد وهو الرؤوف بهم وهو أرحم الراحمين.

وقد يحمل ما ذهب إليه الرازي والدمشقي على أنه جاء في سياق ممهد لوعظ لقمان ابنه

٣- تقديم الشكر على العمل الصالح :

ذكر الله تعالى أنّ الإنسان إذا بلغ أربعين سنة ، دعاه أن يلهمه شكره على ما أنعم عليه

وعلى والديه وأن يعمل صالحاً يرضاه عز وجل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَدِّهِ

(٣) ينظر : تحصيل نظائر القرآن ، الحكيم الترمذي : ١٢٥ ، ١٢٦ .

(١) ينظر : التفسير الكبير : ١١٩/٢٥ ، اللباب في علوم الكتاب : ٤٤٤/١٥ .

لَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا

تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ (الأحقاف : ١٥) ، فتقدم طلب

شكر الله تعالى على طلب العمل الصالح الذي يرضاه وذلك ؛ لأنَّ الشكر من أعمال القلوب والعمل الصالح من أعمال الجوارح ، ولما كان عمل القلب أشرف من عمل الجارحة تقدّم ، ثم إنّ الشكر المطلوب يجري مجرى قضاء الدين ؛ لأنه شكر على ما تقدم من نعم الله تعالى ، أما العمل الصالح فهو من المنافع المستقبلية ، ومعلوم أنّ قضاء الدين مقدم على سائر المهمات^(١١٨٩) ويرى السيد الطباطبائي أنّ طلب العمل الصالح " سؤال متمم لسؤال الشكر على النعم ، فإنّ الشكر يُحلّي ظاهر الأعمال ، والصلاحية التي يرتضيها الله تعالى تحلّي باطنها وتخلصها له تعالى " ^(١١٩٠) ولعل هذا الرأي جارٍ على أنّ الشكر ذكر المنعم بما أنعم

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى : ١١) والمعنى أنّ الإنسان يطلب من

الله عز وجل من الأعمال ما يظهر به نعمته عليه ثم يطلب منه إخلاص العمل له ليكون مرضياً عنده منزهاً عما قد يصيب الأعمال الظاهرة من الرياء وطلب غير وجه الله فيها .

٤- تقديم وصفه تعالى بأنه (شاکر) على وصفه بأنه (عليم) :

وصف الله عز وجل نفسه بهاتين الصفتين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ

اللَّهِ فَمَنْ حَبَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٥٨) ^(١١٩١) .

والمعنى أنّ من تطوَّع بالطواف بين الصفا والمروة فإنّ الله تعالى شاكر له إذ يجازيه على القليل كثيراً ، عليم به وبأي شيء صغيراً كان أم كبيراً ^(١١٩٢) ، وتعلق (عليم) بـ(شاکر) للدلالة على أنه عز وجل يعلم قدر الجزاء فلا يبخس المستحق حقّه ^(١١٩٣) .

(١) ينظر : التفسير الكبير : ٢١٩ / ١٨ .

(٢) الميزان : ٢١٩ / ١٨ .

(٣) ينظر أيضاً : النساء : ١٤٧ .

(٤) ينظر : مدارك التنزيل : ١٢١ / ١ ، تفسير القرآن الكريم ، السيد عبد الله شبر : ٢٤ .

(٥) ينظر : التفسير الكبير : ١٣٩ / ٤ .

ويبدو من ذلك أنّ في تقديم ذكر شكر الله تعالى لمن تطوع بالطواف على ذكر علمه جل وعلا بمقدار ما يجازيه على ذلك ترغيباً في هذا العمل دلّ عليه التقديم والتأخير .

٥- تقديم وصفه تعالى بأنه (شكور) على وصفه بأنه (حليم) :

ذكر تعالى أنه شكور حليم في قوله: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١٧) ، والمعنى أنّ الله عز وجل يجازي المحسنين بالثواب العظيم ويحلم عن المسيئين فلا يعاجلهم بالعقاب^(١١٩٤) .

وأحسب أنّ تقديم وصفه تعالى بأنه شكور ؛ لما تقدّم في الآية من ذكر ما يثاب عليه العباد وذلك في قوله تعالى ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ، ولما تأخرت الإشارة إلى السيئة بقوله تعالى عز وجل : (ويغفر لكم) تأخر وصفه تعالى بأنه حليم ، فكأن الوصفين الكريمين جاءا مقابل ما ذكر من أعمال العباد بتناسب بديع .

٦- تأخير الشكر عن الصبر :

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم : ٥)^(١١٩٥) فتقدم ذكر الصبر على ذكر الشكر في وصف المؤمنين ؛ لأنّ المؤمن لا يخلو من أن يكون في البلاء أو في الآلاء وهو في كلا الحالين متذكر ، فيصبر إذا أصابته نقمة ، ويشكر إذا أتته نعمة والمقصود بذلك التنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلاً عن دلائل معرفة الله تعالى ، فإن كان في

(١) ينظر : الكشف : ١١١٤ ، مدارك التنزيل : ١٨٢١/٣ .

(٢) ينظر : أيضاً : لقمان : ٣١ ، سبأ : ١٩ ، الشورى : ٣٣ .

البلاء كان من الصابرين وإن كان في الآلاء كان من الشاكرين وإذا كان كذلك فإنه لن يكون أبداً من الغافلين^(١٩٦).

وإنما تأخر الشكر عن الصبر في الآية ؛ لكون الشكر عاقبة الصبر^(١٩٧) ، وبيان ذلك أن حبس النفس على التفكير بآيات الله ونعمه وهو الصبر يؤدي إلى شكر العبد لله جل وعلا على تلك الآيات والنعم ، هذا في حال كون المراد من الصبر في الآية . هو حبس النفس على التفكير ، أما إذا كان المراد منه التحمل والثبات فإن الصبر وحده يكون شكراً لله تعالى ؛ لأن الصبر على البلاء وعدم التذمر والجزع يُعدّ شكراً لله جل وعلا على كل حال^(١٩٨) .

٧- تأخير وصفه تعالى بأنه (شكور) عن وصفه بأنه (غفور) :

وردت هاتان الصفتان الكريمتان من صفات الله تعالى في قوله عز وجل : ﴿لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر: ٣٠) وقوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (الشورى : من الآية ٢٣) والمعنى أن الله تعالى يغفر الذنوب ويجازي على الأعمال الصالحات بالثواب الجزيل^(١٩٩) ، ولعل في تقديم ذكر كونه تعالى غفوراً على ذكر كونه شكوراً حثاً على ترك الذنوب وعمل الصالحات وإشارة إلى ضرورة التوبة عن السيئات والتطهر منها ثم السعي في الأعمال الصالحات والمداومة عليها .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٦٥/١٩ ، ١٣١/٢٥ ، ٦٠٢/٢٧ ، الميزان : ٤٣ / ١٨ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٢٣٤/٤ ، فتح القدير : ١١٦/٣ .

(١) ينظر : الصبر ودلالاته في القرآن الكريم (رسالة) : ١٣٦ .

(٢) ينظر : مجمع البيان : ٥٢٥/٨ ، مدارك التنزيل : ١٤٢٥/٣ .

التقديم والتأخير في سياق التسبيح

١- تقديم التسبيح على الحمد :

سبق أن ذكرنا في بيان مناسبة فاتحة سورة الكهف بالحمد أن مناسبة فاتحة هذه السورة لفاتحة السورة التي قبلها - وهي سورة الإسراء - أنها افتتحت بالحمد بعد أن افتتحت سورة الإسراء بالتسبيح ؛ لأن التسبيح أينما جاء جاء مقدماً على الحمد فيقال : سبحان الله والحمد لله ، فيبدأ بنفي النقص عنه تعالى ويعقب بإثبات الكمال له جل وعلا^(١٢٠) ، ومن ذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان : ٥٨) وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التغابن : ١)^(١٢١).

ونورد هنا ما أجاد فيه الرازي مبيناً سبب تقديم التسبيح على الحمد ، إذ قال : "والتسبيح مقدم على التحميد ؛ لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضاً لكل الخيرات ، وكونه منزهاً في ذاته عما لا ينبغي مقدم بالرتبة على كونه فياضاً للخيرات والسعادات ؛ لأن وجود الشيء مقدم على إيجاد غيره ، وحصوله

(١) ينظر : ٢٢٥ من هذه الرسالة.

(٢) وينظر أيضاً : البقرة : ٣٠ ، الرعد : ١٣ ، الحجر : ٩٨ ، الإسراء : ٤٤ ، السجدة : ١٥ ، النصر : ٣ .

في نفسه مقدم على تأثيره في حصول غيره ، فلهذا السبب كان التسبيح مقدماً على التحميد " (١٢٠٢)

وذكر أحد المفسرين دلالة الجمع بين التسبيح والحمد كثيراً في القرآن الكريم وهي أنه لما كان التسبيح تنزيهاً لله تعالى عن كل عيب ونقص وكان الحمد توصيفاً له عز وجل بكل خير وكمال ، وكان الجمع بينهما جمعاً بين طرفي النفي والإثبات بمعنى أنه جل وعلا لا ضعف فيه من وجه وله القوة المطلقة من وجه آخر ، فذكرهما معاً أكمل في ذكر الله تعالى (١٢٠٣) وفي تقديم التسبيح على الحمد في قوله تعالى مخبراً عن حال أهل الجنة : ﴿ دَعَوْ

هُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس :

١٠). يقول الرازي : " إنَّ أهل الجنة لما استسعدوا بذكر سبحانك اللهم وبحمدك ، وعانوا ما هم فيه من السلامة عن الآفات والمخافات علماً أنَّ كل هذه الأحوال السنية والمقامات القدسية إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وأفضاله وإنعامه ، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء فقالوا : (والحمد لله رب العالمين) وإنما وقع الختم على هذا الكلام ؛ لأنَّ اشتغالهم بتسبيح الله تعالى وتمجيده من أعظم نعم الله تعالى عليهم ، والاشتغال بشكر النعمة متأخر عن رؤية تلك النعمة فلهذا السبب وقع الختم على هذه الكلمة " (١٢٠٤) ، بمعنى أنهم حمدوا الله تعالى بعد أن سبحوه ؛ لأنَّ تسبيحه عز وجل نعمة منه عليهم فحمدوه عليها .

٢- تقديم التسبيح على الجواب :

سأل الله جل وعلا نبيّه عيسى - ﷺ - عن أن يكون دعا الناس إلى اتخاذه وأمه الهين من دونه عز وجل ، فأجاب عيسى - ﷺ - عن هذا السؤال ، غير أنه سبق جوابه بتسبيح الله تعالى ، وورد ذلك في قوله عز من قائل : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلمُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة : ١١٦) .

(٣) التفسير الكبير : ٥٧٨/٢٧ .

(٤) ينظر : فقه القرآن ، الشيخ محمد اليزدي : ١٢٩/١ .

(١) التفسير الكبير : ٢١٧/١٧ .

" وبدأ بالتسبيح قبل الجواب ؛ لأمرين : أحدهما : تنزيهاً له عما أضيف إليه ، والثاني : خضوعاً لعزته وخوفاً من سطوته " (١٢٠٥) وفي ذلك بلوغ الذروة من التأدب في مقام خطاب الله تعالى ، إذ بدأ - ﷺ - أولاً بتنزيهه عز وجل عن أن يكون له شريك ثم أفصح عن استحالة أن يكون قد ادعى هو وأمه الألوهية إذ ما يكون له أن يقول ما ليس له بحق ، ثم نسب إليه تعالى العلم المطلق فإن كان قد قال ما سألته عنه فهو لا يخفى عليه ؛ لأنه علام الغيوب .

ويتقدم التسبيح أيضاً على جواب من عبدوا من دون الله حينما يسألهم تعالى يوم القيامة عن أن يكونوا هم من أضل عابديهم فعبدوهم وأشركوا به جل وعلا بسببهم والمراد بهم - على ما قيل - عيسى وعزير - عليهما السلام - والملائكة ؛ لأنهم عبدوا من دون الله تعالى (١٢٠٦) ، وجاء ذلك في قوله عز وجل : ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ

ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ قالوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ

دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْنَاهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (الفرقان : ١٧ ، ١٨) ،

فقدّموا تسبيحهم لله تعالى على جوابهم ليبينوا أنهم المسبّحون المتصفون بذلك ، فكيف يليق بهم أن يضلوا العباد ، أو ليبينوا تنزيههم لله عز وجل عن الشريك أولاً ثم يجيبوا بأنهم لا يصح لهم ولا يستقيم أن يتولوا أحداً غير الله جل وعلا ، فكيف يصح لهم أن يحملوا غيرهم على عبادتهم من دونه تعالى (١٢٠٧) .

وتوجه السؤال في آية أخرى إلى الملائكة خصوصاً بوصفهم معبودين من دون الله تعالى من المشركين ، وذلك في قوله عز وجل : ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ

إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ قالوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ

﴿(سبأ : ٤٠ ، ٤١) ، وقد تقدم تسبيح الملائكة لله جل وعلا على جوابهم ؛ للغرض الذي بيّناه آنفاً .

(٢) النكت والعيون : ٨٧/٢ ، وينظر : الباب في علوم الكتاب : ٦٢٠ / ٧ .
(١) ينظر : الكشف : ٧٤١ ، مجمع البيان : ٢١٥/٧ ، وقيل : إن ذلك يشمل الأصنام التي عبدت من دون الله تعالى ، ينطقها عز وجل يوم القيامة ، ينظر : المصدران أنفسهما والصفحتان أنفسهما .
(٢) ينظر : الكشف : ٧٤٢ .

٣- تقديم التسبيح على التوبة :

طلب موسى - عليه السلام - من الله جل وعلا أن يمكنه من رؤيته ، فلمّا أخبر تعالى باستحالة رؤيته تاب إليه موسى - عليه السلام - وقد ذكرنا من قبل أنه سأل الرؤية لسمع قومه جواب الله عز وجل باستحالتها تبكيّاً لهم وأنّ توبته كانت على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى ؛ لأنه - عليه السلام - أعلم بما يجوز على الله وما لا يجوز^(١٢٠٨) وما يهمنّا هنا أنه - عليه السلام - بدأ بتسبيح الله جل وعلا قبل أن يعلن توبته ، وهو ما ورد في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣) فنزه موسى - عليه السلام - الله تعالى عن أن يجوز عليه ما لا يليق به من الرؤية وغيرها وتاب إليه من طلب رؤيته جل وعلا^(١٢٠٩) وإنما قدّم تسبيحه لله تعالى على توبته إليه ؛ لأنّ التسبيح مفتاح التوبة^(١٢١٠) إذ إنّ في التسبيح توجّهاً إلى الله عز وجل وتقرباً منه ، فيكون كالمقدمة لطلب التوبة منه تعالى ، وفي ذلك إشارة إلى تقديم ما هو حق لله جل وعلا وهو التسبيح على ما هو حق للعبد وهو التوبة .

٤- تقديم تسبيح الله تعالى على وصفه بالتعالي :

لم يرد تسبيح الله جل ذكره مع وصفه بالتعالي في القرآن الكريم إلا وقد تقدّم الأول على الثاني ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (الأنعام : ١٠٠)^(١٢١١) وإذا كان معنى (سبحانه) تنزيهه جل وعلا عن كل ما لا يليق به ، ومنه ادّعاء الشركاء ، فإنّ معنى (تعالى) تعاليه عز وجل عن كل اعتقاد باطل أو قول فاسد ، وليس المراد العلو في المكان^(١٢١٢) . قال الرازي : " فإنّ قالوا : فعلى هذا التقدير لا يبقى بين قوله (سبحانه) وبين قوله (تعالى) فرق ؟ قلنا : بل يبقى بينهما فرق ظاهر ، فإنّ المراد بقوله (سبحانه) أنّ هذا القائل يسبحه وينزهه عما لا يليق به ،

(١) ينظر : ٧٧ من هذه الرسالة .

(٢) ينظر : الكشف : ٣٨٦ ، مجمع البيان : ٥٨٩ / ٤ .

(٣) ينظر : مدارك التنزيل : ٨٤ / ١ .

(٤) ينظر أيضاً : يونس : ١٨ ، النحل : ١ ، الإسراء : ٤٣ ، الروم : ٤٠ ، الزمر : ٦٧ .

(٥) ينظر : مجمع البيان : ٤٢٨ / ٤ ، ٤٥٢ / ٦ ، التفسير الكبير : ٩٢ / ١٣ .

والمراد بقوله (وتعالى) كونه في ذاته متعالياً متقدساً عن هذه الصفات سواء سبّحه مسبّح أو لم يسبّحه ، فالتسبيح يرجع إلى أقوال المسبحين والتعالّي يرجع إلى صفته الذاتية التي حصلت لذاته لا لغيره " (١٢١٣) .

ويظهر من ذلك أنّ الأولى في المقام المبادرة إلى تنزيه الله تعالى عما لا يليق به أولاً ثم وصفه بأنه متعالٍ عن كل ذلك ، لاسيما أنّ التسبيح الذي ينزه الله ويبرئه عن صفات النقص يدلنا على تعاليه جل وعلا عن هذه الصفات ، إذ لا ريب في أنّ من لم يتصف بصفة ولن يتصف بها أبداً فهو متعالٍ وبعيد كل البعد عنها .

٥- تقديم وصفه تعالى بالعليم عن وصفه بالحكيم :

نزّه الملائكة الله تعالى فاثبتوا له صفة العلم قبل صفة الحكمة ، وذلك في قوله تعالى مخبراً عنهم : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة : ٣٢) وتقدم وصفه عز وجل بالعلم ؛ لأنه متصل بقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة : من الآية ٣١) وبقوله تعالى في هذه الآية (لا علم لنا) ؛ ولأنّ الحكمة ناشئة عن العلم وأثر له ، فكان الملائكة قالوا : أنت العالم بكل شيء فعلمت آدم -عليه السلام- وأنت الحكيم في هذا الفعل المصيب فيه (١٢١٤) .

وبيان ذلك أنّ التعبير القرآني " قدّم العلم على الحكمة ؛ لأنّ العلم هو المطلوب أولاً في هذا المقام ؛ لأنّ الملائكة حين عجزوا عن أن يجيبوا عن قول الحق سبحانه : ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ

هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أقرّوا بأنهم لا يعلمون شيئاً إلا أن يعلمهم الله إياه ، فهم يطلبون علم الله ، وعلم الله يصيب من يشاء بحسب ما تقضي به حكمته " (١٢١٥) ودلالة هذا التقديم في سياق التسبيح أنه أبلغ في تنزيه الملائكة لله تعالى ؛ لأنهم أثبتوا له أولاً ما عجزوا هم عنه بقولهم (لا علم لنا) ، فاثبتوا كونه عليماً ثم ذكروا أنه عز وجل حكيم فيما فعل ويفعل .

(١) التفسير الكبير : ٩٢/١٣ .

(٢) ينظر : الباب في علوم الكتاب : ٥٢٢/١ .

(٣) إعجاز القرآن ، عبد الكريم الخطيب : ٢٦١/٢ ، والنص القرآني من البقرة من الآية : ٣١ .

٦- تقديم تسبيح الجبال على تسبيح الطير :

ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ (الأنبياء : من الآية ٧٩) .

وقد أبان النكتة في هذا التقديم الزمخشري فقال : " فَإِنَّ قُلْتَ : لَمْ قَدِمْتَ الْجِبَالَ عَلَى الطَّيْرِ ؟ قُلْتَ : لِأَنَّ تَسْخِيرَهَا وَتَسْبِيحَهَا أَعْجَب وَأَدْلَى عَلَى الْقُدْرَةِ وَأَدْخَلَ فِي الْإِعْجَازِ ؛ لِأَنَّهَا جَمَادٌ وَالطَّيْرُ حَيَوَانٌ غَيْرُ أَنَّهُ غَيْرُ نَاطِقٍ " (١٢١٦) .

وواضح أنّ مدار العجب والإعجاز في تسبيح الجبال كونها ليست كائنًا حيًّا فيكون صدور التسبيح منها أعجب مما لو صدر من كائن حي كالطير .

وقد ذكرت في تسبيح الجبال وجوه : منها أنّ (يسبّحن) في الآية مأخوذ من الإبعاد في السير والتصرف في الأرض فكانت الجبال تسير مع داود - ﷺ - أينما أراد (١٢١٧) وقيل : سمي سيرها تسبيحًا ؛ لأنه يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته (١٢١٨) ، ومنها أنه عز وجل يخلق فيها الكلام فتسبحه حقيقة ، ومنها أن داود - ﷺ - إذا سبّح أحدث ذلك بين الجبال دويًّا فسمي تسبيحًا (١٢١٩) .

وقد بيّن الله تعالى أنّ لكل شيء تسبيحًا ، غير أننا لا ندرك كنه ذلك التسبيح ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء : من الآية ٤٤) .

٧- تقديم تسبيح الله تعالى على ذكره كثيرًا وتأخير عنه :

تقدم التسبيح على الذكر الكثير في قوله عز وجل حكاية عن موسى وهارون - عليهما السلام - : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ (طه : ٣٣ ، ٣٤) وتأخّر عنه في قوله

(١) الكشف : ٦٨٤ .

(٢) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، الشريف الرضي : ٢٣٢ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٣٧٤/٢٦ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها ، أنوار التنزيل : ١٢٢/٣ ، إرشاد العقل السليم : ٦٨٥/٤ ، فتح القدير : ٥١٩/٣ .

تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ الأحزاب : ٤١ ،
(٤٢)

قال البقاعي في سورة طه : : " ولما كان التسبيح ذكراً خاصاً ؛ لكونه بالتنزيه الذي أعلاه التوحيد ، أتبعه العام ، فقال (ونذكرك) أي بالتسبيح والتحميد " (١٢٢٠).

وقال الشوكاني في سورة الأحزاب : " وخصّ التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله : (واذكروا الله) تنبيهاً على مزيد شرفه وإنافة ثوابه على غيره من الأذكار " (١٢٢١).

ولكن يبقى السؤال : لماذا تقدم التسبيح على الذكر الكثير في سورة طه وتأخر عنه في سورة الأحزاب ؟

إنّ في تتبع السياق في السورتين جواباً عن هذا السؤال ، وبيان ذلك أنّ الله تعالى أمر موسى - عليه السلام - في سورة طه أن يذهب إلى فرعون وملئه ويدعوهم إلى توحيد الله والإيمان به ، فطلب موسى - عليه السلام - من الله جل وعلا مطالب تعينه على تحقيق ما أمره به ، قال تعالى :

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ وَاَحْلِلْ عُقْدَهُ

مِّن لِّسَانِي ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ وَاَجْعَلْ لِّي زَيْرًا مِّنْ اَهْلِي ﴿ هَرُونَ اَخِي ﴾ اشْدُدْ بِهِ اَازِرِي ﴿

وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿ (طه : ٢٤)

-٣٥) ، فوجه تقديم التسبيح على الذكر " أنّ المراد بالتسبيح تنزيهه تعالى عن الشريك بدفع ألوهية الآلهة من دون الله وإبطال ربوبيتها لتقع الدعوة إلى الإيمان بالله وحده " (١٢٢٢) ومعنى ذلك أنه لما كان المقام مقام دعوة إلى توحيد الله تعالى وترك الشرك به ، خاصة مع فرعون الذي ادّعى أنه الرب الأعلى وقومه الذين امتلأت عيونهم من سلطته واندثشت قلوبهم من سطوته تقدّم تنزيهه الله عز وجل عن الشريك أولاً .

أما في سورة الأحزاب فإنّ الآية خطاب للمؤمنين ، إذ صُدّرت بـ (يا أيها الذين آمنوا) ، فليس ثمة ما يدعو إلى تقديم تنزيهه تعالى عن الشريك ، وغاية ما في الأمر أنّ في الآية حقاً على ذكر الله ذكراً كثيراً ، والتسبيح نوع من أنواع هذا الذكر "وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ؛ لبيّن فضله على سائر الأذكار ؛ لأنّ

(١) نظم الدرر : ١٨/٥ .

(٢) فتح القدير : ٣٥٩/٤ .

(٣) الميزان : ١٦٠ / ١٤ .

معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال وتبرئته من القبائح ، ومثال فضله على غيره من الأذكار فضل وصف العبد بالزاهة من أدناس المعاصي، والطهر من أرجاس المآثم على سائر أوصافه من كثرة الصلاة والصيام والتوفر على الطاعات كلها والاشتغال على العلوم والاشتغال بالفضائل " (١٢٣) .

٨- تقديم التسبيح على السجود وتأخير عنه :

تقدم التسبيح على السجود في مقام الإخبار عن الملائكة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ

رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٦) .

قال الرازي في هذه الآية : " ذكر من طاعتهم أولاً كونهم يسبحون ، وقد عرفت أنّ التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى من كل سوء ، وذلك يرجع إلى المعارف والعلوم ، ثم لما ذكر التسبيح أرفده بالسجود ، وذلك يرجع إلى أعمال الجوارح ، وهذا الترتيب يدل على أنّ الأصل في الطاعة والعبودية أعمال القلوب ويتفرع عليها أعمال الجوارح " (١٢٤) ولعل هذا الترتيب يرجع إلى أنّ أعمال القلوب يتحقق فيها الإخلاص لله عز وجل أكثر من أعمال الجوارح التي هي أعمال ظاهرة قد يخالطها شيء من الرياء وقصد وجه غير وجه الله تعالى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنّ أعمال الجوارح تابعة لما انعقد عليه القلب من عقيدة ، فتكون أعمال الإنسان الظاهرة - في الغالب - تابعة لما يستبطنه من معتقدات ، مُفَصِّحة عنها .

ويظهر هذا الترتيب أيضاً في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾

(الحجر : ٩٨) إذ تقدّم أمر النبي محمد - ﷺ - بالتسبيح على أمره بأن يكون من الساجدين وهذا بحسب الترتيب الذي ذكره الرازي تقديم لأعمال القلوب على أعمال الجوارح ، غير أنّ هذا الترتيب قد يبدو أنه لا يطرد؛ إذ تقدم السجود على التسبيح في آيتين من القرآن الكريم ، هما قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا

(١) الكشف : ٨٥٨ .

(٢) التفسير الكبير : ٤٤٦ / ١٥ ، ومراده من أنّ التسبيح يرجع إلى المعارف والعلوم أنّ التسبيح من أعمال القلوب لأنّ القلب وعاء المعارف والعلوم .

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿ (السجدة : ١٥) وقوله عز وجل أمرًا النبي محمدًا - ﷺ

عَلَيْهِ السَّلَام - ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ ثِيلاً طَوِيلاً ﴾ (الإنسان : ٢٦) .

وإذا أنعمنا النظر في هاتين الآيتين اللتين تقدم فيهما السجود على التسبيح استطعنا أن نلتبس سبب هذا التقديم ودلالاته .

فالآية الأولى تبين علامات المؤمنين بآيات الله تعالى ، فعرفت هؤلاء المؤمنين بأنهم إذا ذكروا بآيات الله عز وجل سجدوا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، وقد ذكر المفسرون أنهم يسجدون شكرًا لله تعالى على أنه هداهم لمعرفته وأنعم عليهم بنعمة الإسلام^(١٢٢٥) ، ففي تقديم السجود إشارة إلى أن المؤمنين يبادرون أولاً إلى شكر الله جل وعلا على ما أنعم عليهم بالسجود له ويعقبون ذلك بتنزيهه تعالى عما لا ينبغي له ، وفي ذلك إشعار بعظمة نعمة الإسلام لله عز وجل والإيمان به ، إذ إن المؤمنين بآيات الله تعالى إذا ذكروا بها ما يلبثون إلا أن يخروا سجدًا لله جل وعلا شاكرين ما أنعم به عليهم .

أما الآية الثانية التي تقدم فيها السجود على التسبيح فقد أشار المفسرون إلى أن المراد من السجود فيها هو صلاتا المغرب والعشاء ، وأن المراد من التسبيح هو التهجد لله تعالى وقتًا طويلاً من الليل ، ثلثيه أو نصفه أو ثلثه^(١٢٢٦) .

وليس يخفى أن صلاتي المغرب والعشاء متقدمتان زمنًا على التهجد في الليل ، لذا تقدم السجود في الآية على التسبيح .

٩- تأخير التسبيح عن إقامة الدليل على التوحيد :

أقام الله تعالى الدليل على أنه واحد أحد لا شريك له ثم ذكر تنزيهه عما اعتقده الضالون المشركون فقال تعالى: ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ لو كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿ (الأنبياء : ٢١ ، ٢٢) .

(١) ينظر : الكشف : ٨٤٣ ، مجمع البيان : ٤٢٦/٨ ، مدارك التنزيل : ١٣٥٣/٣ .
(٢) ينظر : الكشف : ١١٦٧ ، مدارك التنزيل : ١٩٠٧/٣ ، تفسير القرآن ، السيد عبد الله شبر : ٥٨٠ ، تفسير البصائر : ١٠٨ ، ١٠٧/٥١ .

ودلالة تأخير تسبيحه تعالى عن إقامة الدليل على توحيده " أنه سبحانه لما أقام الدلالة القاطعة على التوحيد ، قال بعده (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) ، أي : هو منزّه لأجل هذه الأدلة عن وصفهم بأنّ معه إلهاً ، وهذا تنبيه على أن الاشتغال بالتسبيح إنما ينفع بعد إقامة الدلالة على كونه تعالى منزهاً " (١٢٢٧) ، لذلك نجد أنّ النبي يونس - عليه السلام - بدأ بتوحيد الله تعالى قبل تسبيحه ، وهذا ما ورد في قوله عز وجل : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا

فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنبياء : ٨٧) ، إذ وحّد الله تعالى بقوله : (لا إله إلا أنت) ثم سبّحه بقوله (سبحانك) ، فقدم : (لا إله إلا أنت) ثم سبّحه بقوله (سبحانك) فقدم " التهليل ، ليكون كالعلة المبيّنة لتسبيحه كأنه يقول : لا معبود بالحق يُتوجّه إليه غيرك ، فأنت منزّه مما كان يُشعر به فعلي أنني أبق منك ، معرض عن عبوديتك متوجه إلى سواك ، إني كنت ظالمًا لنفسي في فعلي فها أنا متوجه إليك متبرئ مما كان يشعر به فعلي من التوجه عنك إلى غيرك " (١٢٢٨) .

وأحسب أنّ في تأخير يونس - عليه السلام - تسبيح الله تعالى عن توحيده نكتة أخرى تنضوي ضمن التأدب في خطاب الله عز وجل ، وهي أنه - عليه السلام - اعترف بأنّ الله تعالى واحد منزّه عن الشريك قبل أن ينزهه هو عن ذلك ، فكأنه يشير إلى غناه تعالى عن تسبيحه - عليه السلام - ؛ لأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له قبل أن ينزهه هو عن الشريك ، ولعل في تأخير التسبيح عن التوحيد في آيات آخر مثل قوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا

لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (المؤمنون : ٩١) وقوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الحشر : ٢٣) (١٢٢٩) إشارة إلى غناه عز وجل عن أن ينزهه أحد عن الشريك ليثبت وحدانيته فهو الواحد الأحد قبل أن ينزهه المنزهون .

١٠- تأخير التسبيح عن الإخبار بإتيان أمر الله تعالى :

(١) التفسير الكبير : ١٣٠/٢٢ .

(٢) الميزان : ١٧١/١٧ .

(١) ينظر أيضًا : النساء : ١٧١ ، التوبة : ٣١ ، مريم : ٣٥ ، الطور : ٤٣ .

ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل : ١) .

تخاطب هذه الآية المشركين الذين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب به استهزاءً وتكذيباً^(١٢٣٠) . ودلالة تأخير التسبيح فيها أنه لما كان استعجالهم استهزاءً وتكذيباً كان ذلك من الشرك بالله عز وجل ، لذلك قال (سبحانه وتعالى عما يشركون) فنزه نفسه عن شركهم^(١٢٣١) .

واستدل السيد الطباطبائي بتأخير التسبيح عن الإخبار بإتيان أمر الله تعالى على أن الخطاب موجّه إلى المشركين ، ومقتضى ذلك أن يكون الأمر الذي أخبر بإتيانه أمراً ينزه ساحة الربوبية عن شركهم ، علماً أنه لم تقع في كلامه تعالى حكاية استعجال من المؤمنين في أمر ، بل المذكور استعجال المشركين في أمر الساعة وأمر

الفتح وأمر نزول العذاب^(١٢٣٢) وكان مجيء التسبيح بعد الإخبار بإتيان أمره تعالى يكشف عن حكمته عز وجل في ذلك الأمر ، وهي القضاء على الشرك والمشركين وإعلاء كلمة التوحيد بتنزيهه جل وعلا عما يشركون .

١١- تأخير التسبيح عن ذكر ترك الشر :

قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس : ٣٣- ٣٦) ، فذكر عز وجل في هذه الآيات أصنافاً من نعمه على الناس مما يكون آية لهم

(٢) ينظر : الكشف : ٥٦٦ ، مجمع البيان : ٤٥١/٦ ، ٤٥٢ .

(٣) ينظر : الكشف : ٥٦٧ ، مدارك التنزيل : ٨٥٥/٢ .

(١) ينظر : الميزان : ٢١٦/٢ ، أخبر القرآن الكريم بأن المشركين سألوا عن الساعة وذلك في قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (الأعراف : من الآية ١٨٧) وبأنهم استعجلوا أمر الفتح في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (السجدة : ٢٨) وبأنهم استعجلوا نزول العذاب في آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (الحج : من الآية ٤٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ (العنكبوت : من الآية ٥٣) .

على وجوده والإيمان به ثم وبَّخ من يترك شكره بقوله (أفلا يشركون) ، " وشكره تعالى منهم على هذا التدبير إظهارهم جميل نعمه بذكره قولاً وفعلاً أي : إظهارهم أنهم عباد له مدبرون بتدبيره ، وهو العبادة ، فشكره تعالى هو الاعتراف بربوبيته واتخاذها إلهاً معبوداً " (١٢٣٣) وبعد أن ذكر تعالى أنهم أنكروا الآيات والنعم ولم يشكروه عليها ، بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك نزّه نفسه عن أن يُشرك به وأشار إلى أنه خلق الأزواج كلها وغيره لم يخلق شيئاً (١٢٣٤) ، وقال أبو السعود : " (سبحان الذي خلق الأزواج كلها) استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره على آلائه المذكورة واستعظام ما ذُكر في حيز الصلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة للشكر وتخصيص العبادة به والتعجب من إخلالهم بذلك " (١٢٣٥) .

ولعل في ذكر تسبيحه تعالى بعد ذكر ترك شكره إشارة إلى أنه عز وجل منزّه عن الشريك ، لا يضرّه أنهم أشركوا به ولم يشكروه ، وأن توبيخهم على ترك شكره جل وعلا لا لأجل ضرر يلحقه من ذلك أو نفع يصيبه ، فهو المنزّه بذاته الغني عن عبادة مخلوقاته ، وإنما لما يلحقهم من ضرر يقتضيه شركهم به تعالى ، ولما يفوتهم من نفع يجلبه لهم توحيده عز وجل .

١٢ - تأخير التسبيح عن الصبر :

لم يُذكر التسبيح مع الصبر في القرآن الكريم إلا متأخراً عنه ، وذلك قوله تعالى ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه : ١٣٠) وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ (غافر : ٥٥) ، وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ (ق : ٣٩) وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الطور : ٤٨) .

(٢) الميزان : ٩٠/١٧ ، وينظر : في رحاب القرآن الكريم ، د. ياسين محمد يحيى : ١٧٥ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٢٦ / ٢٧٤ ، اللباب في علوم الكتاب : ٢١٥/٦ .

(٤) إرشاد العقل السليم : ٤٩٥/٥ .

والملاحظ أنّ التسبيح في هذه الآيات قد ذكر مقيدًا بالأوقات ، وقد عرفنا في بحث الوجوه والنظائر أنّ ذكر الأوقات مع التسبيح قرينة لفظية تدل على أنّ المراد بالتسبيح الصلاة^(١٢٣٦) ، فإذا حملنا التسبيح الوارد في هذه الآيات على أنّ المراد به الصلاة فإنّ تقديم الصبر فيها على التسبيح كتقديم الصبر على الصلاة في قوله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة : ٤٥) وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة : ١٥٣) .

وسبب تقديم الصبر على الصلاة أنّ الصلاة لا تكمل إلا بالصبر ؛ لأنها تحتاج - كأى عبادة من العبادات - إلى التقوى التي لا تتحصل إلا بالصبر على ترك المحرمات^(١٢٣٧) أو أنّ أنّ المعنى : استعينوا على البلياء والنوائب بالصبر عليها والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها^(١٢٣٨) فيكون الصبر عليها مقدّمًا على الصلاة عند وقوعها .

أمّا إذا كان المراد من التسبيح في الآيات ذكر الله تعالى فقد قال الرازي في بيان تأخير التسبيح عن الصبر : " وإنما أمر عقيب الصبر بالتسبيح ؛ لأنّ ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى " ^(١٢٣٩) ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الإنسان بحاجة - وهو يقاوم المصاعب بالصبر - إلى أنّ يذكر الله جل وعلا ويعظمه ؛ لكي لا ينهزم أمامها إذا بدت له أنها أكبر من إرادته ^(١٢٤٠) ، وكأنّ في الأمر بتسبيح الله تعالى بعد الأمر بالصبر إشعارًا بضرورة أن يتوجه الصابر على الشدائد إلى الله عز وجل ويذكره ، فهو الكاشف للكروب المفرج عمّن يلتجئ إليه راجيًا الخلاص مما هو فيه .

(١) ينظر : ٢٦٤ من هذا الرسالة .

(١) ينظر : روح المعاني : ٢٥٠/١ ، الصبر ودلالته في القرآن الكريم (رسالة) : ١٣٤ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٧٤ ، مدارك التنزيل : ٦٧/١ .

(٣) التفسير الكبير : ١١٣/٢٢ .

(٤) ينظر : من هدي القرآن : ١٤ / ١٣١ .

المصادر والمراجع

● القرآن الكريم .

أولاً : المطبوعة :

📖 أبحاث في أصوات العربية ، الدكتور حسام سعيد النعيمي ، دار الشؤون الثقافية بغداد ، ١٩٩٨ م .

📖 إبراز المعاني من حرز الأمان في القراءات السبع للإمام الشاطبي (ت: ٥٩٠هـ) ، عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة الدمشقي (ت: ٦٦٥هـ) ، تحقيق وتقديم وضبط : إبراهيم عطوة عوض ، دار الكتب العلمية بيروت ، (د.ت) .

📖 أبنية الأسماء في اللغة العربية ، أحمد محمد الشيخ ، منشورات جامعة السابع من أبريل ، ليبيا ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ .

📖 أبنية الأفعال في اللغة العربية ، أحمد محمد الشيخ ، منشورات جامعة السابع من أبريل ، ليبيا ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ .

📖 أبنية الصرف في كتاب سيوييه ، الدكتورة خديجة الحديثي ، مكتبة النهضة بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥ م .

📖 اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، شهاب الدين أحمد بن عبد الغني الدمياطي الشهير بالبناء (ت: ١١١٧هـ) ، وضع حواشيه : أنس مهرة دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠١ م .

📖 الإتيان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

📖 أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية عبد القادر عبد الرحمن السعدي ، مطبعة الخلود ، بغداد ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م .

📖 الإجابات الواضحات لسؤالات القراءات العشر المتواترة أصولاً وفرشاً ، أحمد محمود الحفيان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢ م .

- أجوبة المسائل القرآنية ، الشريف المرتضى (ت: ٤٣٦هـ) ، إشراف : السيد أحمد الحسيني الاشكوري ، مطبعة الكوثر ، قم المقدسة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م .
- الاحتجاج ، أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي ، مؤسسة النبراس للطباعة والنشر والتوزيع ، النجف الأشرف ، (د.ت) .
- أحكام القرآن ، أبو بكر أحمد بن علي الجصاص (ت: ٣٧٠هـ) ، ضبط نصه وخرّج آياته : عبد السلام محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت) .
- أحكام القرآن ، أبو محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (ت: ٥٤٣هـ) راجع أصوله وأحاديثه وعلق عليه : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٤ هـ .
- أحكام القرآن ، عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي (ت: ٥٠٤هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م .
- إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) وبذيله : كتاب المغني عن الأسفار في تخريج ما في جاء الإحياء من الأخبار ، زين الدين أبو الفضل العراقي (ت: ٨٠٦هـ) ، ضبط نصه وخرّج أحاديثه : الدكتور محمد محمد تامر ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م .
- إحياء النحو ، الدكتور إبراهيم مصطفى ، تصحيح وترتيب : محمد أفندي مصطفى الفقيه ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ هـ .
- الاختلاف بين القراءات ، أحمد البيلي ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م .
- أدب الكاتب ، ابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) ، تحقيق وشرح وفهرسة : محمد الفاضلي ، دار الجيل ، بيروت ، ٢٠٠١ م .
- ارتشاف الضرب من لسان العرب ، أبو حيان الاندلسي (ت: ٧٤٥هـ) تحقيق : الدكتور رجب عثمان محمد ، والدكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ م .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود العمادي (ت: ٩٨٢هـ) ، خرّج أحاديثه وعلق عليه وضبط نصه ووضع فهارسه : محمد صبحي حسن حلاق ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠١ م .

- 📖 أساس البلاغة ، جار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ، تقديم : الدكتور محمود فهمي حجازي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .
- 📖 أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ، الدكتور قيس إسماعيل الأوسي ، بيت الحكمة ، بغداد ، ١٩٨٨ م .
- 📖 أساليب العطف في القرآن الكريم ، الدكتور مصطفى حميدة ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٩ م .
- 📖 أسباب حدوث الحروف ، أبو علي الحسين بن سينا ، راجعه وقدم له : طه عبد الرؤوف ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مصر ، (د.ت) .
- 📖 أسباب النزول القرآني ، الدكتور غازي عناية ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ م .
- 📖 أسباب النزول ، الواحدي النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ) ، تحقيق : سعد محمود عقيل ، دار الجيل ، بيروت ، ٢٠٠٢ م .
- 📖 أسرار التكرار في القرآن ، محمود بن حمزة الكرمانلي ، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م .
- 📖 أسرار العربية ، أبو البركات الأنباري (ت: ٥٧٧هـ) ، دراسة وتحقيق : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م .
- 📖 أسس علم اللغة ، ماريوباي ، ترجمة وتعليق : الدكتور أحمد مختار عمر عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الثامنة ، ١٩٩٨ م .
- 📖 اسم الفاعل بين الاسمية والفعلية ، فاضل مصطفى الساقى ، تقديم : الدكتور تمام حسان ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- 📖 إسناد الفعل ، رسمية محمد الميّا ، مطبعة دار البصري ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥ م .
- 📖 إشارات الإعجاز في مضان الإيجاز ، بديع الزمان النورسي ، تحقيق : إحسان قاسم الصالحي ، مطبعة الخلود ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٩ م .
- 📖 الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ، مقاتل بن سليمان البلخي (ت: ١٥٠هـ) دراسة وتحقيق : الدكتور عبد الله محمود شحاته ، المكتبة العربية ، مصر ١٩٧٥ م .

- 📖 الأشباه والنظائر في النحو ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق : الدكتور عبد العال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
- 📖 أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، عباس محمود العقاد ، دار المعارف مصر ، ١٩٦٣م.
- 📖 الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق ، الدكتور محمد نور الدين المنجد ، تقديم : الدكتور مسعود بوبو ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨م .
- 📖 الاشتراك والتضاد في القرآن الكريم (دراسة إحصائية) ، الدكتور : أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م .
- 📖 الاشتقاق ، عبد الله أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة الطبعة الأولى ، ١٩٥٦م .
- 📖 أصوات اللغة ، الدكتور عبد الرحمن أيوب ، مطبعة دار التأليف ، مصر الطبعة الأولى ، ١٩٦٣م .
- 📖 أصوات اللغة العربية ، الدكتور عبد الغفار حامد هلال ، مكتبة وهبة ، القاهرة الطبعة الثالثة ، ١٩٩٦م .
- 📖 الأصوات اللغوية ، الدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، مصر الطبعة الخامسة ، ١٩٧٥م .
- 📖 الأصول في تجويد القرآن الكريم ، علاء الدين القيسي ، راجعه وقدم له العلامة : عبد الكريم المدرس ، مطبعة أسعد ، بغداد ، الطبعة الخامسة ١٤١٠هـ.
- 📖 الأصول في النحو ، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج (ت: ٣١٦هـ) ، تحقيق : الدكتور عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٩٩م.
- 📖 أصول الكافي ، محمد بن يعقوب الكليني (ت: ٣٢٩/٣٢٨هـ) ، ضبطه وصححه وعلّق عليه : محمد جعفر شمس الدين ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ١٩٩٠م .
- 📖 الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، محمد حسين سلامة ، دار الآفاق العربية القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .
- 📖 الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، الدكتور عبد الحميد أحمد هنداوي المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م .

- الإعجاز العددي في القرآن الكريم ، الدكتور لييب بيضون ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥ م .
- إعجاز القرآن ، أبو بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) تحقيق : عماد الدين أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ م .
- إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني ، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار عمار ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ م .
- إعجاز القرآن (في دراسة كاشفة لأسرار البلاغة ومعانيها) ، عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤ م .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، راجعه واعتنى به : الدكتور درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٥ م .
- إعراب القرآن ، أبو جعفر النحاس (ت: ٣٣٨هـ) ، تحقيق : الدكتور زهير غازي زاهد ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٩ م .
- إعراب القرآن ، الشيخ محمد جعفر الكرباسي ، منشورات دار الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م .
- إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج^(١٢٤١) (ت: ٣١١هـ) ، تحقيق ودراسة : إبراهيم الإيباري ، مطبعة إسماعيليان ، قم المقدسة ، ١٤١٦ هـ .

(١) النسبة الصحيحة لهذا الكتاب هي لجامع العلوم الباقولي (ت: ٥٤٣هـ) واسمه في الحقيقة (الجواهر) ، ينظر : كتاب شرح اللمع : ١٣ (مقدمة المحقق) .

إعراب القرآن وبيانه ، الأستاذ : محيي الدين الدرويش ، منشورات كمال الملك قم المقدسة ، ١٤٢٥ هـ .

الإقناع في القراءات السبع ، أبو جعفر أحمد بن علي الأنصاري (ت: ٥٤٠ هـ) حققه وعلق عليه : أحمد فريد المزيدي ، قدّم له : الدكتور فتحي عبد الرحمن حجازي دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩ م .

آلاء الرحمن في تفسير القرآن ، الشيخ محمد جواد البلاغي (ت: ١٣٥٢ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) .

الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة) ، الدكتور ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٣ م .

الإمام في الصرف العربي ، الدكتور زين كامل الخويسكي ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦ م .

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .

الإنباء بما في كلمات الرحمن من أضواء ، الشيخ محمد جعفر الكرباسي مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، ١٩٨٧ م .

الانتصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال ، ناصر الدين أحمد بن محمد بن منير الاسكندري (ت: ٦٨٣ هـ) ، مطبوع بهامش الكشف .

الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، أبو البركات الأنباري (ت: ٥٧٧ هـ) ، ومعه كتاب : الانتصاف من الإنصاف ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربي ، مصر ، (د.ت) .

أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ) ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٩٠ م .

أوزان الفعل ومعانيها ، الدكتور هاشم طه شلاش ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، ١٩٧١ م .

أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ابن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١ هـ) ومعه كتاب : هداية السالك إلى تحقيق أوضح المسالك ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الندوة الجديدة ، لبنان ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٠ م .

- 📖 إيجاز البيان عن معاني القرآن ، محمود بن أبي الحسن النيسابوري (ت:بعد سنة ٥٥٣هـ) دراسة وتحقيق : الدكتور حنيف بن حسن القاسمي ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ م .
- 📖 إيجاز البيان في سور القرآن ، محمد علي الصابوني ، دار الجيل ، بيروت الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م .
- 📖 إيجاز البيان في علم التصريف ، ابن مالك (ت:٦٧٢هـ) ، تحقيق : الدكتور حسن أحمد العثمان ، مؤسسة الريان ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤ م .
- 📖 الإيضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزجاجي (ت:٣٣٧هـ) ، تحقيق : الدكتور مازن المبارك ، دار النفائس ، قم المقدسة ، ١٣٦٣ هـ.ش .
- 📖 الإيضاح في علوم البلاغة ، جلال الدين القزويني (ت:١٣٣٨هـ) ، قدّم له وبوّبه وشرحه : الدكتور علي بو ملح ، دار الهلال ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٩١ م .

ب

- 📖 الباب الحادي عشر ، حسن بن يوسف بن المطهر الحلي (ت:٧٢٦هـ) ، مع شرحه المسمى : النافع يوم الحشر ، مقداد بن عبد الله الأسدي السّيوري (ت:٨٢٦هـ) ، منشورات صدر رضواني ، قم المقدسة ، ١٤٢٢ هـ .
- 📖 البحث الدلالي في تفسير الميزان / دراسة في تحليل النص ، الدكتور مشكور كاظم العوادي ، مؤسسة البلاغ ، دار سلوني ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م .
- 📖 البحث النحوي عند الأصوليين ، الدكتور مصطفى جمال الدين ، مطبعة دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨١ م .
- 📖 البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي (ت:٧٤٥هـ) دراسة وتحقيق وتعليق : عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، شارك في تحقيقه : الدكتور زكريا عبد المجيد النوتي ، والدكتور أحمد النجولي الجمل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠١ م .
- 📖 بحوث في القرآن الكريم ، السيد محمد تقي المدرسي ، دار محبّي الحسين -عليه السلام- ، (د.م) ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٤ م .

📖 بحوث ومقالات في اللغة ، الدكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ م .

📖 البدر المنير في قراءة نافع وأبي عمرو وابن كثير ، عمر بن قاسم الأنصاري (من علماء القرن العاشر الهجري) ، تحقيق ودراسة : الدكتور المختار أحمد ديرة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ليبيا ، ٢٠٠٣ م .

📖 البرهان في إعجاز القرآن ، أو بديع القرآن ، ابن أبي الإصبع المصري (ت: ٦٥٤هـ) ، تحقيق : الدكتور أحمد مطلوب ، والدكتورة خديجة الحديثي مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، (د.ت) .

📖 البرهان في تجويد القرآن ، ومعه رسالة في فضائل القرآن ، محمد الصادق قمحاوي ، مكتبة السنة ، القاهرة ، ١٩٩٣ م .

📖 البرهان في تناسب سور القرآن ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (ت: ٧٠٨هـ) ، تقديم وتحقيق : الدكتور سعد الفلاح ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، السعودية ، ١٩٨٨ م .

📖 البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٧٢ م .

📖 البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، كمال الدين بن عبد الكريم الزملكاني (ت: ٦٥١هـ) ، تحقيق : الدكتورة خديجة الحديثي ، والدكتور أحمد مطلوب مطبعة العاني ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤ م .

📖 بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مجد الدين الفيروز آبادي (ت: ٨١٧هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية القاهرة ، ١٣٨٣ هـ .

📖 البلاغة العربية (قراءة أخرى) ، الدكتور محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٧ م .

📖 بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٠ م .

📖 البناء الصوتي في البيان القرآني ، الدكتور محمد حسن شرشر ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م .

📖 بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ، ترجمة محمد الولي ، محمد العربي ، دار توبقال ، المغرب ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ م .

📖 بيان إعجاز القرآن ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) ، مطبوع ضمن كتاب : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي ، حققها وعلق عليها : محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر (د.ت) .

📖 البيان في تفسير القرآن ، السيد أبو القاسم الخوئي ، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي - إيران ، الطبعة الثلاثون ، ٢٠٠٣ م .

📖 البيان في غريب إعراب القرآن ، أبو البركات الأنباري (ت: ٥٧٧هـ) ، تحقيق : الدكتور طه عبد الحميد طه ، مراجعة : مصطفى السقا ، دار الكتاب العربي القاهرة ، ١٩٦٩ م .

ت

📖 تاج العروس من جواهر القاموس ، السيد مرتضى الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) دراسة وتحقيق : علي شيري ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٤ م .

📖 تأويلات أهل السنة ، أبو منصور محمد بن محمود الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ) تحقيق : الدكتور مجدي باسلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٥ م .

📖 التبسيط لأحكام التجويد ، ملحق مطبوع مع المصحف الشريف (مصحف التفخيم) .

📖 التبصرة والتذكرة ، أبو محمد عبد الله بن إسحاق الصيمري (من نحاة القرن الرابع الهجري) ، تحقيق : الدكتور فتحي أحمد مصطفى ، دار الفكر ، دمشق الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ م .

📖 التبيان في إعراب القرآن ، أبو البقاء العكبري (ت: ٦١٦هـ) ، تحقيق : محمد علي البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٧٦ م .

📖 تجديد النحو ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) .

📖 التجويد ، لجنة إعداد الكتب الدراسية في كلية أصول الدين ، مطبعة الغدير قم المقدسة ، الطبعة الثانية عشرة ، ١٤٢٥هـ .

- 📖 التحرير في علم التفسير ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م .
- 📖 التحرير والتنوير ، المقدمات وتفسير سورة الفاتحة وجزء عمّ ، محمد الطاهر ابن عاشور ، مطبعة الشركة التونسية ، تونس ، ١٩٥٦ م .
- 📖 تحصيل نظائر القرآن ، محمد بن علي الحكيم الترمذي (ت: ٣٢٠ هـ) ، تحقيق وضبط : حسني نصر زيدان ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الأولى ١٩٦٩ م .
- 📖 التذكرة في القراءات ، أبو الحسن طاهر بن غلبون (ت: ٣٩٩) ، حققه وراجعاه وعلق عليه : الدكتور سعيد صالح زعمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠١ م .
- 📖 التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر ، الدكتور عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ ، (د.م) ، (د.ت) .
- 📖 التسهيل لعلوم التنزيل ، ابن جُزي الغرناطي (ت: ٧٤١ هـ) ، تحقيق : الدكتور : عبد الله الخالدي ، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٥ م .
- 📖 التشكيل الصوتي في اللغة العربية (فونولوجيا العربية) ، الدكتور سلمان حسن العاني ، ترجمة : الدكتور ياسر الملاح ، مراجعة : الدكتور محمد محمود غالي ، النادي الأدبي الثقافي ، السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م .
- 📖 التصاريف ، تفسير القرآن مما اشتهت أسماؤه وتصرفت معانيه ، يحيى بن سلام (ت: ٢٠٠ هـ) قدّمت له وحققته : هند شلبي ، الشركة التونسية للتوزيع تونس ، ١٩٧٩ م .
- 📖 تصريف الأسماء في اللغة العربية ، الدكتور شعبان صلاح ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠٥ م .
- 📖 التصريف الملوكي ، أبو الفتح ابن جني (ت: ٣٩٢ هـ) ، تصحيح : محمد سعيد النعسان الحموي ، منشورات شيخ الطائفة الطوسي ، (د.م) ، الطبعة الثانية ١٩١٣ م .
- 📖 التصوير الجمالي في القرآن ، الدكتور عيد سعد يونس ، عالم الكتب ، القاهرة ٢٠٠٦ م .
- 📖 التصوير الفني في القرآن ، سيّد قطب ، مطبعة أنوار دجلة ، بغداد ، (د.ت) .
- 📖 التطبيق الصرفي ، الدكتور عبده الراجحي ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩ م .

- تطور دراسة الجملة العربية بين النحويين والأصوليين ، الدكتور صالح الظالمي ، مكتبة المواهب للطباعة والنشر ، النجف الأشرف ، الطبعة الثانية ١٤٢٦ هـ .
- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ، عودة خليل أبو عودة ، مكتبة المنار ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م .
- التطور النحوي للغة العربية ، براجشتراسر ، أخرجه وصححه وعلّق عليه : الدكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الرفاعي الرياض ١٩٨٢ م .
- التعبير الفني في القرآن الكريم ، الدكتور بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٩٤ م .
- التعبير القرآني ، الدكتور فاضل صالح السامرائي ، بيت الحكمة ، بغداد ١٩٨٧ م .
- تفسير ابن عربي ، محيي الدين بن عربي (ت: ٦٢٨ هـ) ، دار صادر ، بيروت الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .
- تفسير البصائر ، يعسوب الدين رستكار الجويباري ، مطبعة فروردين ، قم المقدسة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ .
- التفسير البياني للقرآن الكريم ، الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي دار المعارف ، مصر ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٤ م .
- تفسير التبيان ، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ) ، تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ١٩٦٣ م .
- تفسير التحرير والتنوير ، محمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، (د.ت) .
- تفسير الجلالين ، جلال الدين المحلي (ت: ٨٦٤ هـ) ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ) مكتب دار الحديث ، القاهرة ، (د.ت) .
- تفسير جوامع الجامع ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: ٥٤٨ هـ) تحقيق : مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة ، ١٤٢٣ هـ .
- تفسير حقائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، محمد الأمين الهرري الشافعي ، إشراف ومراجعة : الدكتور هاشم محمد علي ، دار طوق النجاة بيروت (د.ت) .

📖 تفسير روح البيان ، إسماعيل حقي البروسوي (ت: ١١٣٧ هـ) ، تعليق وتصحيح وضبط : أحمد عزو عناية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ٢٠٠١ م.

📖 تفسير سورة الحمد ، السيد محمد باقر الحكيم ، المجمع العلمي لأهل البيت - عليهم السلام - ، (د.م) ، ١٤٢٥ هـ .

📖 تفسير سورة الفاتحة ، السيد جعفر مرتضى العاملي ، دار السيرة ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٣٧٥ هـ.ش.

📖 تفسير الصافي ، الفيض الكاشاني (ت: ١٠٩١ هـ) ، منشورات مكتبة الصدر طهران ، ١٤١٥ هـ .

📖 تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري (ت: ٧٢٨ هـ) ، ضبطه وخرّج آياته : زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م .

📖 تفسير القرآن العظيم ، عماد الدين أبو الفداء ابن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤ هـ) دار مصر للطباعة ، مصر ، ١٩٨٨ م .

📖 تفسير القرآن الكريم ، السيد عبد الله شبر (ت: ١٢٤٢ هـ) ، دار الفرزدق للطباعة والنشر والتوزيع ، النجف الأشرف ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٥ م .

📖 تفسير القرآن الكريم ، محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت: ١٠٥٠ هـ) تصحيح : محمد جواجوى ، مطبعة بيدار ، قم المقدسة ، (د.ت) .

📖 التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، الطبعة الرابعة ، ٢٠٠١ م .

📖 تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب ، محمد المشهدي ، تحقيق : حسن درّگاهي دار الغدير ، قم المقدسة ، ٢٠٠٣ م .

📖 تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ م .

📖 تفسير المنار ، السيد محمد رشيد رضا ، خرّج آياته وأحاديثه وشرح غريبه : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩ م .

📖 التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، حميد أحمد عيسى العامري ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٦ م .

📖 تقريب النشر في القراءات العشر ، شمس الدين محمد بن علي بن الجزري (ت: ٨٣٣هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢م .

📖 تلخيص البيان في مجازات القرآن ، الشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ) حققه وقدم له ووضع فهرسه : محمد عبد الغني حسن ، دار الأضواء ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٦م .

📖 التمهيد في علم التجويد ، شمس الدين محمد بن علي بن الجزري (ت: ٨٣٣هـ) تحقيق : الدكتور غانم قدوري الحمد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م .

📖 التناسب القرآني عند الإمام البقاعي ، مشهور موسى مشهور مشاهرة ، مطبعة الجامعة الأردنية ، الأردن ، ٢٠٠١م .

📖 تنزيه الأنبياء ، الشريف المرتضى (ت: ٤٣٦هـ) ، منشورات الشريف الرضي قم المقدسة ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٦هـ.ش .

📖 التنعيم اللغوي في القرآن الكريم ، سمير إبراهيم وحيد العزاوي ، دار الضياء للنشر ، عمان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م .

📖 التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، الدكتور أحمد سعد محمد ، مكتبة الآداب القاهرة ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٠م .

📖 تيجان البيان في مشكلات القرآن ، محمد أمين خير الله العمري (ت: ١٢٠٣) دراسة وتحقيق : حسن مظفر الرزو ، مطابع جامعة الموصل ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م .

ج

📖 جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) ، ضبط وتعليق : محمود شاكر الحرساني ، تصحيح : علي عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م .

📖 جامع البيان في القراءات السبع المشهورة ، أبو عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـ) تحقيق : محمد صدوق الجزائري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م .

📖 الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت: ٢٩٧هـ) ، تحقيق : محمود محمد محمود حسن نصار ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م .

- الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله القرطبي (ت: ٦٧١هـ) ، تحقيق : سالم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م .
- الجديد في تفسير القرآن المجيد ، الشيخ محمد السبزواري ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م .
- جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ، الدكتور ماهر مهدي هلال ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠م .
- جمال العربية ، فاروق شوشة ، دار الكتاب العربي ، الكويت ، ٢٠٠٣م .
- جماليات المفردة القرآنية ، الدكتور أحمد ياسوف ، دار المكتبي ، دمشق ١٩٩٩م .
- الجمان في علوم القرآن ، الدكتور محيي الدين عبد الرحمن رمضان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م .
- الجملة العربية (دراسة لغوية نحوية) ، الدكتور محمد إبراهيم عبادة ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، مصر ، ١٩٨٤م .
- الجملة العربية والمعنى ، الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م .
- الجنى الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي (ت: ٧٤٩هـ) تحقيق : الدكتور فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م .
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، السيد أحمد الهاشمي ، إشراف : صدقي محمد جميل ، مؤسسة الصادق - عليه السلام - للطباعة والنشر طهران ١٣٨٣هـ.ش .
- جواهر البيان في تناسب سور القرآن ، أبو الفضل عبد الله الغماري الحسني ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م .
- الجواهر الثمين في تفسير الكتاب المبين ، السيد عبد الله شبر (ت: ١٢٤٢هـ) قدّم له : الدكتور محمد بحر العلوم ، مكتبة الألفين ، الكويت ، ١٩٨٦م .

ح

- حاشية الصبّان على شرح الاشموني على ألفية ابن مالك ، محمد بن علي الصبّان (ت: ١٢٠٦هـ) ، تحقيق : محمود بن جميل ، مكتبة الصفا ، القاهرة الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .

الحجة في علل القراءات السبع ، أبو علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ) ، تحقيق : الدكتور : عبد الحليم النجار ، والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، وعلي النجدي ناصف ، مراجعة : محمد علي النجار ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة الطبعة الثانية ، ٢٠٠٠م .

الحجة في القراءات السبع ، أبو عبد الله الحسين بن خالويه (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق : أحمد فريد المزيدي ، قدّم له : الدكتور فتحي حجازي ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٩م .

حجة القراءات ، عبد الرحمن بن محمد أبو زرة (ت: ٥٠٥هـ)، تحقيق : سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبع الثانية ، ١٩٨٢م .

الحجة للقراء السبع (أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد) ، أبو علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ) ، وضع حواشيه وعلّق عليه : كامل مصطفى الهنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م .

حروف المعاني بين الأصالة والحدّاث ، حسن عبّاس ، اتحاد الكتاب العرب دمشق ، ٢٠٠٠م .

حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، شهاب الدين محمود الحلبي (ت: ٧٢٥هـ) تحقيق ودراسة : أكرم عثمان يوسف ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠م .

حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، الشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ) ، شرح العلامة محمد الرضا آل كاشف الغطاء ، دار الأضواء ، بيروت ، ١٩٨٦م .

خ

الخصائص ، أبو الفتح ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٩م .

د

الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، الدكتور غانم قدوري الحمد ، مطبعة الخلود ، بغداد ، ١٩٨٦م .

دراسات عن سور القرآن ، محمد جواد المحتصر النجفي ، مطبعة الآداب النجف الأشرف ، ١٩٨٢م .

- 📖 دراسات في علم أصوات العربية ، الدكتور داود عبده ، مؤسسة الصباح الكويت ، (د.ت) .
- 📖 دراسات في علم الصرف ، الدكتور عبد الله درويش ، مكتبة الطالب الجامعي مكة المكرمة ، ١٤٠٧هـ .
- 📖 دراسات في اللسانيات العربية ، الدكتور عبد الحميد السيد ، دار الحامد للنشر والتوزيع ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .
- 📖 دراسات قرآنية في جزء عمّ ، الدكتور محمود أحمد نحلة ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، ١٩٨٨م .
- 📖 دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، محمد عبد الخالق عضيمة ، مطبعة السعادة (د.م) ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م .
- 📖 الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ، الدكتور محمد حسين آل ياسين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م .
- 📖 الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، الدكتور حسام سعيد النعيمي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م .
- 📖 دراسة الصوت اللغوي ، الدكتور أحمد مختار عمر ، مطابع سجل العرب القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٦م .
- 📖 درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز محمد بن عبد الله الاسكافي (ت: ٤٢٠هـ) برواية أبي الفرج الاردستاني ، دار الأوقاف الجديدة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م .
- 📖 الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤م .
- 📖 دروس التصريف ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٩٠م .
- 📖 دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ، عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري ، عرب عباراته الفارسية ، حسن هاني فحص ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م .

دقائق التصريف ، القاسم بن محمد بن سعيد المؤدب (من علماء القرن الرابع الهجري) ، تحقيق : الدكتور احمد ناجي القيسي ، والدكتور حاتم صالح الضامن والدكتور حسين تورال ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٧ م .

دلائل الإعجاز في علم المعاني ، عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) ، تصحيح : الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي ، والسيد محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ، مصر ، ١٩٦١ م .

دلالة الألفاظ ، الدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٢ م .

دلالة الجر والإضافة في سورة المائدة ، الدكتور رحيم جبر أحمد الحسناوي مكتب بحار الأنوار للطباعة ، الحلة ، ٢٠٠٢ م .

الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى ، الدكتور حامد كاظم عباس ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤ م .

دور الكلمة في اللغة ، استيفن أولمان ، ترجمة : الدكتور كمال بشر ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثانية عشرة ، ١٩٩٧ م .

ديوان الأدب ، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت: ٣٥٠هـ) ، تحقيق : الدكتور : إبراهيم أنيس ، والدكتور أحمد مختار عمر ، مؤسسة الشعب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .

ديوان الأعشى ، حققه وقدم له : فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ، ١٩٦٨ م .

ديوان امرئ القيس ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) .

ديوان عمر بن أبي ربيعة ، شرحه وضبطه وقدم له : علي العسيلي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ م .

ديوان عنتر بن شداد ، حققه وقدم له : فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ، ١٩٦٨ م .

ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق : الدكتور ناصر الدين الأسد ، دار صادر بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ م .

ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق وشرح : كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت (د.ت) .

ديوان الهذليين ، المكتبة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

ر

رؤية الله بين التنزيه والتشبيه ، إعداد : لجنة البحوث والدراسات في المجمع العالمي لأهل البيت - عليهم السلام - ، قم المقدسة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ .

رسالتان في اللغة لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت: ٣٨٨ هـ) ، ١- منازل الحروف ، ٢- الحدود ، حققهما وعلق عليهما : الدكتور إبراهيم السامرائي دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٤ م .

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود الألوسي (ت: ١٢٧٠ هـ) ضبطه وصححه : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠١ م .

ز

زاد المسير في علم التفسير ، جمال الدين بن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .

زبدة التفاسير ، فتح الله الكاشاني (ت: ٩٩٨ هـ) ، مؤسسة المعارف الإسلامية قم المقدسة ، ١٣٨١ هـ .

س

سر صناعة الإعراب ، أبو الفتح ابن جني (ت: ٣٩٢ هـ) ، تحقيق : محمد حسين محمد حسن إسماعيل ، وأحمد رشدي شحاته ، دار الكتب العلمية بيروت ، ٢٠٠٠ م .

سنن ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥ هـ) ، تحقيق : محمود محمد محمود حسن نصار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م .

ش

شذا العرف في فن الصرف ، أحمد الحملاوي ، مؤسسة أنوار الهدى للطباعة والنشر ، قم المقدسة ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣ م .

شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، بهاء الدين بن عقيل (ت: ٧٦٩هـ) ، ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل ، محمد محيي الدين عبد الحميد مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ١٩٩٨م .

شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، علي نور الدين الأشموني (ت: ٩٢٩هـ) قدم له ووضع هوامشه وفهارسه : حسن محمد ، إشراف : الدكتور أميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨م .

شرح ألفية ابن مالك ، ابن النازم أبو عبد الله محمد جمال الدين بن مالك ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠٣م .

شرح التسهيل (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) ، جمال الدين بن مالك (ت: ٦٧٢هـ) ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، وطارق فتحي السيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م .

شرح جمل الزجاجة (الشرح الكبير) ، ابن عصفور الأشبيلي (ت: ٦٦٩هـ) تحقيق : الدكتور صاحب أبو جناح ، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل ، ١٩٨٠م .

شرح الحدود النحوية ، جمال الدين عبد الله بن أحمد الفاكهي (ت: ٩٧٢هـ) تحقيق : الدكتور محمد الطيب الإبراهيم ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٩٦م .

شرح شافية ابن الحاجب ، رضي الدين الاستربادي (ت: ٦٨٦هـ) مع شرح شواهد لعبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب (ت: ١٠٩٣هـ) ، تحقيق : محمد نور الحسن ، ومحمد الزفزاف ، ومحمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي القاهرة ، (د.ت) .

شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، ابن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١هـ) ، تحقيق : الدكتور محمد محمد تامر ، مطابع الزهراء للإعلام العربي القاهرة ، (د.ت) .

شرح عيون الإعراب ، علي بن فضال المجاشعي (ت: ٤٧٩هـ) ، تحقيق : الدكتور حنا جميل حداد ، مكتبة المنار ، الأردن ، ١٩٨٥م .

شرح الفصيح ، ابن هشام اللخمي (ت: ٥٧٧هـ) ، دراسة وتحقيق : الدكتور مهدي عبيد جاسم ، دائرة الآثار والتراث ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م .

شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت: ٣٢٨هـ) ، تحقيق وتعليق : عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٦٣م .

شرح قطر الندى وبل الصدى ، ابن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١هـ) ومعه كتاب : سبيل الهدى بتحقيق شرح قطر الندى ، محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية ، بيروت ، (د.ت) .

شرح كافية ابن الحاجب ، رضي الدين الاسترأبادي (ت: ٦٨٦هـ) ، تحقيق : أحمد السيد أحمد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، (د.ت).

شرح الكافية الشافية ، جمال الدين بن مالك (ت: ٦٧٢هـ) ، تحقيق : علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٧ م .

شرح اللحة البدرية في علم اللغة العربية ، ابن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١هـ) دراسة وتحقيق : الدكتور هادي نهر ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٧٧ م .

شرح اللمع في النحو ، القاسم الواسطي الضرير (ت: ٦٢٦هـ) ، تحقيق : الدكتور رجب عثمان محمد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .

شرح المراح في التصريف ، بدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت: ٨٥٥هـ) حققه وعلق عليه : الدكتور عبد الستار جواد ، مطبعة الرشيد ، بغداد ١٩٩٠ م .

شرح المصطلحات الكلامية ، إعداد : قسم الكلام في مجمع البحوث الإسلامية في مدينة مشهد المقدسة ، مؤسسة الطبع والنشر في الاستانة الرضوية المقدسة الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ .

شرح المعلقات السبع ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ، مكتبة دار البيان للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٠ م .

شرح المفصل ، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت: ٦٤٣هـ) ، تحقيق وضبط وإخراج : أحمد السيد سيد أحمد ، راجعه ووضع فهارسه : إسماعيل عبد الجواد عبد الغني ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، (د.ت) .

شرح الوافية نظم الكافية ، أبو عمر عثمان بن الحاجب (ت: ٦٤٦هـ) ، دراسة وتحقيق : الدكتور موسى بناي علوان العليلي ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ١٩٨٠ م .

الشرىف الرضى وجهوده النحوية ، الدكتور حازم سليمان الحلى ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٠ م .

📖 الصاحبى فى فقه اللغة العربىة ومسائلها وسنن العرب فى كلامها ، أبو الحسن أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ) ، علق عليه ووضع حواشيه : أحمد حسن بسج دار الكتب العلمىة ، بىروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .

📖 الصّاح ، تاج اللغة وصّاح العربىة ، إسماعىل بن حمّاد الجوهري (ت: ٣٩٣هـ) ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين بىروت ، ١٩٧٩م .

📖 صحىح مسلم بشرح النووى ، أبو زكريا يحيى بن شرف النووى (ت: ٦٧٦هـ) خرّج أحاديثه : محمد بن عيادى بن عبد الحلّيم ، مكتبة الصفا ، القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٣م .

📖 الصّحيفة السّجادية ، الإمام علي بن الحسين السّجاد (عليه السلام) ، دار المحبين للطباعة والنشر ، إيران ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦م .

📖 الصّرف ، الدكتور أسعد محمد النّجار ، مكتب الغسق ، الحلة ، ٢٠٠٥م .

📖 الصّرف الحديث فى بيان القرآن والحديث ، أحمد أمين الشيرازى ، مكتب الإعلام الإسلامى ، قم المقدسة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .

📖 الصّرف الوافى ، الدكتور هادى نهر ، مطبعة التعليم العالى ، الموصل ١٩٨٩م .

📖 صفوة الأقوال فى تفسير سورة الفاتحة ، عبد الرحمن خضر ، مطبعة النّجاح بىداد ، (د.ت) .

📖 صفوة التّفسير ، محمد علي الصّابونى ، دار الجيل ، بىروت ، الطبعة الثامنة ١٩٩٥م .

📖 الصّوت اللّغوى فى القرآن ، الدكتور محمد حسين علي الصّغير ، دار المؤرخ العربى ، بىروت ، ٢٠٠٠م .

ظ

📖 الظواهر اللّغوىة فى قراءة الحسن البصرى ، الدكتور صاحب أبو جناح ، مطابع جامعة الموصل ، العراق ، ١٩٨٥م .

ع

- العربية والنص القرآني (دراسة للقضايا اللغوية في كتب إعراب القرآن ومعانيه في أوائل القرن الثالث الهجري) ، الدكتور عيسى شحاتة عيسى ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠١ م .
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي ، (ت: ٧٧٣هـ) تحقيق : الدكتور خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١ م .
- العقائد الإسلامية ، السيد محمد الحسيني الشيرازي ، مطبعة النجف الأشرف الطبعة الحادية عشرة ، ٢٠٠٦ م .
- عقائد الإمامية ، الشيخ محمد رضا المظفر ، قدّم له ، الدكتور حامد حفني داود دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، ٢٠٠٣ م .
- علم الأصوات ، برتيل مالمبرج ، تعريب ودراسة : الدكتور عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .
- علم الأصوات ، الدكتور حسام البهنساوي ، مكتبة الثقافة الدينية ، (د.م) الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤ م .
- علم الأصوات ، الدكتور كمال بشر ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، ٢٠٠٠ م .
- علم الأصوات اللغوية ، الدكتور مناف مهدي الموسوي ، عالم الكتب ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ م .
- علم الدلالة أصوله ومناهجه في التراث العربي ، منقور عبد الجليل منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١ م .
- علم الدلالة دراسة وتطبيقاً ، الدكتورة نور الهدى لوشن ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، ١٩٩٥ م .
- علم الدلالة ، الدكتور أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٨ م .
- علم اللغة العام / الأصوات ، الدكتور كمال بشر ، دار المعارف ، القاهرة الطبعة الخامسة ، ١٩٧٩ م .
- علم اللغة العام ، فردينان دي سوسور ، ترجمة الدكتور يونيل يوسف عزيز مراجعة النص العربي : الدكتور مالك يوسف المطلبي ، دار آفاق عربية بغداد ١٩٨٥ م .

علم اللغة العام (مقدمة للقارئ العربي) ، الدكتور محمود السعران ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د.ت) .

علم المعاني (دراسة بلاغية نقدية لمسائل المعاني) ، الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثانية ٢٠٠٤ م .

علم المعاني ، الدكتور عبد العزيز عتيق ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ٢٠٠٤ م .

علم النحو والصرف ، الدكتور عبد العزيز عتيق ، منشورات مكتبة منيمنة بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣ م .

علوم القرآن ، الدكتور عبد الفتاح أبو سنة ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ م .

عمدة الصرف ، الدكتور كمال إبراهيم ، مطبعة النجاح ، بغداد ، (د.ت) .

العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية ، عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ) ، شرح الشيخ خالد الأزهرى الجرجاوي (ت: ٩٠٥ هـ) ، تحقيق وتقديم وتعليق : الدكتور البدر اوي زهران ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٨ م .

غ

غصن البان في معرفة تجويد القرآن وفوائد أخرى ، الشيخ محمد بن إبراهيم الطرقي ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ م .

غيث النفع في القراءات السبع ، علي بن محمد السفاقي (ت: ١١١٨ هـ) تحقيق : أحمد محمود الحفيان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤ م .

ف

فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢ هـ) تعليق : عبد العزيز بن باز ، اعتنى به ، محمود بن الجميل ، مكتبة الصفا القاهرة ، ٢٠٠٣ م .

فتح البيان في مقاصد القرآن ، أبو الطيب القنوجي البخاري (ت: ٣٠٧ هـ) تقديم ومراجعة : عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٩٢ م .

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، ضبطه وصححه: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

فتح الوصيد في شرح القصيد، علم الدين السخاوي (ت: ٦٦٣هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور أحمد عدنان الزغبى، مكتبة دار البيان، الكويت، ٢٠٠٢م.

الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل (ت: ١٢٠٤هـ)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، (د.ت).

فروق اللغات، السيد نور الدين الجزائري (ت: ١١٥٨هـ)، تحقيق: أسد الله الإسماعيليان، مطبعة النجف، النجف الأشرف، ١٣٨٠هـ.

الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري (ت: بعد ٤٠٠هـ)، علق عليه ووضع حواشيه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.

الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

فصول في علم الدلالة، فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

فصيح ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (ت: ٢٩١هـ) نشر وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، المطبعة النموذجية، مصر، الطبعة الأولى ١٩٤٩م.

فعلت وأفعلت، أبو حاتم السجستاني (ت: ٢٥٥هـ)، تحقيق: الدكتور خليل إبراهيم العطية، مديرية دار الكتب، جامعة البصرة، ١٩٧٩م.

الفعل زمانه وأبنيته، الدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

فقه القرآن، سعيد بن هبة الله المعروف بقطب الدين الراوندي (ت: ٥٧٣هـ) قدّم له وعلق عليه وخرّج آياته وأحاديثه: محمد جواد المحتصر النجفي مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧٨م.

فقه القرآن، الشيخ محمد اليزدي، مؤسسة إسماعيليان، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.ش.

فقه اللغة، الدكتور عبد الحسين المبارك، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٦م.

- 📖 فقه اللغة العربية ، الدكتور كاسد ياسر الزيدي ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة البصرة ، ١٩٨٧ م .
- 📖 في البحث الصوتي عند العرب ، الدكتور خليل إبراهيم العطية ، دار الجاحظ بغداد ، ١٩٨٣ م .
- 📖 في التذوق الجمالي للآيات العشر الأولى مفتتح سورة الإسراء ، محمد علي أبو حمدة ، دار الفرقان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م .
- 📖 في رحاب القرآن ، الدكتور ياسين محمد يحيى ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ١٩٨٦ م .
- 📖 في صوتيات العربية ، الدكتور محيي الدين رمضان ، مكتبة الرسالة الحديثة عمان ، (د.ت) .
- 📖 فيض القدير (شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير) ، محمد عبد الرؤوف المناوي (ت: ١٠٣١ هـ) ، ضبطه وصححه : أحمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٦ م .
- 📖 في علم اللغة العام ، الدكتور عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الخامسة ، ١٩٨٨ م .
- 📖 في النحو العربي نقد وتوجيه ، الدكتور مهدي المخزومي ، دار الشؤون الثقافية بغداد ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٥ م .

ق

- 📖 القاموس المحيط ، مجد الدين الفيروآبادي (ت: ٨١٧ هـ) ، دار العلم للجميع بيروت ، (د.ت) .
- 📖 القراءات القرآنية بين الدرس الصوتي القديم والحديث ، الدكتورة مي فاضل الجبوري ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ٢٠٠٠ م .
- 📖 القراءات القرآنية تاريخ وتعريف ، الدكتور عبد الهادي الفضلي ، دار المجمع العلمي بجدة ، السعودية ، ١٩٧٩ م .
- 📖 القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، الدكتور عبد الصبور شاهين مطابع دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

- 📖 القراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني والأحكام الشرعية ، الدكتور محمد الحبش ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٩ م .
- 📖 قراءة الكسائي من القراءات العشر المتواترة ، أحمد محمود الحفيان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢ م .
- 📖 القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ، الدكتور عبد العال سالم مكرم دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨ م .
- 📖 قضايا الشعرية ، رومان ياكبسون ، ترجمة : محمد الولي ، ومبارك حنوز الدار البيضاء (د.م) ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م .
- 📖 قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم ، الدكتورة سناء حميد البياتي ، دار وائل للنشر ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م .
- 📖 القول في القرآن الكريم ، (دراسة لغوية ونحوية) ، أحمد إبراهيم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٥ م .

ل

- 📖 الكافي في القراءات السبع ، أبو عبد الله محمد بن شريح الرعيني (ت: ٤٧٦ هـ) ، تح : أحمد محمود الحفيان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٠ م .
- 📖 كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، أبو عبد الله الحسين بن خالويه (ت: ٣٧٠ هـ) ، دار التربية للطباعة والنشر ، (د.م) ، (د.ت) .
- 📖 كتاب الأفعال ، أبو عثمان سعيد بن محمد السرقسطي ، تحقيق : الدكتور : حسن محمد شرف ، والدكتور محمد مهدي علام ، مطبعة مؤسسة دار الشعب القاهرة ، ٢٠٠٢ م .
- 📖 كتاب الاقتراح في علم أصول النحو ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ) قدم له وشرحه : الدكتور أحمد سليم الحمصي ، والدكتور محمد أحمد قاسم ، جروس برس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م .
- 📖 كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، أبو محمد عبد الله بن السيد البطلوسي (ت: ٥٢١ هـ) ، تحقيق : الدكتور حامد عبد المجيد ، ومصطفى السقا ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٠ م .

كتاب أمالي ابن الحاجب ، أبو عمرو عثمان بن الحاجب (ت: ٦٤٥هـ) دراسة وتحقيق : الدكتور فخر صالح سليمان قدارة ، دار الجيل ، بيروت ، دار عمّار الأردن ، ١٩٨٩م .

كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل ، أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري (ت: ٣٢٨هـ) ، تحقيق : محيي الدين عبد الرحمن رمضان مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧١م .

كتاب التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتيان ، طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري ، مطبعة المنار ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٣٤هـ .

كتاب التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م .

كتاب التكملة ، أبو علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ) ، تحقيق ودراسة : الدكتور كاظم بحر المرجان ، مطابع مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ١٩٨١م .

كتاب التيسير في القراءات السبع ، أبو عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـ) ، غني بتصحيحه : أوتويرتزل ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٥م .

كتاب الحروف ، أبو الفضائل الرازي (ت: ٦٣١هـ) ، تحقيق : الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي ، منشور في مجلة المورد ، المجلد الثالث ، العدد الرابع ١٩٧٤م .

كتاب السبعة في القراءات ، ابن مجاهد (ت: ٣٢٤هـ) ، تحقيق : الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٨م .

كتاب سيبويه ، سيبويه (ت: ١٨٠هـ) ، تحقيق ودراسة : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م .

الكتاب ، سيبويه ، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه الدكتور أميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م .

كتاب سيبويه ، سيبويه ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣١٦هـ .

كتاب شرح اللمع ، جامع العلوم الباقولي (ت: ٥٤٣هـ) ، دراسة وتحقيق الدكتور : محمد خليل مراد الحربي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .

كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي اليمني (ت: ٧٤٩هـ) ، مراجعة وضبط وتدقيق : محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ن الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ م .

كتاب العنوان في القراءات السبع ، أبو ظاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري (ت: ٤٥٥هـ) ، تحقيق : الدكتور زهير غازي زاهد ، والدكتور خليل إبراهيم العطية ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٦ م .

كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٥هـ) ، تحقيق : الدكتور مهدي المخزومي ، والدكتور إبراهيم السامرائي ، مطابع الرسالة ، الكويت ١٩٨٠ م .

كتاب فصل الخطاب في أصول لغة الإعراب ، ناصيف اليازجي ، تقديم ومراجعة : جميل إبراهيم حبيب ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٨٤ م .

كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ، غني بتصحّحه السيد محمود بدر الدين النعساني ، مطبعة السعادة مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٧هـ .

كتاب القطع والائتناف ، أبو جعفر النحاس (ت: ٣٣٨هـ) ، تحقيق : الدكتور : أحمد خطاب العمر ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٨ م .

كتاب الكناش في فني النحو والصرف ، عماد الدين الأيوبي (ت: ٧٣٢هـ) تحقيق : الدكتور رياض بن حسن الخوّام ، المكتبة العصرية ، بيروت الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ م .

كتاب اللامات ، أبو الحسن علي بن محمد الهروي (ت: ٤١٥هـ) ، تحقيق وتعليق : يحيى علوان البلداوي ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م .

كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد ، أبو العباس المبرد (ت: ٢٨٥هـ) ، اعتنى به : عبد العزيز الميمني ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٥٠هـ .

كتاب معاني القراءات ، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (ت: ٣٧٠هـ) حققه وعلق عليه : أحمد فريد المزيدي ، قدّم له : الدكتور فتحي عبد الرحمن حجازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٩ م .

كتاب المفتاح في الصرف ، عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) ، حققه وقدم له : الدكتور علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م .

- 📖 كتاب المقتصد في شرح الإيضاح ، عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) تحقيق : الدكتور كاظم بحر المرجان ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٢م .
- 📖 كشف اصطلاحات الفنون ، محمد بن علي التهانوي (ت: ١١٥٨هـ) ، وضع حواشيه : أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م .
- 📖 الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، جار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلق عليه : خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .
- 📖 الكشف عن أحكام الوقف والوصل ، الدكتور محمد سالم محيسن ، دار الجيل بيروت ، ١٩٩٢م .
- 📖 كشف المشكل في النحو ، علي بن سليمان الحيدرة اليمني (ت: ٥٩٩هـ) تحقيق : الدكتور هادي عطية مطر ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٨٤م .
- 📖 الكشف والبيان في تفسير القرآن ، أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ) ، تحقيق : سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٤م .
- 📖 كنز العرفان في فقه القرآن ، الفاضل المقداد (ت: ٨٢٦هـ) ، حققه عبد المنعم العقيقي البخشايشي ، مطبعة المعراج ، قم المقدسة ، الطبعة الثانية ١٣٨٠هـ .
- 📖 الكنز في القراءات العشر ، عبد الله بن عبد المؤمن الواسطي (ت: ٧٤٠هـ) دراسة وتحقيق : الدكتور خالد أحمد المشهداني ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .
- 📖 الكوفيون والقراءات ، الدكتور حازم سليمان الحلبي ، دار الشؤون الثقافية بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٩م .

ل

- 📖 اللامات (دراسة نحوية شاملة في ضوء القراءات القرآنية) ، الدكتور عبد الهادي الفضلي ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م .
- 📖 لباب التأويل في معاني التنزيل ، علاء الدين علي بن محمد الشهير بالخازن (ت: ٧٢٥هـ) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، الطبعة الثانية ١٩٥٥م .

📖 الباب في علوم الكتاب ، أبو منصور عمر بن علي الدمشقي (ت: ٨٨٠هـ) تحقيق وتعليق : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض ، شارك في تحقيقه : الدكتور محمد سعد رمضان ، والدكتور محمد المتولي الدسوقي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٩٩٨م .

📖 لسان العرب ، جمال الدين بن منظور (ت: ٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت (د.ت) .
 📖 اللسانيات من خلال النصوص ، الدكتور عبد السلام المسدي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤م .

📖 لغة الشعر عند الجواهري ، الدكتور علي ناصر غالب ، دار الصادق - الطبعة الأولى - للنشر ، الحلة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥م .

📖 اللغة العربية معناها ومبناها ، الدكتور تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة الطبعة الرابعة ، ٢٠٠٤م .

📖 اللغة والإبداع (مبادئ علم الأسلوب العربي) ، الدكتور شكري محمد عياد (د.ط) ، (د.م) ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م .

📖 لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٩م .

📖 اللمع في العربية ، أبو الفتح ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) ، تحقيق : حامد المؤمن مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٨٢م .

م

📖 مآلات القرآن ، جامع العلوم الباقولي (ت: ٥٤٣هـ) ، تحقيق : الدكتور عبد القادر عبد الرحمن السعدي ، مطبعة دار الأنبار للطباعة والنشر ، بغداد ٢٠٠٤م .

📖 مباحث في علوم القرآن ، الدكتور صبحي الصالح ، دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٨م .

📖 مباحث في فقه اللغة ، الدكتور أسعد محمد علي النجار ، دار الصادق - الطبعة الأولى - للنشر ، الحلة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .

المبدع في التصريف ، أبو حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) ، تحقيق وتعليق وشرح : عبد الحميد السيد طلب ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م .

المبسوط في القراءات العشر ، أبو بكر أحمد بن الحسين الأصبهاني (ت: ٣٨١هـ) ، تحقيق : سميع حمزة حاكمي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (د.ت) .

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير (ت: ٦٢٩هـ) قدمه وعلق عليه : الدكتور أحمد الحوفي ، والدكتور بدوي طبانة ، دار نهضة مصر القاهرة ، (د.ت) .

مجاز القرآن ، أبو عبيدة التيمي (ت: ٢١٠هـ) ، عارضه بأصوله وعلق عليه : الدكتور محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٨م .

مجمع الأمثال ، أبو الفضل الميداني (ت: ٥١٨هـ) ، قدم له وعلق عليه : نعيم حسن زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) .

مجمع البحرين ومطلع النيرين ، فخر الدين الطريحي النجفي (ت: ١٠٨٥هـ) تحقيق : السيد أحمد الحسيني ، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية إيران ١٣٧٥هـ . ش .

مجمع البيان في تفسير القرآن ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ) ، تحقيق : السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، مؤسسة التاريخ العربي بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م .

مجل اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ) ، دراسة وتحقيق : زهير عبد المحسن سلطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٦م .

مجموع أشعار العرب ، وهو مشتمل على ديوان روبة بن العجاج ، اعتنى بتصحيحه وترتيبه : وليم بن الورد البروسي ، مطبعة دروغولين ، ليبسغ ١٩٠٣م .

المجيد في إعراب القرآن المجيد ، برهان الدين السفاقي (ت: ٧٤٢هـ) مطبوع ضمن كتاب : نصوص محققة في علوم القرآن الكريم ، الدكتور حاتم صالح الضامن ، مطبعة دار الحكمة ، الموصل ، ١٩٩١م .

المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، أبو الفتح ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) ، تحقيق : الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي وعلي النجدي ناصف ، (د.ط) ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦هـ) تحقيق وتعليق : عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، والسيد عبد العال السيد إبراهيم دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، (د.ت) .
- مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع ، أبو عبد الله الحسين بن خالويه (ت: ٣٧٠هـ) ، عني بنشره : برجشتراسر ، المطبعة الرحمانية ، مصر ١٩٣٤م .
- المخصص ، أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيدة (ت: ٤٥٨هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) .
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت: ٧٠١هـ) قدم له : قاسم الشماعي الرفاعي ، راجعه وضبطه : إبراهيم محمد رمضان ، دار القلم ، بيروت ، (د.ت) .
- المدخل إلى علم أصوات العربية ، الدكتور غانم قدوري الحمد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ٢٠٠٢م .
- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، الدكتور رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨م .
- مدخل الدراسات القرآنية ، الدكتور السائح علي حسين ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ليبيا ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م .
- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، الدكتور مهدي المخزومي مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٥م .
- مراح الأرواح في الصرف ، أبو الفضائل أحمد بن علي بن مسعود (من علماء القرن السابع الهجري) ، تحقيق : محمد الطهراني ، مطبعة الاعتماد ، إيران الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ .
- المرجع في علم الصرف ، الدكتور سميح أبو مغلي ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، الأردن ، ١٩٨٧م .
- المسائل العسكرية في النحو العربي ، أبو علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ) دراسة وتحقيق : الدكتور علي جابر المنصوري ، مطبعة الجامعة ، بغداد الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م .

- مسائل النحو والصرف في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (مدخل لدراسة نحو النص جمعا ودراسة) ، الدكتور عبد الحميد مصطفى السيد ، دار الإسرائ ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م .
- المساعد على تسهيل الفوائد ، بهاء الدين بن عقيل (ت: ٧٦٩هـ) ، تحقيق : محمد كامل بركات ، مطابع جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ٢٠٠١ م .
- المستدرک على الصحيحين ، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ) دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٣٠هـ .
- المسند ، أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) ، شرحه ووضع فهارسه ، أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ م .
- المشترك اللفظي في الحقل القرآني ، الدكتور عبد العال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م .
- مشكاة المصابيح ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (ت: ٧٤١هـ) ، تحقيق : جمال عيتاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م .
- مشكلات القرآن الكريم وتفسير سورة الحمد ، الشيخ محمد عبده ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د.ت) .
- مصطفى جمال الدين (جهوده وظواهر لغوية في شعره) ، تحسين فاضل المشهدي ، المكتبة الأدبية المختصة ، النجف الأشرف ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م .
- مصطلحات قرآنية ، الدكتور صالح عزيمة ، دار النصر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ م .
- المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر الدكتور عبد القادر مرعي الخليل ، منشورات جامعة مؤتة ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م .
- المصنف ، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١هـ) ، عني بتحقيق نصوصه وتخريج أحاديثه والتعليق عليه : حبيب الرحمن الأعظمي منشورات المجلس العلمي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ م .

المطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم) ، سعد الدين التفتازاني (ت: ٧٩٢هـ) تحقيق : الدكتور عبد الحميد هندراوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م .

معالم التنزيل ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤م .

معاني الأبنية في العربية ، الدكتور فاضل صالح السامرائي ، (د.ط) ، بغداد الطبعة الأولى ، ١٩٨١م .

معاني القرآن ، أبو جعفر النحاس (ت: ٣٣٨هـ) ، تحقيق : الدكتور يحيى مراد دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

معاني القرآن ، أبو الحسين سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط (ت: ٢١٥هـ) ، تحقيق : الدكتورة هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م .

معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت: ٢٠٧هـ) ، تحقيق : الجزء الأول : أحمد يوسف نجاتي ، محمد علي النجار ، الجزء الثاني : محمد علي النجار ، الجزء الثالث : الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، مراجعة : علي النجدي ناصف ، دار السرور ، (د.م) ، (د.ت) .

معاني القرآن وإعرابه ، أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١هـ) ، شرح وتحقيق : الدكتور عبد الجليل عبده شلبي ، خرّج أحاديثه : علي جمال الدين محمد ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

معاني النحو ، الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الأردن ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣م .

معترك الأقران في إعجاز القرآن ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ضبطه وصححه وكتب فهارسه : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨م .

المعجزات القرآنية ، بديع الزمان سعيد النورسي ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي ، مطبعة الرشيد، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م .

معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم ، الدكتور محمد سيد طنطاوي ، دار الفقه للطباعة والنشر ، إيران ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٥هـ .

- 📖 معجم الجملة القرآنية (القسم الثاني / الدلالة الزمنية للأفعال في القرآن الكريم) الدكتور طالب محمد إسماعيل الزوبعي ، مطبعة التعليم العالي ، بغداد ١٩٨٨ م .
- 📖 معجم حروف المعاني في القرآن الكريم ، محمد حسن الشریف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م .
- 📖 معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء ، الدكتور أحمد مختار عمر ، الدكتور عبد العال سالم مكرم ، عالم الكتب ، مصر ، الطبعة الثالثة ١٩٩٧ م .
- 📖 المعجم الكبير ، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، حققه وخرّج أحاديثه : حمدي عبد المجيد السلفي ، مطبعة الزهراء الحديثة ، الموصل الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م .
- 📖 معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة) ، الشيخ أحمد رضا ، دار صادر بيروت ، (د.ت) .
- 📖 المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث مصر ، ١٩٨٨ م .
- 📖 معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ) ، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع دمشق ١٩٧٩ م .
- 📖 المعجم الوسيط ، قام بإخراجه : الدكتور إبراهيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ، ومحمد علي النجار ، دار الدعوة ، استانبول ١٩٨٩ م .
- 📖 المعنى والنحو ، الدكتور عبد الله أحمد جاد الكريم ، مكتبة الآداب ، القاهرة الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .
- 📖 المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة ، الدكتور محمد سالم محيسن ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٣ م .
- 📖 مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١هـ) ، حققه وعلق عليه : الدكتور مازن المبارك ، محمد علي حمد الله ، راجعه : سعيد الأفغاني مؤسسة الصادق للطباعة والنشر ، إيران ، الطبعة الأولى ١٣٧٨ هـ .ش .
- 📖 مفاتيح الجنان ، الشيخ عباس القمي ، دار الفقه للطباعة والنشر ، إيران الطبعة الثالثة ، ١٤٢٤ هـ .

- 📖 مفتاح أحسن الخزائن الإلهية ، السيد مصطفى الخميني ، مطبعة مؤسسة العروج ، قم المقدسة ، ١٤١٨ هـ .
- 📖 مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي (ت: ٦٢٦ هـ) ، تحقيق : أكرم عثمان يوسف ، مطبعة دار الرسالة ، بغداد ، ١٩٨٢ م .
- 📖 مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني (ت: ٤٢٥ هـ) ، تحقيق: صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ .
- 📖 المفصل في صنعة الإعراب ، جار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٩ م .
- 📖 مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن) ، الدكتور نصر حامد أبو زيد المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ م .
- 📖 المقتضب ، أبو العباس المبرّد (ت: ٢٨٥ هـ) ، تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة ، مطابع الأهرام التجارية ، مصر ، ١٩٩٤ م .
- 📖 مقتنيات الدرر ، السيد علي الحائري الطهراني ، مطبعة الحيدري ، طهران ١٣٣٩ هـ .
- 📖 المقرّب ، ابن عصفور الاشبيلي (ت: ٦٦٩ هـ) ، تحقيق : الدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، والدكتور عبد الله الجبوري ، مطبعة العاني ، بغداد الطبعة الأولى ، ١٩٧١ م .
- 📖 المقصود في علم الصرف ، المنسوب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان (ت: ١٠٥ هـ) ، درسه وحققه وعلق عليه : الدكتور عبد الله أحمد جاد الكريم مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .
- 📖 المكتفى في الوقف والابتدا ، أبو عمرو الداني (ت: ٤٤٤ هـ) ، دراسة وتحقيق : جايد زيدان مخلف ، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، بغداد ١٩٨٣ م .
- 📖 الملخص في إعراب القرآن ، الخطيب التبريزي (ت: ٥٠٢ هـ) ، تحقيق ودراسة : الدكتورة فاطمة راشد الراجحي ، مجلس النشر العلمي ، الكويت ٢٠٠١ م .
- 📖 الممتع في التصريف ، ابن عصفور الاشبيلي (ت: ٦٦٩ هـ) ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ م .

- من أساليب التعبير القرآني (دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني) الدكتور طالب محمد إسماعيل الزوبعي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م .
- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، الدكتور محمد الأمين الخضري مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٩ م .
- من أسرار اللغة ، الدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣ م .
- مناهج البحث في اللغة ، الدكتور تمام حسان ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٥ م .
- من بديع لغة التنزيل ، الدكتور إبراهيم السامرائي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م .
- من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، مصر ١٩٥٠ م .
- من بلاغة النظم القرآني ، الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود ، مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ م .
- منتخب قرة الأعين النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، جمال الدين بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ، تحقيق ودراسة : الدكتور عبد المنعم أحمد ومحمد السيد الصفاوي ، مطبعة الجيزة بالاسكندرية ، مصر ، (د.ت) .
- منة المنان في الدفاع عن القرآن ، السيد محمد صادق الصدر ، منشورات طليعة النور ، قم المقدسة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥ م .
- المنصف ، شرح أبي الفتح ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) لكتاب التصريف لأبي عثمان المازني (ت: ٢٤٧هـ) ، تحقيق : الدكتور إبراهيم مصطفى ، وعبد الله أمين مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٠ م .
- المنهج الصوتي للبنية العربية ، (رؤية جديدة في الصرف العربي) ، الدكتور عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠ م .
- من هدي القرآن ، السيد محمد تقى المدرسي ، دار الهدى ، (د.م) ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ .

المهذب في علم التصريف ، الدكتور هاشم طه شلاش ، والدكتور صلاح مهدي الفرطوسي ، والدكتور عبد الجليل عبيد حسين ، مطبعة التعليم العالي الموصل ١٩٨٩ م .

مواهب الرحمن في تفسير القرآن ، السيد عبد الأعلى السبزواري ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ٢٠٠٣ م .

موجز التصريف ، الدكتور عبد الهادي الفضلي ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، ١٩٧٢ م .

موجز علوم القرآن الدكتور داود العطار ، مطبعة الغدير ، قم المقدسة ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٦ هـ .

موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ، محمد السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤ م .

موسوعة النحو والصرف والإعراب ، إعداد : الدكتور أميل بديع يعقوب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥ م .

الموفي في النحو الكوفي ، صدر الدين الكنغراوي (ت: ١٣٤٩ هـ) ، شرح : محمد بهجة البيطار ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٥٠ م .

الميزان في تفسير القرآن ، السيد محمد حسين الطباطبائي ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، ١٣٧٩ هـ.ش .

ن

نتائج الفكر في النحو ، أبو القاسم السهيلي (ت: ٥٨١ هـ) ، حققه وعلق عليه : عادل عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ م .

نحو التيسير ، الدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، مطبعة سلمان الأعظمي بغداد ، ١٩٦٢ م .

نحو الفعل ، الدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٧٤ م .

📖 نحو القراء الكوفيين ، خديجة أحمد مفتي ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م .

📖 نحو القرآن ، الدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٧٤ م .

📖 نحو المعاني ، الدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٧ م .

📖 النحو الوافي ، عباس حسن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤ م .

📖 نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ، جمال الدين بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ، دراسة وتحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي ، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م .

📖 نزهة الطرف في علم الصرف ، أحمد بن محمد الميداني (ت: ٥١٨هـ) تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٨١ م .

📖 نزهة الطرف في علم الصرف ، السيد محمد تقي الجلاي ، تحقيق : السيد قاسم الجلاي ، مطبعة بهار ، قم المقدسة ، ١٤٢٣ هـ .

📖 نشأة دراسة حروف المعاني ، الدكتور هادي عطية مطر ، دار الحرية للطباعة بغداد ، ١٩٨٥ م .

📖 النشر في القراءات العشر ، شمس الدين بن الجزري (ت: ٨٣٣هـ) ، قدّم له : علي محمد الضباع ، خرّج آياته : زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ، ٢٠٠٢ م .

📖 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه : عبد الرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣ م .

📖 نفحات قرآنية ، علي محمد علي دخيل ، دار التعارف للمطبوعات ، لبنان الطبعة الأولى ، ١٩٩٩ م .

📖 النكت في تفسير كتاب سيبويه ، الأعلام الشنتمري (ت: ٤٧٦هـ) ، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والإعلام الكويت ١٩٨٧م .

📖 النكت والعيون ، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) ، راجعه وعلق عليه : السيد بن عبد المقصود ، مؤسسة الكتاب الثقافية ، بيروت (د.ت) .

📖 نهايات الآيات القرآنية بين إعجاز المعنى وروعة الموسيقى ، الدكتور أحمد عبد المجيد حمد خليفة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .

📖 نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) ، تحقيق : الدكتور إبراهيم السامرائي ، والدكتور محمد بركات حمدي ، دار الفكر للنشر الأردن ، ١٩٨٥م .

📖 نهج البلاغة ، الإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام ، شرحه : الشيخ محمد عبده منشورات ذوي القربي ، قم المقدسة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٤هـ . ش.

هـ

📖 همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) تحقيق : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م .

و

📖 الواضح في تفسير القرآن ، أبو محمد عبد الله بن وهب الدينوري (ت: ٣٠٨هـ) ، تحقيق : أحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣م .

📖 وجوه القرآن ، أبو عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد الحيري النيسابوري (ت: ٤٣١هـ) ، حققه وعلق عليه : الدكتور نجف عريشي ، مؤسسة الطبع التابعة للاستانة الرضوية المطهرة ، مشهد المقدسة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

📖 الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، سلوى محمد العوا ، دار الشروق القاهرة ، ١٩٩٨م .

📖 الوجوه والنظائر في القرآن الكريم عن هارون بن موسى القارئ (ت: أواخر القرن الثاني الهجري) ، تحقيق : الدكتور حاتم صالح الضامن ، دائرة الآثار والتراث في وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨٨م .

الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ، أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني (ت: ٤٧٨ هـ) حققه وقدم له : محمد حسن أبو العزم ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .

الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، أبو الحسن الواحدي النيسابوري (ت: ٤٦٨ هـ) ، تحقيق وتعليق : عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض والدكتور أحمد محمد صيرة ، والدكتور أحمد عبد الغني الجمل والدكتور عبد الرحمن عويس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٤ م .

ثانياً : المخطوطة

محاضرات الدكتور رحيم جبر الحسناوي في مادة (دراسات نحوية) ، ألقاها على طلبة الماجستير في قسم اللغة العربية ، كلية التربية ، جامعة بابل ، ٢٠٠٥ م .

محاضرات الدكتور صباح عباس السالم في مادة (المعجم العربي) ، ألقاها على طلبة الماجستير في قسم اللغة العربية ، كلية التربية ، جامعة بابل ، ٢٠٠٥ م .

ثالثاً : الرسائل والأطاريح الجامعية :

الأبنية الصرفية في ديوان امرئ القيس ، صباح عباس السالم ، اطروحة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ م .

الأبنية الصرفية في الكشف للزمخشري ، أسيل عبد الحسين حميدي ، رسالة ، كلية التربية ، جامعة بابل ، ٢٠٠٠ م .

- 📖 ألفاظ السلوك الخلقي في القرآن الكريم / دراسة لغوية ، عبد الكريم مصلح أحمد البجلة ، أطروحة ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٤ م .
- 📖 التحذير في القرآن الكريم / دراسة في مستويات اللغة ، علاء ناجي جاسم الموسوي ، رسالة ، كلية التربية ، جامعة بابل ، ٢٠٠٤ م .
- 📖 الترجيح النحوي في البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) ، محسن حسين علي ، أطروحة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠١ م .
- 📖 التنوع في الخطاب القرآني ، دراسة أسلوبية ، أنمار علي ياسين الغالي ، أطروحة ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ١٩٩٩ م .
- 📖 التوحيد في الشعر العربي قبل الإسلام ، علاء جاسم جابر ، رسالة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٣ م .
- 📖 دراسة حروف المعاني المختصة بالأسماء في شعر السياب ، ظاهر محسن كاظم ، رسالة ، كلية التربية ، جامعة بابل ، ٢٠٠٢ م .
- 📖 دراسة لغوية في كتاب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام - سمير داود سلمان ، أطروحة ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ٢٠٠٣ م .
- 📖 الدرس الصرفي والنحوي عند مكي بن أبي طالب القيسي ، عبد الله أحمد النهاري ، أطروحة ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٩٨ م .
- 📖 الدرس الصوتي عند الجاربردي في شرحه على شافية ابن الحاجب ، مصطفى عبد كاظم الحساوي ، رسالة ، كلية التربية ، جامعة القادسية ، ٢٠٠٦ م .
- 📖 دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني ، محمد ياس خضر الدوري ، أطروحة كلية التربية ، ابن رشد ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥ م .
- 📖 دلالة التذكير والتعريف في سياق النظم القرآني ، شعلان عبد علي سلطان ، رسالة ، كلية التربية ، جامعة بابل ، ٢٠٠٥ م .
- 📖 الدلالة الصوتية في القرآن الكريم ، كريم مزعل محمد اللامي ، رسالة ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٩٧ م .
- 📖 دلالة الفعل المضارع في القرآن الكريم ، الشهيد المرحوم علي خضر فنون ، رسالة ، كلية التربية ، جامعة بابل ، ٢٠٠٥ م .

- 📖 الصبر ودلالاته في القرآن الكريم / دراسة لغوية ، تراث حاكم مالك الزيادي ، رسالة ، كلية الآداب ، جامعة القادسية ، ٢٠٠١ م .
- 📖 الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، تحسين عبد الرضا كريم الوزان ، أطروحة ، كلية التربية / ابن رشد ، جامعة بغداد ٢٠٠١ م .
- 📖 الصورة السمعية ودلالاتها البلاغية في القرآن الكريم ، عباس حميد السامرائي، أطروحة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠١ م .
- 📖 القراءات القرآنية في تفسير فتح القدير للشوكاني / دراسة لغوية ونحوية ، عبد الله أحمد النهاري ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٩٥ م .
- 📖 لغة الشعر عند الصعاليك قبل الإسلام / دراسة لغوية أسلوبية ، وائل عبد الأمير خليل الحربي ، رسالة ، كلية التربية ، جامعة بابل ، ٢٠٠٣ م .
- 📖 لغة القرآن في جزء الذاريات ، جمانة خالد المشهداني ، رسالة ، كلية التربية جامعة بغداد ، ٢٠٠٢ م .
- 📖 معاني الأبنية الصرفية في مجمع البيان، نسرین عبد الله شنوف الزجراوي، رسالة ، كلية التربية للبنات ، جامعة الكوفة ، ١٩٩٦ م .
- 📖 نظام الجملة العربية ، سناء حميد البياتي ، رسالة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ١٩٨٣ م .
- 📖 الوجوه والنظائر في القرآن الكريم / دراسة دلالية ، شيماء محيي رباط العوادي ، رسالة ، كلية الآداب ، جامعة القادسية ، ٢٠٠٥ م .

رابعاً : البحوث:

- 📖 الأفعال في القرآن الكريم ونظائرها السامية ، الدكتور خالد إسماعيل ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد الرابع والعشرون ، كانون الثاني، ١٩٧٩ م .
- 📖 تأصيل المصطلح الصوتي ، الدكتور محمد حسين علي الصغير ، مجلة كلية الفقه ، النجف الأشرف ، العدد الثالث ، ١٩٨٩ م .

📖 التقابل الدلالي بين أهل الجنة وأهل النار في سورة المطففين ، الدكتور صباح عطوي عبود ، بحث مقبول للنشر في مجلة جامعة بابل .

📖 جهود الكوفيين في علم الأصوات ، الدكتور خليل إبراهيم العطية، مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة ، العدد الثاني والعشرون ، ١٩٩١م .

📖 دور الصوت في إعجاز القرآن ، الدكتور حازم سليمان الحلي ، بحث ضمن كتاب : الإعجاز القرآني ، وهو مجموعة بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني في بغداد للمدة من (١٢-٢٦ رمضان ، ١٤١٠هـ ، ١٦ - ٢١ نيسان ١٩٩٠) مطبعة الأمة ، بغداد ، ١٩٩٠م .

📖 الصوت والمعنى عند الخليل بن أحمد ، الدكتور ليث أسعد الراوي ، مجلة كلية المأمون الجامعة ، بغداد ، العدد الخامس ، السنة الثانية ، ٢٠٠١م .

📖 قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن ، الدكتور نعيم اليافي ، مجلة التراث العربي ، العددان الخامس عشر والسادس عشر ، السنة الرابعة ، ١٩٨٤م .

📖 نظرية جديدة في دلالة الكلمة القرآنية ، الدكتور عبد الصبور شاهين ، بحث ضمن كتاب : بحوث في اللغة والأدب ، إعداد وإشراف : الدكتورة سهام الفريح ، مطبعة الفيصل ، الكويت ، ١٩٨٧م .

📖 الوقف والابتداء ، إسماعيل علي سليمان ، بحث منشور في الموسوعة القرآنية المتخصصة ، إشراف وتقديم : الدكتور محمود حمودي زقزوق ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ٢٠٠٢م .

خامساً : المواقع على شبكة المعلومات الالكترونية (الانترنت) :

🌐 www.alkawtherTv.ir ، برنامج : مطارحات في العقيدة ، يستضيف السيد كمال الحيدري، عرضته قناة الكوثر الفضائية بتاريخ : ١٨/١٠/٢٠٠٦م .

الخاتمة

يمثل هذا البحث محاولة للكشف عن خصائص التعبير القرآني ودلالاته في واحد من سياقاته المتعددة ، وهو سياق حمد الله تعالى وتسبيحه بغية تعرف لغة القرآن في هذا السياق بمستوياتها الأربعة .

وقد خرج هذا البحث بجملة من النتائج نوجز أهمها بما يأتي :

- إنَّ في إثارة التعبير بـ(الحمد لله) على (المدح لله) أو (الشكر لله) إشارة إلى إنعام الله تعالى على العباد ؛ لأنَّ الحمد لا يكون إلا على الإحسان .

- يبين البحث العلة من النهي عن المدح والأمر بالحمد ، وهي كون المدح مما يكون قبل الإحسان فيمتلئ كذبًا وتملقًا طلبًا للمال والجاه ، بخلاف الحمد الذي لا يكون إلا بعد الإحسان فيكون ردًا للجميل واعتراقًا به .

- رجح البحث أن يكون الحمد أعم من الشكر ، وساق الأدلة الكافية على ذلك .

- ليس صحيحًا أن يُقصر (السبح) على الماء فقط ، بل هو الجري مطلقًا ، والعلاقة بينه وبين التسبيح تكمن في ما ينتج عن السبح من البعد ، فالتسبيح هو تبعيد الله جل وعلا عما لا ينبغي له ولا يليق به .

- تتبين أن للإيحاء الصوتي في (الحمد لله) و(سبحان) أثره الكبير في نفس الحامد والمسيح لله تعالى ؛ إذ يساعد على غرس الطمأنينة وزيادة التوجه إلى الله عز وجل عند حمده وتسبيحه .

- اتضح في (الحمد لله) و(سبحان) أن الأصوات المجهورة أكثر من الأصوات المهموسة ، وأن نسبة الأصوات الشديدة (الانفجارية) أقل من نسبة الأصوات الرخوة (الاحتكاكية) والأصوات المتوسطة (المائعة) ، وأن معظم الأصوات في هذين التعبيرين مما يتميز بوضوحه السمعي ؛ وذلك ما جعل الكلام المسوق لحمد الله تعالى وتسبيحه أكثر موسيقية وأجمل إيحاءً ، وأدعى لأن يبعث في النفس الارتياح ، ويغرس في أعماقها حب هذه الأذكار والمواظبة على ترديدها.

- حدد البحث نوعين من مواضع الوقف والابتداء في سياق الحمد والتسبيح ، الأول : يؤدي فيه تغير موضع الوقف والابتداء إلى تغير الوظيفة النحوية لبعض التراكيب في الآية فينتج عن ذلك دالتان مختلفتان في سياق حمد الله تعالى وتسبيحه ، فيلزم الوقف على ما يعطي الدلالة الأخرى التي يقصدها القرآن الكريم .

الثاني : لا يؤثر فيه تغير موضع الوقف والابتداء على الوظيفة النحوية ، وإنما يكون له أثر دلالي خاص في سياق الحمد والتسبيح كالوقف المراد به التنزيه مثلاً .

- شاع في سياق الحمد والتسبيح من أبنية الأفعال بناء (فعل) ويتفق هذا الشيوع مع كثرة المعاني التي يرد عليها هذا البناء ، إذ قيل : إنه استعمل لمعانٍ لا تحصى .

- كثر مجيء بناء (فعل) في سياق الحمد والشكر وهو يحمل معنى الإعطاء أو المنح مرجع ذلك إلى أن الله جل وعلا هو الخالق والواهب والمعطي والمناح للنعم التي يجب على العباد أن يحمدوه عليها .

- تتبين أن مناط البحث عن أغلب معاني أبنية الثلاثي المجرد هو ما جاء من المعاني على هذا البناء ، وليس دلالة الوزن على المعاني ، أما دلالة الوزن على المعنى فغالبًا ما تكون في أبنية المزيد من الثلاثي وغيره ؛ إذ إن للبناء نفسه أثرًا في المعنى ويندرج ذلك تحت ما هو مشهور من أن الزيادة في المبنى تؤدي إلى الزيادة في المعنى .

- اتضح أن في تعدية الفعل بالهمزة في بناء (أفعل) الوارد في سياق حمد الله تعالى إشارة إلى أنه جل وعلا مصدر النعم والسبب الحقيقي فيها وله الفضل والمنة على عباده بها ؛ إذ أن هذا البناء يظهر للفاعل - وهو الله تعالى - فضل تمكن وقدره وإنعام .

- ذكر البحث أن تسمية فاعل الفعل المعدى بهمزة التعدية الفعل الحقيقي للحدث نحو : أذهبت زيدًا ؛ إذ إن (زيدًا) هو الفاعل الحقيقي للفعل (ذهب) لا يتعدى إطار البحث اللغوي أو المعايير اللغوية في نحو : أنزل الله القرآن مثلاً ، فليس القرآن هو الفاعل الحقيقي للحدث إلا على وفق هذه المعايير ؛ لأن حقيقة الأمر أن الفاعل الحقيقي في هذا الوجود هو الله تعالى .

- جاء بناء (فعل) في سياق الحمد والتسبيح حاملاً معنى التكثير والمبالغة ، ودلالته في سياق الحمد تكثير حمده تعالى والمبالغة فيه ، وفي سياق التسبيح الدلالة على كثرة تسبيح الموجودات وعدم انقطاعه من جهة ، والأمر بإكثار تسبيح الله عز وجل والمبالغة فيه من جهة أخرى .

- تبين أن ذكر الأوقات في سياق التسبيح لا يمنع من دلالة بناء (سبح) على كثرة التسبيح ؛ لأن هذه الأوقات مما يتكرر كل يوم ، أو أنها تدل على جميع الأوقات من اليوم الواحد .

- يبين البحث أن بعض المعاني التي تذكر لأبنية الأفعال لا يمكن أن تصح في حق الله تعالى ، منها بناء (تفعل) الذي يفيد معنى التكلف ؛ لأن التكلف على الله جل وعلا محال ، أو بناء (تفاعل) الذي يفيد حصول الشيء تدريجيًا فهذا في حقه تعالى محال أيضًا ، وأشار البحث إلى أن دلالة هذه الأبنية لا تخرج عن دائرة تنزيه الله عز وجل عما لا ينبغي له .

- دل المبني للمجهول في سياق الحمد على تعميم حمده تعالى وشموله ؛ إذ لا يتعلق الغرض بالفاعل - وهو الحامد لله تعالى - وإنما يتعلق بالحمد نفسه ، أما في سياق التسبيح فيدل على أنّ المهم ذكر تسبيحه تعالى أيّا كان المسبح .
- تبيّن أنّ القرآن الكريم أثر التعبير عن حمد الله تعالى بالمصدر (الحمد) دلالة على شمول حمده جل وعلا وعدم تقييده بزمان أو مكان أو شخص ؛ لأنّ الأصل في دلالة المصدر أن يكون معبراً عن الحدث المجرد ، فحمده تعالى أعظم من أن يُقيّد ، وذلك أبلغ في الحمد ، وفيه إشارة إلى ثبوت حمده تعالى ودوامه .
- تبيّن أنّ النعمة المستوية (الثابتة) بجملة الحمد ساعدت على تصوير معنى ثبات الحمد لله تعالى ، وأنّ النعمة الصاعدة صوّرت معنى التعجب الذي يعبر عنه بالتسبيح لله عز وجل .
- ذكر البحث أنّ ثمره الخلاف في (سبحان) ، أ هو مصدر أم اسم مصدر ؟ أنّ (سبحان) إذا عُدَّ مصدرًا فهو يدل على أنّ المسبح يخبر بأنه يسبح الله تعالى ؛ لأنّ المصدر نائب عن الفعل الذي اشتق منه وهو دال على الحدث الذي نتج عن المسبح ، في حين يشير (سبحان) - إذا عُدَّ اسم مصدر - إلى الحقيقة بعينها وهي تنزهه تعالى عمّا لا يليق به .
- لم يرد اسم الفاعل في سياق حمد الله وشكره وتسبيحه إلا دلّ على معنى ثبوت صفة الحمد والشكر والتسبيح في الموصوفين .
- تبيّن أنّ هناك مقابلة بين ثبوت صفات الله تعالى المعبر عنها باسم الفاعل وثبوت الحمد لله تعالى ؛ إذ كأن دلالة اسم الفاعل على الثبوت في سياق الحمد بمثابة التعليل لثبوت الحمد له ، فإن قال قائل : لم كان الحمد لله ثابتاً ، فالجواب هو أنه لما كانت صفاته تعالى ثابتة له دالة على أنه المنعم الدائم الثابت إنعامه على خلقه كان حمده على ما هو ثابت ثابتاً أيضاً .
- اتضح أنّ اسم الفاعل في سياق الشكر والتسبيح يدل على الاستمرار التجديدي بمعنى تجدد الشكر لله تعالى من عباده واستمراره وتجدد مجازاة الله لعباده بالثواب على الصالحات ، وتجدد التسبيح من الموجودات لله عز وجل واستمراره .
- إنّ ورود صيغ المبالغة في سياق الحمد يدل تارة على عظمة نعم الله تعالى مما يستلزم حمده عز وجل عليها ، وتارة أخرى يدل على استحقيقه تعالى للحمد ومثال ذلك أنّ القرآن الكريم أثر التعبير بصيغة المبالغة (الحميد) في وصفه جل وعلا إشعاراً باستحقاقه للحمد ، أما في سياق التسبيح فتبيّن أنّ لصيغة المبالغة أثراً في تأكيد معنى التوجه إلى الله تعالى وترسيخ وحدانيته وتنزيهه عن الشريك .
- ذكر البحث أنّ من لطائف التعبير القرآني أنه جاءت كلمة (غيب) مفردة مع وصف الله تعالى بأنه (عالم) في مواضع ورودها جميعاً ، في حين وردت كلمة (غيوب) جمعاً مع وصفه عز وجل بأنه (علام) وفي ذلك تناسق بديع وتناسب لطيف بين اسم الفاعل والمفرد من جهة وصيغة المبالغة والجمع من جهة أخرى .
- في جمع (الحامدين) و(الشاكرين) و(المسبحين) جمع مذكر سالماً دلالة على تجدد الإتيان بالحمد والشكر والتسبيح ؛ لأنّ في جمع المذكر السالم دلالة على الحدث .
- ذكر البحث أنّ جمع الكثرة في سياق الشكر دال على كثرة نعم الله تعالى على عباده ، وفي سياق التسبيح دال على شمول تسبيحه ودوامه .
- اتضح أنّ للسياق الأثر الكبير في تحديد المعنى الذي يفيد حرف الجر في سياق التعبير عن حمد الله تعالى وتسبيحه ، إذ قد يعتمد تغيير الدلالة على ما يدل عليه حرف الجر من معنى .
- كثيراً ما ورد حرف الجر اللام في سياق الحمد والتسبيح لله تعالى مفيداً معنى الاختصاص ، إذ يدل على اختصاص الحمد والتسبيح بالله تعالى .
- رجّح البحث أن تكون الباء الواردة مع تسبيح اسم الله عز وجل في قوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة : ٧٤ ، ٩٦) ، (الحاقة : ٥٢) للاستعانة ، وبين نكتة مجيئها في هذه الآية وعدم مجيئها في قوله تعالى : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى : ١) ولم يرتض قول من يرى أنّ المراد بالتسبيح في الآية الأولى الصلاة بدلالة الباء وأنّ المراد من التسبيح في الآية الثانية التنزيه المجرد بدلالة عدم دخول الباء .
- من أسرار التعبير القرآني أنه لم يرد نفي الولد عن الله تعالى أو نفي تعدد الآلهة في سياق الرد على المشركين وتنزيه الله جل وعلا عن الشريك إلا ودخل حرف الجر الزائد (من) الذي يفيد استغراق الجنس مما يكون أبلغ في تنزيه الله تعالى والرد على المشركين به.

- بيّن البحث أنّ دلالة حرف الجر (عن) في سياق التسبيح هو إفادته معنى بعده تعالى عما لا يليق به ، وكأنّ في استعماله في قوله تعالى مثلاً: ﴿ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (الصافات : ١٥٩) توكيداً لمعنى البعد عن النقص الذي يفيد التعبير بـ (سبحان الله).
- لم يرد الفعل (تعالى) في القرآن الكريم متعدياً بحرف جر سوى (عن) وذلك للجمع بين معنيين أساسيين في تنزيه الله تعالى هما بعده عما لا ينبغي له وهذا ما يفيد حرف الجر (عن) ، وعلوه عما جعل له شريكاً ، وهذا ما يفيد الفعل (تعالى) ، ولم يتعدّ الفعل (تعالى) بحرف الجر الأقرب لمعناه وهو حرف الاستعلاء (على) جمعاً بين هذين المعنيين في تنزيه الله جل وعلا .
- شاع مجيء الفعل من التسبيح دالاً على الاستمرار الزمني بمعنى استمرار تسبيح الموجودات لله تعالى ودوامه ؛ لأنه مما يتكرر من الحدث من جهة ومما يدل على صفة ثابتة من جهة أخرى .
- دل الفعل المضارع من لفظ الشكر على الاستمرار الزمني أيضاً وفيه دلالة على أنّ الشكر والتسبيح إنما ينفع بتكراره والمواظبة عليه في كل وقت .
- ورد فعل الأمر من الشكر والتسبيح دالاً على الزمن المطلق بمعنى أنه ذو دلالة زمنية دائمة غير مقيدة بزمن معين .
- كثر استعمال العطف بالواو في سياق الحمد والتسبيح ، ومن دلالاته تقرير النعم على العباد عند ذكرها من جهة والدلالة على أنّ حمد الله تعالى على هذه النعم هو جزء من نعمه على الحامدين من جهة أخرى .
- إنّ القرآن الكريم عندما يخبر عما اعتقده المشركون من أنّ الله تعالى اتخذ ولداً لا يستعمل كلمة (ولد) إلا نكرة ؛ لإفادة معنى التحقير ؛ لأنها توحى بأنّ ما قالوا به لا يجوز في حقه تعالى فهو الغني المطلق ، وذلك أبلغ في تنزيهه عز وجل عن الشريك.
- ساق البحث الأدلة الوافية لكون المراد من تنكير ليلاً في قوله تعالى ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (الإسراء ، من الآية : ١) هو تقليل مدة الإسراء ، مما يكون أبلغ في الإخبار عن عجائب صنع الله تعالى التي يُسبّح عند رؤيتها أو السماع بها .
- لم يعبر القرآن الكريم عن حمد الله تعالى إلا بتعريف لفظ (الحمد) وفي ذلك دلالة على أنّ جميع المحامد لله على جهة الاستغراق في حمده وأنّ الحمد مختص به على جهة الحقيقة وليس لأحد سواه فيه من شيء .
- ورد استعمال الاسم الموصول في سياق الحمد على نحوين : الأول : تكون صلة الموصول فيه مبيّنة للنعمة التي يحمد الله تعالى عليها .
- والثاني : تكون فيه الصلة مبيّنة للعلة التي استحق الله عز وجل بها أن يكون له الحمد.
- ذكر البحث أنّ الضمير (الهاء) في (سبحانه) لا يمكن أن يحمل على حقيقته في الدلالة على الغيبة ؛ لأنه لا يعني قولنا (سبحانه) أننا نسبح الله عز وجل حال كونه غائباً ، فهو تعالى حاضر في كل زمان ومكان .
- شاع استعمال الاسم الموصول (ما) في سياق التسبيح وتشمل دلالاته العاقل وغير العاقل فتكون أكثر شمولاً في الدلالة على أنّ كل شيء يسبح لله تعالى .
- ورد تقديم الخبر على المبتدأ في (له الحمد) في سياق الرد على منكري البعث والنشور ، فيكون أبلغ أثراً في الرد عليهم ، إذ يقطع عليهم أوّل وهلة أن يتوهموا الحمد لغيره تعالى ، ويدل على أن له لا لغيره الحمد فيزداد بذلك المعنى إثباتاً والردّ عليهم تقريراً .
- لم يرد التعبير عن حمد الله تعالى إلا بالجملة الاسمية ، ودلالاتها في ذلك أنها تفيد معنى ثبوت الحمد له جل وعلا .
- وردت الجملة الاسمية في سياق التسبيح عندما يذكر القرآن الكريم العلة المقتضية لتنزيهه عز وجل غالباً مما يكون أبلغ في التنزيه ؛ لأنّ الجملة الاسمية تدل على ثبوت هذه العلة وتحققها .
- زادت الجملة المعترضة الواردة في سياق الحمد والتسبيح المعنى تقريراً وتوكيداً وجعلت الكلام المسوق لحمد الله تعالى وتسبيحه أكثر حسناً وأبلغ دلالة .
- كشف البحث عن أثر عود الضمير في تغيير الدلالة في سياق الحمد والتسبيح .

- لم ترد جملة (الحمد لله) في القرآن الكريم إلا بإظهار لفظ الجلالة والغرض من ذلك تعظيم الله جل وعلا والاستلذاذ بذكره عند حمده .
- يبين البحث أنّ لفاتحة السورة أو خاتمتها بالحمد أو التسبيح ارتباطاً وثيقاً بغرض السورة وتناسباً بديعاً مع سياقاتها . .
- ذكر البحث أنه قد يتكلف في طلب المناسبة بين الآيات فتقصر دلالة الآية على معنى دون غيره تارة أو يدخل التأويل البعيد لتحقيق المناسبة تارة أخرى .
- اتضح من البحث أنّ عدد السور المختتم بالحمد مساوٍ لعدد السور المختتم بالتسبيح وهو ما يتفق مع ما ذكره المفسرون من أنّ عدد السور المفتحة بالحمد مساوٍ لعدد السور المفتحة بالتسبيح .
- رجّح البحث أنّ يكون المراد من الوجوه المعاني والمراد من النظائر الألفاظ .
- رصد البحث القرائن اللفظية أو السياقية التي دعت أصحاب كتب الوجوه والنظائر إلى أن يذكروا للحمد والشكر والتسبيح هذه الوجوه في القرآن الكريم ، وتبين من ذلك أنّ في ذكر بعض الوجوه تكلفاً واضحاً ، وأنه يمكن ردّ بعض الوجوه إلى بعض .
- كشف البحث عن أهمية السياق وأثره في تقديم بعض الألفاظ على الحمد أو الشكر أو التسبيح وتأخيرها عنه مبيّناً دلالة هذا التقديم والتأخير في سياق حمد الله جل وعلا وشكره وتسبيحه .
- وآخر دعواي أن الحمد لله ربّ العالمين .